مجموعة من المؤلفين

سلسلة الدراسات الفلسفية
47

مراجع الشخصية

الهو، الأنا والأنا العليا

ترجمة : وجيه أسعد

منشورات
وزارة الثقافة
ج.ع.س
دمشق
2002

مجموعة من المؤلفين

مراجع الشخصية

الهو ، الأنا والأنا العليا

دراسة في التحليل النفسي

ترجمة

وجيه أسعد

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٢

العنوان الأصلي للكتاب :

LE ÇA, LE MOI, LE SURMOI

La Personnalité et ses instances

مراجـــع الشخصية : الهـــو ، الأنا والأنا العليا : دراســـة في التحليل النفسي = Le ça, le moi, le surmoi / مجموعة من المؤلفين ؛ ترجمة وجيه أسعد . – دمشـــق : وزارة الثقافـــة ، ٢٠٠٢ . – ٣٥٢ ص ؛ ٢٤ سم . – (دراسات فلسفية ونفسية؛ ٤٧) .

١ – ١٥٤ أ س ع م   ٢ – العنـــوان   ٣ – العنوان الموازي

٤ – أســـعد   ٥ – السلسلة   مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع – ٢٠٠٢/٢/٣٣٧

دراسات فلسفية ونفسية

« ٤٧ »

مقدّمة

تجعلنا التجربة التحليلية نواجه باستمرار ضرورة مزدوجة: إيضاح الموادّ المجموعة في كل علاج بفعل إعداد نظري متماسك وحيّ، من جهة؛ واستخدام هذه الإنشاءات لتتيح مقارنة الملاحظات من علاج إلى آخر، من جهة أخرى.

ومنذ تاريخ نشوء التحليل النفسي قبل بداية القرن العشرين (بروير وسيغْموند فرويد، ١٨٩٥)، أوضح فرويد دور النزاعات المنسيّة في العمل الوظائفي النفسي لدى الهستيريين الذين كان قد رآهم في باريس لدى شاركو أو في نانْسي لدى برنْهايم. وما أمكن عندئذ له إلا أن يهجر أوصاف العمل الوظائفي النفسي،السويّ والمرضيّ، التي كانت رائجة حتى ذلك الزمن. فبعض هذه الأوصاف كانت ثمرة الاستبطان وكانت قد أفضت إلى دراسة ملكات الفكر، نتاجات الذكاء وحياة الانفعالات. وكان بعضها الآخر، المخصّصة لمقاربات الطب النفسي، يصف بعض خصائص التصرف لدى المرضى النفسيين.

١ ـ الحلم وظاهراته

والقول الحق مع ذلك أن فَرَض الأفكار غير الشعورية كان على الغالب مطروحًا طوال القرن التاسع عشر. ويروي مورو دو تور (١٨٤٥)، على سبيل المثال، مفعولات الحشيش ويكتب قائلاً: «بين اليقظة والنوم، ثمة حالة وسطى تشارك، دون أن تكون هذه أو ذاك على وجه الدقّة، في الاثنين على حدّ سواء وتكوّن **حالة خليطًا** بحيث يكون من المفيد جداً، في المسألة التي تعنينا هنا، أن نقيّمها تقييمًا دقيقًا.

«كل حياة فكرية لا تتوقّف بسبب النوم. ألا تكشف الأحلام، والرؤى، عن ضرب من الوجود الداخلي، عن حياة داخل الدماغ تغذّيها، إذا صحّ القول، انطباعات تلقّاها المرء سابقًا خلال حياة اليقظة، شأنها شأن الحياة الواقعية التي تتغذّى بانطباعات واردة من الخارج، يرسلها العالم الخارجي؟

«ونحن، في هذه الحالة الوسطى (التي كنا قد تكلمنا عليها للتوّ)، يمكننا أن نبلغ هذين الضربين من الانطباعات على حدٍّ سواء؛ وكوننا عاجزين عن تمييز أحد هذين الضربين من الآخر، فإننا نخلط بعضها ببعض، بحيث تنشأ التوافيق الفكرية الأكثر غرابة، وترابطات الأفكار الأكثر بعداً عن الانسجام، وبكلمة واحدة ينشأ ضرب من الهذيان الحقيقي».

وتبيّن هذه السطور القليلة أن مورو كان قد تصوّر الحلم وبنيته جيداً أنه يكافئ إنتاجات الجنون. وكان بيير جانه أيضًا قد افترض، في نهاية القرن التاسع عشر، حالات التفكّك الذهني لدى الهستيريين وتكلّم على السجلّ المزدوج للعمل الوظائفي النفسي.

وسنجد في تقرير اجتماع بونّيفال عن اللاشعور (هنري إي ـ ١٩٦٦) كثيراً من الإلماعات لأسلاف فرويد الذين عالجوا مبحث اللاشعور قبله، سواء في الأدب الرومانسي، الألماني على وجه الخصوص، أو في الطب النفسي. وحاول ل. شرْتوك، ر. دو سوسّور، أن يبيّنا قرابة أصحاب المغناطيسية والمنوّمين المغناطيسيين مع رواد اللاشعور وفرويد.

٢ ـ القوس المنعكس: بدايات الفكر الفرويدي

قارب فرويد، المزوّد بثقافة طبية وفلسفية متينة، علم الأمراض العصبية في المستوى الأول. وقاده التأثير الذي مارسه عليه عالما الفيزيولوجيا هلمْهولْتز وبروك إلى أن يحاول، عندما عُني بالعصابيين بفعل الضرورة والاهتمام معًا، فهم العمل الوظائفي النفسي بدءًا من نمط القوس المنعكس. والمثل الأبسط المذكور غالبًا معروف: إثارة قائمة من قوائم الضفدعة، التي نُزع دماغها، بقطرة من الخلّ

توضع على سطحها، تسبّب سحبها. وتسبّب، بعبارة أخرى، استجابة حركية تنشد الهروب من الإثارة. فهذه التجربة التي تعبّر عن مبدأ كلّي، مبدأ الهروب من الألم، كان بوسعها ولا بدّ لها من أن تُطبّق على الحياة النفسية، سواء أتت الإثارات من الخارج أو الداخل. ولم يكن ثمة بدّ من افتراض جهاز نفسي يُدخل الفكرة والانفعال، والآثار التذكّرية المسجّلة، ليكون بالإمكان تطبيق المبدأ الكلّي. ويمكننا أن نتّفق مع هـ. ريكور (١٩٦٥) في الاعتقاد أن بناء الجهاز النفسي ينشد باستمرار، في رأي التحليل النفسي، أن يوضّح بالميتاسيكولوجيا الفرويدية، التفكّر في تطبيق نظرية القوس المنعكس.

وقراءة مراسلات فرويد وفليس (فرويد، ١٨٩٢، **ولادة التحليل النفسي ـ ١٩٥٠**) لا يمكنها إلا أن تعزّز هذا الانطباع. وكذلك الأمر بالنسبة لـ **المخطط الإجمالي لسيكولوجيا علمية** (فرويد، ١٨٩٧)؛ إنها محاولة أرسلها فرويد إلى فليس، وليست مخصّصة للنشر، جديرة بأن تطلعنا على نقطة انطلاق فرويد وعلى القفزة الإيبستيمولوجية التي جعلته يبني الجهاز النفسي أول الأمر على النمط العصبوني للعمل الوظائفي الدماغي، لينتقل إلى النمط السيكولوجي: نمط الميتاسيكولوجيا.

٣ـ أصالة النهج الفرويدي

كان فرويد، من جهة أخرى، ذا ثقافة فلسفية وأدبية غنيّة استخدمها استخداماً موفّقاً خلال حياته كلها. وكان على أي حال قد استطاع أن يقدّر أن كثيراً من الإنتاجات الفنية، لا سيّما الأدبية، كانت قد أتاحت للمبدعين والشعراء أن يبيّنوا لنا أن فكر الإنسان ما كان بوسعه أن يُفهم من خلال ما كان يدركه ويلتقطه بطريقة تفكيره وعمله وأن يعبّر عن نفسه بهذا الصدد كعلماء النفس في زمنه.

وكان إرث فرويد الثقافي، الذي كان يصله بالموروث اليهودي، قد أغناه كثيراً، ولكنه كان قد وضعه باستمرار في وضع نزاعي إلى حدّ كبير ليفسح لنفسه مكاناً في فيينا المعادية.

ووجب على عبقرية فرويد في هذا السياق، دون شك، أن تعدّ نفسها الموضوع الأساسي لبحثها الخاص، وأن تقيم مع نفسها حواراً باسم المخاطَب، إذ تخلّت على هذا النحو عن السيكولوجيا التقليدية التي أفضى الاستبطان فيها إلى وصف باسم الشخص الغائب. والواقع أن فرويد كان قد فهم بالتدريج أن الذكريات التي كان الهستيريون قد أطلعوه عليها، تحت التنويم المغناطيسي أول الأمر، ثم بطريقة ترابط الأفكار غير الحرّ، كان مصيرها أنها استهوته، بفعل «ارتباط مزيّف» به (س. فرويد ـ **دراسات في الهستيريا** ـ ١٨٩٥): سُمّيت التحويل فيما بعد.

وإذ لجأ فرويد إلى ترابط الأفكار الحر فيما يخصّ نتاجاته الحلمية، وإذ مارس أول تحليل نفسي، «تحليله الذاتي»، فإنه استطاع أن يلاحظ انعدام سمة اللياقة في الأحداث التي كان يعتقد أنه اكتشفها في طفولته، وفي التجارب الخالية من الحسّ السليم، تجارب الغواية، التي كان يظنّ أنه كشف عنها.

واعتقد، خلال إعادة نظر راق لبعضهم تسميتها ممزّقة، أن عليه أن يهجر نظرية الصدمة المثيرة للمرض والإغراء، التي كان قد افترض أنها سبب النزاعات المنسيّة والمكبوتة لدى الهستيريين. وخرج من هذا العمل الطويل **تفسير الأحلام** (١٩٠٠) حيث يبين التوازن الذي سيَظلّ توازن التحليل النفسي: العيادة والنظرية سيؤدّيان فيه نصيباً متساوياً بين مأساويّ النزاعات الشخصية والعمل الوظائفي للجهاز النفسي.

٤ ـ العمل الوظائفي للجهاز النفسي

لدراسة الجهاز النفسي، جزئيّاً على الأقلّ، إنما خصّص هذا الكتاب الذي يجمع نصوص فرويد، ومعاصريه وخلفائه. وكتب مبدع التحليل النفسي على الغالب أن العمل الوظائفي النفسي يمكنه أن يُعرف من خلال مقاربة ثلاثية:

ـ **دينامية**، تلك التي تنشد دراسة النزاعات اللاشعورية، أي الدراسة التي تمنح إنتاجاتنا **معنى**؛

ـ **اقتصادية**، تلك التي غرضها أن تحدّد **القوى** المتواجهة وقوة المعنى؛

ـموقعية، تلك التي تصف مراجع العمل الوظائفي النفسي.

وكان هذا المنظور الثالث أساسيّا في اختبار النصوص المقترحة. إنه بالتأكيد المنظور الأكثر أصالة في الوصف الميتاسيكولوجي للعمل الوظائفي النفسي.

ومن المناسب دون شك أن نتوقّف هنا عند هذا المنظور الموقعي، الذي يمكننا القول إنه طوبوغرافي، لنبرز قيمته الاستعارية، القيمة التي تحدّد مكانًا نفسيًا.

واعتدنا على أن نستخدم هذه الإحالة إلى مكان تجري فيه الظاهرات النفسية من الناحية الزمنية: هذا التصور بواسطة تخطيطية أمر لا غنى عنه لتقديم نظرية انطلاقًا من اللحظة التي لا يُكتفى فيه بما يُلاحظ على مستوى السلوك وما يُكتشف على مستوى التفكير. وسيرى القارئ أن النمط الأول، («الموقعية الأولى») موصوفة بوضوح في **تفسير الأحلام** (س. فرويد ـ ١٩٠٠). ويقارن فرويد، في الفصل السابع(١) من هذا الكتاب، المخصّص لنظرية الحلم ـ عرض أساسيّ لفهم العمل الوظائفي للاشعور، وجذور الحياة الاستيهامية ونموّ الطفل ـ ، تلك التخطيطية التي يقترحها بالتخطيطية التي تصف نقاطًا متخيّلة لشرح العمل الوظائفي للعدسات البصرية: الواقع أن ثمة افتراضًا، في النظرية الفيزيائية، مفاده وجود بؤرة وصورة مسقطة. وتلك هي المقارنة التي، في رأي فرويد، تسوّغ التفكّر الموقعي في الجهاز النفسي.

ولنتذكّر هنا، لنوضّح هذا الحديث توضيحًا أفضل، أن فرويد خارج الآن من مجرّد وصف الظاهرات اللاشعورية أو غير الشعورية. فأن تكشف الأفعال الخائبة، على سبيل المثال، عن الميول المتناقضة التي تجعلنا نفكر، نتكلّم أو نتصرّف، تلك مسألة يتّفق عليها الجميع حاليًا. ولن يكون التسليم بسهولة أن أعراض المريض النفسي وأحلام كل فرد منا تعبّر عن شيء يختلف عما يسمّيه

(١) فصل كررّناه جزئيًا في الفصل الأول من الكتاب الحالي.

الحسّ المشترك سخافات، أمراً بعيداً من الناحية الزمنية. ولكن الكلام على اللاشعور لا يكمن فقط في أن ننسجم مع واقع مفاده أننا لسنا بالضرورة نشعر بكل أفكارنا، وفي أن نلتمس سجـلاً لاشعورياً، حيث يُرفع هذا اللاشعور إلى مرتبة الاسم بدلاً من الصفة(*).

٥ ـ إرصان الحلم

يصف التحليل النفسي منظومة لاشعورية لها أسلوبها في العمل الوظائفي المحدّد الآن في كتاب **تفسير الأحلام** وقبله في **المخطّط الإجمالي**. وسيبيّن فرويد أن طريقة اللاشعور ليعبّر عن نفسه في الحلم هي استخدام «عمل» حيث تتدخّل آليات خاصة: التكثيف، الانزياح والقابلية للتمثيل بالصورة. فوصف إرصان الحلم على هذا النحو إنما هو التأكيد أن ثمة أسلوبين للعمل الوظائفي الخاص بالجهاز النفسي، النظام الأوّلي الموضوع في ظلّ السجلّ الخاص بمبدأ اللذة والنظام الثانوي حيث يحلّ التفكير محلّ تفريغ الإثارة المباشر. وهكذا يتمايز الشعور واللاشعور بالتبادل.

وتقتضي العلاقات التي تعقدها هاتان المنظومتان تخطيطية شارحة، هي التخطيطية المرسومة في الفصل السابع من **تفسير الأحلام** الذي عرضنا منه ملخّصاً في كتابنا الحالي.

ولكن الأمور ليست بسيطة: ينبغي في الواقع أن نشرح لماذا لا تسبّب الإثارة الخارجية (ضجّة، نور، إلخ)، أو الداخلية (عمل الهضم، كما تقتضي الفكرة الشعبية التي تعزو الكابوس إلى وجبة ثقيلة جداً)، يقظة النائم انطلاقاً من تفريغ عضلي أو غيره، ولكنها تقود إلى بناء سيناريو الحلم.

وهنا يتدخّل مصدران نظريان نذكّر بهما على نحو موجز:

١) اختزن الرضيع الصغير جداً آثار تجربة اللذة، مثلُ ذلك الأثر الذي

(*) Inconscient صفة بالأصل وأصبحت٨اسماً L'inconscient «م».

يثيره انتقال الحليب عبْر التجويف الفموي الذي يشمل الفم والجزء العلوي من البلعوم وكذلك يديه المتعلّقتين بأمه المرضعة. وهذه المنطقة المحيطة بالتجويف الفموي ستتيح له، بفعل عملها الوظائفي، إمكانًا مفاده أن يُحدث لذة ذاتية الغلْمة بفعله وحده. وبوسعه عندئذ أن ينشّط مجدّدًا أثر هذه التجارب من اللذة وأن يعزوها إلى أم كان قد وظّفها قبل أن يدركها ويعرفها. وهكذا فإن جوعه أول الأمر، ثم الرغبة في أن يُنتج تجربة الإشباع مجدّدًا، هما اللذان يجعلانه، **يرغب** في حضور الأم. فغياب الثدي يسبّب **الكرْب**، سيكتب فرويد قائلاً في **ثلاث محاولات في نظرية الجنسية**.

٢) مثّل هذه الملاحظات، الأساسية، ولكنها المعروضة هنا على نحو إجمالي جدًا بفعل الضرورة، تشرح أن الآثار التذكّرية يمكن أن تُنشّط مجدّدًا لتتيح هلوسة اللذة وهلوسة الموضوع التي ستلتحق بإدراك هذا الموضوع الذي سيكون ممكنًا أن يكون لدى الفرد.

٦ ـ مشتقّات اللاشعور

نقول بعبارة أخرى:

١) مشتقات اللاشعور يمكنها أن «تشقّ» سبيلاً إلى حدّ نتوهّم أننا ندركها، أي أن نتعرّف الموضوعات الحيّة (وغير الحية عند الاقتضاء) في محيطنا: إنها تتيح ما نسمّيه الإدراكات التي ستكون أكثر دقّة بحسب نموّ الطفل الصغير.

و «شقُّ» السبيل هذا يفترض قوة، ويفترض أيضًا دربًا ينبغي سلوكه، دربًا سيكون، وإن كان متخيّلاً، أفضل استعارة لبيان أن مشتقات اللاشعور ينبغي لها أن تمثّل للشعور أنها ممكنة التصور على وجه الدقة.

٢) لا يمكن أن يفوتنا على هذا النحو أن نلاحظ وجود حاجز مزدوج تتجمّع بين حدّيه المادة قبل الشعورية التي يمكنها أن تؤوي ما يتجاوز حاجز الكبت (رغبات الحلم، الرغبات الطفولية المكبوتة)، وما يمكنه أن يغزو الشعور، إذ يمزج في العادة الإدراكات، والبقايا النهارية، وعناصر الإثارة الليلية في الحلم.

٣) تساهم مشتقات اللاشعور هذه، خلال حياة اليقظة، في إحداث إدراكاتنا: إن الإثارة هي التي تتيح أن يتزيّن بالصور ذلك الواقع الداخلي والإدراكات حيث تتدخّل بالتأكيد التجربة التاريخية للعلاقات بالمحيط، وبالأم على الوجه الأخص، بوصفها كذلك، وبوصفها أيضًا تفرز واقعًا في علاقتها مع لاشعورها.

٤ ـ هذه الطوبولوجيا هي دحض قويّ للواقعية السيكولوجية كما كان الاستبطان يصوّرها. فالشعور لا يقابل اللاشعور في هذه التخطيطية، بل تقابله منظومة **الإدراك ـ الوعي**، وفق الآليات التي ذكّرنا بها للتوّ.

ذلك هو الإرصان المؤسّس للموقعية الفرويدية الأولى التي هجرها فرويد بعد أن استأنفها في تعاقب من الأعمال الميتاسيكولوجية التي لم تكن قد جُمعت قط، على الرغم من مشروعه، تحت عنوان **اللاشعور**، والتي كان فرويد قد حرّرها خلال الحرب العالمية الأولى. واقترح في أعقاب هذه الحرب، مع **المحاولات** التي كتبها، تلك الموقعية الثانية، أي نسختها «البنيوية» التي ستكون موضع البحث فيما بعد.

٧ ـ اللاشعور وقبل الشعور

تُعنى الأعمال المعاصرة، على الرغم مما يمكن أن يوجد من المنطق في عدم استخدام النسخة الأولى من الموقعية كما يقترح فرويد، بـ **قبل الشعور**، المحلّ الذي تكون الامتثالات والحالات الوجدانية الجاهزة للارتباط «مرتبطة» به. ودراسة ظروف هذا الارتباط ذات أهمية خلال النموّ: يرى المحلّلون النفسيون للأطفال في هذا الارتباط أسلوب تنظيم الأعراض العصابية التي تنتمي إلى تغيّرات النموّ. ويبيّن بعضهم أهميته في مجال علم الأمراض النفسية الجسمية. والواقع أن وصف الموقعية الأولى ينطوي على تشابك وثيق بين الموقعية والاقتصاديّ. ويعزو اللاشعور من جديد، في الموقعية الثانية، صفة إلى بعض جوانب الأجهزة الموصوفة، لا سيّما إلى الأنا. ولا يقلّل احتياز الوعي، الذي يتجاوز قبل الشعور

ويجد تطبيقه في العلاج، من الأهمية المرضية السيكولوجية لما تقودنا الموقعية الأولى إلى أن نأخذه بالحسبان: ظاهرات التقدّم والتراجع التي تجري فيه وتوضّح بالمثال تلك العلاقات بين اللاشعور وقبل الشعور.

ويظلّ تحليل المعطيات التي يجمعها التحليل النفسي والملاحظة، كما فعلنا للتوّ، إجماليًا إلى الحدّ الأقصى بالطبع.

والبناء الميتاسيكولوجي كلّ لا يتجزّأ. وينبغي أن نحذر من أن نضفي الامتياز على جزء منه تحت طائلة أن يفقد تماسك المجموع توازنه. وتنطوي حركة التوحّدات المبكّرة، التي سنعود إليها، على حركة دائمة من الخارج نحو الداخل ومن الداخل نحو الخارج. إننا تعلّمنا على أي حال أن رفض الإثارات المؤلمة يُسهم إسهامًا واسعًا في بناء الواقع كما يُدرك.

وسيكون، في الموقعية الثانية، نشوء جهاز ينبغي له أن يوفّق بين مقتضيات الداخل والخارج، موصوفًا بكل دقة: إنه الأنا. وتختلف هذه الأنا اختلافًا كبيرًا عن منظومة الإدراك ـ الوعي التي يُشبّهها بعضهم بالأنا على نحو سهل جداً.

٨ ـ الأنا في صيرورة

كان فرويد يذكّر أول الأمر، في **الأنا والهو**، أن الموقعية الأولى كانت تقابل تمامًا وصف منظومة من المراجع حيث كان بوسع الجانب الاقتصادي والجانب الدينامي من العمل الوظائفي النفسي أن يتصرّفا. والمستخلص من محاولة **الأنا والهو**، الذي سنقرأه، يبيّن القوة (وجهة النظر الاقتصادية) التي تسدّ منفذ الكامن (قبل الشعور) والمكبوت (اللاشعور). والنزاعات (وجهة النظر الدينامية) تحدّد التوظيفات المضادّة التي تقوم بوصفها قوى مضادّة للتعبير عن الدوافع. فثمة، من وجهة النظر هذه، ضرب من التكافؤ بين الشعور وما سيصير الأنا. ولكن هذه التوظيفات المضادة، هذه التكوينات الارتكاسية حيث يتحوّل التوظيف إلى توظيف للنضال ضد الدافع، لا سيّما تحت ضغط البيئة، تعبّر عن نفسها في العلاج بواسطة مقاومات من أصل لاشعوري في معظمها.

ويمكننا أن نستنتج من هذا الوصف ضرورة تكوين مفهوم لمرجع، لجهاز صائر إلى أن يصون توازنًا بين ضغط الإثارة، المتحوّلة إلى ليبيدو، ومقتضيات الواقع الخارجي. والعلاقات بين ضغط الإثارة ومقتضى الواقع أخذناه بالحسبان: إنها ستكوّن المرجع الذي سيُسمّى الأنا وثمة جزء منها لاشعوري كما نرى. وستتيح هذه الأنا للامتثالات اللفظية المرتبطة بامتثالات الكلمات أن تتحوّل إلى سيرورة لاشعورية من الاستيهامات أو الإدراكات.

٩ ـ الأنا والهو

كل ما هو مكبوت، كل ما هو إثارة غير ممثَّلة، كل ما هو دافعي، كل ما نعيشه، نحن الناس، يتمايز في جهازٍ، الهو، لاشعوري بصورة كلية.

وهذا اللفظ، Es بالألماني، كان قد اقترحه غروديّك الذي كان يريد، وسنرى ذلك، أن يعدّ الدوافع، التي تحرّكنا و «نعيشها» دون أن نعرف معناها ولا قوتها، واقعًا مطلقًا في ذاتها.

وهكذا تكون الأنا، المتمايزة انطلاقًا من الهو أو خلال الزمن الذي يتمايز فيه الهو (هذا المشكل غير محدّد بوضوح في النصوص الفرويدية)، لاشعورية إلى حدّ واسع.

أضف إلى ذلك أن فرويد كان قد حدّد من قبل، عام ١٩١٤، في كتابه **النرجسية:مدخل**، دور «الوعي». وسيرث جزء من الأنا وسيستعيد عناصر إضفاء الصفة المثالية المسقطة على الأبوين ويكوّن المرجع الثالث، الأنا العليا، الذي سنعود إليه لاحقًا. وهكذا تتحدّد بنية الجهاز النفسي في الموقعية الثانية: إنه تنظيم ثلاثي.

والاستعارة المكانية، حيث الزمان والمكان يُتصوّران على مستوى واحد، التي تتيح أن ترسم، كما في نظرية الحلم، درب الإثارات، لم تعد مناسبة، مع أن فرويد ما يزال يستخدم المقارنة مع المنظار في **موجزالتحليلالنفسي** (١٩٣٨). إنه يقترح الآن نمط الحويصلة، الهو، التي منها تتمايز الأنا والأنا العليا، وكلتاهما لاشعوريتان إلى حدّ كبير.

١٠ ـ نظرية الدوافع

قاد وصف الهو والأنا العليا س. فرويد إلى تعديل نظريته في الدوافع وإلى أن يجعل الثاناتوس مقابلاً للإيروس. وسنرى الأهمية التي أولاها بعض المحلّلين النفسيين من المدرسة الانغليزية أو المدرسة الأمريكية، في منظورين مختلفين اختلافًا عميقًا، دافعَ الموت المرتدّ نحو الخارج.

ولكن المسألة الكبيرة، ولنقل أول الأمر، إنما هي الأنا، خلال عدة عقود من السنين. وسندرس نشوء هذا العضو، عضو التوازن بين مقتضيات الدوافع ومقتضيات الأنا العليا. والوظيفة التكييفية للأنا بالنسبة لمقتضيات الواقع ستكون موضع إعلاء الشأن من جانب المحلّلين النفسيين الذين يصلون إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن غادروا ألمانيا. ويستأنف فرويد بعض أفكار أبراهام وفورنْزي فيما يخصّ الدمج الافتراسي والاجتياف التمثّلي ليدرس الأسس المبكّرة للأنا. ولكن مجموعة الأجهزة لا تتكوّن إلا بالتوحّدات الثانوية والمتمايزة التي تنتظم عند انحسار التطور الأوديبي، عند مدخل مرحلة الكمون.

وهذه المرحلة، مرحلة الكمون التي تضفي طابعها بقوة على الجنسية الثنائية الطور الخاصة بالإنسان، نتاج الكبت ذي الجذور في تطوّر النّوع، ولكنه الذي يدوّن مفعولاته في كل فرد منا. والأنا العليا، نتاج الإرث الجماعي، والتربية، ولكنها نتاج المازوخية الأساسية أيضًا المرتبطة بدافع الموت، هي العامل الأساسي في هذه المرحلة. وإذا كانت الأنا تتمايز في زمن متأخّر، فإن بكورة بعض الآليات ستكون مؤكدة على الغالب: مثال ذلك أنها تسهم في إجلاء ما هو شاقّ، مؤلم، وتجعل منه الواقع الخارجي، وتلك آلية سيسمّيها الكلينيّون التوحّد الإسقاطي.

ولهذه الإرصانات التكوينية البنيوية وقْع تقنيّ كبير. فلنتذكّر، تحت طائلة التبسيط بعض الشيء، أن فرويد تمنّى أول الأمر أن يفضي التحليل النفسي إلى ضروب من «احتياز الوعي» بالمعنى التام للعبارة. فما كان لاشعوريًا ينبغي أن

يصبح شعورياً. وليست مشتقّات اللاشعور معروفة في الواقع إلا من خلال نقض المقاومات التي يمثّل الكبت نموذجها الأكبر. وينبغي للأنا أن توسّع سلطانها وتجعله أكثر مرونة بفضل علاج التحليل النفسي. وعبارة فرويد التي كتبها بالألمانية يمكننا أن نترجمها أخيراً بالعبارة التالية: «ما كان الهو ينبغي أن يصبح الأنا».

وهذه التعديلات التقنية أبرزت إبرازًا جديداً مفهوم الدفاع الذي استخدمه فرويد آنفًا، عام ١٨٩٥، في مقالاته المعنونة «أعصبة الدفاع النفسية» (١٨٩٦). وكان و. رايخ قد أدرك أهمية هذه المقالات (**تحليل الطبع** ـ ١٩٣٣). ومنحتها أنّا فرويد (١٩٤٩) وصفًا منهجيًا في كتابها **الأنا وآليات الدفاع**.

ووصف فرويد، بعد بضع سنين (١٩٢٦)، آليات أخرى للأنا غير آليات الدفاع؛ وكان المقصود هو انشطار الأنا الذي رآه عاملاً في الأعصبة، لا سيّما في الانحرافات والذهانات.

ويقترح عليك هذا الكتاب، أيها القارئ، أن تقرأ أعمال معاصري فرويد وخلفائه فيما يخصّ الأنا. ونحن نقترح التصنيف التالي لفهم هذه الأعمال:

١ ـ الدراسة التكوينية للأنا

ثمة تيّار كامل من التحليل النفسي منذور للدراسة التكوينية للأنا. وبوسعنا، اعتماداً على هذا التيار، أي بإدارة أنّا فرويد، إدارتها الملهمة، ثم اعتماداً على المدرسة البنيوية الأمريكية، التي يمثّلها، من جهة، هـ.هارتمان، إ. كريغ، ر. لوونشتاين، ومن جهة ثانية، يمثّلها ر. سبيتز، أن نزعم أن التحليل النفسي شاء لنفسه أن يكون أفضل نمط لعلم النفس التكويني، على الرغم من أن هذا التعريف إجمالي ولا يُنصف الأعمال المتعذّر إحصاؤها لهذه الجماعة. والدعاوى(*) الرئيسة لهذه المدرسة هي التالية:

آ) ـ تتمايز الأجهزة الثلاثة للنفس في وقت متأخّر وخلال زمن طويل،

(*) دعوى: Thèse.

ويتدخّل العالم الخارجي بقدر ما تتدخل النزاعات الداخلية. وتؤدي ظاهرات النضج أيضًا دورًا في هذا النموّ حيث تكوّن ملاحظة الطفل المباشرة أداة لا بديل لها في المعرفة. ويُسهم مقال إي. هانْدريك، الذي سنقرأه فيما بعد، في هذا المجال، بمنظورات أصيلة، عندما يلاحظ هذا المؤلف على سبيل المثال أن دلالة استيهامات الطفل تتغيّر خلال نموّه.

ب) ـ يقدّم لنا هذا المؤلف نفسه، إذ يلحّ على وظيفة السيادة لدى الأنا، مثلاً على إبراز وظائفها التكييفية. وشاء بعض المؤلفين أحيانًا أن يروا في إلحاح المؤلفين الأمريكيين من مدرسة هارتمان على وظيفة السيادة لدى الأنا نتيجة من نتائج تأثير الحضارة الأمريكية في هؤلاء المهاجرين القادمين من ألمانيا. إنها نظرة سطحية تمامًا لا ينبغي لها أن تعفينا من أن نقرأ قراءة منتبهة هذه الأعمال التي يقدّم لنا منها مقال هانز هارتمان، الذي اخترناه لهذا الكتاب، فكرة عنها. واستمرّت أنّا فرويد تعمل في هذا الاتجاه عملاً صداه موجود على وجه الخصوص في كتابها **النموّ السويّ والمرضيّ**.

جـ) ـ نقول أخيرًا إن هذه الجماعة من المحلّلين النفسيين يرتبط اسمهم بوصف النزاعات بين المنظومات وداخل كل منظومة منها، وبوصف الوظائف المستقلّة للأنا. ويبدو أن الإحالة إلى دافع الموت غير مجدية في رأي غالبيتهم؛ إنهم لا يتكلّمون مع ذلك على التضمين العدواني لليبيدو فحسب، ولكنهم يتكلمون حتى على غرائز عدوانية. وهم يأخذون بالحسبان أيضًا، إذ يستندون إلى النظرية الفرويدية في نزع الصفة الجنسية أو نزع الصفة الليبيدية ليصفوا تغيّر الهدف، على سبيل المثال في التصعيد، «نزع الصفة العدوانية»، وبالتالي، يأخذون بالحسبان قطاعات من الأنا تُسهم في وظائف التكييف لديها، بوصفها في الوقت نفسه قطاعات تخلو من النزاعات. فالحاجة إلى التكامل بين التحليل النفسي وعلم النفس، التي وجد هؤلاء المؤلفون أنفسهم في مواجهتها، ربما تشرح الأوصاف التي يبدو أنها تقود إلى دراسة السيكولوجيا التحليلية النفسية للأنا أكثر مما تقود إلى دراسة ميتاسيكولوجيا الجهاز النفسي كما رسمها فرويد.

وأيًا كانت النظرة النقدية التي ليس بوسع المرء أن يمتنع عن أن يعارض بها هذه التصوّرات، فإن قيمتها التكوينية تظلّ كبيرة عندما يكون المقصود فهم نموّ الطفل وصعوباته.

٢ ـ أعمال فورنْزي

ثمة تيّار معارض كل المعارضة وسم بسمته تاريخ التحليل النفسي، مع أنه ينتمي أيضًا إلى هذه الاستمرارية التكوينية. إنه ينشد أن يرسم الخطوط الكبرى على نحو أبكر كثيرًا للعمل الوظائفي لجهاز نفسي يتمايز تمايزًا مبكرًا جدًا.

وسنرى نشوء هذا الجهاز لدى س. فورنزي الذي يوضّح مجدّدًا، في المقال المذكور في هذا الكتاب، تلك العلاقات بين الهلوسة والعالم الخارجي الذي تؤثّر فيه الفكرة أو التفريغات الحركية. وتكشف دراسات حديثة جدًا (جـ. كسْتنبرغ ـ ١٩٧٦) عن القيمة الحدسية الكبرى لهذه الفروض، عندما يبيّن هذا المؤلف الأخير أن إيقاعات الرّضيع الحركية هي الشهادة الفضلى على التشابكات مع أمه. فالاجتياف التمثّلي ممكن، كما يقول فورنْزي، إذا كان العالم الخارجي، أي الأم، يستجيب لهذه التفريغات التي تتّخذ معنى لهذا السبب.

وتعترف ميلاني كلاين، فيما يخصّها، بالدين الذي تدين به لفورنْزي ولكارل أبراهام على حدٍّ سواء.

٣ ـ الجدال بين ميلاني كلاين وأنّا فرويد

كل ما يُحدث التوتر ويكون مسقَطًا على الموضوع يكوّن الأنا في رأي كل الذين تبنّوا آراء ميلاني كلاين (إنه موقف يختلف جزئيًا عن موقف فرويد الذي كان يرى في هذا الإسقاط أصل الواقع الخارجي). كذلك الإدراك الأول ثمرة دمج الثدي.

وتفترض هذه النظرية فكرة استمرارية تكوينية تختلف اختلافًا كبيرًا عن الفكرة التي وصفتها المدرسة التي سنسمّيها مدرسة أنّا فرويد:

آ) ـ لأنها تستند إلى بعض الإحالات إلى النضج، ولكنه استناد لا يخلو

من بعض السذاجة (وهي فكرة يستأنفها في أعماله كارل أبراهام الذي كان يرى أن التنظيم الدافعي يتعدّل جزئيًا مع تقدّم النموّ: كان يصف على سبيل المثال مرحلة سادية فموية تعاصر ظهور الأسنان).

ب) ـ لأن التوحّدات المبكّرة تحدث مع موضوع جزئي وفق نظام الاجتياف والإسقاط الذي أشرنا إليه. إنه نظام لا ينطوي على انشطار الأنا، وفق وصف فرويد، وصف إنكار الخصاء، ولكنه ينطوي على انشطار الموضوع إلى طيّب ورديء، وذلك ما تسمّيه ميلاني كلاين وضعًا ذهانيًا، الوضع الفصامي ـ الذهاني الهذائي (بارانويا).

جـ) ـ عندما يتعرّف الطفل، في رأي ميلاني كلاين، دوام الموضوع الأمومي، تقوده استيهاماته للموضوع الرديء الواجبة الإسقاط إلى استيهام إصلاح الموضوع الكلي، وتلك مرحلة تسميها ميلاني كلاين الوضع الاكتئابي.

وهكذا تولد الأنا الأولى من هذه الميول المتناقضة، التي تعبّر عن صراع دافعيْ الحياة والموت، إلى أن ينتظم القلق في اتجاه الأعراض العصابية.

ويندرج عمل فيربرْن في منطق هذا الوصف الذي يمنح الموضوع المكانَ الأولي. وفي رأيه أن مفهوم الدافع يصبح غير مجدٍ في نهاية المطاف، ولا المفهوم المرتبط به، أي آلية التكرار الذاتية. فالموضوع، جيداً كان أو رديئًا، موجود في الواقع ومستدخَل. والأنا العليا (دوافع الموت، كانت ميلاني كلاين تقول) موضوع رديء في الواقع. والأنا نتاج هذا الأيْض ذي العلاقة بالموضوع، والهو هو الجزء المكبوت من الأنا. والواقع أن الكبت لا يعمل ضدّ الدوافع، بل ضد الموضوعات الرديئة أو الأجزاء من الأنا التي أسهمت في صياغتها.

وبوسعنا أن نقول إن الهو (الذي يسمّيه فيرْبرْن الأنا الليبيدية) ليس له أية فائدة في هذه النظرية، حيث لا تؤخذ بالحسبان خصائص الليبيدو.

وإذا كان المرء يحاول أن يفحص سلسلة القرابة بين هذه الدعاوى، فإن بوسعه أن يتابع الاستمرارية التي تمضي من فورنزي والمدرسة الهنغارية إلى

بعض المؤلفين المعاصرين. ويتكلّم بالان، على سبيل المثال، على تعلّق بالموضوع دفعة واحدة وعلى العاطفة الإقيانوسية التي يفسح لها المجال في إعادة البناء التحليلي النفسي للعلاج. ومن هذه العاطفة ـ ومن علم دراسة السلوك الحيواني العفوي (الإيثولوجيا) ـ إنما ينطلق جون باوْلبي ليصف تصرّفات **التعلّق** (جون باولبي ـ التعلّق). وسيصف إمْر هرْمان، في بودابست، غريزة بنوّة تتجلّى بسلوك التعلّق والتشبّث.

فلتآكل مفهوم الدافع، كما نرى، نتيجتان متباينتان ولكنهما لا تتناقضان إلا في الظاهر: الموضوع يحتلّ المكان الأول لدى الكلاينيين؛ إنه موجود دفعة واحدة وهو ثمرة صراع الغرائز، أي الميل إلى الإسقاط وإلى الاجتياف. أما لدى أتباع المدرسة الهنغارية، فإن التعلّق موجود دفعة واحدة ويكتّل التنظيم الدافعي الذي يبني الهو والأنا.

٤ ـ تطوّر الأنا العليا

سنحاول أن نيسّر قراءة النصوص المنشورة الخاصة بالأنا العليا، إذ نعرض أيضاً الاتجاهات التي ترتسم فيها.

١ ـ تطوّرت أفكار فرويد عن الأنا العليا كثيراً. ورأينا آنفًا أن فرويد، في دراسته النرجسية (فرويد ـ **النرجسية:مدخل**)، كان يصف إسقاط النرجسية الأولية (والثانوية) على الأبوين، وتلك حركة ستكون موضع اعتراف أنها جانب من جوانب التوحّد المبكّر لسببين: من جهة، في إطار إشكالية المُلْك والوجود، تعبّر إشكالية «أن يكون الطفل مثُل» عن التخلّي عن المُلْك وتنطوي مسبقًا على مفهوم أخلاقي أوّلي بواسطة درب إضفاء الصفة المثالية؛ ومن جهة ثانية، في سلسلة التوحّدات الإسقاطية. ويمكن أن يُنظر إلى إسقاط النرجسية على الموضوع من زاوية أهمية الذات والرقابة، وهما مفهومان نموذجيان بدئيان للوعي ومثال الأنا الذي لا يتصف بأنه مرجع بمعنى وظيفة منعزلة من وظائف الجهاز النفسي، ولكنه مكوّن لما سيصفه فيما بعد باسم الأنا العليا.

ولكن وصف الأنا العليا يشكّل جزءًا من الموقعية الثانية كما سنرى في نصّ المحاولات المعروض في هذا الكتاب. ففرويد يصف في هذا النص من جهة أخرى جذور الأنا العليا. ويذكّر أن رقابة الحلم هي المثل على الأنا العليا، وأن للوجدان الأخلاقي بشير هو مثال الأنا الذي تُضفى عليه الصفة الشخصية.

وتتضمّن الأنا العليا، عامل الكبت، جزءًا لاشعوريًا في هذا النصّ. إنها حامل المقتضيات التربوية وتمثّل الجزء الاجتماعي من توحّداتنا (س. فرويد ـ **السيكولوجيا الجماعية وتحليل الأنا** ـ ١٩٢١).

وثمة تياران من الأفكار عدّلا هذا التقديم الخاص بفرويد. وبوسعنا أن نجد آثارًا لهما في نصوص سابقة:

آ) ـ فمن جهة، أهمية التوحّدات الثانوية والمتمايزة في ذروة عقدة أوديب التي تنحلّ بواسطتها. والأنا العليا، من وجهة النظر هذه، راسب هذه النزاعات وتعبّر كالأوديب عن الجنسية الثنائية، الأوديب الإيجابي للأب من الجنس المقابل، والأوديب المعكوس للأب من الجنس نفسه. فالأنا العليا وريثة الأوديب المعكوس بالحري لتحلّ مسألة الإثمية التي تحدّدها تمنّيات غشيان المحارم. وهكذا تعبّر بلسان الأب عن أمر مزدوج: «ستفعل مثلي ـ موضوعك المثالي» (أوديب المعكوس ـ مثال الأنا)؛ «ليس لك الحق أن تفعل مثلي» (أوديب الإيجابي والذي يغشى المحارم ـ أنا عليا بالمعنى الحقيقي، أي التي تفرض القصاص).

ب) ـ ومن جهة أخرى، فكرة أن نزاعات النموّ هي وريثة تاريخ مدوّن من ناحية تطوّر النوع في لاشعورنا. إنها دعوى **الطوطم والتابو** (س. فرويد، ١٩١٣) حيث تبدو الأنا العليا ممثّل الأب الذي قتله أبناؤه المجتمعون ليزيلوه ويتقاسموا النساء فيما بينهم.

ولهذه النظرية نتائجها في مؤلّفين سياسيين سوسيولوجيين لفرويد، **مستقبل وهم** (١٩٢٧) و **عسر في الحضارة** (١٩٢٩)، كتاب سيبيّن نصّ مستخلصٌ منه مستعاد في هذا الكتاب تلك القرابة التي يصفها س. فرويد.

ويقيم فرويد، في هذا المقال، تلك الاستمرارية بين الخوف من السلطان والخوف من الأنا العليا. فالإثمية تحدّد الندم في الحالة الأولى؛ وليس ثمة شيء يمكنه أن يتخلّى عن الإشباعات التي تقتضيها الإثارة الدافعية.

ومن وجهة النظر هذه، وأيًا كانت ضروب تقدّم الحضارة، الكامنة في أنها تقودنا إلى أن نتخلّى عن جزء من ملكياتنا المكتسبة بصورة عدوانية، فإن أهمية دافع الموت ونتائج مازوخيتنا الأساسية هما ما هما عليه بحيث أن الأنا العليا تستأنف لحسابها كل العدوانية. فتكافؤ الضدين الأوّلي يتضمّن الثاناتوس (دافع الموت) في الواقع. وذلك أمر يجعل فرويد ريبيًا فيما يخصّ إمكانًا مفاده أن تتخلّى الإنسانية عن الحرب (س. فرويد ـ **مراسلات مع أنشتاين** ـ ١٩٣٣). ومن هنا منشأ الصيغة التالية: **الأنا العليا هي زراعة غريزة الموت.**

٥ ـ سيكولوجيا الأنا

٢ ـ أكبّ مناصرو المدرسة التكوينية أيضًا (سيكولوجيا الأنا) على أن يوضّحوا تطوّر الأنا العليا التي، في رأيهم كما رأينا، تتمايز وتمارس مفعولاتها التامة عند انحسار الأوديب.

ويُسهم رونه سبيتز مع ذلك، إذ يصف المراحل الأولى للعلاقة بالموضوع، بعناصر تتيح استنتاج وجود نُوى الأنا العليا، كما فعل إ. غلوفر بالنسبة لنوى الأنا. وهذان المقالان سيكونان موضع معاينتنا فيما بعد. أما فيما يخصّ مقال سبيتز، فإنه يستند، بين ما يستند إليه، إلى الدراسة التكوينية لأداة النفي «لا» وحركة الإنكار. وقد رُؤي فيهما خلال زمن طويل، وعلى نحو يدلّ على التبسيط، ضربًا من تقليد الحركات التي تدلّ لدى الأم على التحريم. وهكذا تسبق مرحلة التقليد مرحلة المعارضة. وهذا الفرض، المستمدّ من دراسة السلوك، يمكنه أن يجد نفسه وقد حلّت محله نظرية رونه جيرار الذي ينقد أعمال التحليل النفسي التي تتناول تلك الرغبة التي تطبع علامتها على العلاقات بالموضوع، باسم فرضه المؤسّس، فرض المحاكاة، أي التقليد في التملّك (ر. جيرار ـ **هذه الأشياء الخفيّة منذ تأسيس العالم** ـ ١٩٧٨).

ويمنح هذا الكتاب الحديث مقال رونه سبيتز كل مذاقه، مقالاً يبيّن أن هذا التقليد المزعوم ليس سوى البديل الموحّد بالأم التي تحرّم ـ أو تحبط، أو الغائبة، المنشودة والمستوهمة، انطلاقًا من الفعل المنعكس العتيق، النموذج البدئي والمؤقّت للتنقيب: والمقصود هذا السلوك الذي به يبحث على نحو من الأنحاء وليد الإنسان، الذي تضمّه أمه ـ أو أي راشد آخر ـ بين ذراعيها، عن حلَمته (**منعكس الجذور**). وهكذا يكون بوسع سبيتز أن يتكلّم على **أوّلية** الأنا العليا ـ أو مثال الأنا ـ في التبادل المادي الذي يستقرّ بين الأم ورضيعها منذ الولادة.

٦ـ الدراسة التكوينية للأنا العليا

يقترح جوزيف ساندْلر قراءة دقيقة لتأليف فرويد، الذي يتيح تأسيس دراسة تكوينية للأنا العليا. ولا يتكلّم فرويد (١٩١٤)، في مقاله، مدخل إلى النرجسية، على «مثال الأنا» فحسب، كما يُقال غالبًا، وهو أيضًا مرجع مراقبة فعّال في رقابة الحلم على سبيل المثال، ولكنه يتكلّم أيضًا على «الأنا المثالية» التي تختلف عنه. وهذه الدعوى كان لاغاش قد اقترحها. ويقال إن الأنا المثالية يمكن أن تُوظّف توظيفًا نرجسيًا. ويكتشف جـ. ساندْلر، في الموقعية الثانية، تشابكات بين الأنا ومثال الأنا تكوّن تمهيدًا لتمايز الأنا العليا من خلال التطوّر الأوديبي. ويعدّ أن سيرورات نزع الصفة الجنسية تتيح انتشار كل ما يُستوهم باسم العدوان، وبذلك تغني الأنا العليا وتضفي عليها الاستقلال. وتصبح الأنا، في الجزء الأخير من التأليف الميتاسيكولوجي لفرويد (**الكفّ، العرض والحصر** ـ ١٩٢٦)، الخادم الحقيقي للأنا العليا التي يُعترف بأهميتها الحاسمة في **مستقبل وهم** وفي **عسر في الحضارة**

٣ ـ تلحّ القراءة التكوينية للأنا العليا، كما نتخيّل، على جوانبها المبكّرة. ويصف المؤلف الأول، س. فورنْزي، في دراسته التي احتواها هذا الكتاب، على جوانبها النموذجية الأصلية، التي اشتُهرت باسم أخلاق الصارّات. واكتشفها في ممارسته التحليل النفسي «الفاعلة»، حيث كان يطلب على سبيل المثال إلى مرضاه أن يُحجموا عن التبوّل. وقاده الخوف الذي تثيره هذه النصيحة إلى أن

يفهم أن بعض تكوينات الطبع كانت ذات علاقة بهذا الصراع الذي دار من قبل في الطفولة وبدا له أنه يسوّغ نظريته **الخليط من جانبين** التي كان التوظيف الحالبي الشرجي بحسبها يتحوّل إلى الدروب التناسلية وكان ممكنًا أن تجد صعوبات قذف المنيّ في ذلك جذورها. ومن هنا منشأ الإلحاح على أهمية ما يُسمّى التربية قبل التناسلية. وكان كارل أبراهام أيضًا قد بيّن التناقض وتعاقب اللذة الناجمة عن طرح الغائط، ثم عن إمساكه على وجه الخصوص. وثمة تكوينات نكوصية أو تثبيتات على هذه الأطوار يمكنها إذن أن تدلّ، من خلال العيادة، على وجود بشائر الأنا العليا. فأخلاق الصارّات ما تزال نصف فيزيولوجية.

والنسخة الكلاينية للأنا العليا المبكّرة أكثر راديكالية أيضًا. فالأنا العليا تختلط بالأم السيئة في سيرورة انشطار الموضوع التي تصفها وصفًا جيداً في المقال المنشور في هذا الكتاب. فسيكون ثمة ضرب من التكافؤ بين دافع الموت، التوحّد الإسقاطي، الأم السيئة والأنا العليا المبكّرة. وتلك هي قراءة هذه الحياة الاستيهامية والمضفية للذهان حيث ترى ميلاني كلاين عاقبة الحرب بين دوافع الحياة ودوافع الموت.

وكان إ. جونْز قد ربط من قبل أهمية الإسقاطات المبكّرة بدوام العدوان وتكلّم على «الكفّ قبل المؤلم».

٧ـ الذات والذات المزيّفة (Faux - Self, Self,Soi)

تقودنا هذه الاهتمامات، على سبيل النتيجة، أن نطرح على أنفسنا مشكل العمل الوظائفي النفسي كما يمكن أن تحدّده الاهتمامات الموقعية.

رأينا، في أكثر من مناسبة، أن عزل منظورات الموقعية عن الاهتمامات الدينامية والاقتصادية، التي تحدّد كل حالة وكل إنسان، كان صعبًا أو متعذّرًا.

ولكن بوسعنا أن نتساءل في أيامنا هذه إن كانت النسخة الثلاثية للبنية النفسية كافية بالنسبة لنا. فالنرجسية وأسلوب العمل الوظائفي المرتبط بها

يكوّنان إحالة لاغنى عنها. أينبغي أن نرى فيها مرجعًا رابعًا؟ هذا هو ما يقترحه ب. غرانْبْرجر (**النرجسية** ـ ١٩٧١)، في نسخته ضد الواقعية لهذه الخاصيّة من العمل الوظائفي النفسي.

وينبغي للقراءة السريعة لنظرية التحليل النفسي أن تقودنا إلى أن نطرح على أنفسنا مشكل علاقات هذه النرجسية، كما يحدِّدها هذا المؤلف، بـ **الذات** (Soi) أوما يُسمّى في الانغليزية Self. والمقصود بذلك فكرة، إن لم يكن مفهومًا مستخدمًا على وجه الاحتمال مع مقاربات متجاورة، بل متشابهة، في مدارس مختلفة.

إذا ترجمنا كلمة **Self** الانغليزية بكلمة **Soi** الفرنسية، فإن علينا أن نطرح على أنفسنا السؤال حول استخدام الكلمة الفرنسية **ça** (الهو)، وهي ترجمة الكلمة الألمانية **Es** التي اقتبسها فرويد من غروديك. فلنذكّر بهذه المناسبة أن المترجم الفرنسي كان قد ترجم «**der ich und da Es**» بعد «Le **Moi** et le **Soi**» (الأنا والذاتَ وليس الأنا والهو). وهذا المشكل الدلالي غير بسيط.

١ ـ الواقع أن مدرسة التحليل النفسي التكوينية للأنا، المتجمّعة حول هـ. هارْتمان، تصف حالة لامتمايزة للهو (ça). ومن هذه الحالة اللامتمايزة تنبثق المراجع الثلاثة (الهو، الأنا والأنا العليا) في الموقعية الثانية. فهل Self (الكلمة الانغليزية التي نترجمها «الذات») الموصوفة فيها ناجمة عن الهو (ça) المستقبلي أو عن الأنا؟ إنه مشكل يصعب حلّه. إن Self تنتمي، على المستوى الفينومينولوجي، إلى الحلقة التكوينية للأنا، تسبقها مرحلة ينبغي الاعتراف فيها بين **الذات و اللاذات** (Non - Soi/Soi) لبلوغ الأنا الشخصية Je.

وهذه الترجمة هي المعتمدة على وجه الضبط في نظرية م. مَهْلَرْ الذي يصف سيرورة التفرّد ـ الانفصال انطلاقًا أول الأمر من دراسة الذُهان لدى الطفل (م. مهلر ـ ١٩٦٨).

وثمة زمن أساسي في هذه النظرية هو زمن التمايز بين امتثال الموضوع وامتثال الذات.

٢ ـ ربط هـ. كوهوت (الذات ـ ١٩٧١) في وصفه العيادي بين «الذات العظيمة» وأمراض النرجسية التي من أجلها يوصي ببعض الترتيبات التقنية للعلاج النفسي.

٣ ـ د. وينّيكوت (**من طب الأطفال إلى التحليل النفسي** ـ ١٩٦٩) يعود في عدة مناسبات إلى الذات Self التي يجعلها نتاج هاجس الطفل بصدد أمه في الطور الاكتئابي. ويمكننا القول أن Self تعادل في رأيه عاطفة وجود مستمرة توضع موضع الاتهام في أمراض «الذات المزيّفة» (Faux - Self).

هذه النسخ المختلفة من النرجسية والذات (Soi أو Self) وعاطفة الوجود، تدلّ من خلال تباينات لا ينبغي إهمالها على اهتمام مشترك خاص بهذا الأسلوب من العمل الوظائفي الذي ليس أقلّ أهمية من الأسلوب الذي ينتظم تحت مظلة العلاقة بالموضوع.

إننا أردنا أن ندلّ بهذه الإحالات الموجزة على أن الميتاسيكولوجيا والعمل الوظائفي للمراجع النفسية لا يمكننا أن ندرسهما إلا باللجوء المستمرّ، المتبادل والمتقابل، إلى الوثائق العيادية والإرصانات النظرية. ويبيّن مجموع الأعمال المأخوذة بالحسبان في هذا المؤلّف، على أي حال، أن تطوّر النظرية الفرويدية نفسها أفسح المجال لوجهات نظر متممّة، متناقضة أحيانًا، لا تدعو إلى ضرب من الانتقائية وإلى أن يُجعل منها منظومات مغلقة، موصوفة بسذاجة في علاقاتها وصراعاتها.

الأستاذ سيرْج لوبوفيشي

الجـزء الأول

مجالات الشخصية

المقاربات الأولى

الفصل الأول

أماكن الفكر

مقدّمة

تفسير الأحلام(١)، المنشور نهاية عام ١٨٩٩ ولكنه المؤرخ عام ١٩٠٠، هو التأليف الأكثر أهمية دون ريب لفرويد باعترافه نفسه. إنه يكتب على هذا النحو، في المقدمة للطبعة الثالثة الانغليزية: «لا يقدّم لنا القدر مثل هذه الرؤية إلا مرة واحدة خلال الحياة». ويضيف، بعد ظهور الكتاب، أنه «هو الذي كان، في أثناء ساعات كثيرة من الحزن، ضرباً من مؤاساة التفكير التي كان هذا الكتاب قد خلّفها بعده».

ويحتوي مع ذلك هذا الكتاب، الذي مرّ من غير أن يلفت النظر، احتواء في الحالة الجنينية، غالبية الأفكار الرئيسة التي يتأسّس عليها التحليل النفسي. ولكن فرويد ـ وذلك ذو علاقة مباشرة بحديثنا ـ يقدم فيه أيضًا، في الفصل السابع الذي يعرفه المحلّلون النفسيون معرفة جيّدة، نظريته الأولى للجهاز النفسي، التي «حررّها كما في الحلم»، يقول، واقتضت منه جهوداً كبيرة. وهذه النظرية الأولى تسمّى أيضًا «الموقعية» الأولى. والواقع أن الجهاز النفسي يتألّف، في رأي فرويد، من منظومات متمايزة، تتابع في نظام محدّد؛ فكل منظومة منها تكوّن إذن «مكانًا» نفسيًّا (topos تعني «مكانًا» في اليونانية).

(١) تُرجم عنوان هذا المؤلف في البداية: **علم الأحلام**.

فثمة بالتالي «فسحة» نفسية، أماكنها هي، في المستخلص من كتاب **تفسير الأحلام** الذي سنكتشفه أول الأمر، **اللاشعور**، **قبل الشعور**، **الشعور**. ويفصل اللاشعور عن قبل الشعور حاجز الرقابة. وثمة رقابة أخرى تمنع قبل الشعور من أن يصل إلى الشعور. ويرتفع حاجز الرقابة في بعض المناسبات وعلى نحو تفضيلي (على الرغم من أنه يُفتح جزئيًا) خلال النوم. وتبين المحتويات اللاشعورية، كما سنرى، في الحلم (الدرب الملكي للاشعور).

من خلال تحليل فرويد أحلامه الخاصة إنما يباشر تحليله الذاتي: وانطلاقًا من حلم «الطفل الذي يحترق» إنما يصوغ فرويد فروضه في «بنية الجهاز النفسي وحركة القوى، وتمفصل مختلف المنظومات (أو الأماكن) التي يتألف منها».

ويحدّد فرويد أيضًا أسلوبي العمل الوظائفي النفسي: السيرورات الأولية المرتبطة بمبدأ اللذة والسيرورات الثانوية المرتبطة بمبدأ الواقع. وسنجدها مجدّدًا في الجزء الثاني من هذا الكتاب. فلنوضّح مع ذلك أن السيرورات الأولى تنطبق على العمل الوظائفي لمنظومة اللاشعور، والثانية على العمل الوظائفي لـ قبل الشعور ـ الشعور. وتجري الطاقة النفسية في الأولى دون عائق، وتخضع لآليات الانزياح[2] والتكثيف[3]، وكذلك للترابطات بالاقتران. ولا تعرف السيرورات الأولية نفيًا ولا تناقضًا، ولا زمانًا، ولا مكانًا، ولا سببية. ونقول باختصار: لاتخضع لمبادئ المنطق.

وبالمقابل، تُسمى الطاقة في السيرورات الثانوية «مرتبطة»؛ إنها تمثل للطرق غير المباشرة والتسويات الأكثر أهلاً لتأمين الإشباع مع أخذ الواقع بالحسبان. أما الترابطات، فإنها تقوم على التشابه. ونقول أخيرًا إن السيرورات الأولية ومبدأ اللذة ثنائي يتعارض مع الثنائي المكوّن من السيرورات الثانوية ومبدأ الواقع.

---

(٢)، (٣) هاتان الآليتان ستُعرضان بالتفصيل في كتاب الأحلام: الدرب الملكي للاشعور.

وينشر فرويد، بعد خمسة عشر عامًا من ظهور تفسير الأحلام، مقالاً عنوانه «اللاشعور». ويطوّر، في الفاصل الزمني، تصوّره للكبت[٤]: والمقصود به آلية دفاع يحاول بواسطتها الفرد أن يعيد إلى اللاشعور، أو يصون في اللاشعور، امتثالات، أي أفكارًا، صورًا أو ذكريات ترتبط بالدافع. وتتدخّل هذه السيرورة عندما يكون إشباع دافع من الدوافع في نزاع مع مقتضيات أخرى، أخلاقية على سبيل المثال.

وعندئذ إنما تُستنفَر الرقابة. فمن أي شيء يتكوّن إذن، في هذا المنظور، اللاشعور الذي يشغلنا؟ إنه يتكوّن، من جهة، من هذه الامتثالات المرتبطة بالدوافع التي ترفض الرقابة أن تمرّ حتى الشعور عبْر قبل الشعور؛ ويتكوّن، من جهة ثانية، من الامتثال التي حدث لها، في لحظة معيّنة، أنها بلغت قبل الشعور، ولكنها كانت قد أُرجعت إلى اللاشعور. وأخيرًا، يتضمّن اللاشعور أيضًا نتاجات مايسميه فرويد الكبت الأوّلي (أو الأصلي) المؤلّف من تكوينات لم تكن قط قد بلغت قبل الشعور.

وتؤلّف هذه التكوينات نواة لاشعورية يمكن أن نفترض أنها فطرية. وتجذب هذه النواة إليها على غرار مغناطيس، خارج الأماكن الأخرى من الجهاز النفسي، عددًا معيّنًا من الامتثالات، المطمورة في اللاشعور منذئذ. وهذه السيرورة، الناجمة عن اللاشعور، تُضاف إلى عمل المراجع (أو البنيات) العليا (مثل ذلك الرقابة المزدوجة في التصوّر الفرويدي الأول للجهاز النفسي) التي تنبذ الامتثالات غير المرغوبة. وهذا هو ما نسمّيه الكبت الثانوي.

وفي مقاله المخصّص لـ «اللاشعور» يجعل فرويد، بين أمور أخرى، «توظيف الكلمات» مقابلاً لـ «توظيف الأشياء». فـ «التكوينات البديلة» (كالأفعال الخائبة وزلة اللسان أو القلم والنكات، على سبيل المثال)، التي تنبعث مكان المحتويات

(٤) انظر الكبت: نمط الدفاعات، منشور في هذه المجموعة نفسها.

اللاشعورية، وكذلك الأعراض والترميز، تظهر على نحو مختلف لدى الفصاميين[٥] ولدى العصابيين[٦]، فالفصاميون يُبرزون هوية التعبير اللفظي والعصابيون يُبرزون التشابه بين الأشياء. والواقع أن الفصاميين فقدوا كل اتصال بعالم الموضوعات؛ وهم لهذا السبب يسعون جاهدين لإعادة تكوينه من خلال توظيف الكلمات.

ويروي فرويد حالة مريض، عرضها في البدء فكتور توسْك، كان يقضي ساعات كاملة في هندامه. «كانت الفكرة تسوقه، عندما ينتعل حذاءه، إلى أن عليه أن يوسّع زَرَداته؛ إذن الثقوب؛ وكان كل ثقب بالنسبة له فتحة العضو الأنثوي». فاتجاه هذا القسر كان واضحًا كل الوضوح للمريض الذي كان يعترف به دون تردّد. وثمة مريض آخر كان يعرض العَرَض نفسه على ما يظهر، لأنه كان يقضي وقتًا طويلاً جداً في إدخال رباط حذائه في زرداته. واكتشف هذا المريض، «بعد أن كان قد تغلّب على المقاومات، ذلك الشرح الماثل في أن القدم كان رمز عضو الذكر، وفعل إدخال رباط حذائه في زرداته فعل استمناء وأنه إذا كان عليه باستمرار أن يرفع فردة حذائه ويضعها، فذلك بغية إكمال صورة الاستمناء من جهة، وإلغائه من جهة ثانية بصورة ارتجاعية».

وتتغلّب العلاقة بين الكلمات، كما يبيّن فرويد، على العلاقة بالأشياء في المثل الأول، فتوسيع الزردات ليس له، والمرء يفهم ذلك، إلا علاقة بعيدة بما يمثّله بالنسبة للمريض. وليس المقصود ضربًا من الترميز، بالمعنى الحقيقي للكلمة[٧]، من حيث أن المريض يعرف دلالة فعله. وبالمقابل، ما يعبّر عنه العَرَض ليس شيئًا سوى ترجمة للتعبير الألماني المبتذل: («الثقب هو ثقب»).

ويظلّ المرموز إليه في الحالة الثانية، على العكس، لاشعوريًا. ولا يطرأ احتياز الوعي إلا بعد زمن من الإرصان: فحركة القدم في الحذاء، بالنسبة لهذا

---

(٥) انظر **العصاب: الإنسان ونزاعاته**، الكتاب منشور في المجموعة نفسها.

(٦) انظر الذهان: **فقدان الواقع**، في المجمموعة نفسها.

(٧) انظر في كتاب «الأحلام»: «الدرب الملكي لـلّاشعور» الجزء المخصّص لتكوين الرمز.

المريض، هي البديل الرمزي للفعل الجنسي. وتوظيف الأشياء (العلاقة بالموضوعات) مصان بالتالي. والكبت وحده يمنع الفرد من أن يفهم معنى القسر لديه. والواقع أن الامتثال الشعوري يتكوّن من امتثال الأشياء وامتثال الكلمات المرتبط به. أما «الامتثال اللاشعوري فهو امتثال الأشياء وحده».

ويعرض فرويد أيضًا، في مقاله «اللاشعور»، أسباب ظاهرة خاصة بالعلاج. فقد يحدث في إطار تحليل، في الواقع، أن المعالج ينقل إلى المريض معنى امتثال مكبوت، دون أن يحصل تغيّر بارز، على عكس ما يكون بوسع المرء أن يتوقّع: فإذا أصبح الامتثال اللاشعوري شعوريًا، فذلك لا يفضي إلى أن يزول الكبت.

ولدى المريض من الآن فصاعدًا امتثالان، بشكلين مختلفين، وفي مكانين من جهازه النفسي. إنه يحتاز أثرًا سمعيًا، الأثر الذي تركه التفسير المنقول بواسطة المحلّل، على المستوى الشعوري. ولكن الذكرى اللاشعورية تظلّ، إلى جانب هذا الأثر، سليمة لم تُمسّ. ذلك أن «إلغاء الكبت لا يتدخّل قبل أن يدخل الامتثال الشعوري في علاقة بالآثار التذكّرية اللاشعورية عندما يتغلّب على المقاومات»، يقول فرويد. وهذا إنما هو ما نسمّيه **التدوين المزدوج**.

فلنؤكّد منذ الآن، أخيرًا، واقعًا ذا أهمية لفهم هذا الكتاب: «الموقعية الثانية» (الهو ـ الأنا ـ الأنا العليا) للجهاز النفسي لن تلغي أبدًا، بالنسبة لفرويد، موقعيته الأولية (اللاشعور ـ قبل الشعور ـ الشعور)؛ وتستمرّ الموقعية الأولى دائمًا بوصفها «قماشة الخلْفية»، يمكننا القول. فالهو، على سبيل المثال، لا ينبغي أن يختلط باللاشعور: بعض الأجزاء من الأنا والأنا العليا لاشعورية أيضًا.

النصّ الأول

ثمة حلم، بين الأحلام التي رواها المرضى لي، حلم يستحقّ انتباهًا خاصًا. إنه نُقل إليّ من مريضة سمعته يُروى في محاضرة عن الحلم؛ ولا أعلم على وجه الضبط ما مصدره؛ ولكنه أحدث في هذه السيدة انطباعًا بحيث أنها سارعت إلى الحلم به بدورها، أعني استعادت بعض العناصر منه في حلمها، لتعبّر بهذا التحويل عن موافقة معيّنة.

ومعطيات هذا الحلم هي التالية: سهر أب ليلاً ونهاراً، خلال زمن طويل، قرب سرير طفله المريض. ومضى يستريح، بعد موته، في غرفة إلى جانب غرفته، ولكنه يترك الباب مفتوحاً ليكون بوسعه أن ينظر، من غرفته، إلى الغرفة التي يوجد فيها جثمان ابنه مسجّى في التابوت، المحاط بشموع كبيرة. وكان شيخ قد عُهد إليه بالسهر على الجثمان، وهو جالس قرب الجثمان ويتمتم صلوات. ويحلم الأب، بعد بضع ساعات من النوم، **أن الطفل موجود قرب سريره، ويمسكه بذراعه، فيدمدم بلهجة زاخرة باللوم: «ألا ترى إذن أنني أحترق؟»**. ويستيقظ الأب، ويتبيّن نوراً قوياً صادراً من غرفة الميت، ويسرع إليها، ويجد الشيخ غافياً، والكفن وذراعاً من ذراعي الجثمان الصغير محترقين بفعل شمعة كبيرة وقعت عليهما.

وشرح هذا الحلم المؤلم بسيط إلى حد كاف، وأرى، وفق ما قالته لي مريضتي، أن المحاضر قد أتقن تقديم هذا الشرح. والنور القوي جداً كان قد نفذ إلى غرفة الأب النائم من الباب المفتوح وأوحى له النتيجة نفسها التي أدّت إلى أنها انتزعته من نومه، أي أن سقوط شمعة كان قد أحدث حريقاً قرب الجثمان. بل ربما كان الأب قد نام نوماً ترافقه الخشية من أن الشيخ لا يتقن القيام بمهمته.

وليس لدي شيء أعترض به على هذا التفسير، إن لم يكن ما مفاده أن ثمة تحديد متضافر العناصر دون شك[٨]: ينبغي لقول الطفل أن يكون مؤلفاً من كلام قاله فعلاً في أثناء حياته، كلام يرتبط في ذهن أبيه بأحداث ذات أهمية: ربما قال الطفل: «ألتهب» (من الحمّى، خلال مرضه الأخير)، وربما قال أيضاً: «ألا ترى إذن، يا أبي؟» بمناسبة حَدَث آخر نجهله، ولكنه لا بدّ من أنه كان يثير المشاعر.

ولكننا إذا سلّمنا أن الحلم، سيرورة معقولة، يمكنه أن يندرج اندراجاً منطقياً في مجرى التجربة النفسية، فإن بوسعنا أن نندهش من إمكان وجود حلم حيث كانت يقظة سريعة تفرض نفسها. ويمكننا أن نجيب: حتى هذا الحلم إنجاز رغبة.

---

(٨) ينطوي التحديد المتضافر العناصر أن لامتثالات هذا الحلم دلالات متعدّدة لا يستبعد أحدها الآخر بالتبادل (ملاحظة اللجنة).

فالطفل الميت يسلك فيه كما لو أنه حيّ، ويخطر هو نفسه أباه، يأتي قرب سريره ويشدّه من ذراعه، كما وجب عليه أن يفعل في ظرف من الظروف التي يصدر منها الكلام الذي قيل في الحلم. وأطال الأب لحظة نومه الذي يشبع رغبته إذ يُظهر له طفله حيًّا. وللحلم مزيّة، في الفكر المستيقظ، أنه أظهر له ابنه أنه لا يزال حيًّا مرة أخرى. ولو أن الأب استيقظ في الحال، لاختصر على هذا النحو حياة طفله خلال مدة الحلم كلها.

١ ـ أضواء جديدة على الفكر الإنساني

ونرى فوراً من أي جانب يعنينا هذا الحلم الصغير. ذلكم حلم لا يطرح أي مشكل من التفسير، معناه سهل المنال مباشرة، ونلاحظ مع ذلك أنه مايزال يحتفظ بهذه السمة الأساسية التي تفصل فصلاً بارزاً أحلام الفكر المتيقّظ وتقتضي شرحًا.

وقد لا يكون عديم النفع أن نتساءل، قبل أن ندلف في هذا الاتجاه، إن لم نكن حتى الآن قد أغفلنا شيئًا هامًّا. والواقع أن الجهد الذي ينتظرنا أكثر مشقّة. فكل السبُل التي سلكناها حتى هنا قادتنا إلى حلول واضحة ومرْضية ـ وسنمضي الآن صوب الظلام. ويتعذّر علينا أن **نشرح** الحلم بوصفه ظاهرة نفسية، ذلك أن الشرح يعني أن تردّ إلى ما هو معروف مسبقًا، والحال أن أي مفهوم سيكولوجي، يمكننا أن ندرج تحته العناصر الأساسية التي تُستخلص من الفحص السيكولوجي الحلم، لا وجود له حتى الآن. وسنُساق، على العكس، إلى أن ندلي بفروض جديدة فيما يخصّ بنية الجهاز النفسي وحركة قواه، وينبغي أن نُعنى عناية كبيرة بحيث لا نوسّع تكهّناتنا توسيعاً يتجاوز التمفصل المنطقي الأول، ذلك أنها ستصبح في هذه الحال غير واضحة كليًّا. وحتى لو أننا لا نرتكب أي خطأ في نتائجنا وحتى لو أننا نأخذ بالحسبان كل الإمكانات المنطقية، فإننا نتعرّض على وجه الاحتمال إلى النقص في تركيب العناصر، وإلى العجز، في الوقت نفسه، عن أن نعيد تكوين المجموع. فدراسة الحلم، ودراسة وظيفة نفسية **منعزلة**، على نحو أعم، لا يمكنها

أن تقدّم لنا النتائج التي تمسّ بنية الفكر في مجموعه وعمله الوظائفي. وليس بلوغ هذا الهدف ممكناً إلا بدراسة مقارنة لمجموعة كاملة من الوظائف والفاعليات، مجموعة يمكنها وحدها أن تتيح استخلاص العناصر الدائمة. وينجم عن ذلك أن الفروض التي سيقودنا إليها تحليل سيرورات الحلم ينبغي أن تكون مقبولة بصفة مؤقتة، إذا كان بوسعنا أن نقول على هذا النحو، إلى أن يكون بمقدورنا أن نربطها بنتائج بحوث أخرى تسعى، منطلقة من مسائل أخرى، إلى أن توضّح المشكلات نفسها.

٢ ـ الرغبة الممسرحة والمعيشة

ينبغي للحلم الخاص بالطفل الذي يحترق أن يذكّرنا بلغز لا يزال غير محلول. فالتفسير، الذي لم نتوسّع به في الحقيقة حتى نهايته، لم يبدُ لنا عسيراً. ولكننا تساءلنا لماذا كان ثمة حلم لا يقظة مباشرة، واعترفنا أن حافز الحلم كان الرغبة في أن يتصوّر الحالم أن الطفل ما يزال حيًّا. وسنرى فيما بعد أن رغبة أخرى أدّت أيضًا ضربًا من الدور. فبغية إنجاز الرغبة إذن أول الأمر إنما أصبحت فكرة النوم حلماً.

وإذا ألغينا هذا الهدف، فإن فارقًا واحداً يبقى بين النوعين من السيرورات النفسية. وربما كانت أفكار الحلم: أرى نوراً شديداً في غرفة الميت، وربما سقطت واحدة من الشموع الكبيرة واحترق الطفل! وينسخ الحلم دون أي تغيير نتيجة هذا التفكّر، ولكنه يمثّله بمشهد نعدّه حاليًّا وتُدرك معانيه بوصفه حَدَث العشيّة. ولكن في ذلك إنما تكمن سمته الأعمّ: إن فكرة، فكرة رغبة على الأغلب، تصبح موضوعية، تتمسرح، وتعاش.

فكيف تُشرح هذه الخاصّة لعمل الحلم(٩)، أو، على نحو أكثر تواضعًا، كيف نُدخلها في تسلسل السيرورات النفسية؟

---

(٩) مجموعة من العمليات التي تحوّل موادّ الحلم (منبهات جسمية، بقايا من النهار، أفكار الحلم) إلى نتاج: الحلم الظاهر (جـ. لابلانش و جـ ـ ب بونتاليس، **معجم التحليل النفسي**، المنشورات الجامعية الفرنسية).

وسنعترف، إذا أشبعنا التحليل درسًا، بسمتين مستقلّتين إحداهما عن الأخرى في مظاهر الحلم. إحداها تصوير المشهد بوصفه حاليًّا ومع إغفال «ربما»؛ والأخرى تحوّل الفكرة إلى صور بصرية وإلى قول.

٣ ـ زمن الحلم: الحاضر

التحوّل، الذي يطرأ على أفكار الحلم بفعل مفاده أن التوقّع الذي تعبّر عنه يوضع في الزمن الراهن (الحاضر)، يُدهش المرء في هذا الحلم أقلّ مما يدهشه في الأحلام الأخرى. وذلك مصدره الدور الخاص والعرضي، وهذا مخالف للمألوف، الذي يؤدّيه فيه إنجاز الرغبة. فلنضرب مثل حلم آخر حيث الرغبة لاتكفّ تلاحق في النوم فكرة العشيّة، حلم حقْن إيرْما على سبيل المثال[١٠]. فالفكرة التي تفلح في أن تكون مصوّرة هي أمنية: أودّ تمامًا لو أن أوتّو كان مسؤولاً عن مرض إيرما. فالحلم يكبت[١١] الأمنية ويضع مكانها تأكيداً راهنًا: إن أوتو هو المسؤول عن مرض إيرْما. ذلك إذن هو التحوّل الأول الذي يلحقه بالفكرة حتى الحلم الذي لا يشوّه. وعلينا ألا نتوقّف عند هذا الأمر. وحسبنا أن نقارنه بالاستيهام الشعوري لحلم النهار الذي يفعل الشيء نفسه بمحتواه التمثيلي. فبطل دوده، السيد جوايّوز، التائه في شوارع باريس في حين تعتقد بناته أن له مكانة وأنه في مكتبه، يحلم كذلك أنه، بفضل رعاية بعض الشخصيات، يفوز بوظيفة: هذا الحلم يجري في الزمن الحاضر. وعلى النحو نفسه وبالصفة نفسها إنما يستخدم الحلم هذا الزمن الحاضر. فالحاضر هو الزمن الذي نتصوّر فيه الأمنية منجزة.

٤ ـ الفكر ذو المجهر

يدلي فخنر العظيم، في كتابه **علم النفس الفيزيائي**، بعد أن يبدي بعض الملاحظات عن الحلم، بالفرض الذي مفاده أن **المسرح الذي يتحرّك فيه الحلم ربما**

---

(١٠) انظر س. فرويد، **تفسير الأحلام** (المنشورات الجامعية الفرنسية، وكتاب الأحلام: **الدرب الملكي للاشعور**، في المجموعة نفسها.

(١١) أعني أنه يحتفظ بهذه الأمنية في اللاشعور (اللجنة المشرفة).

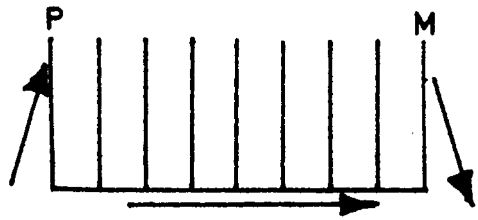
يكون مختلفًا عن مسرح التصور في حياة اليقظة؛ فليس ثمة افتراض آخر يتيح لنا أن نفهم خصائص الحلم.

والفكرة التي يقدّمها لنا هذا الفرض إذًا هي فكرة **مكان نفسي**. فلنستبعد في الحال مفهوم تموضع تشريحي. ولنبق في الحقل السيكولوجي، ولنحاول أن نتصوّر الآلة التي تُستخدم في الإنتاجات النفسية بوصفها ضربًا من المجهر المعقّد، جهاز فوتوغرافي، إلخ. والمكان النفسي يقابل نقطة من هذا الجهاز حيث تتكوّن الصورة. ومن المعلوم أن نقاط تكوّن الصورة، في مجهر وآلة رصد فلكية إنما هي نقاط مثالية لا يقابلها أي جزء محسوس في الجهاز. ويبدو لي غير مجدٍ أن أعتذر عن ما في هذه المقارنة من نقص. فأنا لا أستخدمها إلا لأفهم تنسيق الآلية النفسية إذ أفككها وأحدّد وظيفة كل جزء. ولا أعتقد أن شخصًا حاول أيضًا على الإطلاق أن يعيد تكوين الجهاز النفسي على هذا النحو. فليس ثمة أي خطر في المحاولة. وأقصد أن بوسعنا أن نُطلق العنان لفروضنا، شريطة أن نحتفظ بحكمنا النقدي وأن لانحسب السقالة هي البناء نفسه. ولسنا بحاجة إلا إلى تصورات مساعدة حتى نقترب من واقع معروف، فأكثر هذه التصوّرات بساطة وحسّية ستكون الأفضل.

٥ ـ تخطيطية أولى للجهاز النفسي

فلنتصوّر الجهاز النفسي إذن كآلة سنسمّي الأجزاء التي تتألف منها: «مراجع» أو «منظومات» في سبيل وضوح أكبر. ثم فلْنتخيل أن لهذه المنظومات توجّه مكاني ثابت بعضها بالنسبة لبعضها الآخر، كما عدسات آلة الرصد الفلكية على وجه التقريب. وليس علينا مع ذلك حتى أن نتخيّل ترتيبًا مكانيًا حقيقيًا. وحسبنا أن يستقر ضرب من التعاقب بفضل واقع مفاده أن الإثارة تجوب المنظومات النفسية خلال بعض السيرورات النفسية وفق ترتيب زمني معيّن. ولْنحتفظ بإمكان واحد: هذا التعاقب يمكنه أن يتعدّل وفق السيرورة. فلنسمّ أجزاء الجهاز المختلفة، في سبيل إيجاز أكبر: «المنظومات Ψ».

ويدهشنا أول الأمر واقع مفاده أن للجهاز المؤلف من هذه المنظومات Ψ اتجاهًا. وكل فاعليتنا النفسية تنطلق من منبّهات (داخلية أو خارجية) وتفضي إلى مجموعة من الأعصاب. فللجهاز إذن طرف حسّي وطرف حركي؛ ويوجد في الطرف الحسي نظام يستقبل الإدراكات؛ وفي الطرف الحركي نظام آخر يفتح أبواب الحركية. وتمضي السيرورة النفسية على وجه العموم من الطرف الإدراكي إلى الطرف الحركي. فالتخطيطية الأعمّ للجهاز النفسي ستكون إذن على وجه التقريب هي تخطيطية الشكل (١).

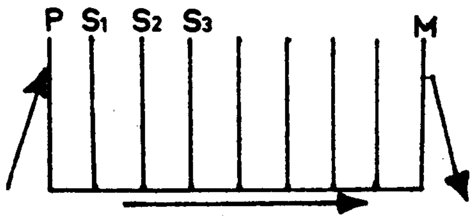


ولكن ذلك فقط إنما هو تحقيق مقتضى معروف منذ زمن طويل، مفاده أن الجهاز النفسي يتكوّن كجهاز الفعل المنعكس. ويظلّ الفعل المنعكس نمط كل إنتاج نفسي.

٦ ـ كيف تتثبّت وتتجدّد الانطباعات الآتية من الحواس؟

علينا الآن أن نُدخل تمايزًا أول في الطرف الحسّي. فإدراكاتنا تترك في جهازنا النفسي أثرًا يمكننا تسميته الأثر التذكّري(S). ونسمّي ذاكرة تلك الوظيفة ذات العلاقة به. وإذا شئنا أن نربط السيرورات النفسية في الحقيقة بنُظُمنا، فإن الأثر التذكّري لا يمكنه أن يكمن إلا في تغيّرات دائمة لعناصرها. والحال من الصعوبة بمكان، كما قلنا آنفًا، أن نظامًا واحدًا ووحيدًا يحتفظ احتفاظًا أمينًا بتحوّلات عناصره ويقدّم في الوقت نفسه إمكانات جديدة لتغيّر في الاستقبالية مفعمة بالنشاط دائمًا. فينبغي لنا إذن، بفضل المبدأ الذي يسود محاولتنا، أن نوزّع هاتين العمليتين بين نُظُم مختلفة. وسنفترض أن نظامًا (خارجيًا) من الجهاز يتلقّى المنبهات الإدراكية، ولكنه لا يحتفظ منها بشيء، وليس له إذن ذاكرة، وأن خلف هذا النظام

يوجد نظام آخر، يحوّل الإثارة المؤقتة للنظام الأول إلى آثار دائمة. فتتّخذ تخطيطية الجهاز النفسي صورة الشكل(٢).



ومن المعلوم أننا نحتفظ، من إدراكاتنا التي تؤثّر في النظام P (الإدراكات)، بشيء آخر أيضاً غير المحتوى. فإدراكاتنا ترتبط بعضها ببعض في ذاكرتنا وذلك أول الأمر بحسب التقائها الأول في زمن واحد (المعيّة). ونسمّي ذلك واقع **الترابط**. والحال، من الواضح، أن نظام P لا يمكنه أيضاً، إذا كان لا يمتلك أي ضرب من الذاكرة، أن يحتفظ بالآثار بغية ترابطها؛ وشتّى عناصر P يمكنها بصعوبة أن تؤدّي وظيفتها، إذا كانت بقية من ترابط سابق ينبغي له أن يعوق الإدراك الجديد. فلا بدّ لنا إذن من أن نبحث عن أساس الترابط في نظم الذكريات بالحري. وواقع الترابط يكمن عندئذ في ما يلي: الإثارة تنتقل بالحري، جرّاء ضروب النقص في المقاومة وانفتاح سبيل أمام أحد عناصر S، إلى عنصر ثانٍ من عناصر S لا إلى عنصر ثالث.

٧ ـ نظامان يستبعد أحدهما الآخر: الإدراك والذاكرة

تكشف دراسة أكثر انتباهاً عن الضرورة التي مفادها أن لا نسلّم بوجود نظام واحد فقط، بل بوجود عدة من هذه النظم S التي تثبّت الإثارة نفسها، على نحو مختلف. فالأول من هذا النظم S يثبّت الترابط بالمعيّة؛ وفي النظم الأكثر بعداً، ستكون هذه المادة نفسها من الإثارة مرتّبة وفق أساليب مختلفة من اللقاء، بحيث، على سبيل المثال، تمثّل هذه النظم اللاحقة علاقات تشابه أوغيرها. وسيكون غير مجدٍ بالتأكيد أن نريد الإشارة بالكلام إلى الدلالة النفسية لمثل هذا النظام. وستكون خاصّته ضيق علاقاته بالمواد الأولى للذكرى، أي، إذا شئنا أن نذكر نظرية أعمق، ضروب انحطاط المقاومة في اتجاه هذه العناصر.

وثمة ملاحظة، من طبيعة أعمّ يمكنها أن تكون ذات نتائج هامّة، تفرض نفسها هنا. فالنظام P، الذي ليست لديه القدرة على الاحتفاظ بالتغيرات وهو محروم من الذاكرة بالتالي، يمنح وعينا كل تعدّدية الصفات الحسّية. أما ذكرياتنا، بما فيها المحفورة فينا على نحو أكثر عمقًا، فإنها لاشعورية بالطبيعة. ويمكنها أن تصبح شعورية. ولكننا لا يمكننا أن نشك في أنها تعرض كل مفعولاتها في الحالة اللاشعورية. وما نسمّيه طبعنا يرتكز على الآثار التذكّرية لانطباعاتنا؛ وهذه الانطباعات هي التي، على وجه الدقّة، تؤثّر علينا التأثير الأقوى، انطباعات طفولتنا الأولى، التي لا تصبح شعورية أبدًا على وجه التقريب. ولكن إذا أصبحت مجددًا بعض الذكريات شعورية، فإنها لا تُبدي أي صفة حسّية أو تبدي صفة حسية ضعيفة جداً إذا ما قورنت بالإدراكات. وإذا كنا نجد تأكيداً لهذا الواقع الذي مفاده أن **الذاكرة والصفة التي تميّز الوعي يستبعد أحدهما الآخر في نظم Ψ**، فإنه ستكون لدينا أفكار زاخرة بالوعود فيما يخصّ شروط إثارة العصبونات(١٢).

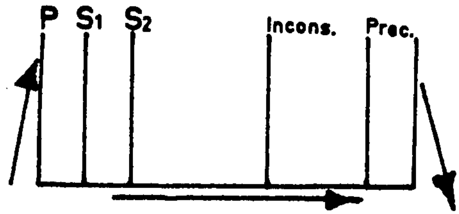
٨ ـ الأماكن النفسية: اللاشعور، قبل الشعور والشعور

في ما سلّمنا به حتى الآن في موضوع تركيب الجهاز النفسي في طرفه الحسّي، لم نُدخل الحلم، ولا الشروح السيكولوجية التي يمكن أن نستنتجها منه. ولكن الحلم يصبح بالنسبة لنا مصدر أدلّة فيما يخصّ معرفة قسم آخر من الجهاز النفسي. ويتعذر علينا في الواقع أن نشرح تكوين الحلم إذا لم نشأ أن نسلّم قصداً بمرجعين نفسيين، أحدهما يُخضع فاعلية الآخر لنقده، ولذلك نتيجة مفادها أنه يمنعه من أن يبلغ الوعي.

والمرجع النفسي الذي ينقد يقيم علاقة، كما رأينا، أكثر وثاقة مع الوعي من المرجع النفسي موضع النقد. إنه يضرب ستارة بين هذا المرجع النفسي وبين الوعي. وبوسعنا أن نجد بعض نقاط الصوى التي تتيح لنا أن نجعل المرجع الذي ينقد مماثلاً للمبدأ الذي يوجّه حياة اليقظة لدينا، المبدأ نفسه الذي يقرّر أعمالنا الإرادية

(١٢) أوحيت منذئذ أن الوعي يظهر مكان الأثر التذكّري (.G.W، الجزء ١٧ *، ١٩٢٨).

والشعورية. وإذا أحللنا المنظومات محلّ المراجع في اتجاه فروضنا، فإن المنظومة التي يُعهد إليها أمر النقد تأتي في الطرف الحركي. فلْندخل الآن منظومتينا في تخطيطيتنا ولنعبّر باسميهما اللذين نطلقهما عليهما عن العلاقات مع الوعي (انظر الشكل ٣).



وسنسمّي **قبل الشعور** آخر المنظومتين في الطرف الحركي لندلّ على أن ظاهرات الإثارة يمكنها من هنا أن تتوصّل إلى الوعي مباشرة، إذا توافرت بعض الشروط الأخرى، مثل ذلك درجة معيّنة من الشدّة وضرب من التوزيع للوظيفة التي نسمّيها الانتباه. وقبل الشعور هو، في الوقت نفسه، المنظومة التي تحتوي مفاتيح الحركية الإرادية.

ونطلق اسم **اللاشعور** على المنظومة الموضوعة إلى الوراء كثيراً: إنه لا يمكنه أن يبلغ الوعي، **إلا إذا مرّ بقبل الشعور**، وينبغي لسيرورة الإثارة أن تمتثل خلال مرورها إلى بعض التعديلات(١٣).

٩ ـ الجريان والاتجاه الممنوع داخل الجهاز النفسي

في أي من هاتين المنظومتين ينبغي لنا أن نحدّد موقع الاندفاع إلى تكوين حلم؟ فلنقل بغية التبسيط: في منظومة **اللاشعور**. وليس قولنا: إن تكوين الحلم مرغم على أن يرتبط بأفكار من الحلم تنتمي إلى منظومة **قبل الشعور**، قولاً دقيقًا كل الدقّة. ولكننا نتعلّم أن القوة الدافعية للحلم يقدّمها **اللاشعور**، وأننا، بسبب هذا

---

(١٣) النموّ اللاحق لهذه التخطيطية المعروضة خطيًّا ينبغي له أن يأخذ بالحسبان افتراضنا أن المنظومة التي تلي قبل الشعور هي التي يجب أن نعزو إليها **الوعي** ويكون P = C على هذا النحو.

العنصر الأخير (القوة الدافعية)، نسلّم أن منظومة اللاشعور هي نقطة الانطلاق لتكوين الحلم. ومن هنا، تميل الإثارة، شأنها شأن كل وقائع الفكر، إلى أن تستطيل في **قبل الشعور** وأن تتوصّل، بواسطة هذا المرحّل، إلى **الوعي**.

وتعلّمنا التجربة أن هذا الدرب، الذي يقود إلى الوعي من خلال قبل الشعور، ممنوع سلوكه على أفكار الحلم خلال النهار بفعل الرقابة الصادرة عن المقاومة. وهذه الأفكار تسلك هذا الدرب خلال الليل، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه يكمن في أن نعرف بأي درب وبواسطة أي التحوّلات. وإذا كان المقصود بذلك ضربًا من ضعف المقاومة التي تسهر على حدود اللاشعور وقبل الشعور، فإنه سيكون لدينا أحلام مصنوعة من امتثالاتنا ولن يكون لها السمة الهلوسية التي تعنينا في هذه اللحظة.

وانخفاض درجة الرقابة بين المنظومتين اللاشعور وقبل الشعور لا يمكنه إذن أن يشرح لنا أحلامًا كحلم الطفل الذي يحترق، حلم كنا قد طرحناه بوصفه مشكلاً في بداية هذه الدراسة.

وليس بوسعنا أن نصف سير الحلم الهلوسي إلا بقولنا: الإثارة تتبع دربًا تراجعيًّا. إنها تنتقل نحو الطرف الحسّي وتصل في نهاية المطاف إلى منظومة الإدراكات، بدلاً من أن تنتقل نحو الطرف الحركي من الجهاز النفسي. فإذا سمّينا الاتجاه الذي تنتشر فيه السيرورة السيكولوجية عند خروجها من اللاشعور في حالة اليقظة بأنه الاتجاه «التقدّمي»، فإن لنا الحق في أن نقول عن الحلم إنه ذو سمة «تراجعية»(١٤).

---

(١٤) أول ذكر لظاهرة النكوص هذه موجودة آنفًا لدى ألبرت الكبير. فالخيال، يقول، يبني الحلم بصور احتفظ بها من الأشياء المحسوسة. وتنبسط السيرورة في اتجاه عكس اتجاه الحياة في اليقظة (عن ديبجن). ويقول هوبز في كتابه التنّين: «الخلاصة أن أحلامنا هي عكس خيالاتنا في حالة اليقظة، فالحركة تبدأ، عندما نكون مستيقظين، من طرف، ومن طرف آخر عندما نحلم» (جملة إيلّيس).

١٠ ـ سيرورة لا تنتمي إلا إلى الحلم

هـذا **النكوص**[١٥] خاصّة بالتأكيد من الخصائص السيكولوجية لسيرورة الحلم؛ ولكن علينا ألا ننسى أنه ليس وقفًا على الحلم. فالذكرى القصدية، والتفكر، وسيرورات خاصة أخرى من فكرنا السويّ، ذات علاقة أيضًا بالسير إلى الوراء، في جهازنا النفسي، لفعل معقد من أفعال التصوّر نحو المادة الأولى من الآثار التذكّرية الموجودة في قاعدته. ولكن هذه العودة إلى الوراء، في أثناء اليقظة، لا تمضي أبداً بحيث تتجاوز الصور التذكرية؛ فليس لديها القدرة على أن تبعث الحياة مرة ثانية على نحو هلوسي في صور الإدراك. فلماذا يكون الأمر مختلفًا في الحلم؟ ينطوي عمل التكثيف في الحلم[١٦] على فَرَض مفاده أن درجات الشدّة الملازمة للامتثالات تتحوّل خلال عمل الحلم من امتثال على آخر تحوّلاً كليًا. وهذا التعديل في السيرورة النفسية المألوفة هو الذي، ربما، يتيح توظيف نظام الإدراك حتى الحيوية الحسّية التامة، إذ يتبع سيراً عكسيًا، انطلاقًا من بعض الأفكار.

وما نزال بعيدين جداً عن أن نشير إلى أهمية هذه الملاحظات. ولم نفعل سوى أننا أطلقنا اسمًا على ظاهرة يتعذّر شرحها. ونسمّي نكوصًا ذلك الواقع الذي مفاده أن الامتثال يرتدّ في الحلم إلى الصورة التي خرج منها يومًا من الأيام. ولكن هذا الاتجاه يقتضي تسويغًا. فما فائدة إطلاق أسماء إذا لم نتعلّم شيئًا جديداً؟ السبب، في رأيي، أن اسم «النكوص» مفيد لنا بمعنى أنه يربط الواقع المعروف بتخطيطية جهاز نفسي وُهبت اتجاهًا. وهنا إنما ينبغي لتخطيطيتنا أن تقدّم خدمة.

ذلك أنها ستشرح لنا خاصة أخرى لتكوّن الحلم. فإذا حسبنا الحلم نكوصًا داخل الجهاز النفسي كما نتصوّره، فإن بوسعنا أن نفهم بذلك نفسه أن كل سيرورة علاقة في أفكار الحلم تضيع خلال عمل الحلم أو لا تظهر إلا بصعوبة. فسيرورات

---

(١٥) انظر، فيما يخص النكوص، كتاب الكبت: **نمط الدفاعات**، في المجموعة نفسها (ملاحظة لجنة النشر).

(١٦) يجمع التكثيف، في الحلم كما في مختلف تكوّنات اللاشعور الأخرى، عدة عناصر ترابطية في امتثال واحد (ملاحظة لجنة النشر).

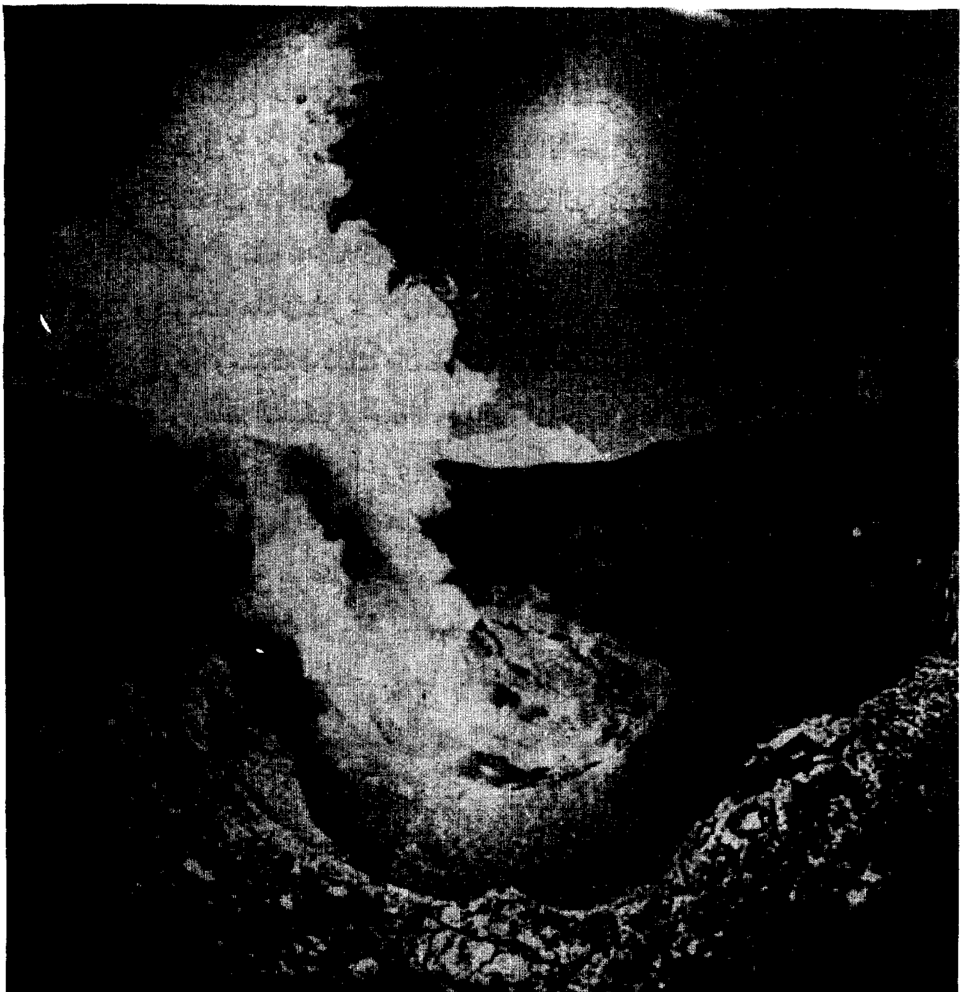
العلاقة ليست محتواة في النظم الأولى S، بل في نظم أخرى أكثر تقدمًا، وهي تتجرّد في النكوص من تعبيرها: لا يبقى إلا صور الإدراك. إن «تجمّع أفكار الحلم يتفكّك خلال النكوص ويعود إلى مادته الأولية».

١١ ـ ثمة ضرورة: أخذ النكوصات الأخرى بالحسبان

ولكن هل أي تغيّر سيسمح بنكوص متعذّر خلال النهار؟ هنا، نستند إلى فروض. ولا بدّ أن يكون الأمر ذا علاقة بتغيّرات في توظيف الطاقة داخل النُظُم المختلفة، التي تصبح عندئذ سالكة قليلاً أو كثيراً لسير الإثارة؛ ولكن المفعول نفسه يمكن بلوغه بطرق شتى في كل جهاز من هذه الأجهزة. ونحن نفكر فوراً بصورة طبيعية في حالة النوم والتغيّرات في التوظيف التي تسبّبها في الطرف الحسي من الجهاز النفسي. وثمة، خلال النهار، تيّار مستمرّ من نظام Ψ للإدراك نحو الحركية؛ ويتوقّف هذا التيار خلال الليل ولا يمكنه أن يضع أي مانع لتيار نكوصي خاص بالإثارة. وسيكون ذلك «القطيعة مع العالم الخارجي» التي ينبغي لها أن تشرح سمات الحلم السيكولوجية. والواقع أن علينا، لشرح النكوص في الحلم، أن نأخذ بالحسبان نكوصات أخرى: النكوصات التي تحدث في الحالات المرضية لليقظة. والرأي الذي قلناه عن هذه الأشكال للتوّ ليس له بالطبع أي سند لدينا. فالنكوص يحدث على الرغم من تيار حسّي مستمرّ في الاتجاه «التقدّمي».

سيغموند فرويد

الفصل الثاني
في قراءة نفس الإنسان



الهو : اهو بركان يوشك أن ينفجر؟

مقدّمة

كان جورغ غروديك، الطبيب، القريب من أوساط التحليل النفسي، تلميذ أرنْسْت شوينْجر ثم معاونه. وكان أرنست، طبيب المستشار بسمارك، ينصح بمعالجة فعّالة إلى الحدّ الأقصى تعتمد على الحمية والتدليك. واحتفظ غروديك بهذه المعالجة دائماً، إذ طبّقها في مصحّته ببادن ـ بادن، وسنرى أن بطلته تشير إلى ذلك.

وينشر غروديك، عام ١٩٢١، كتابه **الباحث في النفس** الذي أثارت فجاجته احتجاجات في كنف رابطة التحليل النفسي السويسرية. ويثمّن فرويد، من جهته، هذا الكتاب: «إنني أدافع بقوة عن غروديك ضدّ أهليتكم للاحترام»، يكتب إلى الراعي فيشتر. «ماذا كنتم ستقولون لو أنكم كنتم من معاصري رابيله؟».

ويظهر **كتاب الهو** (رسائل تحليل نفسي إلى صديقة) لغروديك بعد سنتين في **دار النشر العالمية للتحليل النفسي**. ويتابع فرويد مخطوطة غروديّك من بدايتها إلى نهايتها، لأن غروديك كان يطلعه عليها تباعاً بحسب تأليفها. ويقتبس غروديك كلمة «الهو» من نيتشه؛ ويستخدمها فرويد بدوره عندما يعدّل في السنوات من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٣ تصورّه للجهاز النفسي. ويندمج «الهو» في موقعيته الثانية عام ١٩٢٣، عندما ينشر محاولته «الأنا والهو» بعد بضعة أسابيع من ظهور **كتاب الهو**.

ولا يتجاوز غروديّك مع ذلك نظرية فرويد الأولى في النفس في **كتاب الهو**: وفي رأيه أن **الهو** هو «الكل» الكبير الحيّ الذي ليس اللاشعور ـ يشبّهه بالمكبوت ـ سوى أسلوب من أساليبه: إن الهو واللاشعور لا يتطابقان بالمقابل كلياً بالنسبة لفرويد في موقعيته الثانية.

وإذا كان **كتاب الهو** موضع اهتمام فرويد، فالحقيقة أنه يدلي ببعض التحفّظات مع ذلك: إنها ستكون مندرجة في المخطوطة بوصفها معزوّة إلى «صديقة» مجهولة الاسم. وفي حين أن فرويد يتوجّه إلى رجل، مستخدماً حيلة الرسائل المتبادلة المزعومة لينشر أفكاره، يكتب غروديّك نفسه إلى امرأة. وفي حين أن التحويل الأمومي (أي أن تنزاح على المعالج حالات وجدانية، وانفعالات،

ورغبات، كانت الأم فيما مضى موضوعها) معطى بدهي ومباشر في رأي غروديك، يعمل فرويد بصورة أساسية على التحويل الأبوي، ويبدو عليه بعض التردّد في أن يتصوّر، لدى مرضاه، بديل الأم...

ولا يكمن في ذلك الفارق الوحيد بينهما. فغروديك يكشف غالبًا عن رغبات في الحمْل لدى الرجل، والحسد الذكوري للمرأة على قدراتها. أما فرويد، فإنه يربط هذه الأمور، عندما يضرب عليها أمثلة عيادية (انظر حالة «الرئيس شريبر» أو حالة «الرجل ذو الذئاب»[1]، بالنواة الذهانية الذكورية).

ويقرأ **كتاب الهو**، الحيّ والروحي، شيفرة المعنى الرمزي للتجارب اليومية بوصفها الأمراض الأكثر خطورة. وإذا كان مؤلفه يتكلّم هنا على قصص شعبية أوأغنيات أطفال، فليس ذلك على سبيل المصادفة: إنه يضطلع بصورته اضطلاعاً لايخلو من التألق، صورة «عفريت التحليل النفسي». ألم يكن بطله من جهة أخرى يُسمّى باتريك ترول (أي «عفريت»)؟ وعلى هذا النحو إنما كتب إلى من يوجّه إليها الرسائل، «صديقتي العزيزة جداً»: «فيما يخصّ رسائلي، عليّ أن أفضي إليك بمفتاحها: كل ما سيبدو لك معقولاً أو فقط غير مألوف قليلاً يصدر مباشرة عن الأستاذ فرويد بفيينا، وعن تلاميذه؛ وما سيبدو لك غير معقول تمامًا، فإنني آخذه على عاتقي».

فهل هو مع ذلك محلّل نفسي؟ إنه يرفض على أي حال وضع المحلّل النفسي، مع أن فرويد يسعى جاهداً إلى أن يبرهن له العكس: «ألاحظ أنك ترجوني باستمرار أن أؤكد لك إداريًا أنك لست محلّلاً نفسيًا، وأنك لا تنتمي إلى فرقة المناصرين، ولكن لك الحق أن تجعل الناس يعدونك شيئًا خاصًا، مستقلاً. وأقدّم إليك بوضوح خدمة كبيرة إذا نبذتك بعيداً عني، حيث يوجد الأدلريون واليونغيون وآخرون. ولكنني عاجز عن أن أفعل ذلك، وينبغي لي أن أطالب بك،

---

(١) في **خمس حالات من التحليل النفسي** (المنشورات الجامعية الفرنسية).

وعليّ أن أؤكد أنك محلّل نفسي رائع أدرك ماهية الأمور دون أن يكون بوسعه أن يفقدها» (رسالة ٥ جوان [حزيران] ١٩١٧).

ويعالج غروديّك مع ذلك الأمراض الجسمية كما لو كان المقصود هستيريا التحوّل. فالهيستيري يعبّر عن نفسه بالجسم؛ أما المرض الجسمي فإنه يُحدث ضرراً في الجسم. فهل المقصود سيرورة واحدة في الحالين؟ وهل ثمة لغة، تعبير رمزي مشترك؟ والحال أن هذا هو على وجه الدقة ما يضعه فرويد موضع الاتهام في هذه الرسالة نفسها: «لماذا تتعجّل، منذ أن أرسيت قاعدتك الرائعة في الصوفية، أتلغي الفارق بين الروحي والجسمي؟» ثم يلفت النظر إلى أن من المؤكد أن للعامل النفسي «أهمية كبرى ليست موضع شك في تكوين الأمراض العضوية. ولكنه هل يسبّب هذه الأمراض **وحده**؟ ... يبدو لي أن من الجرأة أن يريد الإنسان إرادة مطلقة أن يضفي صفة الحياة على الطبيعة بقدر ما هو من الجرأة أن يريد بصورة جذرية أن ينزع الصفة الروحية (عن العامل النفسي).» وخلاصة القول إنه يلوم غروديّك على أنه يقلّل من شأن ما يسمّيه هو نفسه «الفروق الرائعة».

وتأليف غروديّك عفوي وآسر بعمق، دون شك. ألا ينجم على وجه الدقة جزء من الإغراء، الذي يمارسه، عن القوة الكلية للهو الذي يريد غروديّك أن يكون الناطق بلسانه؟ ألا يكون تأكيد هذه القوة الكلية تأسيس هيمنة الفكر على الجسم وعلى كل الظاهرات الإنسانية على نحو من الأنحاء؟ ويغذّي نهج غروديّك، في هذا المنظور، استيهام الرغبة الكلية التي مفادها أن تجنّب الموت، كما الخصاء، قد يصبح ممكنًا. ذلك أنه قد يكفي المرء، إذا كان الفكر وحده يُحدث الأمراض ويسبّب دمار الجسم، أن يمتلك المفتاح القادر على أن يلغي مفعولاتها الضارّة ليصبح في نهاية الأمر خالداً.

النصّ

وهكذا فإنني لم أكن واضحًا؛ ورسالتي مبهمة، إنك تريدين أن يكون كل شيء منظّمًا على أحسن ما يرام، لا سيّما أن يكون موضوع الكلام وقائع قام

البرهان عليها حسب الأصول، مفيدة، علمية، وليس أفكاري العويصة التي يبدو لك بعضها مجنونًا كليًا.

ولكن على رسلك، أيتها الصديقة العزيزة جداً، إذا شئت حقًّا أن تتعلّمي، فإنني أنصحك أن تحصلي على هذه الكتب الرائجة في الجامعات. أما ما يخصّ رسائلي، فإنني أفضي لك بمفتاحها: كل ما يبدو لك معقولاً، أو فقط غير مألوف قليلاً، صادر مباشرة عن الأستاذ **فرويد**، من فيينا، وتلاميذه؛ وما سيبدو لك غير معقول كليًا، فإنني أضطلع بأبوته.

١ ـ الإنسان الذي يعيش بالهو

أعتقد أن الإنسان يعيش بشيء مجهول. فيه «هو»، ضرب من الظاهرة التي تسود كل مايفعله وكل ما يحدث له. وجملة «أعيش ...» ليست صحيحة إلا بصورة شرطية؛ ولا تعبّر إلا عن جزء من هذه الحقيقة الأساسية: الموجود الإنساني يعيش بالهو. فرسائلي إنما ستعالج هذا الهو.

ولنقل كلمة أخرى. إننا لا نعرف من هذا الهو إلا ما يوجد منه في شعورنا. والجزء الأكبر ـ بما لا يُقاس! ـ مجال يتعذّر مناله مبدئيًا. ولكن من الممكن لنا أن نوسّع حدود شعورنا بالعلم والعمل وأن ننفذ بعمق إلى لاشعورنا عندما نصمّم على أن «نتخيّل»، لا أن «نعرف». إنك جريء، يادكتوري الرائع فوسْت! فالحجاب يوشك على أن يطير! في طريقه لملاقاة اللاشعور ...

أليس من المدهش أننا لم نعدْ نتذكّر شيئًا من السنين الثلاث الأولى من حياتنا؟ فالواحد، والآخر، منا يلملم من هنا وهناك ذكرى ضعيفة من وجه، من باب، من ورق جدران، يعتقد أنه رآها في طفولته الأولى. ولكنني ما أزال لم أصادف شخصًا يتذكّر خطواته الأولى، وطريقة تعلّمه الكلام، والأكل، والرؤية والسمع. وهي مع ذلك أحداث حقيقية. وسأعتقد عن طيب خاطر أن الطفل الذي ينطلق للمرة الأولى عبر غرفته يشعر بانطباعات أكثر عمقًا من راشد خلال سفر في إيطاليا. وأتصوّر دون عناء أن الطفل الذي يتعرّف أمه فجأة في هذا الموجود الذي

يبتسم له بحنان يحسّ بانفعالات أكثر عمقًا من انفعالات رجل يرى محبوبته الغالية تعبر للمرة الأولى عتبة باب بيته. فلماذا ننسى كل ذلك؟

٢ ـ هذه التجارب «منسيّة» وهي حيوية مع ذلك...

فيما يخصّ هذا الأمر، ثمة كثير يُقال. ولكن فلْنبدأ، قبل أن نجيب، بأن نستبعد اعتراضًا أول: السؤال مطروح طرحًا سيئًا. إننا لا ننسى هذه السنين الثلاث الأولى؛ فالذكرى، ذكراها، تغادر الشعور. وتستمرّ حياتها في اللاشعور، وتظلّ فيه بحيث أن كل ما نفعله ناجم عن هذا الكنز من الذكريات الماضية اللاشعورية: إننا نمشي كما تعلّمنا أن نمشي في ذاك العصر، ونأكل، ونتكلّم، ونحسّ بالطريقة التي مشينا بها فيه وتكلمنا وأحسسنا. فثمة إذن ذكريات طردها الشعور، مع أنها ذات أهمية حيوية وحُفظت، لأنها لا غنى عنها، في مناطق من وجودنا سُمّيت باسم اللاشعور. ولكن لماذا ينسى الشعور تجارب لم يكن بمقدور الموجود الإنساني أن يستمرّ في حياته لولاها؟

أيمكنني أن أترك هذا السؤال دون جواب؟ سأكون أيضًا مرغمًا في الغالب على العودة إليه. ولكنني أحرص في الوقت الراهن حرصًا أكبر، وبما أنك امرأة، على أن تعلّميني لماذا تكون معلومات الأمهات عن أطفالهن قليلة بهذا القدر، ولماذا ينسين، هن أيضًا، ذلك الأساسيّ من هذه السنوات الثلاث؟ ربما يتظاهرن بذلك فقط. إلا إذا كان الأساسيّ، لديهن أيضًا، لا يبلغ شعورهن...

٣ ـ اللاشعور: ملك مطلق

يمرّ الأساسيّ، فيما يخصّ الطب النسائي، خارج الشعور؛ والذكاء الاستدلالي هو الذي يختار الطبيب الذي ترضى المرأة أمامه أن ترقد، ويراقب الثياب الداخلية ويقرّر أنها جميلة إلى حدّ كاف، ويلجأ إلى المطهرة والصابون؛ ولكن القصد الشعوري، بحسب الطريقة التي تتمدّد بها الآن، يتنازل عن مكانه واللاشعور هو الذي يتصرّف؛ وهو الذي يتصرف في اختيار المرض نفسه وفي رغبة المرء أن يكون مريضًا. ذلك إنما هو شأن الهو على سبيل الحصر. ذلك أن الهو

اللاشعوري، وليس العقل الواعي، هو الذي يسبّب الأمراض. فمصدرها ليس الخارج، كأعداء، إنها تكوينات ملائمة لكوننا الصغير، الهو لدينا، عقلانية شأنها شأن بنية الأنف والعينين، بنية هي نفسها أيضًا نتاج الهو. أو هل تجدون غير مقبول أن يكون بوسع موجود، يصنع بخيوط دقيقة من المنيّ وبويضة إنسانًا له دماغ الإنسان وقلب إنسان، أن يسبّب سرطانًا، ذات رئة أو نزولاً من الرحم؟

فلنقل عابرين وعلى سبيل الشرح، لا أتخيّل لحظة أن امرأة تتعرّض إلى إنتانات بطنية خبثًا أو مكراً. وليس هذا ما أريد قوله. ولكن الهو، اللاشعور، يفرض عليها هذا المرض ضدّ إرادتها الواعية، لأن الهو ماكر، والهو خبيث ويطالب بحقه. فذكّريني إذن بهذه المناسبة حتى أقول لك شيئًا فيما يخصّ الأسلوب الذي به ينفّذ حقه في الاستمتاع في الخير كما في الشر.

وقناعتي، فيما يخصّ سلطة اللاشعور وعجز الإرادة الواعية، هي من القوة بحيث أنني أمضي إلى حدّ أحسب الأمراض المصطنعة مظاهر اللاشعور؛ وأن يعدّ المرء نفسه مريضًا هو، بالنسبة لي، قناع تحتجب خلفه مجالات واسعة من أسرار الحياة التي يتعذّر تصورّ مداها. وبهذا المعنى، سيّان بالنسبة للطبيب أن يكذب المريض عليه أو يقول الحقيقة، شريطة أن يزن تصريحات المريض بهدوء وموضوعية، وأن يفحص لسانه، وسلوكه، وأعراضه، ويعكف على أن يحلّ المشكل بطريقته حلاً شريفًا...

٤ ـ الكلام بلسان الهو:

ما أصعب مشروع الكلام على الهو! نَبُضّ وترعود بالمصادفة، فتصدر منه، بدلاً من صوت واحد، عدة أصوات رنينها يختلط ثم تصمت إلى أن تحدث بلبلة غريبة حيث تضيع فيها هسهسة الكلام. صدّقيني، لا يمكننا أن نتكلّم على اللاشعور؛ ولا يمكننا إلا أن نفهم، أو، بالحري، أن ندلّ بصوت خفيض على هذا أو ذاك حتى لا ينبعث الرعاع الجهنميون للكون اللاشعوري من الأعماق وهم يطلقون ضروبًا من الصراخ النشاز.

ويفكّر الهو، اللاشعور، بالرموز وبينها يوجد رمز يستخدم الهو وفقه بالمعنى نفسه الأعضاء الجنسية والطفل. فالأعضاء الجنسية الأنثوية هي، بالنسبة له، هذا الشيء الصغير، البنت الصغيرة، البنيّة، الأخت الصغيرة، الصديقة الصغيرة؛ والأعضاء الجنسية المذكّرة هي الرجل الصغير، الصبي الصغير، الولد، الأخ الصغير. وقد يبدو ذلك غريباً، ولكن الأمور هي على هذا النحو. والآن، تفضلي وافهمي دون تكلّف أحمق للحشمة ولا خجل كاذب، كم يحبّ الموجود الإنساني أعضاءه الجنسية، وينبغي له أن يحبها، لأنه منها إنما يتلقّى في نهاية المطاف كل متعة، كل حياته. وليس بوسع هذا الحب أن يبدو لك أبداً كبيراً جداً وهذا الحب الكبير هو الذي يحوّله الهو ـ التحويل إحدى خاصيّاته أيضاً ـ على الطفل...

كتبت لك أن الكلام على الهو كان صعباً. وعندما يكون الكلام عليه، تصبح كل الكلمات وكل المفاهيم غير ثابتة، غير واضحة المعالم، لأن من طبيعته أن يُدخل في كل تسمية وكل فعل مجموعة من الرموز يربطها بهما ويقرن بهما أفكاراً من نسق آخر، بحيث أن ما يبدو للعقل بسيطاً كل البساطة يكون معقّداً جداً بالنسبة للهو. فليس ثمة مفهوم محدّد في ذاته بالنسبة له؛ إنه يعمل على أنساق من المفاهيم، مع عقد تحدث بواسطة درب الهوس في الترميز والترابط...

٥ ـ سُبُل الترابط اللفظي

الأكثر إرباكاً هي دروب التفكير العلمي. وقد مرّ زمن طويل، في الطب، نتكلّم خلاله على أعمال وحركات ترابط. ويعكف علم النفس على تعليم هذا الشيء أو ذاك فيما يخصّ الترابط. وارتفعت في كل البلدان صرخات من الحقد عندما انكبّ فرويد جدّياً ومن يحيطون به، وكانوا يحيطون، على ملاحظة الترابطات وجعلوها مشتقّة من الحياة النفسية الغريزية وبرهنوا على أن الدوافع والترابطات ظاهرات أصلية، أحجار الزوايا في كل معرفة وكل تفكير، وكل علم، وتصرّف بعضهم كما لو أن أحداً كان يريد تدمير بناء العلم حين اكتشف التربة التي يرتكز عليها. تلك أنفس خائفة! فأسس العلم أكثر دواماً من الغرانيت؛ فالجدران،

والصالات، والسلالم المبنيّة منه تُبنى منه مجدّداً عندما تنهار، هنا وهناك، بعض أعمال البناء المبنيّة على نحو صبياني.

أتريدين أن يحدث «ترابط» بيني وبينك؟ صادفت اليوم بنتًا صغيرة تعتمر طرطوراً أحمر. ونظرت إليّ بدهشة؛ لم تكن نظرتها عدائية، ولكنها نظرة دهشة، ذلك أنني، بسبب البرد، كنت أعتمر قلنسوة سوداء تغوص بعمق على أذنيّ. ولابدّ لشيء من أن يكون قد أثّر فيّ عند رؤية هذه الطفلة: كنت أرى نفسي فجأة في السادسة أو السابعة من عمري أعتمر وشاحًا صوفيًّا ذا شرابات صغيرة. وعليه، خطر ببالي القُبْع الأحمر، وفجأة كنت أتذكّر بيتًا من الشعر من أغنية طفلية: ثمة رجل صغير في الغابة وحده يقف على ساق واحدة، إلخ. ومن هناك انتقلت إلى القزم وطرطوره، ثم إلى الراهب الكبّوشي، وأخيراً فهمت أنني كنت، خلال زمن ليس بالقصير، أسير في شارع الرهبان الكبّوشيين. فالترابطات رجعت إذن أدراجها كحلقة. ولكن لِمَ كان ذلك ولماذا عُرضت في هذا التعاقب؟ كان عليّ أن أمرّ في شارع الرهبان الكبوشيين، وذلك كان مفهومًا. وصادفت الطفلة؛ ولكن كيف نشرح أني تجنّبتها وأن رؤيتها أيقظت في نفسي سلسلة من الأفكار؟

٦ ـ من الذكرى إلى اكتشاف عقدة

خلال اللحظة التي كنت أخرج فيها من بيتي، غاص بعمق قزمان مؤنثان في قلنسوة الفراء التي كنت أعتمرها غائصة حتى أذنيّ، فقال فم امرأة: «جيّد، أيها الملك الوحيد، لن تُصاب بالبرد وأنت تعتمر هذه القلنسوة. وكانت أمي تعقد فيما مضى وشاح الصوف ذا الشرّابات الصغيرة على رأسي وهي تنطق هذه الكلمات. إن أمي أيضًا هي التي قصّت عليّ قصة القُبع الأحمر الصغير، وكنت أراه هناك، أمامي بنفسه. والناس كلهم يعرفون قصة القبع الأحمر. ويخرج الرأس الأحمر الصغير من حجاب القُلْفة، فضوليًّا، كلّما يبول صاحبه ويمارس الحب، والرأس الأحمر نفسه يتمدّد نحو أزهار المرج، وينتصب مستقيماً على ساق واحدة كالفطر، كالرجل الصغير في الغابة مع طرطوره، والذئب الذي يدخل فيه ليخرج من بطنه

المفتوح بعد تسعة أشهر هو رمز لنظريات الطفولة في الحمل والولادة. تذكّري أنك اعتقدت، أنت، بهذا الانفتاح للبطن. ولكنك ما عدت تتذكرين دون شك، أنت أيضًا، أنك كنت تقتنعين اقتناعًا جازمًا أن الموجودات الإنسانية كلها، بما فيها النساء، كانت مزوّدة بشيء صغير مثل ذلك، مع قُبْع أحمر، وأنه كان قد انتُزع منك وكان لا بدّ لك من أن تأكليه، على نحو من الانحاء، لتُخرجي منه الأطفال. ولدينا، نحن أناس الترابطات، تُصنّف هذه النظرية باسم عقدة الخصاء، وسمعت أنت الناس يتكلّمون عليها كثيرًا. فمن القبع والفطر لهامبرْدانْك[2]، ننتقل بسهولة إلى القزم وطرطوره، ومن هناك، ليس ثمة بعدٌ عن الراهب والطرطور الصغير. فبين الفكرتين، ثمة رجْع لعقدة الخصاء: ذلك أن القزم الشيخ جداً ولحيته الطويلة يمثّلان الشيخوخة العاجزة المتغضّنة والراهب يوضّح التخلّي الإرادي اللاإرادي بصورة رمزية. وكل شيء واضح حتى هنا؛ ولكن كيف تخطر على بالي أفكار الخصاء هذه؟ نقطة الانطلاق لكل ذلك، تذكّري، كانت مشهداً يذكّرني بأمي والحلقة النهائية كانت شارع الرهبان الكبّوشيين. وفي هذا الشارع، شارع الرهبان الكبوشيين، كنت قد عولجت، منذ سنين، من مرض الكليتين؛ وكنت على وشك الموت، وعندما أنقّب في أعماق لاشعوري، أعتقد أن هذا المرض البولي كان ناشئًا من شبح حَصَر الاستمناء الذي يرتبط، في نهاية المطاف، لا أعلم بأي دافع ذي علاقة بأمي عندما كانت تُخرج القزم الصغير بعناية من كهفها حتى يمكنه أن يجعل البول ينبعث. إنني أفترض ذلك، ولا أعلم. ولكن الفطر المعزول مع الطرطور الأحمر الصغير يجعلني أفكر بالاستمناء والوشاح الأحمر ذا الشرابات الصغيرة بالرغبة في غشيان المحارم.

٧ ـ اللاشعور والألغاز الكبيرة للحياة

ألم تصبك الدهشة من السُبُل المتعرّجة حيث يجرّني هوسي في تفسير

---

(٢) هامبرْدانك ... مؤلف موسيقي ألماني في نهاية القرن التاسع عشر، تلميذ واغنر ومساعده خلال زمن قصير (ندين له جزئيًا بالتوزيع الموسيقي لـ parsifal)، ألّف لطفليه **هانْسلْ وغروتلْ** قطعة موسيقية رائعة عن قصة من قصص الجنيّات تحتوي كل الضروب من الأغاني الشعبية الطفلية الألمانية.



الجسم مصدر لا ينفد من الرموز. فما معنى القُبّع الأحمر في قصص الأطفال الكثيرة؟

الترابطات بين الأفكار؟ ليس ما قلته سوى البداية، ذلك أنني أجرؤ حاليًّا على التأكيد أن القصص مولودة، ولا بدّ لها من أن تكون مولودة من وسواس الترابط والترميز، لأن لغز التزاوج، والحمل، والولادة، والبتولية، عذّب النفس الإنسانية بفعل حالات وجدانية إلى أن اتّخذ شكلاً شعريًّا، وذلك أمر يتعذّر تخيّله؛ وأجرؤ على الزعم أن الأغنية الطفلية والشعبية لـ «الرجل الصغير في الغابة وحده» مستمدّة في تفاصيلها من ظاهرة شعرانية العانات والانتصاب بالترابطات اللاشعورية، وأن الاعتقاد بالأقزام ينبغي أن يكون مصدره الترابط غابة ـ شعر العانة، الترهّل ـ قزم متغضّن، وأن حياة الرهبنَة وثياب الراهب عاقبة لاشعورية للتراجع أمام غشيان المحارم مع الأم. فاعتقادي بالترابطات والرموز يمضي إلى هذا الحدّ وحتى إلى أبعد كثيراً.

٨ ـ الكبت وضروب انتقام الهو

والآن، الكبت: بعد أن صرّحتِ كتابةً أن إحدى صديقاتك الصبايا كانت لها ندبة فوق عينها اليسرى «كأختي سوز على وجه الدقّة»، أضفتِ: «الواقع أني لاأعرف إن كانت ندبة أختي إلى اليمين أو إلى اليسار». عجبًا، لماذا لا تعرفين ذلك، في حين أن المقصود أحد كان قريبًا جداً منك، رأيته كل يوم خلال عشرين سنة وكنت أنت المسؤولة عن هذه الندبة؟ ألم تسبّبي لها هذه الندبة «مصادفة» بالمقصّ وأنت تلعبين؟ وفي رأيي أن ذلك لم يحدث «بالمصادفة» على سبيل الحصر. أتتذكرين أننا تحدّثنا عن ذلك سابقًا واعترفت أن ذلك كان يتضمّن ضربًا من القصد؛ ثمة عمّة كانت قد أطرت عينيّ سوز وشبّهت عينيك، على سبيل الإغاظة، بعينيّ هرّ المنزل. وكونك تجهلين أين توجد الندبة فوق العين اليسرى أو اليمنى أمر ناجم عن تأثير الكبت. وكان هذا الاعتداء على عينيّ أختك الجميلتين مقيتًا، عندما لم يكن إلا بسبب ذعر والدتك وضروب لومها. فحاولتِ محو ذكرى الحادثة، وكبتّها، ولم تفلحي إلا جزئيًّا: إنك لم تطردي من شعورك إلا ذكرى المكان الذي كانت الندبة توجد فيه. ولكن بوسعي أن أقول لك إن الندبة كانت على اليسار في

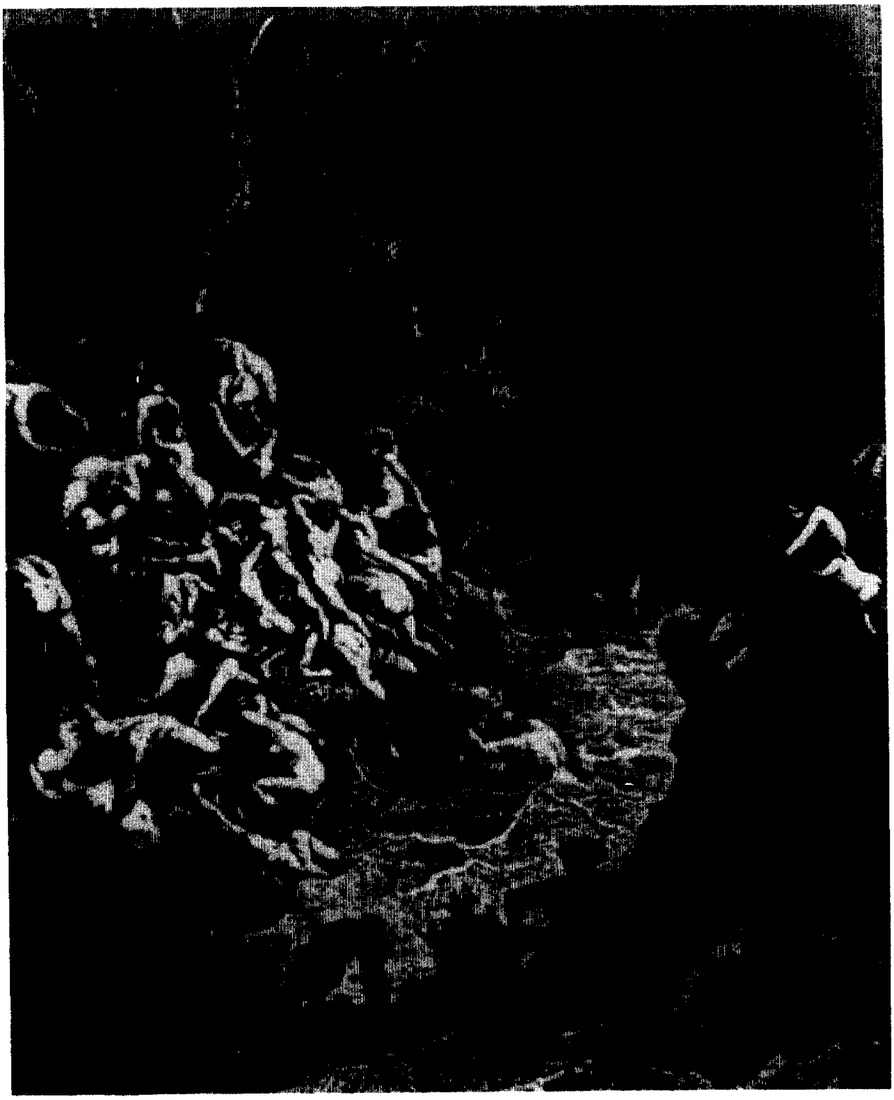
الواقع. فكيف أعرف ذلك؟ لأنك أفضيت إلي أنك تعالجين، منذ موت أختك، ومثلها تمامًا، آلامًا في الرأس تقع إلى الجهة اليسرى وانطلاقًا من العين، وأن عينك اليسرى، فضلاً عن ذلك، تبتعد من وقت إلى آخر عن الخط المستقيم قليلاً ـ وذلك يريحك ولكنه حقيقي مع ذلك ـ ابتعادًا كما لو أنه بحثٌ عن العون، وتحوّل نحو الخارج. إنك في زمن الحادثة حاولتِ ـ باختراع كلمة «مصادفة». ـ وضع الحق إلى جانبك، ونقلت بالخيال جرح الفضيحة من الجهة الخبيثة إلى الجهة المحبّبة إلى النفس، إلى الجهة اليمنى المناسبة. ولكن الهو لا يستسلم للخديعةِ: إنه أضعفَ، ليبيّن لك أنك كنت قد أسأت التصرف، عصبًا من أعصاب عضلات العين، إذ حذّرك أن لا تبتعدي عن الصراط المستقيم. وعندما ماتت أختك، ورثت آلام الرأس هذه من الجهة اليسرى، التي كانت دائمًا قاسية جداً. وفي الزمن البعيد، زمن الحادث، لم تتعرّضي إلى عقوبة، ربما لأنك ارتجفت كثيرًا، خوفًا من ضربات العصا، فأشفقت عليك أمك؛ ولكن الهو يقتضي أن يعاقَب على فعلتك وعندما يُصاب بالإحباط بفعل الشعور بالسعادة في الألم، يثأر يومًا من الأيام من نفسه؛ عاجلاً أو آجلاً، ولكنه يثأر من نفسه، وبعض الأمراض الخفيّة تكشف عن أسرارها عندما يستجوب «هو» الطفولة عن ضرباتٍ على الإليتين متجنّبة...

٩ ـ حوادث، أمراض: ابتكارات الهو

لو لم أكن أخشى عليكِ من التعب، لغزوت الآن عن طيب خاطر غزوة في مجال علم الخطوط ولأخبرتك بعض النوادر الصغيرة التي تدور حول الأحرف (أحرف ألفباء). ولا أعدك مع ذلك أنني لن أعود إلى هذه المسألة. وأودّ اليوم فقط أن أطلب إليك أن تتذكّري أننا جميعنا، في طفولتنا، قد رسمنا خلال ساعات أحرف a، o، u، مرات كثيرة وأننا كنا مرغمين، لنتحمّل ذلك، على أن نضع أو نرى في هذه العلامات كل ضرب من الأشكال والرموز. حاولي أن تصبحي طفلاً من جديد، وربما سينبعث فيك سيلاً من الأفكار عن ولادة الكتابة وستُطرح

مسألة مفادها أن نعرف إن كنت أكثر غباء من علمائنا. ولم يبلغ العلم وحده أيضاً مستوى الهو، و... ـ ولكن الحقيقة أن رأيي في العلم ليس ملائماً!

وخطر ببالي بعض المغامرات ذات العلاقة بالإشباع الذاتي. وحدث لي مرة أن تخاصمت مع واحدة من صديقاتي اللطيفات ـ إنك لا تعرفينها، ولكنها ليست من تشكيلة الغبيّات ـ لأنها كانت تصرّ أنها لا تعتقد أن الأمراض ابتكارات الهو، أرادها الهو وأثارها. «الحالة العصبية أو الهستيريا كما تشاء. أما الأمراض العضوية ... !» ـ ورددّت، «والأمراض العضوية أيضًا». ثم في اللحظة التي أتهيأ خلالها لأن أجعلها تتمتّع بخطابي المفضّل وأشرح لها أن التفريق بين «عصبي» و«عضوي» لم يكن سوى اتّهام ذاتي من جانب الأطباء وأنهم كانوا يريدون أن يعبّروا بذلك عن «أنهم يجهلون كثيراً السيرورات الكيميائية، والفيزيولوجية للحالة العصبية؛ وأنهم يعلمون فقط أنها موجودة وأنها تقاوم كل بحوثنا؛ وهم يستخدمون بالتالي كلمة «عصبي» لجعل الجمهور يلمح جهلهم، وليبعدوا عنهم هذه الشهادة المقيتة على عجزهم.» وتابعت عندئذ، حينما كنت سأقول لها ذلك: «والحوادث أيضًا؟» ـ «نعم، الحوادث أيضًا». ـ «سأكون فضولية لأن أعرف»، قالت لي عندئذ، «الهدف الذي يلاحقه الهو لديّ عندما جعل ذراعي اليمنى تنكسر! ـ أما زلت تتذكرين على أي نحو حدث الحادث؟ ـ بالتأكيد. كان ذلك في برلين، في شارع لايبزغ. كنت أريد أن أدخل دكان منتجات من المستعمرات، تزحلقت وكُسرت ذراعي. ـ أتتذكّرين ما استطعت رؤيته في هذه اللحظة؟ ـ نعم، كان ثمة أمام المخزن سلة من الهليون». وفجأة، أصبحت خصمي مفكّرة. «ربما تكون محقًّا!» قالت وقصّت عليّ حكاية لا أريد أن أطيل الكلام فيها، ولكنها كانت تدور حول التشابه بين الهليون وعضو الذكر وأمنية المصابة بالحادث. فكان كسر الذراع محاولة ناجحة لنجدة أخلاقية متداعية. فالمرء لا يفكر أبداً، وذراعه مكسورة، ببعض الرغبات.



الطوفان : «جسم» الإنسانية يُعاقب لمغالاته في ارتكاب الخطايا ...

١٠ ـ الحافزان اللاشعوريان لكسر الذراع

ثمة حادث آخر كان يبدو أول الأمر أنه يبتعد كثيراً عن عقدة الاستمناء. هناك امرأة تنزلق على قارعة الطريق المغطاة بطبقة رقيقة من الجليد وتنكسر ذراعها اليمنى. وزعمت أنها رأت لحظةً قبل سقوطها رؤيا. وربما رأت شبح سيدة ترتدي لباس المدينة الذي كانت قد رأتها غالبًا ترتديه؛ وكان رأس ميت تحت القبعة بدلاً من وجه. ولم يكن أمراً صعبًا أن يُكتشف أن هذه الرؤيا كانت تحتوي رغبة. كانت هذه السيدة صديقتها الأكثر صميمية، ولكن هذه الصداقة كانت قد تحولّت إلى كره قويّ كان قد تلقّى اندفاعًا جديداً حين وقوع الحادث. وتأكّد فَرَض عقوبة ذاتية، وبخاصة أن المريضة قصّت عليّ أنها رأت رؤيا مشابهة؛ والكلام على امرأة أخرى ماتت حين حدثت هذه الرؤيا. فكان كسر الذراع يبدو إذن مبرّراً على نحو كافٍ، حتى بالنسبة لمنقّب عن الأنفس مثلي. ولكن التوضيح اللاحق بان لي أفضل ذريعة. فكسر الذراع شُفي بصورة طبيعية؛ وظهرت بعد ثلاث سنين مع ذلك، بفواصل زمنية غير منتظمة، آلام تسوّغها تسويغًا جزئيًّا تغيّراتُ الطقس والإرهاق. وبدا بالتدريج وجود عقدة عادةٍ سرية بارزة جداً، أخذت استيهامات القتل مكانها فيها: كانت هذه العقدة كريهةً لدى المرأة المريضة إلى حدّ كانت تفضّل أن تمنح رؤاها المرعبة أولوية وأن تكتسب على هذا النحو تحريراً لدوافعها، دوافع الإشباع الذاتي، دون أن يصبح الاستمناء شعوريًّا مع ذلك.

١١ ـ تاريخ عقوبة فرضها الهو

إنك تريدين، بوصفك تلميذة متحمّسة، أن تعرفي لماذا أقصّ عليك، بدلاً من أن أستمرّ في أن أعرض عليك أفكاري بصدد اللعب بسلسلة الساعة(٣)، حكايات لا علاقة لها بذلك. وبوسعي أن أقدّم إليك شرحًا مسليًا لذلك. كتبت إليك، منذ بضعة أيام، بما أني كنت قد بدأت هذا التحليل الذاتي الصغير: «أمسك

(٣) في رسالة سابقة، كان «باتريك ترول» قد أقام علاقة بين ضرب من ضروب هوسه، اللعب بسلسلة الساعة، والثنائي استمناء/ موت (ملاحظة لجنة الإشراف).

باليد اليمنى ريشة كتابة؛ وألعب باليسرى بسلسلة الساعة.!.» وكنت مستمراً في التصريح أن كلتيهما كانتا عقدتي استمناء. ثم تابعت: «نظرتي متوجّهة نحو الحائط المواجه، على نسخة هولاندية من لوحة رامبرانت المعنونة «ختان يسوع المسيح». ولم يكن ذلك صحيحاً على الإطلاق: النسخة كانت مصنوعة وفق رسم زيتي من عرض يسوع المسيح في المعبد بحضور جمهور. ولم يكن ثمة بدّ من أن أعرف ذلك؛ والواقع أنني كنت أعرفه، ذلك أنني نظرت إلى هذه النسخة آلاف المرات. وأرغمني الهو مع ذلك على أن أنسى ما كنت أعرفه وعلى أن أحوّل هذا العرْض إلى ختان. فلماذا؟ لأنني كنت فريسة عقدة العادة السرية، لأن العادة السرية مدانة، لأنها تُعاقب بالخصاء ولأن الختان خصاء رمزي؛ وبالمقابل، نبذ الهو نبذاً سلطوياً فكرة أن الطفل يسوع كان معروضًا في المعبد لكل العيون؛ ذلك أن هذا الصبيّ الصغير، شأنه شأن الصبيان الصغار كلهم، رمز عضو الرجولة، والمعبد رمز أمومي. وإذا كان موضوع النسخة قد نفذ إلى شعوري، بفعل ضربٍ من تقارب مع اللعب بسلسلة الساعة وريشة الكتابة، فذلك كان يعني: «إنك تلعب بالصبيّ الصغير الرمزي بمعرفة الجميع وعلى مرأى منهم وأنت خائن لأن هذا اللعب الاستمنائي يتوجّه، في نهاية المطاف، إلى صورة الأم كما رمز إليها رامبرانت على شكل معبد يسبح في ضوء خافت تكتنفه الأسرار». وكان ذلك غير محتمل بالنسبة للهو بسبب التحريم المزدوج للاستمناء وغشيان المحارم، وفضّل اللجوء في الحال إلى العقاب الرمزي.

١٢ ـ من القصة إلى الأسطورة

أعتقد بطيب خاطر بالحريّ أن ثمة علاقات بين طقسيّ الختان والخصاء، طقسيّ يرتبط تأسيسه باسم إبراهيم. ونحن نعرف من حياة إبراهيم تلك القصة الغريبة للتضحية بابنه: كان الرب قد أمره أن يذبح ابنه؛ وكان إبراهيم قد حضّر نفسه لتنفيذ الأمر، ولكن ملكًا منعه عن ذلك في اللحظة الأخيرة وضُحّي بكبش بدلاً من ابنه. وبوسعكِ أن تستنتجي، مع قليل من الإرادة الطيّبة، من هذه القصة

أن التضحية بالابن تمثّل استئصال عضو الذكر، الذي يشخّصه الابن تشخيصًا رمزيًا. وتعبّر هذه القصة دون شك عن أن التضحيات بالحيوانات حلّت، في مرحلة زمنية معيّنة، محلّ الخصاء الذاتي لخادم الله، خصاء ذاتي نجد مجدّدًا أثره في أمنية العفّة لدى كهنة الكاثوليك؛ والكبش يصلح لهذا التفسير للرمز لا سيّما أن الخصاء كان، دائمًا، متّبعًا في تربية الخراف. فواقعة صكّ الختان المعقود بين يهوه وإبراهيم ليست، إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية، سوى تكرار على شكل آخر للقصة الرمزية، نسخة من هذه النسخ الأصلية المتواترة في التوراة وغير التوراة. وسيكون الختان إذن ما يبقى رمزيًا من الخصاء المقتضى من خدم الرب. ومهما يكن من أمر، فالختان والخصاء هما، بالنسبة للاشعوري ـ وذلك هو وحده الذي يؤخذ بالحسبان في هذا الالتباس بين الختان والعرض ـ، قريبان، بل متماثلان، ذلك أنني فهمت نسبيًا، شأني شأن آخرين كثيرين، فهمًا متأخرًا أن مخصيًا، طواشيًا، كان مختلفًا عن مختون...

١٣ ـ كيف أصبح ترول ـ غودّيك تلميذ فرويد

حاليًا، تلكم الطريقة التي أصبحت بها تلميذ فرويد. بعد أن رفعتني السيدة ج(٥) إلى مرتبة الطبيب ـ الأم، أصبحت أكثر اطمئنانًا. ورضيت أن تخضع لكل ضرب من ضروب «المشاغل» كما كان تسمّي فاعلياتي، فاعليات المدلّك، ولكن صعوبات المحادثة ظلّت قائمة. واعتدت بالتدريج ـ على سبيل اللعب، كنت أقول لنفسي ـ على موارباتها وكناياتها عن موصوف أو صفة. ولاحظت، مع دهشتي الكبيرة، بعد بعض من الزمن، أنني كنت أرى أمورًا لم أكن أراها فيما مضى. وكنت قد اطّلعت على الرموز. ولا بدّ لذلك أن يكون قد جرى على نحو غير محسوس ذلك أنني لا أتذكّر بأي مناسبة أدركت للمرة الأولى أن الكرسيّ لم يكن فقط كرسيًا، ولكنه يمكنه أن يكون عالـمًا، وأن إبهام الأب موجود، وأن بوسعه

(٥) كان القاصّ قد كتب سابقًا إلى محدثيه أن «هذه السيدة، ذات المرض الخطير، كانت قد أرغمته على أن يصبح محلّلاً نفسيًا». فتحويلها عليه، اعترف فيما بعد، كان قد جرى بسهولة: إنها «كانت ترى فيه الأم»؛ وكانت تستخدم أخيرًا، بدلاً من تسمية الأشياء تسمية شائعة، كنايات عن موصوف أو صفة، قائلة، على سبيل المثال، «الشيء للأثواب» بدلاً من «خزانة» (ملاحظة لجنة الإشراف).

أن ينتعل جزمًا من مقاييس مختلفة ثم أن يصبح على شكل إصبع إشارة (السبّابة) ممتدّة، رمز الانتصاب؛ وأن فرنًا حاميًا امرأةٌ ملتهبة وأن قسطل الموقد هو الرجل؛ وأن اللون الأسود لهذا القسطل يسبّب ضروبًا من الرعب يتعذّر التعبير عنها، لأنه لون الموت، لأن هذا الموقد البريء يمثّل العلاقات الجنسية بين رجل ميت وامرأة حيّة.

ولكن لماذا أُكثر من القول عن ذلك؟ إن نشوة استولت عليّ، لم أكن قد خبرتها قطّ من قبلُ ولن أجدها مجددًا فيما بعد. فالرمز كان ما تعلّمته أول الأمر من علم التحليل النفسي ولم يتركني قطّ. وانقضت خمس عشرة سنة منذ ذلك الزمن، وعندما أُلقي نظرة إلى الخلف، أراها زاخرة بالكشوف المثيرة للاهتمام في الرمزيّ؛ سنين طافحة، مؤثرة، متنوّعة على نحو رائع وتتلألأ بالألوان. فالقوة التي بها حولّتني هذه الغزوة في عالم الرموز لا ينبغي أن تكون ذات مثيل، ذلك أنها كانت، منذ الأسابيع الأولى لتعلّمي، تدفعني مسبقًا إلى أن أطارد الرموز في التحوّلات العضوية من المظهر الإنساني، التي قادها ما اتُّفق على تسميته المرض العضوي الجسمي. فأن تكون الحياة النفسية ترميزًا مستمرًّا أمر كان من الوضوح في نظري بحيث أنني أقصيت بنفاد صبر تلك الكتلة المزعجة من الأفكار والعواطف الجديدة ـ فيما كان يخصّني على الأقلّ ـ حتى أنطلق بسرعة جامحة في أثر المفعول، الذي يُحدثه الكشف عن الرموز، على الأعضاء المريضة. وهذا المفعول كان، فيما يخصّني، ينتمي إلى السحر.

١٤ ـ مفعولات المقاومة: الخيبات الأولى

تخيّلوا أن ورائي كان ثمة عشرون عامًا من الممارسة الطبية المخصّصة لمعالجة حالات مزمنة ميؤوس منها، إرث من شوينْنجر. وكنت أعلم على وجه الدقة الكبيرة ما كان ممكنًا أن يحصل بفعل النهج القديم ولم أكن أتردّد في أن أضيف ضروب الشفاء الإضافية إلى رصيد معرفتي بالرموز، التي كنت أطلقها كإعصار على المرضى. وكان زمنًا رائعًا.

وعلّمتني مريضتي، كما علّمتني الرموز في الوقت نفسه، أن أتآلف من الناحية العملية مع تميّز آخر للفكر الإنساني: وسواس الترابطات. ومن المحتمل أن تكون عوامل أخرى قد أدّت دورها أيضًا في ذلك: مجلات، تقارير شفهية، ثرثرات، إلخ. ولكن الأساسيّ كان قد أتى من الآنسة ج. وجعلتُ زُبُني في الحال يفيدون من الترابطات. واستمرّ ذلك إلى حدّ كاف في عاداتي الطبية ليجعلني أرتكب بعض الأخطاء، ولكنه كان يبدو لي في هذا الزمن ممتازًا.

وطالما دام ذلك. ولكن سرعان ما انبعثت صدمات مرتدّة. فثمة قوى خفيّة انتصبت تعارضني، أمور تعلّمت أن أسمّيها، بتأثير فرويد، باسم المقاومة فيما بعد. وسقطت مجددًا خلال بعضٍ من الزمن في طريقة الأمر، وعوقبت بإخفاقات وانتهيت بمشقة إلى أن أتخلّص من الورطة. ونجحت الأمور في نهاية المطاف، إذ تجاوز النجاح توقّعي وكنت، عندما اندلعت الحرب، قد أعددت أسلوبًا يناسب في الحالات جميعها مقتضيات زُبُني. وجرّبت، خلال بعض الأشهر من عملي في المشفى الحربي، طريقتي في التحليل، الفظّة قليلاً والمشوبة بالهواية ـ واحتفظت بها مع ذلك ـ على الجرحى وعاينت أن جرحًا، أو كسرًا، كان يستجيب لتحليل الهو بالقدر الذي كان يستجيب التهاب كلوي، قلب مريض أو العصاب.

١٥ ـ انتصار التحليل النفسي على المرض

منعني الغرور زمنًا طويلاً من أن أُعنى بالتحليل النفسي العلمي. وحاولت فيما بعد أن أصلح هذا الخطأ؛ وآمل أن أنجح فيه جيدًا، على الرغم من أعشاب خبيثة يتعذّر استئصالها ظلّت في فكري وفي المعالجة التحليلية النفسية. ولكن هذا العناد المتمثّل في رفض الرغبة في التعلّم كان له فوائده أيضًا. فوقعت بالمصادفة، في محاولاتي العمياء التي لم تكن مزدحمة بالمعارف، على فكرة مفادها أن ثمة، بالإضافة إلى لاشعور الفكر الدماغي، ضروبًا من اللاشعور المماثلة في الأعضاء الأخرى، في الخلايا، والأنسجة، إلخ، وأننا نحصل، بفضل الاتّحاد الصميمي بين هذه الضروب من اللاشعور والعضوية، على تأثير شفائي في كل منها ونحن نحلّل اللاشعور الدماغي.

لا تمض في الاعتقاد أنني مرتاح وأنا أكتب هذه الجمل. فلديّ ما يشبه الانطباع أنها لن تقاوم حتى نقدك الودود، فكيف تقاوم فحصاً جدّيًا يجريه العلماء الاختصاصيون. وبما أن التأكيد أصبح لديّ أسهل كثيراً من البرهان، فإنني سألجأ هنا أيضًا إلى التأكيد وسأصرح: ليس ثمة مرض يصيب العضوية، أكان جسمياً أم نفسياً، يقاوم تأثير التحليل. فأن نباشر العلاج، في حالة معيّنة، بالتحليل النفسي، بالجراحة، وعلى المستوى الجسمي، بالحمية أو العقاقير، أمر ليس إلا مسألة ملاءمة. فليس ثمة مجال من الطب في ذاته لا يكون لاكتشاف فرويد فيه جدوى.

جورج غرودّيك

الفصل الثالث

حرّاس القانون

مقدّمة

قدّم فرويد وصفه الأول للفكر الإنساني ـ وقد رأينا ذلك ـ في بداية القرن العشرين تمامًا. وعندما يؤلّف وصفه الموقعي الثاني لهذا الفكر عام ١٩٢٣، يُدخل الأنا العليا، في عداد ما يُدخل من المفاهيم، وهي (الأنا العليا) تكوين معاصر لانحسار عقدة أوديب[١]، انطلاقًا من ممنوعات أبوية جعلها الطفل خاصة به[٢].

فكيف فرض مفهوم الأنا العليا نفسه إذن؟ تحليل الأحلام، والعصاب الوسواسي، والسوداوية أو الهذيان، التي سيتكلّم عليها فرويد، تحليل يحسّ فيه المريض أن أفعاله وحركاته التي يرصدها الآخر تكشف له وجود «مراقبين» في النفس. وهؤلاء «الحراس»، حراس القانون (أي تحريم غشيان المحارم على وجه الخصوص)، تمثيلات مسبقة نظرية للأنا العليا. ويسمّيها فرويد تسميات مختلفة عبر عدد معيّن من النصوص السابقة على الموقعية الثانية. وهكذا يعزو، على سبيل المثال، عام ١٨٩٥، أصل «العواطف الأخلاقية» إلى سيرورة النضج قبل الأوان للموجود الإنساني: «العضوية الإنسانية قادرة، في مراحلها المبكّرة، على أن تسبّب هذا العمل النوعي[٣] الذي لا يمكن أن يُنجز إلا بعون خارجي وخلال

(١) انظر الأوديب: **عقدة كلية**، في المجموعة نفسها.

(٢) سنعود إلى ذلك بالتفصيل في الجزء الثاني.

(٣) المقصود هو العمل، الآتي من الخارج والقادر على أن يخفض الإثارات الداخلية. مثال ذلك أن الإسهام في الغذاء يقود إلى تجربة إشباع ترتبط بزوال التوترات (ملاحظة لجنة الإشراف).

برهة يكون فيها انتباه أحد الأشخاص من ذوي الاطلاع الجيّد يتّجه إلى حالة الطفل. وهذا الطفل أنذره، جرّاء تفريغ يحدث على درب التغيّرات الداخلية (بصراخ الطفل على سبيل المثال). ويكتسب درب التفريغ على هذا النحو وظيفة ثانوية ذات أهمية قصوى: وظيفة الفهم المتبادل. وهكذا يصبح العجز الأصلي للموجود الإنساني هو المصدر الأول لكل الحوافز الأخلاقية» («المخطّط الإجمالي لسيكولوجيا علمية»). وسيحتفظ فرويد، من جهة أخرى، بالفكرة نفسها، فكرة عجزٍ أول للطفل، في البرهة الزمنية التي سيتبنّى خلالها مفهوم الأنا العليا.

ونحن نعلم من الآن فصاعداً أن ثمة رقابتين في كَنَف الجهاز النفسي: ذلك هو ما علّمنا **تفسيرالأحلام** في فصله الأول. وسنكتشف أول الأمر مفعولاتهما، ومفعولات العواطف الأخلاقية أيضًا، على النسيان وعلى تكوين الحلم، في مستخلص ثان من **تفسيرالأحلام**. ويعالج فيه فرويد، بمناسبة الحديث على الهذيانات، تلك الرقابة التي «تمحو بقسوة كل ما لا يروق لها، بحيث أن ما يبقى يصبح غير متماسك». والصورة التي يستخدمها حتى يتصوّر تأثيرها هي صورة الرقابة الروسية، التي «تراقب» الصحف الأجنبية. ويكتب في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٧ إلى ولهلم فلْيس: «هَ سنحت لك الفرصة قط أن ترى صحيفة أجنبية راقتها الروس عند المرور في الحدود؟ ثمة كلمات وجمل، وفقرات كاملة محذوفة، بحيث أن الباقي يصبح غير مفهوم. إنه ضرب من «الرقابة الروسية» التي تظهر في الذهانات وتفسح المجال لهذيانات خالية من المعنى في الظاهر».

إن مبحث «الحاجز ضد غشيان المحارم» هو الذي يعرضه فرويد، بعد بضع سنين، مستبقًا الأنا العليا. ثم يأخذ فرويد بالحسبان، في مقال عنوانه «من أجل إدخال النرجسية» عام ١٩١٤، مرجعًا نفسيًا وظيفته تكمن في أن يراقب، بلا توقّف، الأنا الواقعية، إذ يقيسها على المثال. وفي رأيه أن هذا المرجع ليس سوى **الوجدان الأخلاقي**. ولكن إذا كان فرويد يتكلّم أيضًا على «مرجع رقابة»، فإن هذه البشائر بالأنا العليا تمثّل في رأيه محرّمات داخلية، ولا تمثّل ضروبًا من

القسر الاجتماعي الخارجي. وهذا الواقع واضح على وجه الخصوص عندما يبيّن فرويد، في النصّ نفسه، أن النكوص يقود، داخل هذيانات الملاحظة، إلى ضروب من الإسقاط الجديد ـ إسقاطٍ إلى الخارج ـ لأصوات يستدخلها الفرد، أصوات الأبوين، المربين، الرأي العام، إلخ. أضف أن العجز الأول للطفل يعزّز أيضًا الجانب الداخلي للممنوعات، ذلك أن البيولوجي، المرتبط بالوضع الإنساني، إذا كان لا يتجذّر في السوسيولوجي، فإنه يعزّز تأثيره: «العامل البيولوجي هو حالة الضيق والتبعية المديدة جدًا لدى الإنسان الصغير. فوجود الإنسان داخل الرحم، قياسًا على وجود غالبية الحيوانات، مختصر نسبيًا، والطفل الإنساني أقل اكتمالاً من طفل الحيوانات عندما يُلقى هذا الطفل الإنساني في العالم. فيتعذّر لهذا السبب تأثير العالم الخارجي الواقعي، وتمايز الأنا من الهو يُكتسب مبكّرًا، وأخطار العالم الخارجي تتّخذ أهمية أكبر، وقيمة الموضوع الذي يمكنه وحده أن يحمي الطفل من هذه الأخطار ويحلّ محل الحياة المفقودة داخل الرحم، تزداد ازديادًا هائلاً. وهكذا إذن يكون العامل البيولوجي موجودًا في أصل أوضاع الخطر الأولى، ويكوّن الحاجة إلى أن يكون الطفل محبوبًا، حاجة لن تفارق الموجود الإنساني أبدًا (الكفّ، العرض، الحصر، ١٩٢٦).

ويستأنف فرويد عام ١٩١٧، **في المدخل إلى التحليل النفسي**، عرضه الخاص بالرقابة، إذ يعيدها بصورة أساسية إلى الأحلام: إن تأثير الرقابة في الأحلام ظاهر على وجه الخصوص. فالنوم، الذي يُغلق على المحتويات اللاشعورية سبيل الحركية، يتيح ضربًا من التراخي لهذه المحتويات، ولكن الرقابة، بما أن الغزوة العفيفة للرغبات في الحلم قد تفضي إلى اليقظة، تستمرّ في عملها داخل الحلم.

ولنشر أخيرًا إلى أن الأنا العليا والأنا تبدوان أنهما تتداخلان في بعض وظائفهما. ولهذا السبب يجعل فرويد، في نهاية حياته، رقابة الأحلام متعلّقة بالأنا(٤).

---

(٤) في موجز التحليل النفسي (١٩٣٨).

ولكن إلى دراسة فرويد المعنونة «الحداد والسوداوية» (١٩١٧) إنما يُرجع بعضهم على نحو أكثر دقة إدخال الأنا العليا. ذلك أن التقابل المطلق بين جزء من «الأنا الإجمالية» وجزء آخر في السوداوية، والعناد الذي يُظهره المريض إزاء نفسه ـ عناد يدفعه إلى الانتحار ـ يقودان فرويد إلى أن يعزل من «الأنا الإجمالية» مرجعًا سيصبح الأنا العليا. وهنا أيضًا إنما يصف فرويد «الكره الأخلاقي» لدى المريض لأناه الخاصة: «نرى لدى (السوداوي) كيف يتعارض جزء من الأنا مع جزء آخر، ويصبّ عليه تقييمًا نقديًا، ويتّخذه موضوعًا إذا صحّ القول. ونحن نظنّ أن المرجع النقدي، المنفصل هنا عن الأنا بالانشطار، يمكنه، في ظروف أخرى أيضًا، أن يبرهن على استقلاله، وستؤكد كل ملاحظاتنا اللاحقة هذه الفرضية. وسنجد فعلاً بواعث مناسبة لنفصل هذا المرجع من باقي الأنا. وهذا المرجع هو الذي نتعرّفه هنا، وهو الذي سيُسمّى عادة الوجدان الأخلاقي».

النصّ الأول

ثمة حوافز لن يفهمها المرء إلا عندما يعرف بحوثي الخاصة، حوافز جعلتني أعالج معالجة منفصلة تلك المسألة التي مفادها أن نعرف ما إذا كانت استعداداتنا الأخلاقية وعواطفنا الأخلاقية خلال اليقظة تنفذ إلى الحلم وإلى أي حدّ. ونجد في هذه النقطة تناقضًا بين المؤلفين. فبعضهم يؤكد أن الحلم يجهل مقتضيات أخلاقيتنا جهلاً بارزًا بقدر ما يؤكد الآخرون فيه دوام الطبيعة الأخلاقية لدى الإنسان.

وإذا لجأنا إلى تجربة الليالي كلّها، فإنها تبدو أنها لا تضع موضع الشك صحة التأكيد الأول. يقول جسّن: «لسنا أحسن ولا أكثر فضيلة خلال النوم. بل يبدو تمامًا بالحري أن وجداننا الأخلاقي يسكت خلال الحلم: إننا لا نعاني أية شفقة ونرتكب أسوأ الجرائم بلامبالاة تامة! ودون أي ندم: سرقة، قتل، اغتيال».

ويقول رادستوك أيضًا: «من المناسب أن نلاحظ أن الترابطات في الحلم تجري والامتثالات تترابط دون تدخّل التفكّر، والعقل، والذوق الجمالي والحكم الأخلاقي؛ فالحكم ضعيف جدًا ويسود ضرب كامل من **اللامبالاة الأخلاقية**».

ويلاحظ فولكلت: «كل فرد يعلم أن لدينا، في الحلم، ضربًا خاصًا من نقص الحشمة بالنسبة لكل ما هو جنسي. فالحالم، الذي ليس لديه هو نفسه على الإطلاق أي خجل، وأي عاطفة، وأي حكم أخلاقي، يرى أيضًا كل الآخرين، بمن فيهم الأشخاص الأكثر جدارة بالاحترام، يتصرفون على نحو لن يجرؤ حتى أن يتخيلّه في أثناء اليقظة».

١ ـ تأكيدات متناقضة خاصة بالأخلاقية في الأحلام

مجموعة من التأكيدات ستعارض معارضة بارزة هذه الدعوى. فكلٌّ يعمل ويتكلّم في أثناء الحلم، كما يقول شوبنهور، بانسجام كامل مع طبعه. ويقول ر. ف. فخنر إن العواطف الذاتية، والميول، والحالات الوجدانية، والأهواء، تظهر ظهوراً حراً في الحلم، بحيث تنعكس فيها خصائص الفرد الأخلاقية. ويكتب هافْنَرْ: «الإنسان الفاضل فاضل في الحلم أيضًا، إلا في بعض الاستثناءات النادرة... » إنه يقاوم الغوايات، ويحرّم على نفسه الحقد، والحسد، والغضب وكل الرذائل؛ ورجل الخطيئة سيجد في الحلم تلك الصور التي تروق له خلال اليقظة».
ويؤكّد شولْز: «تظهر الحقيقة في الحلم؛ وعلى الرغم من كل ضروب التقنّع، في الأفضل أو الأسوأ، فإننا نتعرّف أنانا الحقيقية... وليس بوسع الإنسان الشريف أن يرتكب، حتى في الحلم، جريمة تجرّده من الشرف، أو أنه، إذا حدث ذلك، يرتعب منها بوصفها أمراً غريبًا عن طبيعته. فالإمبراطور الروماني الذي نفّذ حكم الإعدام بأحد أتباعه لأن هذا الفرد كان قد رأى في منامه أنه أمر بقطع رأس العاهل، لم يكن مخطئًا، إذ كان يعتقد أن من يرى مثل هذه الأحلام يمكنه، خلال اليقظة، أن يغذّي أفكاراً مماثلة. ولهذا السبب نقول عن شيء لا يمكنه أن يجد مكانًا في حياتنا: لن أتخيّله حتى في الحلم».

ويعدّ أفلاطون بالمقابل أن الأفاضل منا لا يعرفون إلا في الحلم ما يفعله الآخرون وهم في اليقظة التامة.

يقول بفاف، إذ يحوِّل مثلاً سائراً معروفاً جيداً: «قلْ لي بماذا تحلم، أقل لك من أنت».

٢ ـ الأحلام الآثمة: أصل نفسي خاص

ثمة مؤلَّف لهيلْدوبرانْد، وهو أكمل وأغنى إسهام عرفته في مشكل المنام، يُعنى على وجه الدقة عناية أساسية بأخلاقية الحلم. ويطرح هيلدوبراند أيضاً من الناحية المبدئية أن الحياة كلما كانت طاهرة كان الحلم طاهراً، **والعكس بالعكس**.

ويحتفظ الإنسان في الحلم بطبيعة أخلاقية: «في حين أننا نقبل خطأ فاحشاً في الحساب، ومغالاة علمية، ومفارقة تاريخية مضحكة، نستمرّ مع ذلك في تمييز الخير من الشر، والعدل من الظلم، والرذيلة من الفضيلة. ومهما يكن مقدار ما نفقد خلال النوم من معرفة النهار لدينا، فإن الآمر المطلق يظلّ فينا. إنه مرتبط بنا ولا يمكننا أن نتخلّص منه ولو في النوم... وذلك لا يمكن أن يُفسّر إلا لأن الأخلاقية مرتبطة بالطبيعة الإنسانية ارتباطاً هو من المتانة بحيث يمكنها أن تدخل في حركة المشكال(*) التي يعكف عليها الخيال، والذكاء، والذاكرة والقدرات الأخرى من هذا المستوى في أثناء الحلم».

وكلما تقدّمت المناقشة، نعاين تغيّرات غريبة وضروباً غريبة من عدم التماسك في الجهتين. فكل أولئك الذين يعتقدون أن الشخصية الأخلاقية تضمحلّ في الحلم ينبغي لهم، من الناحية المنطقية، أن يكفّوا عن الاهتمام بالأحلام اللاأخلاقية. ولا ينبغي لهم أيضاً أن يجعلوا الحالم مسؤولاً عن أحلامه، ولا أن يستنتجوا من فساد الأخلاق في أحلامه إلى فساد طبيعته، ولا أن يستنتجوا، خلال اليقظة، من بطلان أحلامهم بطلان الفكر. وعلى الآخرين، أولئك الذين يعتقدون أن «الآمر المطلق الأخلاقي» يمتدّ إلى الحلم نفسه، أن يقبلوا مسؤولية أحلامهم الأخلاقية قبولاً تاماً؛ وينبغي فقط أن نتمنّى لهم أحلاماً بحيث لا يكون عليهم أبداً أن يشكّوا في فضيلتهم الخاصة.

ويبدو جيداً مع ذلك أن أي شخص لا يمكنه أن يعرف على وجه الدقة الكبيرة إلى أي حدّ هو جيّد أو سيِّئ، وأن أي شخص لا يمكنه أن ينفي أنه يحلم ببعض

الأحلام غير الأخلاقية. ويبذل المؤلفون من الطرفين جهداً في الواقع، على الرغم من الأحكام المتناقضة في أخلاقية الحلم، ليشرحوا أصل الأحلام الأخلاقية. ويبرز عندئذ تقابل جديد بين أولئك الذين يبحثون عنها في وظائف الحياة النفسية، وأولئك الذين يبحثون عنها في التأثيرات الجسمية. وهكذا فإن الوقائع ترغم المدافعين عن المسؤولية في أثناء الحلم، كما المدافعين عن عدم المسؤولية، إلى الاعتراف أن لا أخلاقية الحلم لها مصدر نفسي خاص.

٣ - «من يكره أخاه قاتل»

أولئك الذين يعتقدون بدوام الأخلاقية يتحاشون مع ذلك أن يقبلوا المسؤولية الكاملة عن أحلامهم الخاصة. يقول هافْنَرْ: «لسنا مسؤولين عن أحلامنا، لأن فكرنا وإرادتنا تعوزهما في هذه البرهة الزمنية أسسًا لا يمكن لحياتنا بدونها أن تكون ذات واقع ولا حقيقة... ولهذا السبب، لا يمكن أن تشبه إرادة الحلم أو عمله رذيلة أو فضيلة». والإنسان مسؤول مع ذلك عن أحلامه الآثمة من حيث أنه هو الذي أحدثها بصورة غير مباشرة. إن عليه، قبل أن ينام، أن يطهّر نفسه كما في اليقظة، وعلى نحو خاص.

وتحليل هذا الخليط من القبول والرفض للمسؤولية بصدد المحتوى الأخلاقي للحلم يتوسّع فيه هيلْدوبرانْد كثيراً. فبعد أن ذكر أن الطريقة الدرامية التي يصف الحلم بها الوقائع، وتكدّس الملاحظات الأكثر تعقيداً في الفسحة الزمنية القصيرة، وفقدان الحسّ والتباس الصور، ينبغي أن تُؤخذ بالحسبان عندما نتكلّم على لاأخلاقية الحلم، يصرّح مع ذلك أن من المناسب أن نفكرّ طويلاً قبل أن نرفض كل مسؤولية عن خطيئات الحلم وأخطائه.

و «عندما نريد أن ننبذ نبذاً حاسمًا اتهامًا غير مسوّغ، اتهامًا ينصبّ على وجه الخصوص على مشروعاتنا ونوايانا، نقول: «ما كان يمكنني أن أفكر في ذلك أبداً حتى في الحلم!» ونقصد بذلك دون شك، من جهة، أن مجال الأحلام هو المجال الأخير الذي يمكننا أن نطلب حسابات أفكارنا، لأنها منفصلة فيها عن وجودنا العميق إلى حدّ لا نكاد نحسبها أفكارنا أيضًا؛ ولكننا من جهة أخرى نلمّح، حين

ننفي صراحة وجود هذه الأفكار في هذا المجال، إلى أن تسويغنا ليس كاملاً إلا إذا كان يمضي إلى هذا الحدّ. وأعتقد أننا نتكلّم وفق الحقيقة، مع أننا نتكلم بصورة لا شعورية». «ولا يمكننا أن نتخيّل عملاً من أعمال الحلم لا يكون حافزه قد عبر الفكر في أثناء اليقظة على صورة أمنية، رغبة أو اندفاع». وينبغي أن نعترف أن هذا الاندفاع الأخير لم يبتكره الحلم، ولم يفعل سوى أنه أنتجه مجدّدًا، وضخّمه، وعمل على القليل من المواد التي كنا قد وفرّناها له ومنحه شكلاً دراميًّا؛ إنه حقّق قول الحواريّ: من يكره أخاه قاتل. وإذا كان الحالم يضحك بعد اليقظة، شاعراً بقوته الأخلاقية، من لوحات هذا الحلم الآثم، فإنه لا يمكنه أن يضحك من المادة الأصلية التي استخدمت في تكوينه. فهو يشعر أنه مسؤول عن نسبة معيّنة من ضلالات الحلم وليس عن مجموعها كله. و «نقول بإيجاز، إذا فهمنا بهذا المعنى، القطعي، كلام المسيح: الأفكار السيئة تنبعث من القلب، ويشقّ على المرء ألا يعتقد أن كل خطأ مرتكب في أثناء الحلم يجرّ معه حداًّ أدنى غامضاً من الإثمية على الأقلّ».

٤ ـ هل اللاأخلاقية غواية خفيّة؟

يرى هيلْدوبراند إذن أن مصدر اللاأخلاقية في الأحلام يكمن في رشيمات الاندفاعات السيّئة ومؤشّراتها، التي تجتاز كل يوم وعينا على صورة غوايات، ولايتردّد في أن يحصي هذه العناصر اللاأخلاقية في تقييمه القيمة الأخلاقية للشخصية. وهذه الأفكار نفسها والتقييم نفسه يُعتمد عليهما، كل عصر، في القول عن الأتقياء والقدّيسين إنهم كانوا أكبر الخاطئين(٥).

والدلالة السيكولوجية لهذه الأفكار ـ المتعارضة ـ يوضّحها هيلدوبراند، الذي يلاحظ أن الحلم يفتح لنا أحيانًا أعماق وجودنا وخباياه المغلقة بالنسبة لنا في أثناء اليقظة. ويذكر كانْت على نحو مماثل، في مقطع من كتاب **الأنتروبولوجيا**، أن

(٥) من المفيد لنا أن نعرف أي موقف كانت **محاكم التفتيش** تقفه من هذا الشكل. ونجد المقطع التالي في أحد كتب توماس كارونا، ليون، ١٦٥٩: «إذا نطق أحد في الحلم بكلمات هرطقية، فإن مفتشي محكمة التفتيش سيفحصون سلوكه، ذلك أن ما يشغلنا في النهار يظهر مجدّدًا في أحلامنا عادة» (د. إهْنيجر ماس. إورْبان، سويسرا).

وظيفة الحلم دون شك تكمن في أن يكشف لنا استعداداتنا الخفيّة ولا يبيّن لنا مانحن عليه، بل ما أصبحنا عليه إذا كنا قد تلقّينا تربية أخرى. ويعتقد رادستْوك أيضاً أن الحلم يقتصر على أن يكشف لنا ما لا نريد أن نعترف به ونُخطىء في اتهامه بالكذب والخداع. ويصرّح ج. إ. إيردْمان: «لم يُبِنْ لي الحلم قط ما كان ينبغي أن يكون رأيي في إنسان؛ بل بالحري ما كان رأيي فيه وكيف كنت أتصرّف تجاهه، وذلك ما يسبّب لي دهشة كبيرة». ويقول ج. هـ. فخته أيضاً: «تمنحنا سمة أحلامنا انعكاساً أميناً لمجموع استعداداتنا أكثر كثيراً مما يمكننا أن نعرفها ونحن نلاحظ أنفسنا طويلاً في أثناء اليقظة».

٥ ـ الإنسان برمّته مكشوف لذاته

يمكننا أن نسمّي «امتثالات لا إرادية» هذه الكتلة من الصور التي يُدهشنا ظهورها كثيراً في الأحلام اللاأخلاقية كما في الأحلام المنافية للعقل. وثمة مع ذلك فارق كبير بين هذه وتلك. فالامتثالات غير الإرادية التي تنتمي إلى المجال الأخلاقي تتناقض مع طريقة إحساسنا العادية؛ أما الامتثالات الأخرى، فإنها تبدو لنا غريبة ببساطة. ولم يكن أي جهد قد بُذل حتى الآن لتقديم شرح علمي لهذا الفارق.

فما دلالة ظهور هذه الامتثالات غير الإرادية في الحلم؟ وما النتائج التي يمكن أن نستخلصها، لمصلحة سيكولوجيا اليقظة والحلم، من هذا الظهور الليلي لميول أخلاقية مفارقة؟ المؤلفون مختلفون أيضاً في الرأي بهذه المسألة. فإذا تبعنا فكر هيلْدوبرانْد والمدافعين عن دعواه الأساسية، فإنه ينبغي لنا، دون أي شك، أن نعتقد أن الاندفاعات غير الأخلاقية، حتى في أثناء اليقظة، قوة معيّنة لا يمكنها، بوصفها مكفوفة، أن تنتقل إلى الأفعال، ولكن الشيء الذي كان قد تصرّف بوصفه كفًّا، ومنعنا من أن نتبيّن هذه الاندفاعات، أُلغي خلال النوم. وهكذا يكشف الحلم، إن لم يكن كل ماهية الإنسان، فعلى الأقل يكشف الواقع الأعمق من هذا الإنسان، وسيكون إحدى الوسائل الموجودة تحت تصرّفنا لنعرف المحتوى الخفيّ من نفسنا.

وإذا اعتقدنا أن الحلم يكشف الحجاب عن استعداد غير أخلاقي لدى الحالم، موجودٍ في الحقيقة ولكنه مقموع أو خفيّ، فإننا لا يمكننا أن نعبّر عنه إلا بهذه الكلمات التي قالها موره: «الإنسان في الحلم يبين إذن برمّته لذاته في عريه وبؤسه الأصلي. ومنذ أن يعلّق ممارسة إرادته، يصبح لعبة «كل الأهواء التي يحمينا الوعي، وعاطفة الشرف، والخوف، منها خلال اليقظة». وتوجد في غير مكان هذه الكلمات الجليّة: «الإنسان الغريزي هو الذي يبين في الحلم ... فالإنسان يرجع إذا صحّ القول إلى حالة الطبيعة عندما يحلم؛ ولكن كلما قلّ نفوذ الأفكار المكتسبة إلى فكره، تحتفظ **الميول المتباينة** معها بتأثير عليه أيضًا في الحلم».

٦ ـ نظرية الحلم ووظيفته

سنسمّي نظرية الحلم تحليلاً يسعى إلى أن يشرح من وجهة نظر معيّنة أكبر عدد ممكن من السمات الملاحظة، وإلى أن يلحظ مكان الحلم في مجموع أوسع. فنظريات الحلم المختلفة يتميّز بعضها من بعض بواقع مفاده أنها تعدّ هذه السمة أو تلك أساسية، وترتّب حول هذه الصفة شروحها.

ولا تتضمّن نظرية الحلم بالضرورة فكرة وظيفة، أعني فكرة فائدة أو فعّالية للحلم، ولكن عاداتنا الغائية تمضي بصورة طبيعية لملاقاة النظريات التي تعزو وظيفة إلى الحلم.

وتجربة التحليل النفسي تبرهن لنا على نحو مختلف أيضًا أن النسيان في الحلم ذو علاقة بالمقاومة أكثر من تبعيته للفاصل الزمني بين اليقظة والنوم، فاصل يذكره المؤلفون. وحدث لي على الغالب، وكذلك للمحلّلين النفسيين الآخرين ولمرضى وفق علاج تحليلي نفسي، أنني إذا جاز القول استيقظت بفعل حلم وبدأت بتفسيره حالاً بعد اليقظة، بفكر يَقِظ وصاح تمامًا. ورفضت غالبًا أن أعود إلى النوم حتى أفهم الحلم فهمًا كاملاً. وكنت أنسى في بعض الأحيان مع ذلك عمل التفسير ومحتواه نفسه، عندما أستيقظ، نسيانًا تامًّا، عارفًا في الوقت نفسه أنني كنت قد

حلمت وفسّرت حلمي. فالحلم هو الذي يجرّ معه على الأغلب نتائج التفسير إلى النسيان، ويجرّ معه على نحو أقلّ غالبًا تلك الفاعلية الفكرية التي تفلح في أن تحافظ على الحلم في الذاكرة. ولا يوجد مع ذلك، بين التفسير والفكر اليقظ، تلك الهوّة النفسية التي يريد المؤلفون أن يشرحوا بها نسيان الحلم. ويعترض مارتون برانس على نظريتي في نسيان الحلم أنْ ليس ثمة في ذلك سوى حالة خاصة من فقدان الذاكرة لحالات **مفكّكة**، وليس ممكنًا مدّ شرحي لفقدان الذاكرة الخاص هذا على نماذج أخرى، بحيث أنه يفقد كل قيمة. إنه بذلك يذكّر القارئ أنه لم يحاول قطّ، في هذه الأوصاف للحالات المفككة، تفسيراً دينامياً. ولو فعل ذلك لاكتشف أن الكبت (أو المقاومة التي يسبّبها) سبب هذه الضروب من التفكك وسبب فقدان الذاكرة، بالقدر نفسه، الذي يصيب محتواها النفسي.

٧ ـ أحلام لا ننساها

بوسعي أن أؤكد أن الأحلام أقلّ تعرّضًا للنسيان من الأفعال النفسية الأخرى وتعادل، فيما يخصّ احتجازها في الذاكرة، تلك الوظائف النفسية الأخرى ـ وتلك تجربة أجريتها خلال تحرير هذا الكتاب برهنت لي على ذلك. وكنت قد احتفظت في بطاقاتي بعدد كبير من أحلامي الخاصة التي لم أفسّرها، لسبب من الأسباب، إلا تفسيراً غير كامل أو لم أفسرها على الإطلاق. وحاولت، بعد سنة أو سنتين، أن أفسّرها لأوضّح نظرياتي. وأفلحت في أن أفسرها كلها دون استثناء. وبوسعي حتى أن أقول إن التفسير كان أيسر كثيراً مما لو حدث عندما كانت الأحلام لا تزال حديثة، وذلك أمر لا يمكنني أن أشرحه إلا بأن أفترض أنني، منذ ذلك الزمن، انتصرت كثيراً على المقاومات الداخلية. وقارنت، خلال هذه التفسيرات المؤجّلة، أفكار الحلم التي اكتشفتها عندئذ بالأفكار التي وجدتها حديثًا، الأغنى في الأغلب، ودائمًا وجدت القديمة تحت الحديثة، وكانت لم تتغيّر. وذلك أمر لم يدهشني كثيراً، لأنني كنت قد اعتدت منذ زمن طويل أن أجعل مرضاي يفسّرون

أحلام سنيّهم الأولى، التي كانوا يقصّونها عليّ بالمناسبة وبقدر من النجاح كما لو أنهم حلموا بهذه الأحلام في الليلة السابقة. وعندما حاولت هذا التفسير في وقت متأخّر للمرة الأولى، فذلك لأنني كنت أتوقّع، والحادث يحكم لمصلحتي، أن يسلك الحلم سلوك عرض من أعراض مرض عصبي. وعندما أعالج بالتحليل النفسي مصابًا بمرض عصبيّ، أو هستيريًّا على سبيل المثال، يلزمني بيانات خاصة بالأعراض الأولى لهذا المرض، الذي يتجاوزه المريض الآن، كذلك بالأعراض التي لا تزال باقية الآن وقادت المريض إليّ. فالأولى أسهل اكتشافًا في العادة. واستطعت، منذ عام ١٨٩٥، في **دراساتي في الهستيريا**، أن أنقل شرح أول أزمة من الحصر الهستيري التي كان مريض عمره أربعون عامًا قد عاناها في السنة الخامسة عشرة من عمره(٦).

٨ ـ مقاومة تضعف

ينبغي أن نقول تمامًا إن الأحلام كلها لا يمكنها أن تُفسّر. ولا ينبغي أن ننسى أن القوى النفسية التي شوّهت الحلم تعارض عمل التفسير. فالمسألة تابعة لعلاقة قوى: فالفضول الفكري، والسيادة على الذات، والمعارف السيكولوجية وتجربة المفسّر، من جهة، والمقاومات الداخلية من جهة ثانية. وبوسعنا كلنا أن نتغلّب على بعضها غلبة تكفي على الأقلّ لتقنعنا أن للحلم معنى، ولنكشف أيضًا عن هذا المعنى قليلاً. ويتيح على الغالب حلم ثان أن يوضّح دلالة الحلم الأول وأن يجعل تفسيره يتقدّم. ولمجموعة كاملة من الأحلام التي حدثت خلال أسابيع وحتى أشهر، خلفية مشتركة على الغالب وينبغي عندئذ أن نخضعها لتفسير بمجموعها. وعندما يتوالى حلمان، يمكننا على الغالب أن نلاحظ أن مركز أحدهما هو ما أشار إليه الآخر إشارة سطحية والعكس بالعكس، بحيث أنهما يتكاملان بالنسبة للتفسير. ويبرهن لنا بعض الأمثلة أن أحلام ليل واحد ينبغي أن تُفسَّر بوصفها كلاًّ.

---

(٦) أحلام السنوات الأولى من الطفولة، التي تظلّ غالبًا في الذاكرة، تساعد دائمًا على وجه التقريب في فهم تطوّر الحالم وعصابه. وتحليلها يجنّب الطبيب تلك الأخطاء وضروب اللبس التي يمكنها، في عداد عوامل أخرى، أن تضلّله في استنتاجاته.

وتحتفظ الأحلام الأفضل تفسيراً بنقطة غامضة؛ ويُلاحظ وجود عقدة من الأفكار لا يمكننا حلّها، ولكنها لا تسهم بإضافة إلى محتوى الحلم. إنها «سرّة» الحلم، النقطة التي بها يرتبط بالمجهول. فأفكار الحلم التي نصادفها خلال التفسير ليس لها على وجه العموم نتيجة، فهي تتشعّب بكل الاتجاهات في الشبكة المتشابكة لأفكارنا. وتنبعث رغبة الحلم من نقطة من هذا النسيج تكون أكثر كثافة، كظهور الفطر من مشيجه.

فلْنعد إلى نسيان الحلم. إننا أهملنا أن نستخلص نتيجة هامة. فإذا كان واضحًا أن اليقظة تقتضي نسيان الحلم، إما دفعة واحدة عند اليقظة، وإما جزءاً جزءاً في أثناء النهار، وأن العامل الرئيسي لهذا النسيان هو المقاومة النفسية التي فعلت كل شيء آنفًا، خلال الليل، ما كان بوسعها أن تفعله ضد الحلم، فكيف نشرح أن الحلم استطاع أن يتكوّن على الرغم من المقاومة؟ فلْنضرب مثل الحالة الأكثر وضوحًا، الحالة التي تمحو اليقظة فيها الحلم، حيث يبدو وكأنه لم يوجد، ولْنلاحظ حركة القوى النفسية. وينبغي لنا أن نقول تمامًا إن الحلم لن يحدث لو أن المقاومة كانت في الليل ما تكون في النهار. فلنستنتج إذن أن المقاومة تضعف في الليل؛ ونحن نعلم أنها لا تُلغى، لأننا استطعنا أن نبيّن دورها خلال تكوّن الحلم في التشويه. ويتيح نقصها للحلم أن يتكوّن، ولكنها ستستعيد قواها عند اليقظة، وستُبعد عندئذ ما وجب عليها أن تتحمّل سابقًا. وعلّمتنا السيكولوجيا الوصفية أن الشرط الأساسي لتكوّن الحلم هو نوم الفكر؛ وبوسعنا أن نضيف إلى ذلك: النوم يتيح تكوّن الأحلام لأنه يُضعف الرقابة ذات المنشأ النفسي الداخلي.

٩ ـ رابط خفيّ بين عناصر الحلم النفسية

الأطباء النفسيون فقدوا الأمل مبكّرًا جداً بمتانة بنياننا النفسي. وأعلم أن الهستيريا لا تعرض، ولا الذهان الهذائي (بارانويا)، شأنهما شأن الحلم، سياقًا من الأفكار مضطربًا ودون امتثالات ـ هدف. وذلك ربما لا يحدث حتى في الأمراض النفسية ذات المنشأ الداخلي؛ وحتى لهذيانات المشوّشين معنى، وفق ملاحظة لوره

الدقيقة، وهي غير مفهومة بسبب ثغراتها فقط. وأمكنني أن أُبدي هذه الملاحظة كلما سنحت لي فرصة رؤيتها. فالهذيانات عمل رقابة لا تجهد نفسها في إخفاء تأثيرها وتمحو بعنف، بدلاً من أن تتصرّف لتعدّ تحوّلات تكون أقلّ اتصافًا بأنها صادمة، كل ما لا يروق لها، بحيث أن كل ما يبقى يصبح غير متماسك. إنها تتصرّف كما كانت الرقابة الروسية للصحف تنهج على الحدود، رقابة كانت تطلي بالأسود كل ما لا يروق لها في الصحف الأجنبية قبل أن توضع بين أيدي القرّاء الذين كان عليها أن تحميهم.

فأن يكون بوسعنا أن نلاحظ، في جروح الدماغ العضوية، تلك الحركة الحرة للامتثالات التي ترتبط بالمصادفة، ذلك أمر لا ينطوي على أي شيء من المتعذّر؛ ولكن ما فسّره بعضهم بوصفه كذلك في النُفاسات(*) يُشرح دائمًا بتأثير الرقابة على تعاقب من الأفكار تدفعه إلى المستوى الأول امتثالات ـ هدف تظلّ محجوبة[٧]. وعدّ بعضهم برهانًا لا يُدحض على وجود الترابطات الحرة من الامتثالات ـ الهدف ذلك الواقع الذي مفاده أن امتثالات أو صوراً كان بوسعها أن ترتبط «ارتباطًا سطحيًا»، أي أن ترتبط بفعل التجانس الصوتي، والمعنى المزدوج لكلمة، والالتقاء في الزمن دون علاقة عميقة من الدلالة، وكل الأساليب التي تستخدمها النكات والتلاعب بالكلمات. وهذه المعلومات صحيحة فيما يخصّ ارتباطات الأفكار التي تقود من عناصر محتوى الحلم إلى الأفكار الوسيطة ومنها إلى أفكار الحلم نفسها؛ وقد وجدنا منها، خلال تحليلاتنا، أمثلة غريبة. ولم يكن ثمة رباط مهما كان رخواً ولا مزحة مهما كانت جارحة لا يمكنهما أن يُستخدما للانتقال من فكرة إلى أخرى. ولكننا نرى بسهولة مصدر هذا التسامح. **فثمة، كلما ارتبط عنصر نفسي بآخر بترابط صادم أو سطحي، رابط طبيعي بين الاثنين وعميق خاضع لمقاومة الرقابة.**

(*) Psychonevrose. انظر **المعجم الموسوعي لعلم النفس**، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق، عام ٢٠٠٠ (النفاس أو العصاب النفسي).

(٧) نجد تأكيدًا صارخًا لهذا الافتراض لدى ك. غ. يونغ فيما يخصّ الخبل المبكّر (**سيكولوجيا الخبل المبكّر**، ١٩٠٧).

١٠ ـ الوصول إلى الوعي بطرق ملتوية

تسود الترابطات السطحية بسبب ضغط الرقابة وليس لأن الامتثالات ـ الهدف غائبة. فالترابطات السطحية، في التمثيل بالصورة، تحلّ محل الترابطات العميقة عندما تجعل الرقابة هذه الدروب الطبيعية غير سالكة. وذلك يشبه وضع الطرق الجيّدة في الجبل عندما يجعلها ضرب من الطوفان متعذّرة الاستخدام: فثمة استمرار في حركة المرور، ولكن بواسطة الشِعاب الشديدة الانحدار، والعسيرة التي يسلكها الصيادون وحدهم عادةً.

وبوسعنا أن نميّز حالتين، لا تكونّان في الحقيقة إلا حالة واحدة. فإما أن الرقابة لا تهاجم إلا الرباط بين فكرتين تفلتان منها بوصفهما منعزلتين. وتبدو الفكرتان في هذه الحالة متعاقبتين في الوعي؛ ويظلّ تسلسلهما خفيًّا؛ وندرك بالمقابل، بين الفكرتين، ترابطًا سطحيًّا لم نكن قطّ قد فكّرنا فيه. وينطلق على وجه العموم من نقطة من العقدة الممثّلة مختلفة كل الاختلاف عن النقطة التي بها يتعلّق الارتباط الأساسي المقموع. وإما أن الفكرتين خاضعتان للرقابة بسبب محتويهما؛ وفي هذه الحالة لا تظهران، بصورتيهما الحقيقيتين، بل بصورتين معدّلتين تحلّان محلهما، وتكون الفكرتان اللتان تحلّان محل الفكرتين السابقتين مختارتين على نحو يعبّر الترابط السطحي بينهما عن الارتباط الأساسي بين الفكرتين اللتين تمثّلانهما. **فحدث في الحالتين، تحت ضغط الرقابة، انزياح، انتقال من ترابط طبيعي وجدّي إلى ترابط سطحي ذي مظهر مناف للعقل.**

سيغموند فرويد

النصّ الثاني

١ ـ الحاجز ضد غشيان المحارم

إذا كان حنان الأبوين ينجح في عدم إيقاظ الدافع الجنسي لدى الطفل قبل الأوان، أعني إذا كان يتجنّب أن يمنح هذا الدافع، قبل أن تكون الشروط الجسمية

للبلوغ متوافرة، شدّة بحيث تنصبّ الإثارة النفسية على النظام التناسلي بصورة لاشك فيها، فإن هذا الحنان يمكنه عندئذ أن يحقّق المهمة التي تقع على عاتقه، مهمة تكمن في أن تقود الطفل الذي أصبح راشداً في اختيار الموضوع الجنسي. ومن المؤكد أن الطفل يميل إلى اختيار الأشخاص الذين أحبّهم منذ طفولته، حبًّا ليبيدهُ[٨] واهن على نحو من الأنحاء. ولكن، بالنظر إلى أن النضج الجنسي كان مؤجلاً، أفدنا من الزمن الضروري لبناء حاجز ضدّ غشيان المحارم إلى جانب ضروب أخرى من الكفّ. فالطفل استطاع أن يستدخل تعاليم أخلاقية تستبعد صراحة، في اختيار الموضوع الجنسي، أولئك الأشخاص المحبوبين خلال الطفولة، الذين ينتمون إلى الدم الذي ينتمي إليه الطفل. ومثل هذا الكفّ يأمر به المجتمع، المرغم على أن يمنع الأسرة من أن تمتصّ كل القوى التي ينبغي له أن يستخدمها لتكوين التنظيمات الاجتماعية العليا؛ فالمجتمع يستخدم عندئذ كل الوسائل بغية أن تتراخى الروابط الأسرية، التي كانت موجودة وحدها خلال الطفولة، لدى كل عضو من أعضائه، ولدى المراهقين على وجه خاص.

٢ ـ حب الأولاد والحب الجنسي أصل واحد

ولكن اختيار الموضوع الجنسي يتمّ أول الأمر على صورة تصوّرات، والحياة الجنسية لدى المراهق لا يمكنها، في زمن المراهقة، إلا أن تستسلم للاستيهامات، أي لتصوّرات مصيرُها عدم التحقّق. ونكتشف في هذه الاستيهامات، لدى كل الناس، ميول الطفل ونزعاته، يعززّها النموّ الجسمي عندئذ؛ وأحد هذه الميول الأكبر شأناً بالأهمية والتواتر هو الميل الجنسي الذي اكتسب في معظم الأوقات، بفضل الانجذاب الجنسي للطفل نحو أبويه، سمة متمايزة: الابن نحو أمه والبنت نحو أبيها. ويتحقّق، في الوقت الذي ينبذ خلاله الطفل ويتجاوز هذه الاستيهامات ذات العلاقة بغشيان المحارم، عمل سيكولوجي خاص في مرحلة البلوغ، عمل من

(٨) انظر، عن الليبيدو، كتاب **مراحل الليبيدو: من الطفل إلى المراهق**، في المجموعة نفسها (ملاحظة لجنة الإشراف).

أكثر الأعمال أهمية ولكنه الأكثر ما يسبّب الألم، أي الجهد الذي يبذله الطفل ليتخلّص من سلطة الأبوين، جهد يُنتج وحده التقابل، ذا الأهمية الكبيرة في التقدّم، بين الجيلين الجديد والقديم. وفي كل طور من هذه الأطوار التي لا بدّ لكل موجود سويّ من أن يعرفها، يمكن أن يتوقّف بعض الأفراد؛ وهكذا نجد أشخاصاً لم يتخلّصوا قطّ من السلطة الأبوية، ولم يتقنوا أن يفصلوا عواطف الحنان لديهم عن آبائهم، أو أنهم على الأقلّ لم يتمكّنوا من فعل ذلك إلا على نحو غير كامل. والمقصود على وجه الخصوص فتيات يبقين متعلّقات، بقاء يرافقه سرور الآباء الكبير، بحب هؤلاء الآباء الفيّاض الكامل؛ ومن المثير للاهتمام أن يعاين المرء أن هؤلاء الفتيات لسن، عندما يقدمن على الزواج، قادرات على أن يمنحن الزوج كل ما ينبغي أن يُمنح. وستكون هؤلاء الفتيات زوجات باردات جنسيًّا، ويبقين غير حسّاسات من الناحية الجنسية. ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن حب الأولاد آباءهم غير الجنسي، على ما يظهر، والحب الجنسي يتغذّيان من مصادر واحدة؛ وذلك يعني أن حب الأولاد آباءهم ليس سوى ضرب من تثبيت طفالي لليبيدو.

٣ ـ ما يكشف عنه تعلّق مغال بالأبوين

كلما فحصنا الاضطرابات العميقة في التطوّر النفسي الجنسي فحصاً عن كَثَب، ازددنا وعياً بالأهمية التي مفادها أن لعنصر غشيان المحارم علاقة باختيار الموضوع. وتظلّ الفاعلية النفسية الجنسية، الباحثة عن الموضوع في حالات النُفاسات، في اللاشعور، معظمها أو كلها، جرّاء ضرب من إنكار الجنسية. فالفتيات اللواتي يعانين حاجة إلى الحنان المفرط، ويعانين في الوقت نفسه رعبًا أمام مقتضيات الحياة الجنسية مفرطًا أيضًا، هنّ عرضة لغواية لا تُقاوم، تقودهن، من جهة، إلى البحث في الحياة عن المثال لحب جنسي، وتقودهن، من جهة ثانية، إلى أن يقنّعن ليبيدهن بحنان يمكنهن إظهاره دون أن يوجّهن لأنفسهن ضروب اللوم، إذ يحتفظن طوال حياتهن بعواطف المحبة الطفالية لآبائهن، وأخوتهن وأخواتهن، وتلك عواطف جدّدها البلوغ. فالتحليل النفسي، الذي يبحث من خلال الأعراض

المرضية عن أفكارها اللاشعورية، ويقودها في الوقت نفسه إلى الوعي، سيكون ممكنًا له دون صعوبة أن يبرهن لهؤلاء الأفراد من هذا النموذج على أنهم **عاشقو** آبائهم بالمعنى العادي الذي نطلقه على كلمة عاشق. والأمر نفسه ينطبق على حالة فرد يُظهر، بعد أن بدأ في أن يكون سويًا، سمات مرضية في أعقاب حبّ تعِس. وبوسعنا أن نبرهن، برهان اليقين، على أن آلية المرض تكمن في عودة الليبيدو إلى الأشخاص المحبوبين في أثناء الطفولة.

سيغموند فرويد

النصّ الثالث

١ ـ صوت الوجدان الأخلاقي

لن يكون مدهشًا أن نجد مرجعًا نفسيًا يحقّق مهمة السهر على تأمين الإشباع النرجسي الصادر من مثال الأنا، ويراقب الأنا الحالية لهذا الغرض ويقيسها بالمثال. ومن المتعذّر، إذا كان هذا المرجع موجوداً، أن يكون موضوع اكتشاف غير متوقّع؛ وليس بوسعنا إلا أن نتعرّفه بوصفه كذلك، ويمكننا أن نقول إن ما نسمّيه **وجداننا الأخلاقي** له هذه الخاصّة. ويتيح لنا الاعتراف بهذا المرجع أن نفهم الأفكار الهاذية حيث يعتقد الفرد أنه مركز اهتمام الآخرين أو، بالحري، هذيان **الملاحظة**(٩) الذي

---

(٩) "Das verstandnis des sogenannten Beachtungs - derrichtiger Beochtungswahnes"؛ والترجمة الحرفية هي فهم ما ندلّ عليه أنه هذيان الانتباه أو، على نحو أصحّ، هذيان الملاحظة. فصعوبة ترجمة هذا المقطع صعوبةٌ كبيرة: يومئ فرويد إلى ـ ما يدلّ عليه الأطباء النفسيون الألمان بـ Beochtungswahnes؛ وليس لهذا اللفظ مقابل دقيق في أدب الطب النفسي الفرنسي؛ وتصعب ترجمته إلا بعبارة من عدة كلمات. وتعني كلمة Beachtung الانتباه الذي نوجّهه إلى الفرد. ولكلمتي Beachtung و Beochtung أصل واحد، ولكن الكلمة الثانية تضيف فارقًا دقيقًا: موضوع الانتباه **مطروح** بوصفه موضوع الملاحظة (ملاحظة اللجنة المشرفة).

ينطوي على مثل هذا البروز في مبحث الأعراض الخاص بعواطف الحنان نظير الذهانية الهذائية (بارانويا)، ولكنه يمكنه أن يحدث بوصفه عاطفة منعزلة، أو من وقت إلى آخر، في عصاب التحويل. ويشكو المرضى عندئذ من أن الآخرين يعرفون كل أفكارهم ويلاحظون أعمالهم ويراقبونها؛ وهم على علم بالعمل الوظائفي السائد لهذا المرجع بواسطة الأصوات التي تتكلّم إليهم، على نحو متميّز، كلام الشخص الثالث («الآن يفكر أيضًا بهذا»؛ «الآن يمضي»). ولهذه الشكوى ما يسوّغها، فهي تصف الحقيقة؛ وثمة بالفعل، وذلك موجود لدينا جميعًا في الحياة العادية، قوة من هذا النوع تلاحظ، تعرف، وتنقد كل نوايانا. ويعرضها هذيان الملاحظة على شكل نكوصي، إذ يكشف على هذا النحو نشوءها والسبب الذي يدفع المريض إلى أن يتمرّد عليها.

وما كان يحضّ الفرد على أن يكوّن الأنا المثالية التي تُفوَّض حراستها إلى الوجدان الأخلاقي إنما هو على وجه الضبط تأثير الأبوين النقدي كما ينتقل بصوتيهما. وانضمّ إليهما، في مجرى الأزمنة، المربّون، والأساتذة، والموكب الذي لا يُحصى عدده وغير المحدّد من الأشخاص الآخرين كلهم، أشخاص الوسط المحيط (الآخرون، الرأي العام).

٢ ـ ما يشرف على النقد الذاتي والملاحظة الذاتية

كانت كميات كبيرة من الليبيدو الثنائي الجنسية بصورة أساسية قد اجتُذبت لتكوين مثال الأنا النرجسي، وتجد ما يدعوها إلى الانحراف والإشباع وهي تصون هذا المثال. وكانت مؤسّسة الوجدان الأخلاقي في الحقيقة هي التجسيد خلال مرحلة أولى لنقد الأبوين، ولنقد المجتمع فيما بعد؛ وتتكرّر السيرورة نفسها عندما يجد ميل إلى الكبت أصله في ضرب من الدفاع أو في عائق كانا خارجيين أول الأمر. وتأتي الأصوات الآن، وكذلك هذا الجمهور المتروك غير متعيّن، إلى المستوى الأول، من جرّاء المرض، بحيث أن تاريخ نموّ الوجدان الأخلاقي يحدث بصورة نكوصية. أما العصيان على هذا **المرجع من الرقابة**، فإنه ينجم عن هذا

الواقع، المطابق لسمة المرض الأساسية، واقع مفاده أن الشخص يريد أن يتحرّر من هذه التأثيرات كلها، بدءاً من تأثير الأبوين، وأن يسترجع منها ليبيده الجنسي الثنائي. وعندئذ يعود إليه وجدانه الأخلاقي، في ظلّ شكل نكوصي، بوصفه عملاً يعادي الخارج.

وتبيّن شكاوى الذهان الهذائي (البارانويا) أيضًا أن النقد الذاتي للوجدان الأخلاقي يتزامن في الحقيقة مع الملاحظة الذاتية التي تُبنى على النقد الذاتي. والفاعلية النفسية نفسها التي تكفّلت بوظيفة الوجدان الأخلاقي وُضعت أيضًا في خدمة الاستبطان الذي يكشف للفلسفة عن المادة لعملياتها الفكرية. وربما لا يكون ذلك دون علاقة بميل الذهانيين الهذائيين إلى بناء منظوماتهم التأملية[١٠].

سيغموند فرويد

النصّ الرابع

١ ـ جاذبية الثمرة المحرّمة

الميول التي تتوجّه ضدها رقابة الأحلام ينبغي أن توصف أول الأمر حين نتبنّى وجهة نظر المرجع نفسه الذي تمثّله الرقابة. وبوسعنا أن نقول عندئذ إن هذه الميول هي ميول تستحقّ اللوم، غير محتشمة من وجهة النظر الأخلاقية، الجمالية والاجتماعية، وإنها أشياء لا نجرؤ على التفكير فيها، أو لا نفكر فيها إلا مع الرعب. وهذه الرغبات، المراقبة وتتلقّى في الأحلام تعبيراً مشوّهًا، هي قبل كل شيء مظاهر أنانية دون حدود ولا تبكيت ضمير. وليس ثمة من جهة أخرى حلم لاتؤدّي الأنا فيه الدور الأساسي، مع أنها تتقن إتقانًا جيداً جداً أن تحتجب في المحتوى الظاهر. وهذه «الأنانية المقدّسة» في الحلم ليست بالتأكيد دون علاقة باستعدادنا للنوم الذي يكمن على وجه الدقة في أن ننفصل عن كل اهتمام بالعالم الخارجي.

---

(١٠) أضيف هذا الافتراض البسيط الذي مفاده أن تكوين هذا المرجع الذي يراقب وتعزيزه يمكنهما أن يشملا النشوء المتأخّر للذاكرة (الذاتية) ولعامل الزمن الذي لا ينطبق على الظاهرات اللاشعورية.

فالأنا التي تخلّصت من كل عائق أخلاقي تستسلم لكل مقتضيات الغريزة الجنسية، تستسلم للمقتضيات التي أدانتها منذ زمن طويل تربيتنا الجمالية، ولتلك المقتضيات التي تتعارض مع كل قواعد القيود الأخلاقية. ولا يختار البحث عن اللذة، وذلك ما نسمّيه **الليبيدو**، زوجة الغير فحسب، ولكنه يختار أيضًا أشياءها التي أضفى عليها اتفاق الإنسانية الإجماعي سمة مقدّسة: يوجّه الرجل اختياره إلى أمه وأخته، وإلى زوجة أبيه وأخيه. وثمة اشتهاءات نعتقد أنها غريبة عن الطبيعة تبين أنها قوية إلى حدّ يكفي لإثارة حلم. والكره يطلق العنان لنفسه دون قيد. ورغبات الانتقام، وتمنّيات الموت للأشخاص الذين نحبهم الحب الأكبر في الحياة، آباء، أخوة، أخوات، أزواج وزوجات، أطفال، ليست على الإطلاق مظاهر استثنائية في الأحلام. وهذه الرغبات، التي تخضع للرقابة، تبدو أنها تستمدّ قوتها من جحيم حقيقي؛ ويبيّن التفسير الذي يحدث في حالة اليقظة أن الأفراد لا يتوقّفون أمام أي مراقبة لقمعها.

٢ ـ «حارس» اللاشعور

التصوّر الأبسط للجهاز النفسي للاشعور، هو الأيسر لنا: إنه التصوّر المكاني. فنحن نشبّه إذن جهاز اللاشعور بغرفة انتظار واسعة تتزاحم فيها الميول النفسية، شأنها شأن الموجودات الحيّة. وتتاخم غرفة الانتظار هذه غرفةٌ أخرى، أضيق، ضرب من الصالة، يسكنها الوعي. ولكن ثمة، في مدخل غرفة الانتظار إلى الصالة، حارس ساهر يفتش كل ميل نفسي، ويفرض عليه الرقابة، ويمنعه من الدخول إلى الصالة إذا كان لا يروق له. فأن يعيد الحارس ميلاً معيّنًا منذ العتبة أو أن يجعله يتجاوز العتبة بعد أن يكون قد دخل الصالة، فارق ليس كبيراً جداً والنتيجة واحدة. ويُناط كل شيء بدرجة تيقّظه وفطنته. ولهذه الصورة فائدة لنا مفادها أنها تتيح تنمية قائمة مصطلحاتنا. فالميول الموجودة في غرفة الانتظار، المحجوزة للّاشعور، تفلت من نظر الشعور الذي يسكن الغرفة المجاورة. إنها كلها لاشعورية إذن أول الأمر. وعندما يعيدها الحارس، بعد أن تكون قد وصلت إلى العتبة، ذلك يعني أنها عاجزة عن أن تصبح شعورية: ونقول عندئذ إنها

مكبوتة. ولكن الميول التي سمح لها الحارس أن تعبر العتبة ليست لهذا السبب شعورية بالضرورة؛ ويمكنها أن تصبح شعورية إذا أفلحت في أن تجذب نظر الوعي. وسنسمّي إذن هذه الغرفة الثالثة منظومة **قبل الوعي**. وكون سيرورة من السيرورات تصبح شعورية أمر يحتفظ على هذا النحو بمعناه محض الوصفي. وتكمن ماهية الكبت في أن الحارس يمنع ميلاً معيّنًا من أن ينفذ من اللاشعور إلى قبل الشعور. فالحارس هو الذي يظهر على صورة مقاومة، عندما نحاول، بواسطة العلاج التحليلي، أن نضع نهاية للكبت.

قد تقولون لي، دون شك، إن هذه التصوّرات، البسيطة ومن صنع المخيّلة معًا، لا يمكنها أن تجد مكانًا في عرْض علمي. وأنتم على صواب، وأعلم أنا نفسي جيداً جداً أنها، بالإضافة إلى ذلك، غير صحيحة وسيكون لدينا على وجه السرعة، إذا لم أكن مخطئًا، شيء أكثر إثارة للاهتمام نضعه مكانها. وأجهل إذا كانت ستبدو لكم، بعد تصحيحها وإكمالها، أقلّ خيالية. واعلموا، وأنتم تنظرون، أن هذه التصوّرات المساعدة، التي لدينا مثل عليها في الوجه الإنساني لأمبير، السابح في دارة كهربائية، ليست موضع احتقار، ذلك أنها تساعد، على الرغم من كل شيء، على فهم بعض الملاحظات. وبوسعي أن أؤكد لكم أن هذا الفَرَض الخام لمحلّين، مع الحارس الواقف على العتبة بين الغرفتين ومع الوعي الذي يؤدّي دور الشاهد في طرف الغرفة الثانية، يقدّم فكرة قريبة جداً من الحالة الواقعية للأمور. وأودّ أيضًا أن أسمعكم توافقون على أن تسمياتنا: **لاشعور** (inconscient)، **قبل الشعور** (préconscient)، **شعور** (conscient)، ذات حكم مسبق أقلّ كثيراً ولها ما يسوّغها أكثر من كثير من التسميات الأخرى المقترحة أو المستخدمة: subconscient (تحت الشعور)، para - conscient (نظير الشعور)، inter - conscient (داخل الشعور)، إلخ.

٣ ـ قوة داخلية: الضمير

بوسعنا أن نكتسب، بفضل التحليل النفسي، معارف خاصة بتركيب الأنا، والعناصر التي تدخل في بنيتها. ونحن نعتقد، من تحليل غواية الملاحظة، أن

بوسعنا أن نستنتج أن في الأنا مرجعًا بالفعل يلاحظ، وينتقد ويقارن دون كلل ويعارض الجزء الآخر من الأنا على هذا النحو. ولهذا السبب أعتقد أن المريض يكشف لنا عن حقيقة لا نأخذها على وجه العموم بالحسبان دائمًا كما تستحقّ، عندما يشكو أن كل خطوة من خطواته مرصودة ومراقبة، وكل فكرة من أفكاره مكشوفة ومنتقدة. ويكمن خطأه الوحيد في أنه يحدّد موقع هذه القوة غير المريحة جدًّا في الخارج كما لو أنها خارجية بالنسبة له. إنه يحسّ في نفسه بسلطة مرجع يقيس أناه الراهنة وكل مظهر من مظاهرها بـ «أنا مثالية» أبدعها هو نفسه خلال نموّه. بل أعتقد أن هذا الخلق كان قد جرى تنفيذه بنيّة أن يستعيد هذا الرضى بذاته، الذي كان ملازمًا للنرجسية الأولية الطفالية، والذي عانى كثيرًا من الاضطرابات في المعاملات المذلّة منذ ذلك الحين. وهذا المرجع الذي يراقب، نحن نعرفه: إنه مراقب الأنا، إنه الضمير؛ إنه هو نفسه الذي يمارس رقابة الأحلام خلال الليل، ومنه إنما تنطلق ضروب كبت الرغبات غير المقبولة. وإذ يتفكّك تحت تأثير غواية الملاحظة، فإنه يكشف لنا عن أصوله: التأثير الذي يمارسه الآباء، والمربّون، والوسط الاجتماعي؛ والتوحّد[١٣] ببعض الأشخاص الذين عانى المرء تأثيرهم معاناة أكبر.

سيغموند فرويد

(١٣) انظر، عن التوحّد، **التوحّد، الآخر هو أنا**، كتاب في المجموعة نفسها.

الجــزء الثــانــي

الموقعية الثانية

الفصل الأول

الأنا، الهو، والأنا العليا:

الإمبراطوريات الثلاث

بدءًا من عام ١٩٢٠ إذن إنما يشرع فرويد في أن يصوغ تصوّره الجهاز النفسي صياغة جديدة بعد أن أدخل مفهوم الموت(١). وهذه المقاربة «البنيوية» الجديدة للشخصية تُسمّى «الموقعية الثانية» على الغالب (الهو، الأنا، الأنا العليا). واقترح بعض المؤلفين كثيراً من الفروض لشرح نشوئها.

ويُعتقد على هذا النحو أن دراسته المعنونة «الحداد والسوداوية» تقود فرويد إلى أن يتصوّر، داخل النفس، وجود جزء يمكنه أن يعارض الجزء الآخر معارضة عنيفة، إلى حدّ يدمّره بالانتحار. وذلك ما كشفنا عنه ونحن نقدّم الفصل السابق. ولكن هذه الملاحظة، التي يمكنها أن تنير ظهور دافع الموت في التحليل النفسي، تساعدنا أيضًا على أن نفهم الأهمية المتنامية التي يتّخذها المرجع الأخلاقي الذي يلاحق الأنا. ذلك أن فرويد يجعل هذا المرجع من الآن فصاعداً أحد ثلاث «منظومات، أماكن، كمقاطعات أو امبراطوريات» ـ وفق مصطلحاته الخاصة ـ تكوّن مجموع الشخصية. وذلك من وجهة النظر الموقعية والدينامية على حدّ سواء، لأن فرويد، بفعل ذلك نفسه، يُبرز النزاعات التي تقع بين مختلف مراجع الفكر الإنساني أو منظوماته. أضف أن فرويد يصف **التوحدّ بالموضوع المفقود**(٢) والتعديلات الناجمة عنه في الأنا، في هذا العمل المكرّس للسيرورات

(١) انظر كتاب الدوافع: الحب والجوع، الحياة والموت، في المجموعة نفسها.

(٢) انظر كتاب مراحل الليبيدو: من الطفل إلى الراشد، في المجموعة نفسها.

السوداوية. وتتطوّر الأنا بفضل التوحّدات الثانوية[٣] وتتكوّن بدمج الموضوعات الفموي. فانطلاقًا من هذا المقال إذن تُعلَن أنا الموقعية الثانية.

والواقع أن مفهوم الأنا إنما يبرز بصورة تدريجية جدًا، لأننا نكتشف أثره عام ١٨٩٥، في **الدراسات في الهستيريا**، حيث يُرى هذا المفهوم أنه مرجع كابت. فلْنذكر فقط، في سبيل وضوح العرض، أن**النرجسية**[٤]، التي حدّد مقال «من أجل إدخال النرجسية» إدخالها في النظرية عام ١٩١٤، تؤثّر في نظرية تطوّر الأنا.

وثمة فَرَض ثان يشرح أيضًا هذا التعديل المتحقّق في الموقعية الثانية. وتفسح المادة العيادية المجموعة من المرضى في التحليل مكانًا واسعًا للدفاعات والمقاومات[٥] التي لا ينبغي، على الرغم من سمتها اللاشعورية، أن تختلط بالدوافع وممثّلاتها اللاشعورية (المكبوتة). وهذان الصنفان من السيرورات، المختلفان بمفعولاتهما، يدخلان في نزاع داخل النفس.

ونقول، أخيرًا، إن المكان المتعاظم الذي مُنحته التوحّدات[٦] في تكوين الشخصية أدّى دورًا حاسمًا في تأسيس الموقعية الفرويدية الثانية.

فلْنوضّح أولاً، لنرسم صورة سريعة للمراجع الثلاثة (الأنا، الهو، الأنا العليا)، أن **الهو** «خزّان الطاقة الدافعية الكبير». وإذا استثنينا غروديك، الذي نعلم من الآن فصاعدًا أن فرويد اقتبس مصطلح الهو منه، فإن المؤلفين لم يتوسّعوا في وصف هذا الهو: والواقع أن ثمة قليلاً من الأمور تُقال عنه...

أما الأنا، فإنها تمثّل ضربًا من التمايز من الهو بفضل التأثير التدريجي للعالم الخارجي. إنها تعمل عملها الوظائفي بوصفها مرجعًا رئيسًا يؤمّن مصالح

---

(٣) انظر التوحّد: الآخر إنما هو أنا، مصدر مذكور سابقًا.

(٤) انظر النرجسية: حب الذات، كتاب في المجموعة نفسها.

(٥) انظر الكبت: نمط الدفاعات، مصدر مذكور سابقًا.

(٦) أي الآليات التي تتيح للفرد أن يحوز صفات موضوع وأن يحتذي به بالتالي. انظر التوحّد، مصدر مذكور سابقًا.

الشخص في كليته، إذ يوفّق بين المقتضيات المختلفة للهو، والأنا العليا، والعالم الخارجي. ولهذا السبب يكتب فرويد فيما بعد قائلاً إن «الأنا مرغمة على خدمة ثلاثة أسياد في وقت واحد». والأنا، التابعة جدًا لسادتها، تشبه فارسًا ينبغي له، حتى لا يكون معرّضًا للوقوع في الارتباك، أن يتبع مطيّته، الهو والحال هذه. وهي تخضع، من جهة أخرى، للأمر المطلق(٧) الصادر من الأنا العليا. فصورة المهرّج في سيْرك، مهرج سحنته من الألوان الفاقعة ولباسه مضحك، التي يستخدمها فرويد في مكان آخر تناسب إذن الفارس تمامًا. فالمهرّج هذا يحاول في الواقع أن يجعل المشاهد يعتقد أنه ينسّق وينظّم وقائع المشهد، في حين أنه ليس سوى دميته المضحكة.

وتتكوّن الأنا العليا، كما قلنا في فصل سابق، انطلاقًا من ممنوعات أبوية استدخلها الطفل، وانطلاقًا على وجه الخصوص مما يصدر عن الوالد ذي جنس الطفل نفسه. وتخصّ هذه الممنوعات عندئذ الرغبة في غشيان المحارم، الموجّهة إلى الوالد من الجنس المقابل والرغبة، معًا، في قتل الوالد من جنس الطفل نفسه.

والمخاوف من الخصاء في ذروة العقدة الأوديبية، تحمل الطفل على أن يهجر أمنياته الأوديبية، بغية الحفاظ على عضو الذكر: عندئذ إنما تتأسّس الأنا العليا التي تكون إذن، في النظرية الفرويدية، **وريثة العقدة الأوديبية**. ويعزو إليها فرويد أيضًا، مع ذلك، جذرًا بيولوجيًا، نعرفه الآن: العجز الأول للطفل الصغير، البؤس الذي يرافقه والتبعية، التي يسبّبها، لموضوعات العالم الخارجي وللأبوين.

وتظلّ بعض وظائف الأنا، كالدفاعات على سبيل المثال، لاشعورية، كذلك تظلّ أهداب كاملة من الأنا العليا لاشعورية. فالهو واللاشعور من جهة، والأنا وقبل الشعور ـ الشعور من جهة ثانية لا يمكنها بالتالي أن تكون متطابقة، وذلك ما حاول بعضهم أن يعتقده.

---

(٧) «تصرّف دائمًا وفق قاعدة سلوك بحيث يمكنك أن تريد وبحيث تصبح هذه القاعدة قانونًا كليًا في الوقت نفسه (كانط). فالمقصود هنا وصية ذات نغمية أخلاقية يهبها الفكر نفسه.

وسنرى أن فرويد يستخدم هنا «الأنا المثالية» و «الأنا العليا» استخدامًا دون تميز. والواقع أن المصطلحين، الأنا المثالية والأنا العليا، مترادفان في نصّه «الأنا والهو» (١٩٢٣) الذي استخلصنا منه هذا الفصل[٨].

وليست هذه النظرية الجديدة لفرويد مجرّدة على الإطلاق. فالمراجع المختلفة للشخصية تُعاش، إذ تنطوي على استدخال العلاقات بالموضوعات، بوصفها أشخاصًا، وتوصف بوصفها كذلك. وتعبّر صور كصورتي الفارس والمطيّة، أو صورة مهرّج السيرْك، وكذلك تعبيرات مثل: «حب الأنا العليا للأنا» أو «كره الأنا دوافع الهو»، تعبيرًا حيًا عن هذا العنصر الدينامي بين الكل: الفكر الإنساني.

النصّ

قسمة النفسيّ إلى نفسي شعوري ونفسي لاشعوري يكوّن المقدّمة الأساسية للتحليل النفسي، وبدونها سيكون عاجزاً عن أن يفهم السيرورات المرضية، المتواترة بقدر ما هي خطيرة، سيرورات الحياة النفسية، وعاجزاً عن أن يُدخلها في إطار العلم. ونقول، مرة أخرى وبعبارة أخرى، إن التحليل النفسي يرفض أن يحسب الوعي مكوّن ماهية الحياة النفسية، ماهيتها نفسها، ولكنه يرى في الوعي مجرّد صفة من صفات الحياة النفسية، إذ يمكنه أن يوجد في وقت واحد مع صفات أخرى أو يغيب عنها.

فلو كان بوسعي أن أتوهّم أن الذين يهتمّون بعلم النفس يقرأون كلهم هذه المحاولة، فإنني أتوقّع بالتأكيد أن يتخلّى عن رفقتي منذ الصفحة الأولى أكثر من قارئ ويرفض أن يتابع القراءة، إذ يصدمه المكان المتواضع الذي أمنحه الوعي. ونحن في الواقع أمام أول منزلق للتحليل النفسي. فغالبية الناس ذوي الثقافة الفلسفية عاجزون على الإطلاق عن أن يفهموا أن حادثًا نفسيًا يمكنه أن يكون

(٨) مثال الأنا معروض بالتفصيل في كتاب النرجسية: حب الذات.

غير شعوري، وينبذون هذه الفكرة بوصفها عبثًا ومتناقضة مع المنطق السليم البسيط. ومردّ ذلك، في رأيي، أن هؤلاء الناس لم يدرسوا قط ظاهرات النوم المغناطيسي والحلم التي تفرض علينا، بغضّ النظرْ عمّا يمكنها أن تتصف به من مرضيّ، طريقة الرؤية التي صغتها للتوّ. وسيكولوجيتهم، بالمقابل، القائمة على الحضور الكلي للوعي عاجزة عن أن تحلّ المشكلات ذات العلاقة بالنوم المغناطيسي والأحلام.

١ ـ ثلاثة معطيات رئيسة: اللاشعور، الكبت، المقاومة

«كون الحادث النفسي شعوريًّا» تعبير محض وصفي قبل كل شيء وذو علاقة بالإدراك الأكثر مباشرة ووثوقًا. ولكن التجربة تبيّن لنا أن عنصراً نفسيًّا، كالامتثال على سبيل المثال، غير شعوري على نحو دائم. وما يميّز العناصر النفسية بالحري إنما هو اختفاء حالتها الشعورية السريع. إن امتثالاً، شعوريًّا في لحظة معيّنة، لم يعد شعوريًا في اللحظة التالية، ولكنه يمكنه أن يصبح مجددًا شعوريًا في بعض الشروط، التي يسهل تحقيقها. ونجهل في الفاصل الزمني بين اللحظتين ماهيته؛ وبوسعنا القول إنه **كامن**، إذ نفهم من ذلك أنه قادر على أن **يصبح شعوريًا** في أي برهة. وحين نقول إن امتثالاً يظلّ، في الفاصل الزمني، **لاشعوريًا**، فإننا نصوغ أيضًا تعريفًا صحيحًا، إذ تتطابق هذه الحالة اللاشعورية مع الحالة الكامنة والاستعداد للرجوع إلى الوعي. وسيوجّه لنا الفلاسفة هنا الاعتراض التالي: لفظة **لاشعوري** لا تُطبّق في الحالة الخاصة، ذلك أن امتثالاً لا يمثّل شيئًا نفسيًّا طالما كان في حالة الكمون. ونحن نحرص تمامًا على أن نجيب عن هذا الاعتراض بأي شيء كان، لأن ذلك قد يجرّنا إلى ضرب من الجدال محض اللفظي ليس لدينا شيء نربحه منه.

ولكننا حصلنا على مصطلح اللاشعور أو مفهومه ونحن نسلك دربًا آخر، وبخاصة عندما استخدمنا تجارب تتدخّل **الدينامية** النفسية فيها. وتعلّمنا أو، بالحري، كنا ملزمين بأن نسلّم أن ثمة سيرورات نفسية قوية، أو امتثالات (نحن نأخذ هنا بالحسبان على وجه الخصوص ذلك العامل الكمّي، أي الاقتصادي) قادرة

على أن تظهر بواسطة مفعولات شبيهة بالمفعولات التي تُحدثها امتثالات أخرى، أي بواسطة مفعولات قادرة، إذ تأخذ شكل امتثالات بدورها، على أن تصبح شعورية، دون أن تصبح السيرورات التي أنتجتها هي نفسها لاشعورية. ومن غير المجدي أن نكرّر هنا ما قيل مرات كثيرة. وحسبنا أن نذكّر أن نظرية التحليل النفسي إنما تتدخّل في هذه النقطة لتعلن أن السبب في عجز بعض الامتثالات عن أن تصبح شعورية إنما هو ضرب من القوة التي تعارضها؛ وأن بوسعها أن تصبح شعورية لولا هذه القوة، وذلك أمر يتيح لنا أن نعاين الحدود الضيّقة التي تختلف فيها الامتثالات عن عناصر نفسية أخرى معترف بها رسمياً أنها كذلك. فما يجعل هذه النظرية غير قابلة للدحض إنما هو أنها وجدت في تقنية التحليل النفسي وسيلة تتيح التغلّب على القوة المعارضة وتتيح أن تقود إلى الوعي هذه الامتثالات اللاشعورية. ونحن أطلقنا اسم **الكبت** على الحالة التي توجد فيها هذه الامتثالات قبل أن تكون قد أعيدت إلى الوعي؛ أما القوة التي تُنتج الكبت وتصونه، فنحن نقول إننا نستشعرها، خلال العمل التحليلي، على صورة **مقاومة**.

٢ ـ المعنى المزدوج لـلّاشعور

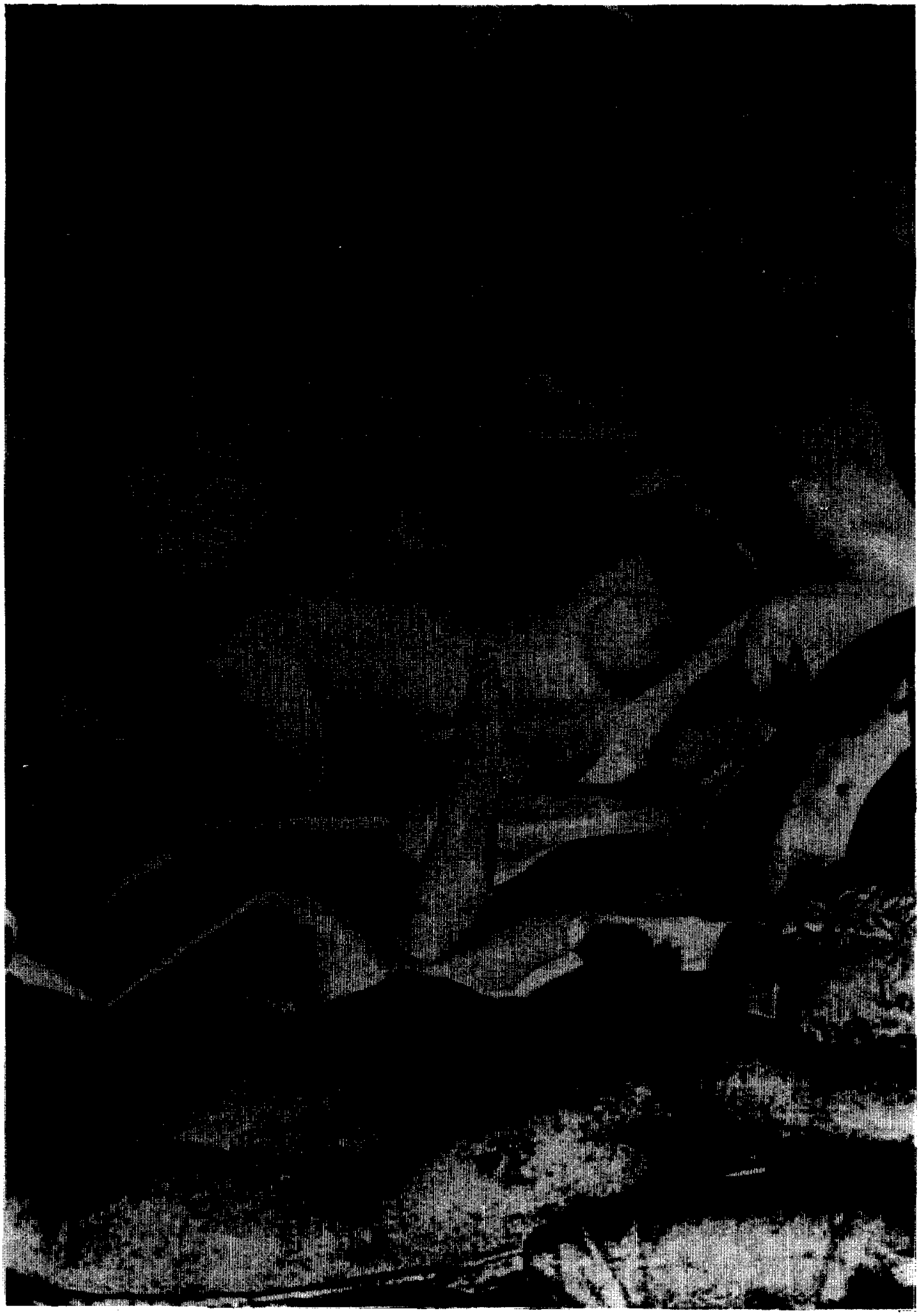
مفهوم اللاشعور لدينا مستنتج على هذا النحو من نظرية الكبت. فما هو مكبوت هو النموذج الأصلي للاشعور بالنسبة إلينا. ونحن نعلم مع ذلك أن ثمة ضربين من اللاشعوري: الحوادث اللاشعورية الكامنة، ولكنها التي يمكنها أن تصبح شعورية، والحوادث النفسية المكبوتة التي ليست قادرة على أن تصل إلى الوعي، بوصفها مكبوتة ومهجورة. وطريقتنا في تصورّ الدينامية النفسية لا يمكنها أن تظل دون تأثير على المصطلحات والوصف. ولهذا السبب نقول إن الحوادث النفسية الكامنة، أي اللاشعورية بالمعنى الوصفي للكلمة، وليست بالمعنى الدينامي، هي حوادث **قبل شعورية**، ونحتفظ للحوادث النفسية المكبوتة بصفة **لاشعورية**، أي أنها لاشعورية من الناحية الدينامية. ولدينا على هذا النحو ثلاثة مصطلحات: **شعور**، **قبل الشعور**، **لاشعور**، دلالتها لم تعد دلالة محض وصفية.

والحال أن مصطلحاتنا الثلاثة: **شعور**، **قبل الشعور**، **لاشعور**، يسهل

استعمالها، وتتيح لنا حرية كبيرة في الحركة شريطة ألا ننسى أن وجهة نظر دينامية واحدة موجودة، وإن كان ثمة وجهتا نظر من الناحية الوصفية. وبوسعنا، في بعض الحالات، أن نعرض نصًّا نهمل فيه هذا التمييز، ولكنه تمييز لا غنى عنه في حالات أخرى. ومهما يكن من أمر، فقد تعوّدنا بما يكفي على هذا المعنى المزدوج للاشعور ولم نشعر قطّ بأي حرج كبير. ويبدو لي أنه أمر لا يمكن أن نتجنّبه. أما التمييز، أخيراً، بين الشعور واللاشعور، فإنه يرتدّ إلى مجرد سؤال عن الإدراك يتضمّن الجواب **نعم** أو **لا**، إذ أن الإدراك نفسه لا يقدّم لنا أوهى معلومة عن البواعث التي يكون شيء وفقها مدركًا أم غير مدرك. ونرتكب خطأ حين نتذمّر من أن الدينامية النفسية تظهر دائمًا بمظهر مزدوج (الشعور واللاشعور).

٣ ـ وجود عناصر لاشعورية في الأنا

ولكن البحوث اللاحقة في التحليل النفسي بينت أن هذه التمييزات كانت، هي أيضًا، غير كافية وغير مرْضية. ومن الأوضاع التي يظهر فيها هذا الواقع بارزًا على وجه الخصوص، سنذكر الوضع التالي الذي يبدو لنا حاسمًا. فنحن نتصوّر السيرورات النفسية لدى شخص بوصفها تكوّن تنظيمًا متماسكًا ونقول إن هذا التنظيم المتماسك يكوّن أنا الشخص. ونزعم أن بهذه الأنا إنما يرتبط الوعي، وأنها هي التي تراقب وتسهر على الدروب نحو الحركية، أي إضفاء الخارجية على الإثارات. ونحن نرى في الأنا ذلك المرجع النفسي الذي يمارس رقابة على كل السيرورات الجزئية، وترقد ليلاً وتمارس وهي ترقد **حق الرقابة على الأحلام**. ومن هذه الأنا إنما تنطلق أيضًا ضروب الكبت، وبواسطتها لا يكون بعض الميول النفسية مستبعَدًا من الوعي فحسب، ولكنها توضع في وضع يتعذّر عليها أن تظهر أو تعبّر عن نفسها على نحو من الأنحاء. وهذه الميول، التي يستبعدها الكبت، تنتصب ضد الأنا خلال التحليل، وتكمن مهمة التحليل في إلغاء المقاومات التي تعارضنا بها الأنا في محاولاتنا الاقتراب من الميول المكبوتة. والحال أننا نعاين خلال التحليل أن المريض يجد نفسه مرتبكًا حين نفرض عليه بعض المهمّات، وأن ترابطاته بين الأفكار قاصرة كلما اقتربت من ما هو مكبوت. ونقول له عندئذ إنه يعاني تأثير



ترقد الأنا ليلا وتمارس وهي نائمة حق الرقابة على الأحلام

مقاومة، ولكنه لا يعلم عنها شيئًا هو نفسه؛ فالعواطف المرهقة التي يكابدها ترغمه عندئذ على الاعتراف أن مقاومة تسيطر عليه، وأنه عاجز عن أن يقول ما قوامها وما مصدرها. ولكن، بما أن هذه المقاومة تصدر بالتأكيد عن أناه وهي جزء منها، فإننا نجد أنفسنا أمام وضع لم نكن نتوقّعه. إننا وجدنا في الأنا نفسها شيئًا لاشعوريًّا بقدر ما تكون الميول المكبوتة لاشعورية، ويسلك سلوكها، أي يُنتج مفعولات بارزة جدًّا، دون أن يصبح شعوريًّا، ولا يمكنها أن تصبح شعوريًّا إلا في أعقاب عمل خاص. ولهذا السبب نصطدم، في عملنا التحليلي، بصعوبات وظلمات لا تُحصى عندما نريد أن نتمسّك بتعريفاتنا المألوفة، إذ نعيد العصاب، على سبيل المثال، إلى نزاع بين الشعور واللاشعور. فعلينا بالنظر إلى النحو الذي نتصوّر عليه البنية النفسية، أن نجعل تقابلاً آخر ينوب مناب هذا التقابل: التقابل بين الأنا المتماسكة والعناصر المنفصلة عن الأنا والمكبوتة.

٤ ـ اللّاشعور لا يتكوّن إلا من انطباعات مكبوتة

ولكن الواقع الذي أشرنا إليه للتو متخم أيضًا بالنتائج فيما يخص تصوّرنا اللاشعور. فوجهة النظر البنيوية كانت قدّمت لنا تصحيحًا أول. نحن نُساق إلى الاعتراف أن اللاشعور لا يتطابق مع العناصر المكبوتة. ويظل حقيقيًّا أن كل ما هو مكبوت لاشعوري، ولكن ثمة عناصر لاشعورية دون أن تكون مكبوتة. فجزء من الأنا، والله يعلم أي جزء ذي أهمية، يمكنه أيضًا أن يكون لاشعوريًّا وهو لاشعوري بالتأكيد. وليس هذا الجزء اللاشعوري من الأنا كامنًا، بمستوى كمون قبل الشعور، ذلك أنه لو كان كذلك لما كان ممكنًا أن يصبح نشيطًا دون أن يصبح شعوريًّا، ولما اصطدمنا بصعوبات ضخمة كلما أردنا أن نجعله شعوريًّا. ونجد أنفسنا على هذا النحو أمام الضرورة التي مفادها أن نسلّم بوجود لاشعور ثالث، غير مكبوت؛ ولكننا نعترف، لهذا السبب، أن سمة اللاشعور تفقد بالنسبة لنا كل دلالة واضحة. ويصبح اللاشعور صفة ذات دلالات متعدّدة لا تسوّغ التعميمات والاستنتاجات الصارمة التي من أجلها سنستخدمه عن طيب خاطر. ولكننا سنرتكب خطأً إذا

أهملناه، ذلك أن معنى «شعوري» أو «لاشعوري» يكوّن الضوء الوحيد القادر على أن يقودنا عبْر ظلمات الأعماق النفسية.

٥ ـ نقطة انطلاق: سطح الجهاز النفسي

وجّهت البحوث المرضية، على نحو حصري جداً، انتباهنا نحو ما هو مكبوت. ونودّ أن نفهم الأنا فهمًا أفضل منذ أن علمنا أنها يمكنها أن تكون لاشعورية، بالمعنى الحقيقي للكلمة. ولدينا حتى الآن مَعْلَم وحيد، في بحوثنا، صفة شعوري أو لاشعوري للعناصر النفسية. ولكننا انتهينا إلى أن نأخذ بالحسبان أن هذه الصفة إنما هو صفة ذات دلالات متعدّدة.

والحال أن كل معرفتنا مرتبطة بالوعي دائمًا. وليس بوسعنا أن نعرف اللاشعوري نفسه إلا إذا جعلناه شعوريًا. ولكن، فلنتوقّف هنا: كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟ ما معنى: «جعل شيء من الأشياء شعوريًا؟ كيف نتصرّف لبلوغ هذه النتيجة؟

ونحن نعلم الآن بأي نقطة انطلاق نتعلّق للإجابة عن هذه الأسئلة. قلنا إن الوعي يكوّن **سطح** الجهاز النفسي؛ ونقول، بعبارة أخرى، إننا نرى في الوعي وظيفة نعزوها إلى منظومة هي الأقرب، من الناحية المكانية، إلى العالم الخارجي. وينبغي لهذا القرب المكاني أن لا يُفهم بالمعنى الوظيفي فحسب، ولكن بالمعنى التشريحي أيضًا[٩]. ولهذا السبب، ينبغي لبحوثنا، بدورها، أن تأخذ هذا السطح ذا العلاقة بالإدراك نقطة انطلاقها.

فكل الإدراكات التي تأتي من الخارج (إدراكات حسّية) هي شعورية مبدئيًا؛ وما نسميه الإحساسات والعواطف التي تصدر من الداخل هي شعورية أيضًا. ولكن ماذا نقول عن هذه السيرورات الداخلية التي نجمعها في ظلّ الاسم الرخو وغير الدقيق لـ«السيرورات الفكرية»؟ أينبغي لنا أن نتصورّها بوصفها انتقالات

(٩) انظر ما وراء مبدأ اللذة.

الطاقة النفسية التي تبلغ السطح الذي يتكوّن فيه الوعي، بوصفها تحدث في داخل الجهاز النفسي وتسلك مسارات تقود إلى العمل؟ أو أن الوعي هو الذي يتوجّه صوبها، ليقترن بها ويتّحد بها؟ ونلفت النظر إلى أننا نجد أنفسنا أمام إحدى الصعوبات التي نصطدم بها عندما نحمل كثيراً على محمل الجد التصوّر المكاني، أي **موقعية** الحوادث النفسية. والاحتمالان يصعب تصوّرهما أيضًا؛ ولا بدّ من وجود احتمال ثالث.

٦ ـ الدرب الذي يقود إلى اللاشعور

كنت قد صغت في مكان آخر ذلك الرأي الذي مفاده أن الفارق الواقعي بين امتثال لاشعوري وامتثال قبل شعوري (فكرة) يكمن في أن الأول ذو علاقة بمواد تظلّ مجهولة، في حين أن الثاني يقترن بامتثال لفظي. وتلك محاولة أولى لوصف سمات اللاشعور وقبل الشعور بغير علاقاتهما بالوعي. ويمكننا أن نتيب مناب السؤال: «كيف يصبح شيئًا من الأشياء شعوريًّا؟» إنابة مفيدة: «كيف يصبح شيء من الأشياء قبل شعوري؟» والجواب: بفضل الترابط بين الامتثالات اللفظية ذات العلاقة.

وهذه الامتثالات اللفظية هي آثار تذكّرية: إنها كانت فيما مضى إدراكات حسّية ويمكنها، شأنها شأن الآثار التذكرية كلها، أن تصبح شعورية مجدّداً. وثمة، قبل أن نقارب تحليل طبيعتها، فَرَض يفرض نفسه على فكرنا: لا يمكن أن يصبح شعورياً إلا ما كان فيما مضى في حالة الإدراك الشعوري؛ فكل ما يقتضي، فيما عدا العواطف، بوصفه صادراً من الداخل، أن يصبح شعوريًا، ينبغي له أن يبحث عن أن يتحوّل إلى إدراك خارجي، وذلك تحوّل متعذّر إلا بفضل الآثار التذكّرية. وتقترب الفكرة المرئية من السيرورات اللاشعورية أكثر من الفكرة اللفظية، وهي أقدم من الفكرة اللفظية من وجهة نظر تطور النوع وتطور الفرد على حدّ سواء.

وإذا كان، لنَعود إلى موضوعنا، هذا هو الدرب الذي يقود من اللاشعور إلى قبل الشعور، فإن السؤال التالي: «كيف يمكننا أن نعيد إلى (قبل) الشعور عناصر

مكبوتة ؟» يتلقّى الإجابة التالية : «أن نعيد هذه العناصر البنيوية الوسيطة، قبل الشعورية، أي الذكريات اللفظية، إلى ما كانت عليه».

والتمييز بين الشعوري وقبل الشعوري لا يُطرح فيما يخصّ الإحساسات : فأي إحساس يكون شعوريًّا أو لاشعوريًّا، ولكنه لا يكون قبل شعوري على الإطلاق. وحينما يصبح الإحساس الذي يقترن بامتثالات لفظية شعوريًّا، فإنه يصبح كذلك بصورة مباشرة لا بفضل هذه الامتثالات.

فها نحن نرسو رسوًّا كاملاً على دور الامتثالات اللفظية. وتصبح السيرورات الفكرية الداخلية إدراكات، بواسطة هذه الامتثالات. ويقال إنها ليست موجودة إلا لتقوم مقام الدليل على العبارة التالية : كل معرفة صادرةٌ عن العالم الخارجي. وعندما يكون الفكر في حالة من الإرهاق، تُدرك الأفكار بالفعل وكأنها صادرة عن الخارج وتُعدّ، لهذا السبب، حقيقية.

٧ ـ الهو مجهول وعميق

بوسعنا حاليًّا أن نحاول منح تصوّرنا الأنا شكلاً أكثر كمالاً. إننا نراها تتكوّن انطلاقًا من منظومة P (الإدراك)، الذي يكوّن نواتها، ونفهم أول الأمر قبل الشعور الذي يستند إلى الآثار التذكّرية. ونحن نعلم مع ذلك أن الأنا لاشعورية أيضًا.

وأعتقد أننا نجني كل الفائدة إذا اتّبعنا مقترحات مؤلف يودّ، لدواعٍ شخصية، أن يقنعنا، دون أن ينجح، أن ما قلناه عن الأنا غير ذي علاقة بالعلم الصارم الرفيع. وليس هذا المؤلف سوى غروديّك، الذي لا يتعبه أن يكرّر أن ما نسميّه الأنا تسلك في الحياة سلوكًا سلبيًّا، وأننا **نعيش**، حتى نستخدم تعبيره، بفعل قوى مجهولة تفلت من سيطرتنا. إننا جميعنا خبرنا انطباعات من هذا النوع، على الرغم من أننا لم نعان تأثيرها إلى درجة تصبح متعذّرة المنال على كل انطباع آخر، ولا نتردّد في أن نمنح طريقة الرؤية لدى غروديّك ذلك المكان الذي تستحقّه في

العلم. وأقترح أن نأخذها بالحسبان إذ نسمّي أنا الكيان الذي تكون نقطة انطلاقه كامنة في منظومة الإدراك P ويكون، في المستوى الأول، قبل شعوري، ونحتفظ بتسمية الهو ça (Es)[10] لكل العناصر الأخرى النفسية التي تستطيل فيها الأنا وهي تسلك سلوكًا لاشعوريًّا[11].

ولن نلبث حتى نرى إلى أي حدّ يمكن أن يكون هذا التصوّر مفيداً لنا لوصف الحوادث التي تثير اهتمامنا ولفهمها. فأي فرد يتألف على هذا النحو بالنسبة لنا من «هو» نفسي، مجهول ولاشعوري، تتنضّد عليه أنا سطحية، صادرة عن منظومة الإدراك بوصفها نواة. ولمنح هذه العلاقات امتثالاً تخطيطيًّا إذا صحّ القول، فإننا نقول إن الأنا لا تغطّي الهو إلا بسطحها الذي تكوّنه منظومة الإدراك، كما يغطي القرص الإنتاشي البيضة على وجه التقريب. فليس بين الأنا والهو انفصال حاسم، لا سيّما في الجزء الأسفل من الأنا حيث يميلان إلى أن يختلطا.

٨ ـ الأنا العاقلة، الهو المحموم

ولكن ما هو مكبوت يختلط أيضًا بالهو، وهو ليس إلا جزءاً منه. وبواسطة الهو إنما يمكن أن تتواصل العناصر المكبوتة مع الأنا التي تكون هذه العناصر منفصلة عنها انفصالاً بارزًا بالمقاومات التي تعارض ظهورها على السطح. وسرعان ما نرى في الحال أن التمييزات التي وصفناها للتوّ، كلها على وجه التقريب، متّبعين اقتراحات علم الأمراض، ليست ذات علاقة إلا بالراقات السطحية، الوحيدة التي كنا نعرفها من الجهاز النفسي.

وولادة الأنا وانفصالها عن الهو منوطان أيضًا بعامل آخر غير التأثير الناجم عن منظومة الإدراك. فالجسم الخاص للفرد، وسطحه قبل كل شيء، يكوّنان

---

(١٠) الهو الفرويدي(Es)، ضمير حيادي، تتعذّر ترجمته إلى الفرنسية. واقترح بعضهم ترجمته بـ Id اللاتينية. وساد استعمال لفظة هو ça (أو Cela). وثمة كثير من المحلّلين النفسيين احتفظوا باللفظ الألمانيEs، الذي يقابل Ich(الأنا) و Uber - Ich (الأنا العليا). (ملاحظة د. هشنارد).

(١١) استوحى غروديّك أفكاره، بهذا الصدد، من نيتشه الذي يستخدم هذا التعبير النحوي ليدلّ على ما هو غير شخصي، والخاضع لضرورات وجودنا الطبيعية.

مصدراً يمكن أن تصدر عنه معًا إدراكات خارجية وإدراكات داخلية. إنه يعدّ شيئًا خارجيًّا، ولكنه يقدّم لحاسّة اللمس ضربين من الإحساسات، أحدهما يمكنه أن يماثل إدراكًا داخليًّا. وبيّن علم النفس الفيزيولوجي بيانًا كافيًا من جهة أخرى كيف يتحرّر جسمنا الخاص من عالم الإدراكات. ويبدو أن الألم يؤدّي دوراً كبيراً في هذه السيرورة، والطريقة التي نكتسب بها، في الأمراض المؤلمة، معرفة جديدة بأعضائنا ربما تكون من طبيعة تمنحنا فكرة عن الطريقة التي بها نسمو إلى امتثال جسمنا بصورة عامة.

ويسهل أن نرى أن الأنا جزء من الهو طرأت عليه تعديلات تحت التأثير المباشر للعالم الخارجي، وبوساطة الوعي ـ الإدراك. إنها تمثّل، ضمن نطاق معيّن ضربًا من استطالة التمايز السطحي. وهي تسعى أيضًا جاهدة لتمدّ تأثير العالم الخارجي على الهو ومقاصده، ولتنيب مبدأ الواقع مناب مبدأ اللذة الذي يوطّد وحده سلطته على الهو. فالإدراك بالنسبة للأنا يكون كالغريزة أو الاندفاع الغريزي بالنسبة للهو. وتمثّل الأنا ما نسمّيه العقل والحكمة، والهو، على العكس، تسوده الأهواء. وكل ذلك يتّفق مع التمييزات الشائعة والمشهورة، ولكنها لا ينبغي أن تؤخذ إلا على نحو عام جداً وتُعدّ ذات صحة محض افتراضية.

٩ ـ الهو: حصان مندفع تسوده الأنا التي تقوده

لا تكمن الأهمية الوظيفية للأنا في أنها هي التي، بصورة عامة، تراقب دروب القدرة على الحركة. ويمكننا، في علاقاتها بالهو، أن نقارنها بفارس عُهد إليه السيطرة على قوة الحصان العليا، مع فارق واحد على وجه التقريب مفاده أن الفارس يسيطر على الحصان بقواه الخاصة، في حين أن الأنا تسيطر على الهو بقوى مستعارة. وهذه المقارنة يمكننا أن ندفعها إلى مدى أبعد. وكما أن الفارس، إذا أراد أن لا ينفصل عن الحصان، لا يبقى له على الغالب إلا أن يقوده حيث يشاء هذا الحصان أن يمضي، كذلك الأنا تترجم على وجه العموم إرادة الهو إلى عمل، كما لو أنها إرادتها الخاصة. فالأنا كيان جسمي قبل كل شيء.

والعلاقات بين الأنا والوعي كانت قد وُصفت على الغالب، ولكن ثمة بعض الوقائع ذات الأهمية تستحق أن يُلفت النظر إليها مجدّدًا. وبوصفنا متعوّدين على أن نُدخل وجهة نظر القيمة الاجتماعية أو الأخلاقية في كل مكان، فلن يدهشنا أن نسمع ما يُقال إن للأهواء الدنيا ميدانًا هو اللاشعور، ونحن مقتنعون أن الوظائف النفسية تنفذ إلى الوعي على نحو أسهل ومؤكد بقدر ما تكون قيمتها الاجتماعية أو الأخلاقية أكبر. ولكن تجربة التحليل النفسي تبيّن لنا أن هذا النحو من الرؤية تستند إلى خطأ أو وهم.

١٠ ـ ليس اللاشعور محل الأهواء الأكثر انحطاطًا

نلاحظ خلال تحليلاتنا أن ثمة أشخاصًا يظهر الموقف النقدي لديهم من الذات ووساوس الضمير، أي الوظائف النفسية التي ترتبط بها بالتأكيد قيمة اجتماعية وأخلاقية كبيرة جداً، وكأنها مظاهر لاشعورية وهي، بوصفها كذلك، تبدو ذات فعّالية كبيرة؛ فالسمة اللاشعورية للمقاومة، التي بها يعارض المرضى خلال التحليل، لا تكوّن إذن المظهر الوحيد من هذا النوع. ولكن هذا الواقع الجديد، الذي يلزمنا، على الرغم من إرهاف حسّنا النقدي، بأن نتكلم على ضرب من عاطفة لاشعورية للإثمية، هو طبيعة تفاقم الارتباك الذي نكابده الآن جراء المقاومة اللاشعورية، وتضعنا أمام ألغاز جديدة، لا سيّما عندما نتوصّل إلى أن نتأكّد بالتدريج أن هذه العاطفة اللاشعورية من الإثمية تؤدي، في عدد كبير من الأعصبة، دوراً حاسمًا من وجهة النظر الاقتصادية وتعارض الشفاء بأكبر الموانع: فليس ما هو الأعمق فينا يمكنه أن يكون وحده لاشعوريًا، ولكن يمكن أن يكون لاشعوريًا ما هو أكثر رفعة. ولدينا بما قلناه فيما تقدّم عن موضوع الأنا الشعورية برهانًا جديدًا، أي أن هذه الأنا لا تمثّل إلا جسمنا.

١١ ـ نصائح ومحرّمات صادرة من الأنا العليا

ليست الأنا العليا مع ذلك مجرّد راسب الاختيارات الأولى للموضوع

بواسطة الهو؛ إن لها أيضًا دلالة تكوين مصيرها أن ترتكس بقوة ضدّ هذه الاختيارات. فعلاقاتها بالأنا لا تقتصر على أن توجّه إليها النصيحة: «كنْ على هذا النحو» (كأبيك)، ولكنها تنطوي أيضًا على التحريم: «لا تفعل كل ما يفعله؛ ثمة أمور كثيرة تكون موقوفة عليه وحده». وهذا المظهر المزدوج للأنا المثالية ينجم عن واقع مفاده أنها بذلت كل جهودها لكبت **عقدة أوديب** وأنها لم تولد إلا في أعقاب هذه الضروب من الكبت. ومن الواضح أن كبت **عقدة أوديب** لا ينبغي أن يكون مهمة سهلة جداً. فأنا الطفل، بوصفها تأخذ بالحسبان أن الوالدين، لا سيّما الأب، كانا يكوّنان مانعًا لتحقيق رغباتها ذات العلاقة بـ **عقدة أوديب**، تقيم في نفسها هذا المانع المضني، حتى تسهّل هذا الجهد، جهد الكبت، وحتى تزيد وسائلها وقدرتها على العمل بغية تسهيل هذا الجهد. ومن الأب، إنما اقتبست القوة الضرورية، إلى حد معين، لهذا الغرض، ويكوّن هذا الاقتباس فعلاً مثقلاً بالنتائج. وستبذل الأنا العليا جهدها لتعيد إنتاج السمة الأبوية، وكلما كانت **عقدة أوديب** قوية، سيجري الكبت بسرعة أكبر (تحت تأثير التعليم الديني، والسلطة، والثقافة، والقراءات)، وستكون أقوى أيضًا تلك القسوة التي بها الأنا العليا ستحكم الأنا، بوصف الأنا العليا تجسيداً لوساوس الضمير وربما للعاطفة اللاشعورية للإثمية أيضًا. وسنحاول أن نصوغ فيما بعد بعض الفروض الاجتماعية ذات العلاقة بالمصدر الذي منه تنهل الأنا العليا معًا تلك القوة التي تتيح لها أن تمارس هذه السيطرة، وهذه السمة من القسر التي تتجلّى على صورة آمر مطلق.

١٢ ـ الانفصال بين الأنا والأنا العليا: محصّلة التطور الإنساني

نلاحظ، فيما يخصّ نمط ظهور الأنا العليا، أنه يكوّن محصّلة عاملين بيولوجيين هامّين جداً: حالة العجز وتبعية الطفل اللتين يعانيهما الإنسان خلال برهة طويلة إلى حدّ كاف، و **عقدته الأوديبية** التي ربطناها بالانقطاع الذي يطرأ على نموّ الليبيدو جرّاء مرحلة الكمون، أي باستعداداته المزدوجة لحياته الجنسية. وفيما يخصّ هذه الخاصّة الأخيرة التي يبدو أنها إنسانية بصورة نوعية، ثمة فرض

تحليلي نفسي يمثّلها بوصفها بقية وراثية من التطور نحو الثقافة، التي كانت قد انطلقت بتأثير دفعة الشروط الحياتية الملازمة للمرحلة الجليدية. وعلى هذا النحو إنما يكوّن الانفصال الذي يجري بين الأنا العليا والأنا نهاية طبيعية لنموّ الفرد والنوع، ولا يمثّل على الإطلاق حادثًا عرضيًّا، نمو يلخّص هذا الانفصال إذا صحّ القول خصائصه الأكثر أهمية؛ كذلك يخلّد، مع أنه يبدو في الوقت نفسه أنه التعبير الدائم عن التأثير الذي يمارسه الأبوان، وجود عوامل يدين لها بولادته.

١٣ ـ الأنا العليا: وريثة عقدة أوديب

أما وقد قاربنا تحليل الأنا، فإن بوسعنا أن نجيب عن أسئلة كل أولئك الذين كانوا، بالنظر إلى أن الاضطراب أصاب وجدانهم الأخلاقي، يعترضون علينا قائلين إنه لا بد أن يكون في الإنسان ماهية عليا: ومن المؤكد أن هذه الماهية العليا ليست سوى الأنا المثالية[١٢]، الأنا العليا، التي تتلخّص فيها علاقاتنا بالأبوين. وقد عرفنا، ونحن صغار، هذه الموجودات العليا التي كانت بالنسبة لنا آباءنا، وأعجبنا بها، وخشيناها، وتمثّلناها فيما بعد ودمجناها بأنفسنا.

وتمثّل الأنا المثالية على هذا النحو إرث **عقدة أوديب**، وبالتالي التعبير عن الميول الأكثر قوة، وعن المصائر الأكثر أهمية للهو. فالأنا أصبحت بوساطتها سيدة **عقدة أوديب** وخضعت إلى الهو في الوقت نفسه. وفي حين أن الأنا تمثّل بصورة أساسية العالم الخارجي، الواقع، فإن الأنا العليا تعارضها، بوصفها عُهد إليها سلطات العالم الداخلي، الهو. وعلينا أن نتوقّع أن تعكس النزاعات بين الأنا والمثال، في نهاية المطاف، ذلك التعارض بين العالم الخارجي والعالم النفسي.

ونفهم، بالنظر إلى نمط تكوّن الأنا العليا، أن النزاعات التي حدثت بين الأنا وموضوعات التركيز الليبيدي للهو تستطيل في نزاعات تجري هذه المرة بين الأنا ووريث الهو، أي الأنا العليا. وعندما لم تفلح الأنا في أن تتجاوز **العقدة الأوديبية** على نحو مرْض، يظهر التركيز الطاقي الذي كانت قد استمدّته من الهو ظهوراً

(١٢) انظر، عن الأنا العليا، النرجسية: **نمط الدفاعات**، في المجموعة نفسها (ملاحظة لجنة الإشراف).

جديداً في التكوّن الارتكاسي الذي تمثّله الأنا المثالية. وكون الأنا المثالية تتصل اتصالاً واسعًا بالاندفاعات الغريزية اللاشعورية، فذلك أمر من شأنه أن يشرح لنا هذه الظاهرة اللغزية في الظاهر التي مفادها أن الأنا المثالية تظلّ لاشعورية هي نفسها في جزء كبير منها، منيعة على الأنا. فالصراع، الذي كانت ثائرته تثور في الراقات العميقة، دون أن يكون بمقدوره أن ينتهي إلى تصعيد سريع وتوحّد، يتلاحق من الآن فصاعداً في منطقة عليا، شأنه شأن المعركة ضد الهانْز في لوحة كولْباخ.

سيغموند فرويد

الفصل الثاني

مـراجع الشخصيـة

مقدمة:

بعد عشر سنوات من محاولة **الأنا والهو**، يعكف فرويد مجدّدًا على مراجع الشخصية في الثالثة من **المحاضرات الجديدة في التحليل النفسي**. وكانت محاضراته الأولى قد أُلقيت بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٧، وعرضنا مستخلصًا منها في نهاية الجزء الأول، لأنها سابقة على إدخال الموقعية الثانية.

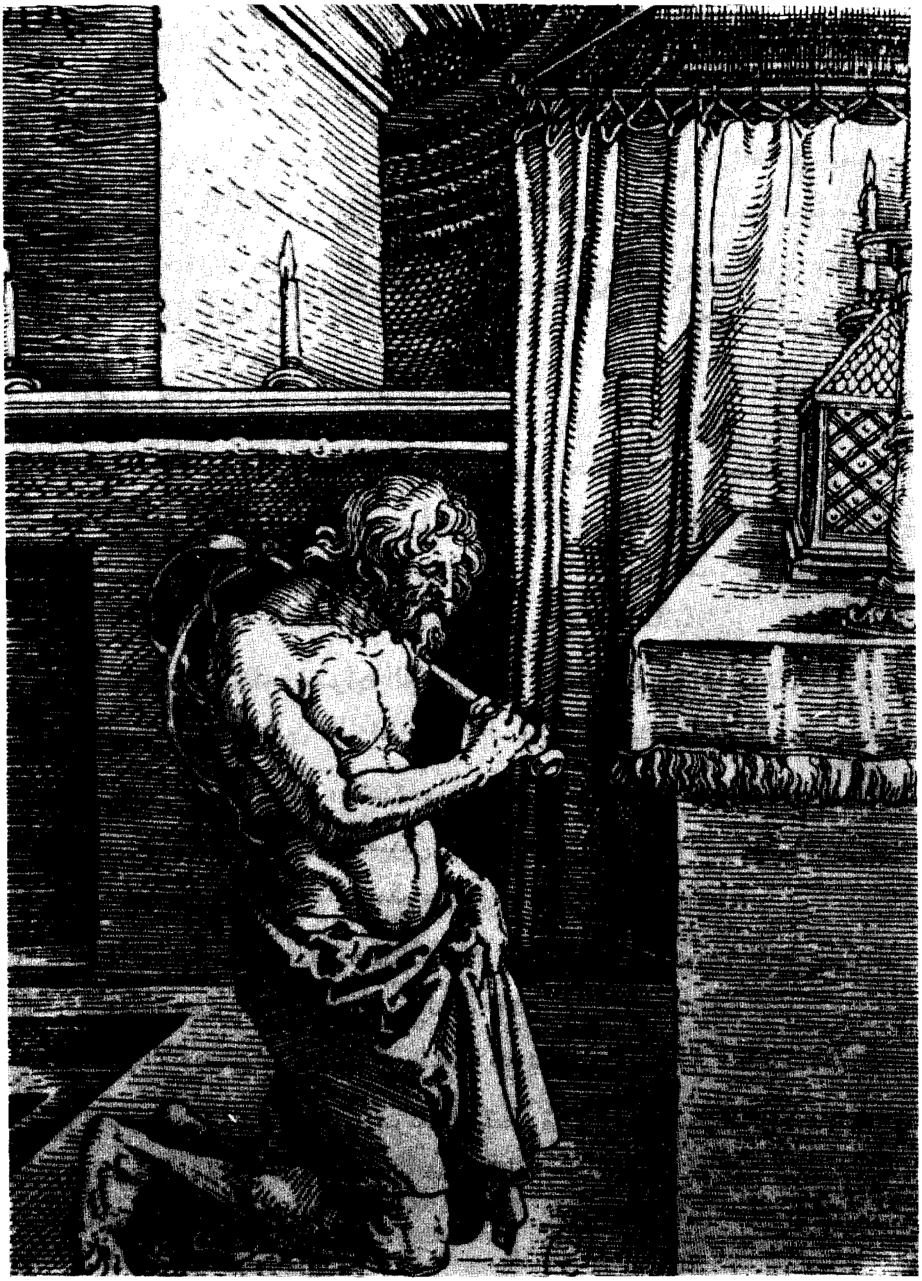
وتختلف هذه **المحاضرات الجديدة** عن السابقة في أنها لم تكن قد قرئت أمام جمهور من المستمعين؛ ولم تكن لهذا السبب قد كُتبت من ناحية أخرى.

ولهذا الخيال، لهذا «الاستيهام»، يكتب فرويد في توطئته، هدف مفاده «ألا ننسى أن نأخذ القارئ بالحسبان». إنه يتوصّل إلى ذلك دون أدنى شك؛ فهذه العروض، الحيّة الواضحة، تقدّم مقياس موهبته الأدبية والبيداغوجية.

ويلاحظ فرويد، إذ يستعيد مبحث الأنا العليا، أن دورها لا يقتصر على العقوبة، ولكنه يمتدّ إلى تزويد الأنا بالحب، الأنا التي تطيعها: إنه أيضًا، من جهة أخرى، دور الأبوين إزاء أطفالهما. ماعدا، مع ذلك، هذا الفارق الكبير الأهمية:

قسوة الأنا العليا ليست مرتبطة بقسوة الآباء الواقعيين. والأنا العليا لا تُصاغ، بوصفها ناقل الموروث، على صورة الأبوين، بل على صورة أناهما العليا الخاصة.

أما الأنا، فإن فرويد يحدّد الواجب الشاقّ الذي مفاده خدمة سادة ثلاثة معًا: الهو، الأنا العليا، العالم الخارجي، ونحن نعلم ذلك من قبلُ. إنها تعارض



الأنا العليا الصارمة جداً يمكنها أن تفرض على الانا عقوبات شديدة.
ذلك ما يمكن أن تجسّده بالرمز هذه المحفورة التي صنعها أ. دورَرْ: «السيّاط».

رغبات الهو الذي يتطلّب إشباعًا مباشراً، لأن الهو، الذي تسوده السيرورات الأولية، لا يعرف التناقض، ولا النفي، ولا الزمان، ولا المكان. فالأنا تُدخل بين الحاجة والعمل أجلاً ضرورياً لإعداد الفكرة، إذ تحوّل مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع، والسيرورات الأولية إلى سيرورات ثانوية. وإلى الأنا، تؤول وظيفة **اختبار الواقع**، التي يعرض فرويد آليتها عام ١٩١١ في مقال مخصّص لـ «صياغة مبدأي العمل الوظائفي الذهني». ويتيح اختبار الواقع للفرد أن يميّز الإثارات الصادرة عن العالم الخارجي من تلك التي تصدر عن العالم الداخلي. وعلى هذا النحو، يفرّق بين إدراكاته واستيهاماته. وعندما ينكص الجهاز النفسي إلى ما قبل العتبة التي يعمل فيها اختبار الواقع، يُحدث الخلْط بين الاستيهام والإدراك ما نسمّيه الهلوسة.

وكانت هذه **المحاضرات الجديدة**، وقد قلنا ذلك، قد نُشرت عام ١٩٣٣، بعد عشر سنوات من نشر **الأنا والهو**. وربما ينبغي أن ننسب إلى هذا العصر المضطرب، الذي يسمه بعمق صعود النازية (هتلر سُمّي فيه مستشار الرايخ)، أصل هذه المعاينة المرّة الذي سيدلي بها فرويد وهو يتكلم على الأنا العليا: «عندما خلق الله الوجدان الأخلاقي، لم ينجز سوى عمل غير متساو جداً بين الناس ومهمل جداً، ذلك أن غالبية الناس لا يملكون سوى جرعة ضعيفة من الوجدان الأخلاقي، جرعة هي من الضعف بحيث لا يكاد المرء يمكنه في بعض الأحيان أن يتكلّم عليها»...

النصّ

أنتم تعلمون، أفضل مما يعلمه الآخرون، أننا أكّدنا منذ البدء أن الإنسان يعاني نزاعًا بين مقتضيات الحياة الدافعية والمقاومة التي تعارض داخله هذه المقتضيات.

والوضع الذي نجد أنفسنا فيه منذ بداية دراستنا يفرض علينا هو نفسه الدرب

الذي نسلكه. فأنانا هي التي سنشرّحها، أنانا الأكثر صميمية. ولكن هل الأمر ممكن؟ الأنا، بوصفها المسند إليه بالمعنى الصحيح للكلمة، هل يمكنها أن تصبح المسند (الموضوع)؟ حسن، ليس ثمة في ذلك ما يدعو إلى الشك، فالأنا يمكن أن تعدّ موضوعًا، وأن تسلك إزاء نفسها سلوكها إزاء موضوعات أخرى، وتراقب نفسها وتنقدها، إلخ. ويعارض جزء من الأنا في الوقت نفسه جزءًا آخر منها. فالأنا يمكنها إذن أن تنشطر وهي تنشطر بالفعل، مؤقتًا على الأقلّ. والأجزاء المنشطرة يمكنها، من ثمّ، أن تتجمّع مجدّدًا. وليس ثمة في ذلك شيء غير معروف من قبل. والمقصود فقط أن نلفت النظر إلى وقائع بادية للعيان. ونحن نعلم من جهة أخرى أن علم الأمراض قادر، إذ يضخّم المظاهر، وإذ يجعلها إذ صحّ القول واضحة إلى حدّ كاف، على أن يجذب انتباهنا إلى الشروط الطبيعية التي ستمرّ غير مدركة لولا ذلك. وحيث يبيّن لنا علم الأمراض أن ثمة ثغرة أو صَدْعًا، فقد يوجد على نحو طبيعي انشطار. فإذا ألقينا على الأرض قطعة من الكريستال، فإنها ستتحطّم تحطمًا وفق خطوط انشطاره، لا كيفما اتُّفق، إلى قطع تحديدها كان مع ذلك، مع أنه غير مرئي، معيّنًا من قبلُ بفعل بنية الكرستال.

١ ـ هذا المراقب غير المرئي الذي نحمله في أنفسنا

هذه البنية المتصدّعة هي أيضًا بنية المرضى النفسيين. ونحن نحتفظ إزاء المصابين بالخبل بقليل من الخشية المجبولة بالاحترام التي كانوا يوحون بها للشعوب القديمة. فهؤلاء المرضى انصرفوا عن الواقع الخارجي، ولهذا السبب على وجه الضبط يعلمون أكثر منا عن الواقع الداخلي ويمكنهم أن يكشفوا لنا عن بعض الأمور التي ستكون، لولاهم، قد ظلّت عصيّة على فهمنا. ونقول عن فئة من هؤلاء المرضى أنهم يعانون جنون المراقبة. إنهم يشكون من أن قوى مجهولة تراقبهم باستمرار ـ قوى ليست دون شك، بعد كل شيء، سوى أشخاص؛ ويتخيّلون أنهم يسمعون هؤلاء الأشخاص يعلنون ما يراقبون: «إنه يقول ذلك الآن، هاهو يرتدي

ثيابه ليخرج ... إلخ». ومع أن هذه المراقبة ما تزال مختلفة عن الاضطهاد، فهي تقترب منه كثيراً. ويعتقد المرضى المراقبون على هذا النحو أن الناس يحذرونهم، وأن هؤلاء الناس يترقّبون أن يفاجئوهم يرتكبون عملاً من الأعمال السيئة، عملاً لا بدّ لهم من التعرّض إلى الخصاء من أجله. وماذا سيحدث إذا كان هولاء الهاذون على صواب، إذا كان كل منا في أناه مرجعًا مشابهًا ليراقبه ويهدّده؟ مرجعًا سيكون منفصلاً بوضوح عن الأنا وسيكون قد انتقل، بفعل الخطأ، نحو الواقع الخارجي؟

٢ ـ الأنا العليا أكثر استقلالاً من الوجدان الأخلاقي

أجهل أن الأمر سيكون بالنسبة لكم كما هو بالنسبة لي. وإذ تأثّرت بالمرض الذي وصفته للتوّ، فإن الفكرة خطرت ببالي أن انفصال مرجع مراقِب عن باقي الأنا ربما يكون خاصّة مألوفة في بنية الأنا. ومنذ ذلك الحين لم تبارح الفكرة نفسي وحضّتني على البحث عن السمات الأخرى، والعلاقات الأخرى، للمرجع المعزول على هذا النحو. وليست المتابعة عسيرة، ومحتوى جنون المراقبة يدلّنا وحده على أن هذه المراقبة ليست سوى تهيئة للحكم والقصاص ونحن نتكهّن أن وظيفة أخرى من وظائف هذا المرجع نفسه ينبغي لها أن تمارس مهمتها هنا، وظيفة ما نسمّيه وجداننا. والوجدان هو الذي، على وجه الضبط، نعزله في الأغلب عن الأنا ونجعله معارضًا لها على النحو الأسهل. إنني أرغب في أن أنجز هذا الفعل الذي من شأنه أن يشبع رغبتي، ولكنني أتخلّى عنه جرّاء تعارضه مع وجداني. أو أنني استسلمت أيضًا لرغبة كبيرة وارتكبت، لأشعر بسرور معيّن، فعلاً يستهجنه وجداني: وما إن يُنجز الفعل حتى يثير وجداني الندم بفعل ضروب لومه. فالمرجع الخاص، الذي أبدأ في أن أميّزه في الأنا، بوسعي أن أقول فقط إنه هو الوجدان. ولكن الأكثر فطنة أن نعتقد أن هذا المرجع مستقلّ وأن نسلّم أن الوجدان ليس سوى وظيفة من وظائف الأنا. وتكون المراقبة الذاتية، التي لا غنى عنها لفاعلية الوجدان النقدية، وظيفة أخرى عندئذ. وبما أن من المناسب، عندما نريد أن نشير إلى شيء أنه موجود في ذاته، أن نطلق عليه اسمًا خاصًا، فإنني سأسمّي هذا المرجع في الأنا من الآن فصاعدًا: «الأنا العليا».

٣ ـ الأنا العليا لدى السوداوي تحكم بالإدانة حكمًا قطعيًا:

لا نكاد نألف فكرة هذه الأنا العليا التي تتمتع باستقلال ذاتي معيّن، وتلاحق هدفها الخاص، وتظلّ، في دائرة عملها، مستقلّة عن الأنا، حتى تفرض نفسها على فكرنا فكرة مرض من شأنه أن يُفهم بوضوح قسوة هذا المرجع وتغيّرات علاقاته بالأنا: أودّ أن أتكلّم عن السوداوية التي سمعتم كلكم كلامًا عليها، ولو لم تكونوا أطباء نفسيين. ونحن لا نعرف معرفة جيدة دافعية هذا الاضطراب وآليته، ولكن ما يصدمنا فيه على وجه الخصوص إنما هو الطريقة التي تعامل الأنا العليا، وقد تعتقدون أنها الوجدان، بها الأنا. ففي المرحلة الطبيعية، يكون السوداوي، شأنه شأن كل شخص آخر، قاسيًا على نفسه قليلاً أو كثيراً، في حين أنّ الأنا العليا، التي أصبحت صارمة بمغالاة، تحذّر الأنا الفقيرة، خلال النوبة السوداوية، وتذلّها، وتسيء معاملتها، وتجعلها تتوقّع أقسى العقوبات، وتلومها على أفعال ارتكبتها فيما مضى بقلب طائش. ويبدو أن الأنا العليا راكمت الأعباء في غضون ذلك، وأنها انتظرت أن تكون قوية على نحو كاف لتستخدمها ولتلفظ الإدانة. وتقتضي الأنا العليا أن ترغم الأنا دون دفاع على أن تمتثل للقواعد الأكثر قسوة. إنها تجعل من نفسها، بالإجمال، المدافع عن الأخلاقية ونرى بلمحة البصر الأولى أن العاطفة الأخلاقية للإثمية، عاطفتنا، هي نتيجة توتّر بين الأنا والأنا العليا. والأمر الغريب أن الأخلاقية، التي يُقال إنها حضور الله وهي الراسخة فينا بعمق، تكون في السوداوية ظاهرة دورية إذن. والواقع أن كل هذا الهياج الأخلاقي ينتهي بعد عدّة أشهر، ويصمت نقد الأنا العليا، وتجد الأنا، التي رُدَّت مكانتها، نفسها مجدّداً تملك كل حقوقها. وثمة ما هو أفضل أيضًا: إن سلوكًا معكوسًا نلاحظه في بعض أشكال المرض خلال المراحل الوسيطة: تجد الأنا نفسها في حالة لذيذة من النشوة، إنها تنتصر، كما لو أن الأنا العليا كانت قد فقدت كل قوتها أو كما لو أنها كانت قد انصهرت مع الأنا. وهذه الأنا المتحرّرة، الهوسية، تعكف عندئذ،

دون أي إكراه، على إشباع رغباتها كلها. فكم مشكلات يثيرها هذا الوضع وينبغي حلّها!

٤ ـ الأنا العليا تحلّ محل السلطة الأبوية

عندما قلت لكم إننا تعلّمنا كثيراً من الأمور عن تكوين الأنا العليا ونموّ الوجدان، فأنتم ستطلبون مني أكثر من مجرّد برهان على أقوالي. إن الفيلسوف كانْت أدلى، كما نعلم، بالرأي الذي مفاده أن لاشيء يبرهن على عظمة الله أفضل من السماء المرصّعة بالنجوم ووجداننا الأخلاقي. فالنجوم رائعة بالتأكيد، ولكن الله لم يقم، عندما خلق الوجدان الأخلاقي، إلا بعمل غير متساوٍ جداً ومهمل جداً، ذلك أن غالبية الناس لا يملكون سوى جرعة ضعيفة، جرعة هي من الضعف بحيث لا يكاد يكون بوسع المرء أن يتكلم عليها في بعض الأحيان. فأن يكون في القضية التأكيدية للأصل الإلهي، أصل الوجدان، جزء من الحقيقة، ذلك أمر لا نبحث عن نفيه، ولكن ثمة مجالاً لتفسير هذه القضية. وإذا كان فينا وجدان، فإنه غير فطري، بعكس الجنسية التي توجد منذ البدء وليست شيئًا مضافًا بصورة بعدية. وكل منا يعلم أن الطفل الصغير غير سويّ؛ فليس لديه كفّ داخلي يعارض الاندفاعات التي تميل نحو اللذة. فالدور الذي تمثّله الأنا العليا فيما بعد يُناط أول الأمر بقوة خارجية، بسلطة الآباء. ويمارس التأثير الأبوي دوره بواسطة دلائل الحنان والتهديد بالعقوبة. وتعادل العقوبات بالنسبة للطفل تراجع الحب وهي مرهوبة في ذاتها. وهذا الخوف الواقعي هو البشير بخشية الوجدان الأخلاقي المستقبلية وليس ثمة مجال، ما دام سائداً، أن نتكلّم على (عدْ وتحقّق أيهما أفصح قبل أن تغيّرها) أنا عليا ووجدان أخلاقي. وسيتأسّس الوضع الثانوي فيما بعد فقط، وضع نميل ميلاً قويًّا إلى عدّه سويًّا؛ فما إن يُستدخل المانع الخارجي حتى تحتلّ الأنا العليا مكان المرجع الأبوي، هذه الأنا العليا التي تراقب، وتوجّه وتهدّد كما كان الآباء فيما مضى يراقبون الطفل، ويوجّهونه ويهدّدونه.



«الإنسان بين الرذيلة والفضيلة» ... تمثيل ساذج للتوترات النفسية في أصل الحصر.
(لوحة زيتية، ل. روجر، ١٨٩٩).

٥ ـ قسوة التربية لا تصنع قسوة الأنا العليا

ليست الأنا العليا، إذ تستولي على القوة وعلى الفاعلية اللتين كانتا من خصائص المرجع الأبوي، وإذ تستخدم حتى أساليبه، خلف هذا المرجع فحسب، ولكنها في الحقيقة أيضًا وريثه الشرعي، الطبيعي، وتنجم عنه بصورة مباشرة وسنرى حالاً بأي سيرورة. ومن المهم مع ذلك أن نبرز فارقًا: يبدو أن الأنا العليا، بفعل اختيار وحيد الجانب، لم تتبنّ سوى صلابة الآباء وقسوتهم، ودورهم التحريمي، القمعي، وليس عنايتهم الحنونة. ونحن ميّالون إلى الاعتقاد أن الأنا العليا ستصبح أكثر صرامة بمقدار ما يكون الطفل قد تلقّى تربية أشدّ قسوة؛ والحال أن التجربة تبيّن لنا، عكس كل توقّع، أن الأنا العليا يمكنها أن تكون ذات قسوة لا تلين، حتى عندما يبدو المربّون لطيفين وطيّبين وأنهم تجنّبوا، بقدر الإمكان، تهديدات وعقوبات.

٦ ـ الأنا العليا لدى الأطفال تتكوّن على صورة الأنا العليا للآباء

ظهور مرجع في الأنا أكثر قوة يرتبط ارتباطًا حميميًا بقدر العقدة الأوديبية، بحيث أن الأنا العليا تبدو وريثة هذه المجموعة من العواطف ذات الأهمية الكبيرة للطفولة. ونفهم أن الطفل يرى نفسه، إذ يهجر عقدة أوديب، مكرهًا على أن يتخلّى عن توظيفات ليبيدية كثيفة كان أبواه موضوعها. وتعويضًا عن هذه الخسارة التي عاناها إنما تجد نفسها التوحّدات القديمة بأبويه وقد تعززت على هذا النحو في أناه. وستتكرّر مثل هذه التوحّدات، على الأغلب، رواسب توظيفات قديمة للموضوعات، في حياة الطفل فيما بعد. ولكن لهذه الحالة الأولى من التحوّل، دون أي شك، أهمية خاصة وتحتلّ مكانًا خاصًا في الأنا، جرّاء قيمتها العاطفية الكبرى. ويبيّن لنا أيضًا بحث أعمق أن الأنا العليا تضعف وتضمحلّ عندما لا يمكن أن يتجاوز الطفل عقدة أوديب. ولا تتكوّن الأنا العليا لدى الأطفال على صورة آبائهم، بل على صورة الأنا العليا لهؤلاء الآباء. إنها تمتلئ

بالمحتوى نفسه، وتصبح ممثّل الموروث، وممثّل لكل أحكام القيم التي تبقى على هذا النحو عبْر الأجيال.

٧ ـ الكبت عمل الأنا العليا

لكن ثمة مهمة أخرى يبقى علينا أن ننجزها على الطرف المقابل من الأنا (إذا كان مسموحًا أن نعبّر على هذا النحو). وهذه الدراسات أظهرت لنا ملاحظة حدثت خلال العمل التحليلي، ملاحظة قديمة الآن جداً في حقيقة الأمر. وكما يحدث على الغالب، فقد انقضى زمن طويل قبل أن نقرّر أخذ الواقع المعنيّ بالحسبان. فكل نظرية التحليل النفسي مبنيّة، وأنتم تعلمون ذلك، على إدراك المقاومة التي يعارضنا بها المريض عندما نحاول أن نجعل لاشعوره شعورياً. وتظهر المقاومة لدى المريض إما موضوعياً بنقص الأفكار، أو بالطروء المفاجئ للأفكار دون علاقة بالموضوع الذي يُعالج، وإما ذاتيًا، بظهور عواطف مؤلمة منذ أن يبدأ مسّ الموضوع. ولكن هذه القرينة الأخيرة يمكنها أيضًا أن تكون غائبة. فنقول عندئذ للمريض إن سلوكه يحضّنا على أن نستنتج أن ثمة مقاومة. ويجيب أنه يجهل ذلك كليًا، وذلك يبيّن أننا كنا على صواب ولكن المقاومة، هي نفسها، كانت لاشعورية، كالمكبوت الذي نحاول إلغاءه. فمن أي جزء من الحياة الروحية تنجم هذه المقاومة اللاشعورية إذن؟ كان من الواجب أن نطرح هذا السؤال منذ زمن طويل ومن يبدأ لأول مرة عمله في التحليل النفسي لن يفوته أن يجيب أن المقصود على وجه الضبط مقاومة اللاشعور. إنه جواب مبهم ويتعذّر استخدامه! أينبغي لنا أن نفهم من ذلك أن المقاومة ناجمة عن المكبوت؟ كلا، بالتأكيد. ونحن نعزو إلى المكبوت توترًا قويًا يدفعه إلى أن يعود إلى الشعور. إن الأنا هي التي تظهر في المقاومة، وتلك الأنا التي قادت الكبت بنجاح لا توافق أبدًا على أن يُلغى. ذلك كان دائمًا تصورنا. ومنذ أن قبلنا وجود مرجع خاص في الأنا، المرجع الذي يقيّد ويحرّم، أي الأنا العليا، نحن على حق في أن نقول إن الكبت عملها. وهذه الأنا

العليا يمكنها أن تعمل هي نفسها أو تعهد إلى الأنا الطيّعة إنجاز أوامرها. وقد يحدث أن المريض ليس لديه، خلال التحليل، فكرة المقاومة التي تمارس عملها، إما لأن الأنا العليا والأنا تعملان، في بعض الظروف الخطيرة، دون أن يكون واعياً بذلك، وإما، وهو أمر أكثر أهمية أيضًا، لأن بعض الأجزاء من الأنا والأنا العليا تظلّ لاشعورية. ونعاين، في الحالين، معاينة يرافقها الانزعاج أن الأنا العليا والشعور من جهة، والمكبوت واللاشعور من جهة ثانية، فئتان لا تتطابقان على الإطلاق.

٨ ـ الأنا، الهو، الأنا العليا: قسمة النفس

نحن نعترف من ثَمّ، والارتباك قد أصابنا أول الأمر ونحن نكتشف أن بعض أجزاء من الأنا والأنا العليا لاشعورية بالمعنى الدينامي، أن هذا الاكتشاف يسهّل الأمور كثيراً، وأنه يتيح تجنّب ضرب من التعقيد. ونحن نلاحظ أننا لا نملك الحق في أن نصف المجال الروحي الغريب عن الأنا أنه لاشعوري لأن انعدام الوعي ليس سمته الحصرية. وهكذا فإننا لن نستخدم كلمة لاشعور بالمعنى المنهجي، وسنطلق على ما كان يسمّى على هذا النحو اسماً مناسباً على نحو أفضل يمكنه أن يثير ضروباً من سوء الفهم أقلّ، وسنسمّيه بالاعتماد على نيتشه، وفي أعقاب ملاحظة أبداها غ. غرودّيك، الهو من الآن فصاعداً، هذا الضمير غير الشخصي الذي يبدو صالحًا على نحو خاص للتعبير عن السمة التي تسود هذا المجال الروحي الغريب عن الأنا. فالأنا العليا، والأنا، والهو، تلكم هي الامبراطوريات، الأقاليم، المناطق، التي نقسم الجهاز النفسي للفرد بينها، وسنهتمّ الآن بالعلاقات المتبادلة بينها.

٩ ـ الهو: ما وراء الخير والشر

السيرورات التي تجري في الهو لا تخضع لقوانين الفكر المنطقية؛ فمبدأ عدم التناقض، بالنسبة لها، لا وجود له. إن انفعالات متناقضة تستمرّ فيه دون أن تتعارض، دون أن يتخلّص أحدها من الآخر؛ ويمكنها على الأكثر، تحت الضغط

الاقتصادي السائد، أن تُسهم في تحويل الطاقة نحو تكوين التسوية. فليس ثمة في الهو شيء يمكن أن يُقارن بالنفي؛ ويلاحظ المرء ملاحظة لا تخلو من الدهشة أن المسلّمة، الغالية على الفلاسفة، التي يكون الزمان والمكان وفقًا لها شكلين إلزاميين لأفعالنا النفسية، غائبة هنا. ولا شيء يقابل مفهوم الزمان، ولا وجود لقرينة جريان الزمان، وليس ثمة تعديل في السيرورة النفسية خلال الزمان، وهو أمر مدهش إلى الحدّ الأقصى ويتطلّب دراسة من وجهة النظر الفلسفية. فالرغبات التي لم تنبعث قط خارج الهو، كذلك الانطباعات، التي ظلّت فيه مطمورة جرّاء الكبت، لا تفنى من النَاحية الافتراضية وتوجد مجدّدًا، كما كانت، بعد سنين طويلة. والعمل التحليلي وحده، إذ يعيدها إلى الشعور، يمكنه أن يفلح في أن يحدّد موقعها في الماضي وأن يحرمها من شحنتها الطاقية؛ وبهذه النتيجة على وجه الضبط، إنما يُناط، جزئيًّا، مفعول المعالجة التحليلية العلاجي.

وغنيّ عن البيان أن الهو يجهل أحكام القيم، الخير والشر، والأخلاق. والعامل الاقتصادي أو الكمّي، إذا شئتم، المرتبط ارتباطًا صميميًّا بمبدأ اللذة، يسيطر على كل السيرورات. والشحنات الغريزية التي تميل إلى التفريغ موجودة كلها، في اعتقادنا، في الهو. ويبدو أن حالة الطاقة الخاصة بهذه الدوافع الغريزية تكون مختلفة عن حالة الطاقة في المحرّكات النفسية الأخرى، أي أنها غير ثابتة وهي أيسر تحويلاً.

١٠ ـ الأنا: هو يعدّله العالم الخارجي

أهناك حاجة إلى أن نشرح أن الأنا هي الجزء المعدّل من الهو بفعل قرب العالم الخارجي وتأثيره، المنظّم ليدرك الإثارات ويحتمي منها، الشبيه على هذا النحو بالراق القشري الذي يتغلّف بها الجزء الصغير من المادة الحيّة؟ العلاقة بالعالم الخارجي أصبحت بالنسبة للأنا ذات أهمية رئيسة؛ ورسالة الأنا أن تكون ممثّل هذا العالم الخارجي في نظر الهو ولخيره الأكبر. والواقع أن الهو، الطامح على غير

هدى إلى الإشباعات الغريزية، سيُقدم دون تبصّر، لولا الأنا، على أن يتحطّم مصطدمًا بهذه القوة الخارجية الأقوى منه. وعلى الأنا، بسبب وظيفتها، أن تلاحظ العالم الخارجي، وتصنع لنفسها صورة صحيحة له وتودعها بين بعض ذكرياتها من الإدراك. وينبغي لها أيضًا، بفضل تجربة الاتصال بالواقع، أن تبعد كل ما يمكنه، في هذه الصورة للعالم الخارجي، أن يضخّم المصادر الداخلية للإثارة. والأنا، بأمر من الهو، لها اليد العليا في الوصول إلى قدرة التحرك، ولكنها أدخلت المهلة الزمنية، الضرورية لإعداد الفكرة، بين الحاجة والعمل، مهلة تفيد الأنا خلالها من الذكريات الراسبية التي تركتها التجربة لها. وهكذا تخلع عن عرشه مبدأ اللذة الذي يسود، في الهو، سيادة مطلقة، كل السيرورة. وأحلّت محله مبدأ الواقع الأصلح لتأمين الأمن والنجاح.

١١ ـ حياة شاقّة: حياة الأنا، خادم السادة الثلاثة

ثمة قول مأثور ينهانا عن خدمة سيدين معًا. والأمر أسوأ بالنسبة للأنا البائسة؛ إن عليها أن تخدم ثلاثة سادة قساة وتسعى جهدها لتضع الانسجام بين متطلّباتهم. وهذه المتطلّبات متناقضة دائمًا ويبدو على الغالب أن التوفيق بينها متعذّر؛ فليس ثمة منذئذ ما يدهش أن الأنا تخفق في مهمتها غالبًا. والطغاة الثلاث هم العالم الخارجي، والأنا العليا، والهو. وعندما نلاحظ الجهود التي تبذلها الأنا لتبدو منصفة إزاء الثلاثة معًا، أو بالحري لتطيعها، لم يعد المرء يأسف على تشخيص الأنا، ومنحها وجودًا خاصًا. إنها تشعر أنها مضغوطة من جهات ثلاث، تهدّدها مخاطر ثلاث مختلفة تستجيب لها، في حال الشدّة، بإنتاج الحصر. وإذ تستمدّ الأنا أصلها من تجارب الإدراك، فإن مصيرها أن تمثّل مقتضيات العالم الخارجي، ولكنها حريصة مع ذلك على أن تظلّ الخادم الوفيّ للهو، وأن تلبث معه على صعيد تفاهم جيّد، وأن يعدّها موضوعًا وأن تجذب إليها ليبيده. والأنا العليا القاسية، من جهة أخرى، لا تسهى عنها وتفرض عليها، غير مبالية

بالصعوبات التي يعارض الهو والعالم الخارجي بها الأنا، قواعد سلوكها المحدّدة. فإذا حدث لها أن عصت الأنا العليا، فعقوبتها ستكون العاطفتين المؤلمتين، عاطفتي الدونية والإثمية. وهكذا فإن الأنا العليا التي يرهقها الهو، وتضطهدها الأنا العليا، وينبذها الواقع، تناضل لتنجز مهمتها الاقتصادية، وتعيد الانسجام بين مختلف القوى والتأثيرات التي تعمل فيها وعليها؛ ونحن نفهم على هذا النحو لماذا نكون على الغالب مكرهين على أن نصرخ: «آه، الحياة ليست سهلة!» وعندما تكون الأنا مرغمة على الاعتراف بضعفها الخاص، يستولي عليها الذعر: خوف واقعي أمام العالم الخارجي، مخاوف الوجدان أمام الأنا العليا، وحصر عصابي أمام قوة الأهواء في الهو.

سيغموند فرويد

الفصل الثالث
من الخوف من الدركي
إلـى حب السيد

مقدمـة

يلخّص كتاب **عسر في الحضارة**، المنشور عام ١٩٣٠، أفكار فرويد عن علم الاجتماع، «مجال لا يمكنه، كما يقول في مكان آخر، أن يكون سوى علم النفس التطبيقي»، يلاحظ أرْنسْت جونز في سيرة فرويد الذاتية[١]. ويضيف جونز من جهة أخرى أن «التمتّع بقراءة هذا الكتاب أيسر من تلخيصه. وإذ يكتبه فرويد بأسلوب المحادثة، فإنه يتبع فيه أفكاره في اتجاهات شتّى، ناثراً على أطول امتداده لآلئ الحكمة». وحتى نستأنف كلمة فرويد حين تكلّم عن كتابه بعد بضع سنين: «كان قصده أن يعرض على وجه الضبط عاطفة الإثمية بوصفها المشكل الرئيس في نموّ الحضارة، وأن يُري بالإضافة إلى ذلك لماذا ينبغي أن يكون لتقدّم هذه الحضارة مقابل مفاده ضياع السعادة الناجم عن تعزيز هذه العاطفة».

وليست عاطفة الإثمية على الأغلب، في رأي فرويد، صنع الأنا العليا، مرجع مستدخَل، مستقلّ وغير شخصي؛ وينبغي لنا بالحري أن نعزوها إلى الحصر الذي يسيّبه فقدان الحب الذي يسمّيه فرويد «الحصر الاجتماعي». ويتيح غياب استدخال المحرّمات لدى بعض الراشدين، الذين يتبنّون فلسفة

(١) حياة فرويد ومؤلفاته، المجلّد ٣، المنشورات الجامعية الفرنسية.

«من لا يُرى، لا يُقبض عليه»، أن يرتكبوا الشر إذا كانوا واثقين أن السلطة لن تعرف شيئًا عنهم. وربما يشرح غياب استدخال المحرّمات تلك الجرائم الجماعية منذ أن تغلق السلطة المسؤولة عينيها أو أنها تحضّ على ارتكابها...

ويبيّن هنا فرويد أيضًا منطق هذه المفارقة الظاهرة: الأنا العليا لا ترحم بقدر ما يكون الفرد فاضلاً، وليس العكس، كما يعتقد بعضهم عن طيب خاطر. إنه يشرح بالتفصيل مفعولات التربية، إذ يلفت النظر إلى التأثير الضارّ الذي تمارسه طرائق بيداغوجية شديدة الصرامة أو، على العكس، شديدة التسامح، على قسوة الأنا العليا.

وقد نرتكب مع ذلك خطأ حين لا نرى في الأنا العليا سوى مرجع يعاقب؛ وقد كشفنا سابقًا عن هذا الواقع في الفصل السابق، ويلحّ فرويد على المظهر الثاني من الأنا العليا في علاقتها بالأنا، في مستخلص من كتاب **موسى والتوحيد**، أحد كتبه الأخيرة (١٩٣٩). وتكمن مهمة الأنا العليا أيضًا، في الواقع، في تزويد الأنا الطيّعة المستحقّة بالحب. فالفخر، وعاطفة الحماية والإشباع النرجسي هي، بالتالي، مكافآت الأنا الطيّعة، الخادم الجيّد لسادته الثلاثة.

النص

إلى أي الوسائل تلجأ الحضارة لتكفّ العدوان، ولتجعل هذا العدو غير مؤذ وربما لتستبعده؟ إننا حدّدنا من قبلُ معالم بعضٍ من هذه الطرائق، ولكننا ما نزال لا نعلم على ما يبدو الطريقة الأكثر أهمية.

وبوسعنا أن ندرسها في تاريخ نموّ الفرد. ماذا يحدث في نفسه فيجعل رغبته في العدوان غير مؤذية؟ إنه شيء متميّز جداً. ونحن لم نتكهّنه وليس ثمة حاجة مع ذلك إلى أن نبحث بعيداً من أجل اكتشافه. فالعدوان «يُجتاف»، «يُستدخل»، ولكنه في حقيقة الأمر أيضًا يعاد إلى النقطة التي كان قد انطلق منها: وبعبارة أخرى، يرتدّ ضدّ الأنا الخاصة. وهناك، سيستأنفه جزء من الأنا يتعارض،

بوصفه «الأنا العليا»، مع الجزء الآخر من الأنا. وعندئذ يُظهر، بصفته «الوجدان الأخلاقي»، ذلك العدوان الصارم إزاء الأنا، عدوانًا أحبّت الأنا إشباعه ضد الأفراد الغرباء. والتوتّر المولود بين الأنا العليا القاسية والأنا التي استكانت، نسمّيه «العاطفة الشعورية للإثمية»؛ ويظهر هذا التوتر على صورة «حاجة إلى العقاب». فالحضارة إذن تسود الشدّة العدوانية الخطرة لدى الفرد، إذ تضعفه وتجرّده من سلاحه، وتجعله تحت المراقبة بواسطة مرجع في نفسه، كحامية وُضعت في مدينة محتلّة.

١ ـ ما يجعلنا نميّز الخير من الشر: الأنا العليا

يصنع المحلّل لنفسه من نشوء عاطفة الإثمية رأيًا مختلفًا عن الرأي الذي يتبنّاه علماء النفس؛ ولكنه، هو نفسه، لا يمكنه بسهولة أن يشرح هذا النشوء. وإذا تساءلنا، أول الأمر، كيف يتوصل المرء إلى أن يكابد هذه العاطفة، فإنه يتلقّى جوابًا يتعذّر دحضه: يشعر المرء أنه آثم (رجال الدين يقولون: ارتكبت الخطيئة) إذا اقترف شيئًا يعترف به أنه «شرّ». ونلاحظ عندئذ كم يكون إسهام هذا الجواب هزيلاً. وربما يضيف المرء، بعد بعضٍ من التردّد: من لم يرتكب الشر، ولكنه يعترف أن النيّة فقط كانت موجودة لديه، يمكن أن يُعدّ أيضًا آثمًا. وسنطرح عندئذ هذا السؤال: لماذا نعدّ النية والتنفيذ، في هذه الحالة، متكافئان؟ إننا نفترض في الحالين افتراضًا مسبقًا أننا حكمنا من قبلُ بإدانة الشر، وحكمنا أن إنجازه ينبغي أن يكون مستبعدًا. فكيف نتوصّل إلى هذا القرار؟ لنا الحقّ في أن نستبعد ملكة أصلية، طبيعية إذا صحّ القول، لتمييز الخير من الشرّ. ولا يكمن الشرّ مطلقًا، على الغالب، في أنه مضرّ وخطر على الأنا، بل يكمن على العكس في أنه مستحبّ لها ويؤمّن لذة. وهنا إذن يظهر تأثير غريب يرسم ما ينبغي لنا أن نسمّيه الخير والشر. وبما أن الإنسان لم يكن متوجّهًا نحو هذا التمييز بفعل عاطفته، فإنه ينبغي أن يكون له عقل حتى يخضع إلى هذا التأثير الغريب. ويسهل اكتشافه في بؤسه وتبعيته المطلقة للغير، ولا يمكننا أن نعرّفه على نحو أفضل إلا أنه حصر أمام تراجع الحب. وإذا حدث للإنسان أنه فقد حب الشخص الذي يتعلّق به، فإنه يفقد في الوقت نفسه

حمايته من كل الضروب من الأخطار. والأمر الرئيس الذي يتعرّض له مفاده أن هذا الشخص الكلّي القوة يبرهن له على تفوّقه على صورة عقاب. ولهذا السبب يكون الشر في الأصل هذا التساؤل لماذا هو مهدّد بالحرمان من الحب؛ وخوفًا من التعرّض إلى هذا الحرمان إنما ينبغي له أن يتجنّب ارتكابه. وهكذا إذن يكون قليل الأهمية جدًّا أن يرتكبه أو أن تكون لديه نيّة ارتكابه؛ والخطر، في حالة كما في الأخرى، لا ينبعث إلا منذ أن تكتشف السلطة الأمر، وفي الحالين قد يسلك سلوكًا مشابهًا.

٢ ـ نيّة الإيذاء والخطيئة المرتكبة: خطآن متساويا القيمة بالنسبة للأنا العليا

نسمّي هذه الحالة «الوجدان السيّئ»، ولكنها لا تستحقّ بالمعنى الدقيق للعبارة هذه التسمية، ذلك أن عاطفة الإثمية في هذه المرحلة ليست بالتأكيد سوى حصر أمام فقدان الحب، حصر «اجتماعي». ولا يمكن أن يكون الأمر أبدًا غير ذلك؛ ولكن الأمر لا يتغيّر لدى كثير من الراشدين، باستثناء الواقع الذي مفاده أن المجتمع الإنساني الكبير يحتّل مكان الأب أو الأبوين. ولهذا السبب لا يتيح هؤلاء الراشدون لأنفسهم، على وجه العموم، أن يرتكبوا شرًّا يمكنه أن يؤمّن لذة إلا إذا كانوا على ثقة أن السلطة لن تعلم عنه شيئًا أو لا تستطيع أن تفعل لهم شيئًا؛ والخشية من أن يُكتشفوا تحدّد حصرهم(٢). فالمجتمع الراهن ينبغي له، بالإجمال، أن يأخذ بالحسبان هذه الحالة من الأمور.

ويتدخّل تغيّر كبير منذ أن تُستدخَل السلطة، بفضل تأسيس أنا عليا. وعندئذ تجد ظاهرات الوجدان الأخلاقي نفسها وقد ارتفعت إلى مستوى آخر، ولا ينبغي لنا أن نتكلّم على الوجدان وعاطفة الإثمية إلا عندما يحدث هذا التغيّر(٣).

---

(٢) تذكّر المثقّف الشهير لروسو.

(٣) أن تكون ظاهرات تتحقّق في الواقع، إذ تتخذ صوراً متوسّطة متتالية، مستبعدة بقسوة في هذا العرض الموجز، وأن يكون الأمر ليس ذا علاقة فقط بوجود الأنا العليا، ولكن بقوتها النسبية ودائرة تأثيرها أيضًا، ذلكم أمران سيفهمهما كل فكر بصير وسيأخذهما بالحسبان. فكل ما قلناه حتى الوقت الراهن عن الوجدان الأخلاقي والإثمية معروف جيدًا، وليس موضع منازعة على وجه التقريب.

ومنذئذ يسقط الحصر من أن يُكتشف المرء أيضًا، والفارق بين فعل الشر وإرادة فعل الشر يمّحي كليًا، ذلك أن أي شيء لا يمكنه أن يظلّ خفيًا على الأنا العليا، حتى ولا الأفكار. ومع ذلك اختفت خطورة الوضع الواقعية جرّاء كون السلطة، الأنا العليا، ليس لها داع، صدّقونا، لتسيء معاملة الأنا التي ترتبط ارتباطًا صميميًا بها. ولكن تأثير نشوئها الذي يتيح نمطه للماضي، والحاضر والمستقبل، أن يظل حيًّا، يظهر في أن كل شيء في الحقيقة يبقي كما كان من قبل، في الحالة البدئية. فالأنا العليا تعذّب الأنا الخاطئة بواسطة إحساسات الحصر نفسها، وتترصّد المناسبات لإيقاع العقاب عليها بواسطة العالم الخارجي.

٣ ـ النتائج الاجتماعية لأنا عليا مغالية في القسوة

للوجدان الأخلاقي، في هذه المرحلة الثانية من النموّ، خاصيّة كانت ما تزال غريبة في المرحلة الأولى، وليست أيسر على الشرح. إنه، في الواقع، يسلك فيها بقسوة كبيرة ويُظهر حذرًا أكبر بمقدار ما يكون الفرد فاضلاً؛ بحيث يتّهم الفضلاء أنفسهم، في نهاية المطاف، أنهم الخاطئون الكبار بمقدار ما يتقدّم هذا الوجدان في درب القداسة تقدمًا أبعد. وبذلك ترى الفضيلة نفسها مصابة بالإحباط من جانب المكافآت التي وُعدت بها، ذلك أن الأنا الطيّعة المتقشّفة لا تستمتع بثقة مرشدها وتسعى جهدها عبثًا، على ما يبدو، للحصول عليها. ولكن ثمة الاعتراض التالي الذي سيوجَّه إلينا عن طيب خاطر: هذه الصعوبات، ألا تخلقها أنت بفعل ضرب مغال من الاصطناع؟ الواقع أن الوجدان الأكثر تشددًا والأكثر تيقّظًا سيكون على وجه الضبط هو السمة المميّزة للإنسان الأخلاقي، وإذا كان القدّيسون يدّعون أنهم خاطئون، فإنهم لا يفعلون ذلك أبدًا دون داعٍ إذا أخذنا بالحسبان غوايات إشباع دوافعهم الغريزية، غوايات هم معرّضون إليها في نطاق واسع جدًا. ذلك أن الغوايات، ونحن نعلم ذلك، لا تنفكّ تتنامى في حال التخلّي المستمرّ عنها، في حين أنها تتراخى، لزمن على الأقلّ، إذا استسلم لها الإنسان بالمناسبة. وثمة واقع آخر، ذو علاقة بهذا المجال من الأخلاق الغنيّة جدًا بالمشكلات، مفاده أن

الخصومة، أي «رفض» العالم الخارجي، يرفع قوة الوجدان الأخلاقي في الأنا العليا إلى مثل هذه الدرجة: ما دام القدر يبتسم للإنسان، يظلّ الوجدان الأخلاقي متسامحًا وينقل إلى الأنا كثيرًا من الأمور؛ ولكنه ما إن ينقضّ عليه شرّ، حتى ينطوي على ذاته عندئذ، ويعترف بخطيئاته، ويوطّد مقتضيات الوجدان مجددًا، ويفرض على نفسه ضروبًا من الحرمان ويعاقب نفسه إذ يفرض عليها الكفّارات[٤]. وثمة شعوب بكاملها سلكت على النحو نفسه تمامًا وتسلك دائمًا على هذا النحو. وذلك أمر يُشرح بسهولة إذا عدنا إلى المرحلة الطفولية البدئية للوجدان، وتلك مرحلة لم تُهجر إذن بعد اجتياف السلطة في الأنا العليا، ولكنها تدوم على العكس إلى جانب هذه السلطة ووراءها. فالقدر يُعدّ بديلاً عن المرجع الأبوي؛ وإذا أصابنا الضرر، فإن ذلك يعني أن السلطة ذات القوة الكلية توقّفت عن حبنا. فنحن نخضع مرة أخرى، إذا هُدّدنا بسحب هذا الحب، إلى الأبوين اللذين تمثّلهما الأنا العليا، في حين أننا نهملهما في حالة السعادة. وذلك أمر يصبح واضحًا على وجه الخصوص عندما لا نرى في القدر، بالمعنى الديني الدقيق، إلا التعبير عن الإرادة الإلهية. فالشعب اليهودي كان يعدّ نفسه الطفل المفضّل لدى الإله. وعندما أنزل الأب الكلي القوة على شعبه المختار مصائب تلو مصائب، لم يضع هذا الشعب قطّ هذا التفضيل موضع الشك مع ذلك كما أنه لم يشك لحظة بالقوة والعدالة الإلهية. ولكنه ولّد من جهة أخرى الأنبياء، الذين كانوا يلومونه باستمرار على خطيئاته؛ واستمدّ من عاطفة الإثمية لديه قواعد صارمة بمغالاة لدينه، دين الكهنة. فلنلاحظْ، ذلك أن الأمر غريب، إلى أي حدّ يسلك البدائي على نحو مختلف! إنه لا يتحمّل مسؤولية الخطأ عندما تنزل به مصيبة؛ إنه يضع مسؤوليتها، بالعكس، على التميمة، التي لم تقم بواجباتها بالتأكيد؛ ويوسعها ضربًا بدلاً من أن يعاقب نفسه.

(٤) هذا التعزيز للأخلاق بالخصم هو الذي يعالجه مارك توين في حكاية صغيرة ممتعة عنوانها: **هذه البطيخة الصفراء الأولى التي لم تكن ناضجة بالمصادفة**. وأُتيح لي أن أسمع مارك توين نفسه يقصّ هذه الحكاية الصغيرة. وبعد أن أعلن عنوانها، توقّف وتساءل كما لو أنه فريسة شك: **أكانت الأولى**؟ وكان ذلك كل ما قيل!

٤ ـ عاطفة الإثمية: هذا البؤس الدائم

نحن نعرف إذاً أصلين لعاطفة الإثمية: أحدهما هو الحصر أمام السلطة، والآخر، اللاحق، هو الحصر أمام الأنا العليا. فالأول يرغم الإنسان على أن يتخلّى عن إشباع دوافعه. والثاني يدفع الفرد، بالإضافة إلى ذلك، إلى أن يعاقب نفسه، بالنظر إلى تعذّر أن يخفي عن الأنا العليا دوام رغباته المحرّمة. ورأينا أيضًا كيف يمكن أن يفهم المرء قسوة الأنا العليا، أي أوامر الوجدان. إنه يمدّد فقط قسوة السلطة الخارجية التي أقالها من وظائفها وحلّ محلها جزئيًّا. ونحن نميّز الآن تلك العلاقة القائمة بين «التخلّي عن الدوافع» وعاطفة الإثمية. والتخلّي، في الأصل، هو نتيجة الحصر الذي توعزه السلطة الخارجية؛ ويتخلّى المرء عن بعض الإشباعات حتى لا يفقد حبها. وما إن يتحقّق هذا التخلّي حتى يكون المرء بريئًا أمام هذه السلطة الخارجية؛ ولا ينبغي عندئذ أن تستمر أي عاطفة للإثمية. ولكن الأمر مختلف فيما يخص الحصر أمام الأنا العليا. فالتخلي لا يحمل، في هذه الحالة، أي عون كاف، ذلك أن الرغبة تبقى ولا يمكنها أن تخفى على الأنا العليا. وستفلح بالتالي عاطفة خطيئة في أن تولد على الرغم من التخلّي المنجز؛ وذلك أمر يكوّن محذوراً اقتصاديًّا خطيراً لتدخّل الأنا العليا، أو، كما يمكننا أن نقول أيضًا، لتدخّل نمط التكوّن للوجدان الأخلاقي. فالتخلّي عن الدوافع لا يمارس عندئذ أي عمل محرّر تمامًا، والامتناع لايكافأ بضمان الاحتفاظ بالحب، واستبدل المرء تعاسة داخلية مستمرّة، أي هذه الحالة من التوتّر الخاص بعاطفة الإثمية، بتعاسة خارجية مهدّدة ـ فقدان حب السلطة الخارجية وعقوبتها له.

٥ ـ العدوان بواسطة الوجدان يخلّد العدوان بواسطة السلطة

هذه العلاقات هي من التعقّد والأهمية بحيث أودّ أن أستأنفها من وجهة نظر أخرى، على الرغم من مخاطر كل تكرار. وسيكون تعاقب هذه العلاقات في الزمان كما يلي: أولاً، التخلّي عن الدافع، الناتج عن الحصر أمام عدوان السلطة

الخارجية ـ حصر يرتكز في الحقيقة على الخوف من فقدان الحب، ذلك أن الحب يحمي من هذا العدوان الذي يتألف من العقوبة؛ ثانيًا، تأسيس السلطة الداخلية، الناجم عن الحصر أمام هذه السلطة، حصر أخلاقي. ففي الحالة الثانية، ثمة مساواة العمل السيء بالنيّة الخبيثة، ومن هنا منشأ عاطفة الإثمية والحاجة إلى العقوبة. إن العدوان بواسطة الوجدان الأخلاقي يخلّ العدوان بواسطة السلطة. والوضوح الحاصل حتى هنا واقعي، ولكن كيف نُدخل في هذه اللوحة تعزيز الوجدان الأخلاقي بالضرّاء (هذا التخلّي المفروض من الخارج)، أو الصرامة الغريبة جداً للوجدان الأخلاقي لدى الموجود الإنساني الأفضل والأكثر طاعة؟ إننا شرحنا آنفًا هاتين الخاصتين الأخلاقيتين، ولكن الانطباع، الذي مفاده أن هذه الشروح لم تُلق عليهما ضوءاً كاملاً وتركت في الظلّ بعض الوقائع الأساسية، يظلّ قائماً على ما يبدو. إنه المجال لأن نُدخل أخيراً تصوّراً خاصاً بالتحليل النفسي برمّته وغريباً عن الفكر الإنساني التقليدي كليًّا. إن من شأن هذا التصور أن يجعلنا نفهم لماذا ينبغي لهذا الموضوع أن يبدو لنا متشابكًا جداً ومبهمًا جداً، ذلك أنه يعني (التصوّر): الوجدان الأخلاقي (أو على نحو أصحّ الحصر الذي سيصبح الوجدان الأخلاقي) هو، في الأصل، سبب التخلّي، في الواقع، عن الدافع، ولكن العلاقة تنعكس لاحقًا. فكل تخلّ دافعي يصبح عندئذ مصدراً للطاقة بالنسبة للوجدان، ثم يكثّف كل تخلّ جديد بدوره قسوة هذا الوجدان وعدم تسامحه؛ ولو أنه كان بوسعها أن نجعل هذه الأفكار متوافقة على نحو أفضل مع تاريخ نموّ الوجدان الأخلاقي، كما نعرفه الآن، لسوّلت لنا أنفسنا أن ننضمّ إلى الأطروحة المفارقة التالية: الوجدان الأخلاقي نتيجة التخلّي عن الدوافع. أو: إن هذا التخلّي، المفروض علينا من الخارج، ولّد الوجدان الأخلاقي الذي يقتضي عندئذ تخلّيات دافعية جديدة.

٦ ـ لماذا يُشتقّ الوجدان من عدوانية قديمة؟

نقول، بالإجماع، إن التناقض بين هذه الأطروحة واقتراحنا السابق لنشوء الوجدان الأخلاقي ليس بارزًا جداً ونحن نرى وسيلة لتقليصه أيضًا. فلنضرب،

حتى نسهّل هذا العرض، مثل غريزة العدوان، ولنسلّم لحظة أن المقصود دائمًا والحال هذه تخلّيًا عن العدوان. وينبغي بالطبع أن نعدّ هذا الافتراض مؤقتًا. فالتأثير الذي يمارسه التخلّي عن الوجدان الأخلاقي هو ما هو عليه بحيث أن كل جزء من العدوانية نمتنع عن إشباعه تستأنفه الأنا العليا ويقوّي عدوانيتها الخاصة (ضد الأنا). وهذا الاقتراح لا يتفق جيداً مع هذا الاقتراح الآخر الذي ينصّ على أن عدوانية الوجدان البدئية أثر باق من قسوة السلطة الخارجية، وبالتالي ليس له أي شيء مشترك مع ظاهرة التخلّي. ولكن بوسعنا أن نلغي هذه النقيضة إذ نجعل هذه البنية العدوانية للأنا مشتقّة من مصدر آخر، مسلّمين أن عدوانية كبيرة كان لا بدّ لها من أن تنمو لدى الطفل ضدّ السلطة التي كانت تحرّم الإشباعات الأولى، بل الأكثر أهمية؛ وقليل الأهمية من جهة أخرى نوع الدوافع التي كانت هذه السلطة تمنع صراحة أن يُطلق لها العنان. وكان الطفل مرغمًا على أن يتخلّى عن إشباع هذه العدوانية المنتقمة. وليساعد نفسه على أن ينتصر على وضع صعب جداً من الناحية الاقتصادية إنما يلجأ إلى آليات التوحّد المعروفة، ويتّخذ أو يؤسّس هذه السلطة المصونة في نفسه، التي تصبح الأنا العليا عندئذ. وتحتاز هذه الأنا العليا عندئذ كل العدوانية التي أحب الإنسان كثيراً وهو طفل أن يكون قادراً على أن يمارسها ضدّ السلطة نفسها. أما أنا الطفل، فإن عليها أن ترضى بدور السلطة الكئيب ـ سلطة الأب. والوضع ينقلب كما يحدث على الغالب: «لو كنت أنا البابا وأنت الطفل، كم كنت سأسيء معاملتك!» فالعلاقة بين الأنا العليا والأنا هي إعادة إنتاجٍ، ولكنها معكوسة بفعل هذه الرغبة، للعلاقة التي وُجدت فعلاً في الزمن الغابر بين الأنا التي كانت ما تزال غير منقسمة وبين موضوع خارجي. وتلك حالة نمطية جداً. ويكمن الفارق الأساسي مع ذلك في أن صرامة الأنا العليا، تلك الصرامة الأصلية، ليست أبدًا، أو ليست تمامًا، هذه الصرامة التي خبرها المرء منها، والتي تُعزى إليها بوصفها تصفها على نحو خاص، بل هي عدوانيتنا الخاصة الموجّهة ضد هذه الأنا العليا. وإذا كانت هذه الفكرة مطابقة للوقائع، فإن لنا الحق فعلاً أن نزعم أن الوجدان ينجم في الأصل عن قمع عدوان، وأنه يتعزّز من ثمَّ بضروب جديدة مشابهة من القمع.

٧ ـ عاملان يسودان ولادة الوجدان: الوراثة والوسط

ولكن، لأي من هذين التصوّرين نحكم عندئذ؟ أنحكم للقديم الذي لا مأخذ عليه من الناحية التكوينية، أم للجديد الذي يكمل النظرية على نحو ملائم جداً؟

من المؤكد أن كلا التصوّرين له ما يسوّغه، وذلك ما تشهد عليه الملاحظة المباشرة؛ ولا يتعارضان، بل يلتقيان في نقطة، ذلك أن عدوانية الطفل المنتقمة ستتّخذ العدوان العقابي الذي تتوقّعه من الأب مقياساً أيضًا. وتعلّمنا التجربة مع ذلك أن قسوة الأنا العليا التي يتمثّلها الطفل لا تعكس على وجه الإطلاق قسوة المعاملات التي عاناها(٥). فالقسوة الأولى تبدو مستقلّة عن الثانية، والطفل الذي ربّي بأكبر ما يمكن من اللطف يمكنه أن يكوّن لنفسه وجدانًا أخلاقيًّا صارمًا إلى الحدّ الأقصى. وسيكون من الخطأ مع ذلك أن نقصد المبالغة في هذا الاستقلال، ذلك أن الاقتناع بأن صرامة التربية تمارس أيضًا تأثيراً قويًّا على تكوين الأنا العليا لدى الطفل، ليس صعبًا أبدًا. ونحن نصل من ذلك إلى نتيجة مفادها أن عوامل تكوينية فطرية وتأثيرات الوسط، تأثيرات المحيط الواقعية، تسهم في هذا التكوين، تكوين الوجدان الأخلاقي وولادته. ولا شيء غريب في هذا الواقع، إنه، على العكس، يكوّن الشرط السببي العام لكل السيرورات من هذا النوع(٦).

---

(٥) كما بيّنت ذلك ميلاني كلاين وبعض المؤلفين الانغليز على نحو صائب.

(٦) أوضح ف. ر. ألكسندر إيضاحًا صائبًا جداً، في كتابه المعنون **التحليل النفسي للشخصية الكلية** (١٩٢٧)، نموذجين رئيسين من الطرائق التربوية المثيرة للمرض: القسوة المغالية والميل إلى تدليل الطفل. وتؤكّد دراستها دراسة إيكورن في **الطفل المهجور**. إن أبًا «ضعيفًا ومتسامحًا، بمغالاة، سيتيح المناسبة للطفل أن يكوّن لنفسه أنا عليا قاسية بمغالاة لأن مثل هذا الطفل ليس له مخرج آخر، بتأثير انطباع الحب الذي هو موضوعه، سوى أن يحوّل عدوانه إلى الداخل. والتوتّر بين الأنا والأنا العليا يتوقّف لدى الطفل المهجور المربّى دون حب، ويمكن أن يرتدّ عدوانه ضدّ الخارج. وإذا صرفنا النظر إذن عن عامل تكويني نتكهّنه، فإن لنا الحق عندئذ في أن نعلن أن قسوة الوجدان ناجمة عن العمل المتضافر لتأثيرين حيويين: تأثير الحرمان من الإشباعات الغريزية، في المستوى الأول، التي تطلق العنان للعدوانية؛ وفي المستوى الثاني، تأثير تجربة الحب، التي تجعل هذا العدوان يرتدّ إلى الداخل وتحوّله إلى الأنا العليا.

٨ ـ الوجدان الفردي والوجدان الجماعي

ويمكننا القول، فضلاً عن ذلك، إن الطفل إذا كان يردّ بضرب شديد من عدوانية الأنا العليا وقسوتها على ضروب الحرمان الغريزية الكبيرة، فإنه يعيد بذلك إنتاج ارتكاس من طبيعة نشوء النوع. ولا تسوّغ الظروف الراهنة ارتكاسه في الواقع، كما كان الأمر بالمقابل في الأزمنة قبل التاريخية حيث كان على صلة بأب مرعب بالتأكيد، أب كان ثمة كل المجال لأن تُعزى إليه عدوانية قصوى. والخلافات بين تصوّريْ نشوء الوجدان تضعف أكثر أيضًا إذا انتقلنا من تاريخ التطوّر الفردي إلى تاريخ تطور النوع. ولكن فارقًا جديداً ذا أهمية ينبعث هنا بين السيرورتين. وليس بوسعنا أن نهجر تصوّرنا أصل عاطفة الإثمية الناجمة عن عقدة أوديب والمكتسبة حين قتل الأخوة الأب، المجتمعون في عصبة ضده. ولم يكن العدوان مقموعًا عندئذ، بل كان منجزاً بالفعل ـ هذا العدوان نفسه الذي ينبغي لقمعه عند الطفل أن يكون مصدر عاطفة الخطيئة. ولهذا السبب لن أكون مندهشًا أن يصيح قارئ ساخط: «إذن، سيّان تمامًا أن يقتل الابن أباه أو لا يقتله؛ وفي الحالين، «سيُصاب» بعاطفة الإثمية! وقد يتيح المرء لنفسه أن يشك في ذلك بعض الشك. فإما أن يكون خطأً أن تكون هذه العاطفة ناجمة عن العدوان المقموع، وإما أن كل هذا التاريخ لقتل الأب رواية من صنع الخيال، وأبناء الرجال البدائيين لم يقتلوا آباءهم على الأغلب كما الأبناء الحاليين ليس لديهم عادة أن يفعلوا ذلك. وعلى كل حال، إذا كان هذا القتل ليس رواية من صنع الخيال، بل حادث تاريخي مفعول، فإنه سيكون لدينا عندئذ حالة حيث سيحدث ما يتوقّعه كل الناس، أي حالة حيث سيشعر الفرد أنه آثم لأنه ارتكب بالفعل أمراً لا يمكنه أن يسوّغه. ومن أجل هذه الحالة نفسها، التي تحدث من جهة أخرى كل يوم، ما يزال التحليل النفسي مديناً لنا بشرح».

ذلكم ما هو مؤكد، والمسألة جديرة بأن نستعيدها. ومع ذلك، فإن اللغز الباقي ليس كبيراً جداً. وإذا كان المرء يكابد عاطفة الإثمية بعد أن ارتكب شراً ولأنه

ارتكبه، فإن من المناسب أن نسمّيها بالحري **تأنيب الضمير**. إنه ذو علاقة فقط بفعل آثم ويفترض مسبقًا وجدانًا أخلاقيًّا بالطبع، أي استعدادًا مسبقًا للشعور أنه ارتكب خطأ، شعور يسبق وجوده إنجاز هذا الفعل. ومثل هذا التأنيب، تأنيب الضمير، لن يكون عونًا لنا أبدًا لنكتشف أصل الوجدان وعاطفة الإثمية بصورة عامة. ويحدث عادة، في هذه الحالات اليومية، أن تفلح حاجة من طبيعة دافعية في الإشباع على الرغم من الوجدان الذي ما يزال لقوته حدود وأن تجد العلاقة البدئية للقوى العاملة نفسها وقد عادت إلى حالة التوازن بفضل الضعف الطبيعي للحاجة الذي سبّبه إشباعها. ويحسن التحليل النفسي صنعًا إذ يستبعد من هذه المناظرة حالة عاطفة الإثمية الناجمة عن تأنيب الضمير، مهما كان متواترًا، ومهما كان ممكنًا أن تكون أهميته العملية.

٩ ـ الإنسانية توحّدها عاطفة الإثمية

وإذا كانت، مع ذلك، عاطفة الإثمية تعود إلى قتل الأب البدائي، فتلك ستكون تمامًا حالةً من تأنيب الضمير. فهذه الأسبقية للضمير ولما يُسمّى عاطفة الإثمية على الفعل المعنيّ لا يمكنها عندئذ أن توجد. فما هو إذن أصل تأنيب الضمير؟ الحالة ينبغي لها بالتأكيد أن تكشف لنا سرّ عاطفة الإثمية وتضع حدًّا لارتباكنا. وهذا، من جهة أخرى، هو تمامًا ما ينجم عنها في رأيي. وكان هذا التأنيب، تأنيب الضمير، نتيجة ازدواجية المشاعر إزاء الأب، الازدواجية البدئية كليًّا: الأبناء كانوا يكرهونه، ولكنهم كانوا يحبونه أيضًا. وما إن يروي الكره غليله بالعدوان حتى يظهر الحب مجدّدًا في تأنيب الضمير المرتبط بالجريمة، ويولّد الأنا العليا بفعل التوحّد بالأب، ويفوّض إليها الحق والسلطة، الذي كان الأب يحوزها، في العقوبة إذا صحّ القول على فعل العدوان المنجز على شخصه، ويضع، أخيرًا، تلك القيود المخصّصة لمنع عودته. وبما أن العدوانية ضد الأب يتجدّد اضطرامها في كنف الأجيال التالية دائمًا، فإن عاطفة الإثمية استمرّت وتعزّزت بتحويل الطاقة، الخاصة بكل عدوان جديد مقموع، على الأنا العليا. فها

نحن الآن بلغنا، في اعتقادي، وضوحًا كاملاً في نقطتين: إسهام الحب في ولادة الضمير، والحتمية المشؤومة للإثمية. فالصحيح إذن أن واقع قتل الأب، أو الامتناع عنه، أمر غير حاسم؛ ولا بدّ بالضرورة من الشعور بالإثم في الحالتين، ذلك أن هذه العاطفة هي التعبير عن نزاع ثنائية المشاعر، عن الصراع الأبدي بين الإيروس وغريزة التدمير أو الموت. واضطرم هذا النزاع منذ أن فُرضت على الناس مهمة الحياة المشتركة. وما دام هذا المتّحد لا يعرف إلا الشكل الأسري، فإن هذا النزاع يظهر بالضرورة في عقدة أوديب، ويؤسّس الوجدان ويولّد العاطفة الأولى للإثمية. وعندما يميل هذا المتحد إلى التوسّع، يدوم هذا النزاع نفسه متّخذاً أشكالاً تابعة للماضي، ويشتدّ ويؤدّي إلى ضرب من بروز هذه العاطفة الأولى للإثمية. وبما أن الحضارة تخضع لدفعة إيروسية داخلية تنشد أن يتوحّد الناس في كتلة تصونها الروابط المحكمة، فهي لا تفلح في ذلك إلا بوسيلة واحدة، وسيلة أن تُعزّز دائمًا على نحو أقوى عاطفة الإثمية. فما بدأ بالأب يكتمل بالكتلة التي يتوحّد فيها الناس. وإذا كانت الحضارة هي الدرب الذي لا غنى عنه للتطور من الأسرة إلى الإنسانية، فإن هذا التعزيز يكون عندئذ مرتبطًا بمجراها ارتباطًا لا ينفصم، بوصفه نتيجة النزاع الثنائي المشاعر الذي نولد معه، ونتيجة الخصام الأبدي بين الحب والرغبة في الموت.

١٠ ـ أنا فخورةٌ كونها استحقّت حب سيدها: الأنا العليا

جزء من قوى العالم الخارجي الرادعة يجد نفسه مستدخَلاً خلال التطور، ويتكوّن في الأنا مرجع يلاحظ، وينتقد، ويحرّم، بوصفه يعارض الجزء الآخر من الأنا. وهذا المرجع هو الذي نسمّيه الأنا العليا. وتكون الأنا منذئذ مرغمة، قبل إشباع الغرائز، على أن تأخذ بالحسبان مقتضيات الأنا العليا بالإضافة إلى المخاطر الخارجية، وسيكون لديها كثيراً من الحوافز للتخلّي عن إشباع. ففي حين أن التخلّي الناجم عن أسباب خارجية لا يثير إلا اللالذة (الانزعاج)، يكون للتخلّي الناجم عن

بواعث داخلية، بفعل الطاعة لمقتضيات الأنا العليا، مفعول اقتصادي مختلف. فإلى جانب اللالذة الحتمية، تؤمّن الأنا العليا أيضًا مكسبًا من اللذة، ضربًا من الإشباع التعويضي. فالأنا تشعر أنها موضع إشادة وتعتبر تخلّيها عن الدافع فعلاً جديراً بالثناء. ونحن نعتقد أننا فهمنا العمل الوظائفي لهذه الآلية: الأنا العليا خليفة الأبوين (والمربين) وممثّلتهم، هؤلاء الذين راقبوا أفعال الفرد وحركاته خلال السنين الأولى من حياته. وتستمرّ الأنا العليا، دون أن يتغيّر فيها شيء على وجه التقريب، في القيام بوظائف الأبوين والمربين، إذ لا تكفّ عن أن تضع الأنا تحت وصايتها وتمارس عليها ضغطًا دائمًا. وتظلّ الأنا، كما في الطفولة، حريصة على أن لا تفقد حب هذا السيد الذي يثير كونه في نفسها سكينة وإشباعًا، ويثير لومه تأنيب الضمير. وعندما تضحّي الأنا على مذبح الأنا العليا بإشباع غريزي، تتوقّع منها، بالمقابل، زيادة في الحب. وشعورها أنها استحقّت هذا الحب يتحوّل إلى فخر.

سيغموند فرويد

الفصل الرابع

عظمة الأنا وعبوديتها

إلى «أشخاص غير مرغمين على أن يعرفوا خصائص علاج تحليلي... أشخاص غير منحازين، يُفترض أنهم يجهلونه»، إنما يتوجّه فرويد وهو يكتب «التحليل والطب» عام ١٩٢٦. فالتحليل الذي يمارسه من ليسوا أطباء يكوّن عندئذ موضوع مناقشات في وسط حركة التحليل النفسي[١]: ويباشر فرويد نفسه «حربًا صليبية» حقيقية لمصلحة هذا التحليل، في رأي إرْنست جونز، «خلال الطور الثاني من حياته». ويشير هو نفسه في مدخله إلى هذا العمل: «ربما سيظهر أن المرضى ليسوا مرضى عاديين وأن المحلّلين غير الأطباء ليسوا «على الإطلاق» ملمّين بالتحليل النفسي»، وأن الأطباء ليسوا تمامًا ما يمكن أن يتوقّع المرء من الأطباء...».

وهكذا يوضّح فرويد وظيفة الأنا وسماتها لقرّاء غير منحازين، إذ تُحلّ مبدأ الواقع محلّ مبدأ اللذة. فتمايز الأنا انطلاقًا من الهو، كتب هنا يقول، «تقدّم حقيقي لمصلحة المحافظة الحيوية». ودور الأنا هذا رئيس، ذلك أن الإشباع المباشر الذي يقتضيه الهو سيقود أيضًا، لولا هذا الدور، إلى الدمار المباشر للفرد. وليس بوسعنا أن نلحّ كثيرًا على القول المأثور لدى فرويد: «حيث كان الهو، ستكون الأنا»، حين يميل بعضهم إلى أن يعكسوا الأمر، ويجعلوا هذا القول: حيث كانت الأنا سيكون الهو...

والعمل الأخير تمامًا لفرويد، المكتوب عام ١٩٣٨، أي قبل موته بعام واحد،هو هذا المختصر، **مختصر التحليل النفسي** الذي سنكتشف مستخلصًا

---

(١) سنعود إلى هذا الموضوع عودة بالتفصيل في مدارس التحليل النفسي: التحليل النفسي في حركة مستمرة (كتاب ترجمناه، نشر وزارة الثقافة، دمشق«م»).

منه في حينه. ويستأنف فرويد في هذا الكتاب وصف الجهاز النفسي، وعلى نحو أدقّ، وصف ضرب من دفاع الأنا ذي سمة خاصة(٢): خلاف آليات الدفاع الأخرى لدى الأنا، تقلب هذه السيرورة، **انشطار الأنا**، علاقات الأنا بالواقع؛ ويعالج فرويد هذا الموضوع أيضًا في مخطوطة لعام ١٩٣٨، ظلّت غير مكتملة، عنوانها «**انشطار الأنا** في السيرورات الدفاعية».

وفي رأي فرويد أن ثمة إمكانًا لوجود اتجاهين معًا داخل الأنا، وهما مع ذلك مختلفان فيما يخصّ الواقع الخارجي، من حيث أن هذا الواقع يصبح متعذّرًا تحمّله ويعاكس مقتضيات الهو.

ولهذا السبب، تكون وظيفة الأنا، أي التوفيق بين رغبات الهو والعالم الخارجي المتناقضة على الغالب، مصابة بالاضطراب العميق، لأنها تؤدّي إلى أن تشوّه الأنا نفسها تشويهًا خطيرًا.

النصّ

تولد حالات يتعذّر تحمّلها عندما لا تجد تطلّعات الهو الغريزية إشباعًا. وتبيّن التجربة في الحال أن مثل هذه الإشباعات لا يمكن الحصول عليها إلا بعون العالم الخارجي. وعندئذ يباشر الجزء من الهو المتّجه نحو الخارج، أي الأنا، وظيفته. وإذا كانت كل القوة الحركية التي تحرّك السفينة يقدّمها الهو، فإن الأنا هي التي، إذا صحّ القول، تضطلع بإدارة دفّة القيادة، التي لولاها لما كان بلوغ أي هدف ممكنًا. فغرائز الهو تطمح إلى إشباعات مباشرة، عنيفة، ولا تحصل على شيء على هذا النحو، أو أنها تسبّب ضررًا محسوبًا. ويؤول إلى الأنا مهمة تدارك هذه الإخفاقات، والعمل بوصفها وسيطًا بين طموحات الهو والمعارضات التي يصادفها الهو من جانب العالم الواقعي الخارجي.

١ ـ فن الحياة لدى الأنا: تعديل العالم الخارجي

تنشر الأنا فاعليتها في اتجاهين. إنها، من جهة، تراقب، بفضل أعضاء

(٢) سنتكلّم على هذا الأمر في كتب هذه المجموعة، المخصّصة للذهانات والانحرافات.

الحواس، منظومة الوعي والعالم الخارجي، بغية اهتبال الفرصة المناسبة لضرب من الإشباع الخالي من المخاطرة؛ وهي، من جهة ثانية، تؤثر في الهو وتمسك زمام الأهواء لديه، وتحضّ الغرائز على أن تؤجّل إشباعها؛ إنها، إذا كان ذلك ضرورياً، تجعلها تغيّر أهدافها التي تنزع إلى تحقيقها أو تتخلّى عنها مقابل ما يترتّب عليها من خسائر. وإذ تفرض الأنا هذا النير على اندفاعات الهو، فإنها تجعل مبدأ ما يسمّى «الواقع» يحلّ محل مبدأ اللذة، الساري المفعول وحده في البدء، ويتابع مبدأ الواقع ذلك الهدف النهائي نفسه بالتأكيد، ولكنه يأخذ بالحسبان تلك الشروط التي يفرضها العالم الخارجي. وتتبيّن الأنا فيما بعد أن ثمة، لتؤمّن لنفسها الإشباع، وسيلة أخرى غير التكيّف مع العالم الخارجي، الذي تكلّمنا عليه. وبوسع المرء في الواقع أن يؤثر في العالم الخارجي بغية تعديله، وإيجاد شروط تجعل الإشباع ممكناً، إيجاداً بصورة مقصودة. ويصبح هذا الضرب من الفاعلية عندئذ هو الإنجاز الأسمى للأنا؛ فروح القرار، التي تتيح الاختيار عندما يكون من المناسب السيادة على الأهواء والانصياع أمام الواقع، أو عندما يكون من المناسب الانحياز إلى الأهواء ومواجهة العالم الواقعي، هي كل فن الحياة.

٢ ـ الأنا: تقدّم في درب المحافظة الحيوية

ـ كيف يستسلم الهو على هذا النحو لقيادة الأنا، لأنه، إذا فهمتُك فهماً جيداً، هو الأقوى؟

ـ نعم، الأمور تمضي على ما يرام ما دامت الأنا تملك تنظيمها الكلي، وكل قوتها في العمل، وما دامت ذات منفذ إلى مناطق الهو كلها وبوسعها أن تمارس نفوذاً فيها. فليس ثمة، في الواقع، عداوة طبيعية بين الأنا والهو، إنهما يشكّلان كلاهما جزءاً من كل واحد ولا مجال، في حال الصحة، لتمييزهما من الناحية العملية.

ـ أفهم ذلك. ولكنني لا أرى، في هذه العلاقة المثالية، أصغر مكان لاضطراب مرضي.

ـ إنك على صواب: ما دامت الأنا تستجيب، في علاقاتها بالهو، لهذه المقتضيات المثالية، ليس ثمة أي اضطراب عصبي. وباب الدخول إلى المرض موجود حيث لا نرتاب فيه، علماً بأن من يعرف علم الأمراض العام لا يمكنه أن يندهش من أن ما يراه يتأكد هنا: التطوّرات والتمايزات الأكثر أهمية هي التي، على وجه الضبط، تحمل في ذاتها جرثومة المرض، جرثومة القصور الوظيفي.

ـ إنك تصبح في قولك عالمًا جداً، فلم أعد أفهم.

ـ عليّ أن أستعيد الأمور من بعيد جداً. إن الموجود الصغير المولود حديثًا هو، أليس كذلك؟، شيء صغير، مسكين عاجز، في نظر العالم الخارجي ذي القوة الكلية والمليء بالأعمال الهدّامة. فالموجود الأوليّ، الذي لم يطوّر بعدُ أنا منظّمة، عرضة لكل هذه الصدمات. إنه لا يعيش إلا ليشبع غرائزه إشباعًا «دون تبصّر»، وذلك أمر يسبّب هلاكه غالبًا. فتمايز الأنا هو، قبل كل شيء، تقدّم لمصلحة المحافظة الحيوية.

٣ ـ الهو أقدم مقاطعة من «المقاطعات الإنسانية»

يفترض التحليل النفسي مسلّمة أساسية يعود إلى الفلسفة أمر مناقشتها ولكن نتائجها تسوّغ قيمتها. فمن ما نسمّيه الحياة النفسية، نحن نعلم أمرين: من جهة، عضوها الجسمي، محلّ عملها، الدماغ (أو الجملة العصبية)؛ ومن جهة ثانية، فاعلياتنا الواعية التي لدينا معرفة مباشرة بها، وأي وصف لها لا يمكنه أن يجعلنا أفضل معرفة بها. وكل ما يوجد بين هاتين النقطتين القصويين يظلّ مجهولاً بالنسبة لنا، وإذا كان ثمة بينهما اتصال من الاتصالات، فإنه يقدّم لنا على الأكثر مكانًا محدّداً للسيرورات الشعورية دون أن يتيح لنا أن نفهمها.

وفرضانا يُعنيان بهذين الحدّين الأقصيين أو هما نقطتا الانطلاق لمعرفتنا. فالأول ذو علاقة بتعيين المكان. ونحن نسلّم أن الحياة النفسية وظيفة جهاز ننسب إليه امتداداً مكانيًا ونفترض أنه يتكوّن من عدة أجزاء. ونحن نتمثّله على هذا النحو أنه ضرب من منظار، مجهر، أو شيء من هذا النوع. وبناء مثل هذا النمط وإكماله

هما جدّة في المجال العلمي، على الرغم من محاولات من النوع نفسه أمكنها أن تقوم من قبل.

فدراسة تطوّر الأفراد هي التي أتاحت لنا أن نعرف هذا الجهاز النفسي. ونحن نطلق على أقدم هذه المقاطعات أو المراجع النفسية اسم الهو؛ محتواه يشتمل على ما يحمله الفرد وهو يولد، كل ما كان قد تعيّن من الناحية التكوينية، وبالتالي، قبل كل شيء، الدوافع التي تصدر عن التنظيم الجسمي وتجد في الهو، على أشكال تظلّ مجهولة بالنسبة لنا، نمط أول للتعبير النفسي(٣).

٤ ـ الأنا تنزع نحو اللذة وتبحث عن تجنّب اللا لذة:

يطرأ على جزء من الهو تطوّر خاص تحت تأثير العالم الخارجي الواقعي الذي يحيط بنا. وإذ يتمايز هذا الجزء في الأصل بوصفه راقًا قشريًّا مزوّدًا بأعضاد مستقبلة للإثارات وبأجهزة واقية من الإثارة(٤)، فإن تنظيمًا خاصًّا يتوطّد، تنظيمًا يقوم، منذئذ، مقام الوسيط بين الهو والخارج. وعلى هذا القطاع من حياتنا النفسية إنما نطلق اسم الأنا.

السمات الخاصة بالأنا. ـ في أعقاب علاقات قائمة مسبقًا بين الإدراك الحسي والعمل العضلي، تبسط الأنا نفوذها على رقابة الحركات الإرادية. إنها تؤمّن التوطيد الذاتي، وتؤدّي، فيما يخصّ الخارج، مهمتها إذ تتعلّم أن تعرف الإثارات، وتراكم (في الذاكرة) التجارب التي تقدّمها لها إذ تتجنّب الإثارات القوية جدًّا (بالهروب)، وتتكيّف مع الإثارات المعتدلة، وتصل أخيرًا إلى أن تعدّل العالم الخارجي (الفاعلية) تعديلاً مناسبًا ولمصلحتها. وفي الداخل، تؤدّي عملاً ضدّ الهو إذ تكتسب السيادة على المقتضيات الدافعية، وتقرّر إن كان ممكنًا إشباعها

(٣) هذا الجزء الأقدم من الجهاز النفسي يظلّ، طوال الحياة، هو الأكثر أهمية. وبدراسته إنما بدأ بحث التحليل النفسي.

(٤) نقترح أن نترجم «Pare - excitations» (الواقيات من الإثارة) بالمقابل الألماني Reizschuts، الشائع في لسان فرويد والهام في نظريته (لجنة الإشراف).

أو إن كان من المناسب تأجيل إشباعها حتى وقت أكثر اتصافًا بأنه مناسب أو إن كان أيضًا ينبغي كبتها كليًا. والأنا، في فاعليتها، يقودها الأخذ بالحسبان توتّرات تسبّبها إثارات الداخل أو الخارج. ويسبّب ضرب من تنامي التوتّر **اللالذة** على وجه العموم، ونقصه يولّد **اللالذة**. ومع ذلك فإن اللالذة واللذة غير منوطتين على وجه الاحتمال بالدرجة المطلقة للتوترات، بل بإيقاع تغيّرات هذه التوترات بالحري. وتميل الأنا نحو اللذة وتبحث عن تجنّب اللالذة. وتستجيب لكل زيادة منتظرة، متوقّعة، للالذة، **بإشارة حصر**، وما يُطلق هذه الإشارة من الخارج أو الداخل يُسمى **الخطر**. ومن وقت إلى آخر، تنسحب الأنا في النوم حيث تعدّل تنظيمها بعمق، حين تحطّم صلاتها التي توحّدها بالعالم الخارجي. وتتيح حالة النوم أن نعاين أن هذا النمط من التنظيم يكمن في ضرب من التوزيع الخاص للطاقة النفسية.

٥ ـ تخطيطيّة تنطبق أيضًا على الحيوانات العليا

يرى الفرد الخاضع لسياق التطور أن مرجعًا يتكوّن في أناه، كما لو أنه يتكوّن بضرب من راسب المدة الطويلة لطفولته التي يتجاوزها ويعود أمره إلى أبويه في أثنائها، مرجعًا خاصًا يستطيل به التأثير الأبوي. وهذا المرجع هو الأنا العليا. ومن حيث أن الأنا العليا تنفصل عن الأنا أو تعارضها، فإنها تكوّن قوة ثالثة تكون الأنا مرغمة على أن تأخذها بالحسبان.

ويُعدّ صحيحًا كل سلوك للأنا يشبع معًا مقتضيات الهو، والأنا العليا والواقع، وذلك أمر يحدث عندما تفلح الأنا في التوفيق بين هذه المقتضيات المختلفة. وتصبح خصائص العلاقات بين الأنا والأنا العليا مفهومة، دائمًا وفي كل مكان، إذا أرجعناها إلى علاقات الطفل بأبويه. وليست شخصية الأبوين وحدها بالتأكيد هي التي تؤثر على الطفل، ولكن تأثير التقاليد الأسرية، والعرقية والوطنية، وكذلك مقتضيات الوسط المباشر التي يمثّلانها، ينتقل بواسطتهما. وتقتدي الأنا العليا لفرد خلال تطوّره أيضًا بمن يخلف الأبوين وينوب منابهما،

كبعض المربين على سبيل المثال، وبعض الشخوص الذين يمثّلون في كَنَف المجتمع مثُلاً محترمة. ونرى أن للهو والأنا العليا نقطة مشتركة على الرغم من الفارق الأساسي بينهما، فكلاهما، في الواقع، يمثّلان دور الماضي، الهو يمثّل دور الوراثة، والأنا العليا دور التقليد، في حين أن الأنا، نفسها، يحدّدها على وجه الخصوص ما عاشته هي نفسها، أي العَرَضي والحالي.

وهذه التخطيطية العامة لجهاز نفسي صحيحة أيضًا بالنسبة للحيوانات العليا ذات التشابه النفسي مع الإنسان. ومن المناسب أن نسلّم بوجود أنا عليا يكون على الموجود، كما لدى الإنسان، أن يعاني بسببها، في طفولته، تبعية طويلة إلى حد كاف. وتميّزُ الأنا عن الهو واقع لاريب فيه.

فما تزال سيكولوجيا الحيوان لم تعكف قط على الدراسة الهامة التي تظلّ متوافرة لها هنا.

٦ ـ مفهوم أساسي: انشطار الأنا

نحن نقول إن ثمة **انشطارًا في الأنا** في كل ذهان(٥). وإذا كنا حريصين جداً على هذه المسلّمة، فالسبب أن حالات أخرى أكثر قربًا من الأعصبة، وفي هذه الأعصبة أيضًا، تؤكدها في نهاية المطاف. وأنا نفسي مقتنع أول الأمر فيما يخصّ حالات **الفيتيشية**(٦). وهذا الشذوذ، الذي يمكننا تصنيفه في عداد الانحرافات، قائم، كما نعلم، على واقع مفاده أن المريض ـ والمقصود رجل دائمًا على وجه التقريب ـ يرفض الاعتقاد بنقص عضو الذكر لدى المرأة، إذ يكون هذا النقص شاقًّا جدًّا عليه لأنه يبرهن على إمكان خصائه الخاص. ولهذا السبب يعارض بضرب من النفي إدراكه الحسّي الخاص الذي أتاح له أن يعاين أن المرأة محرومة من عضو الذكر ويتعلّق بالاقتناع المقابل. ولكن الإدراك فعل فعله، على الرغم من أنه منفيّ،

---

(٥) انظر، عن الذهانات، كتاب **الذهانات**: **فقدان الواقع**، من المجموعة نفسها (ملاحظة لجنة الإشراف).

(٦) انظر، عن الفيتيشية، كتاب **الانحرافات**: الدروب **المختصرة**، من المجموعة نفسها (ملاحظة لجنة الإشراف).

ولايجرؤ الفرد، على الرغم من كل شيء، أن يزعم أنه لم ير عضو ذكر حقًّا. فماذا يفعل عندئذ؟ إنه يختار شيئًا آخر، جزءًا من الجسم، موضوعًا، يعزو إليه دور عضو الذكر، هذا الذي يمكنه أن يستغني عنه. والمقصود على وجه العموم شيء رآه الفيتيشي حين كان ينظر إلى الأعضاء التناسلية لدى المرأة، أو موضوع يمكنه أن ينوب رمزيًّا مناب عضو الذكر. وسيكون مع ذلك غير صحيح أن نعتقد أن السيرورة التي ترافق اختيار فيتيش سيرورة ضرب من انشطار الأنا. فالمقصود هنا تسوية تتكوّن بمساعدة الانزياح الذي يماثل الانزياحات التي جعلتنا الأحلام نألفها. ولكن ملاحظاتنا لاتتوقّف هناك. إن الفرد ابتكر لنفسه فيتيشًا بغية تدمير كل برهان على إمكان الخصاء وليفلت على هذا النحو من حصر الخصاء. وإذا كانت المرأة تملك عضو ذكر، شأنها شأن الخلائق الحية الأخرى، فلم يعد ثمة مجال للخشية من أن يُنتزع عضو الذكر خاصتك. ولكننا نجد في الواقع حصر خصاء لدى بعض الفيتيشيين شبيهًا بحصر غير الفيتيشيين ويولّد لدى هؤلاء ارتكاسات مماثلة. فالسبب إذن أن سلوكهم يكشف عن رأيين متناقضين. فنراهم في الواقع، من جهة، ينكرون الإدراك الذي بيّن لهم غياب عضو الذكر لدى المرأة، ويعترفون، من جهة ثانية، بهذا النقص الذي يستمدّون منه نتائج صائبة. ويدوم هذان الاتجاهان طوال الحياة دون أن يتبادلا التأثير. أليس في ذلك ما نصفه بـ **انشطار الأنا**؟ تتيح لنا هذه الحالة من الأمور أيضًا أن نفهم لماذا لم تنمُ الفيتيشية على الأغلب إلا جزئيًّا. إنها لاتحدّد اختيار الموضوع تحديدًا كليًّا ولكنها تتيح، في نطاق واسع قليلاً أو كثيرًا، سلوكًا جنسيًّا سويًّا، ويظلّ دورها في بعض الأحيان متواضعًا ويمكنه ألا يكون سوى رسم أولي. ولايفلح الفيتيشي فلاحًا كاملاً أبدًا في فصل أناه عن العالم الخارجي.

٧ ـ عندما تبذل الأنا جهدها لتفلت من الواقع

فلْنحذر الاعتقاد أن الفيتيشية تكوّن حالة استثنائية من انشطار الأنا، كلا، ولكنها توفّر لنا مناسبة رائعة لدراسة هذه الظاهرة. ولنعد إلى الواقع الذي مفاده أن

أنا الطفل تتخلّص بأسلوب الكبت، تحت تأثير العالم الخارجي، من المقتضيات الدافعية المستهجنة. ولنضف الآن أن الأنا ترى نفسها، خلال المدة نفسها من الحياة، مرغمة على أن تناضل ضدّ بعض مطالبات **العالم الخارجي**، التي تستشعرها شاقّة وتستخدم أسلوب **النفي**، في مناسبة مشابهة، لإلغاء الإدراكات التي تكشف لها هذه المقتضيات عنها. وتحدث هذه الضروب المشابهة من النفي غالبًا لدى الفيتيشيين وليس لديهم فقط. إنها تبدو، حيث نكون قادرين على دراستها، نصف إجراءات، محاولات غير كاملة لفصل الأنا عن الواقع. فالرفض يزدوج دائمًا بضرب من القبول؛ فثمة اتجاهان متعارضان، مستقلّ أحدهما عن الآخر، يتأسّسان، وذلك أمر يفضي إلى انشطار الأنا. والمخرج، هنا أيضًا، ينبغي أن يكون تابعًا لأي منهما سيكون ذا الشدّة الأعظم.

وليس انشطار الأنا، كما وصفناه للتوّ، جديداً، ولا غريبًا، بالقدر الذي يبدو للوهلة الأولى. فواقع أن شخصًا يمكنه أن يتبنّى، فيما يخصّ سلوكًا معيّنًا، اتجاهين نفسيين مختلفين، متعارضين، ومستقلاً أحدهما عن الآخر، هو سمة عامة للعصاب على وجه الضبط، ولكن من المناسب أن نقول إن أحد الاتجاهين، في مثل هذه الحالة، هو من صنع الأنا في حين أن الاتجاه المعارض، الاتجاه المكبوت، يصدر عن الهو. والفارق بين الحالتين هو، بصورة أساسية، من النسق الموقعي أو البنيوي ولايسهل دائمًا أن نقرّر مع أي من الاحتمالين نتعامل في كل حالة خاصة. وللاتجاهين، مع ذلك، سمة مشتركة ذات أهمية: الواقع أن الأنا تنفي، حتى تدافع عن نفسها ضدّ خطر، جزءاً من العالم الخارجي أو أن نجاحها، حين تشاء مقاومة مقتضى دافعي من الداخل، ليس كليًّا أبداً ولامطلقًا، على الرغم من كل جهودها الدفاعية. فثمة اتجاهان متناقضان يظهران دائمًا وكلاهما، بما في ذلك الأضعف الذي عانى الإخفاق شأنه شأن الآخر، يفضيان إلى نتائج نفسية. ولنضف أيضًا أن إدراكاتنا الشعورية لاتتيح لنا أن نعرف إلا جزءاً صغيراً من هذا السيرورات كلها.

سيغموند فرويد

الجزء الثالث

الأنا :

ما يقوله الآخرون عنها ...

الفصــل الأول

حسّ الواقع

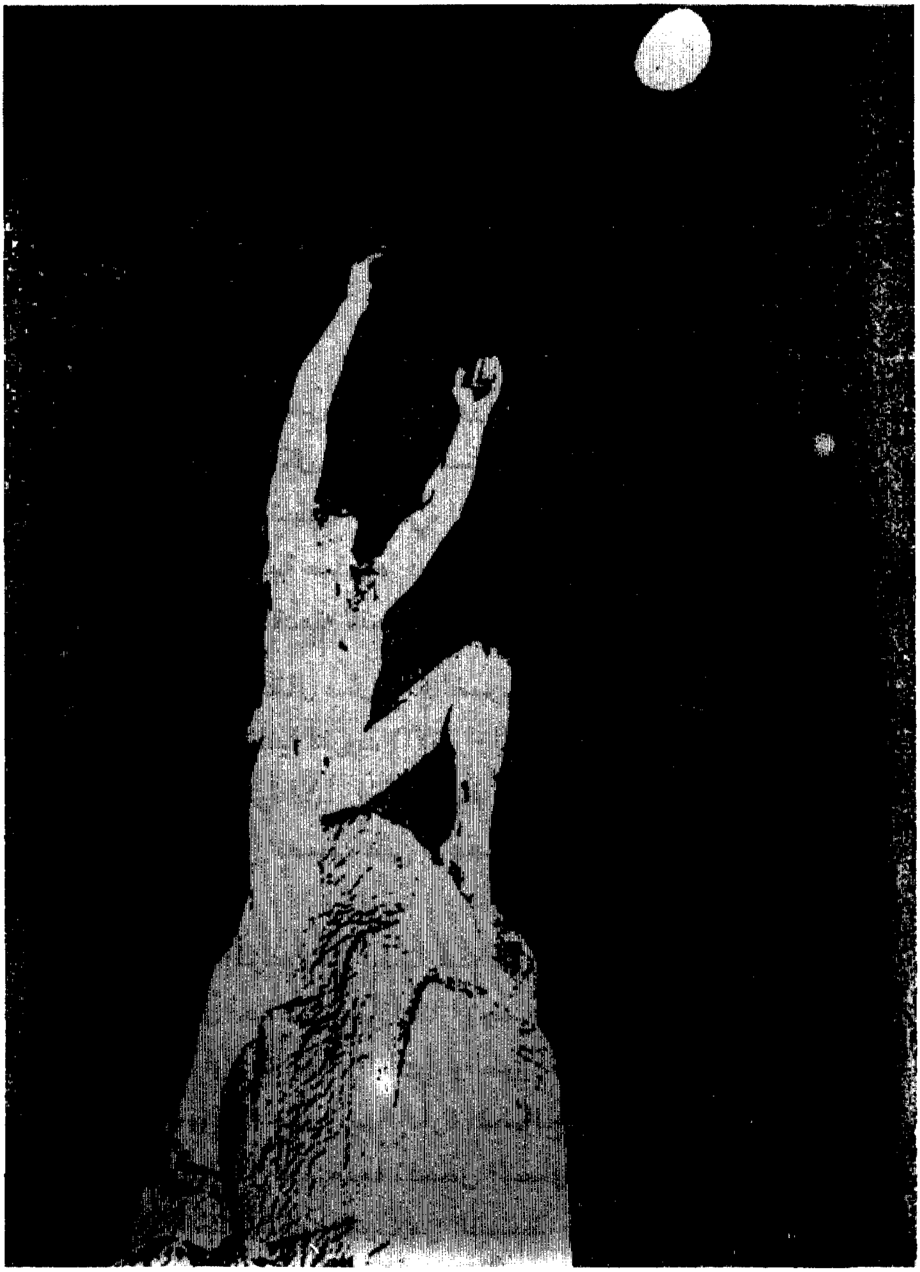
مقدّمــــة

عام ١٩١٣، الذي يحرّر فيه ساندور فورنْزي النص الذي سيلي، هو عام من الأعوام الأخصب في كل حياته: خمسة وعشرون مقالاً، بما فيها هذا المقال، مقال كلاسيكي حقيقي للتحليل النفسي، المخصّص لـ «نموّ حسّ الواقع ومراحله»، الذي يكتب فرويد بمناسبة صدوره: «محاولتك... تبدو لي أنها الإسهام الأفضل والأكثر أهمية من كل ما قدّمته للتحليل النفسي» (١٤ فبراير - شباط، ١٩١٣).

والواقع أن هذا المقال مثل رائع لضرب من تصوّر الأنا سابق جداً على المدخل إلى الموقعية الثانية لفرويد (الأنا - الهو - الأنا العليا). إننا لفتنا النظر من قبل إلى ما يلي: فكرة الأنا، المرجع الدفاعي، موجودة سابقًا في تأليف فرويد منذ أعماله الأولى التي انصبّت على الأعصبة، دون أن يكون لها مع ذلك وضع محدّد حقًا.

ويميّز بعض المؤلفين في أيامنا هذه طورين في إرصان الأفكار النظرية الخاصة بالأنا؛ يدلّ أحدهما على الأنا الإجمالية (أي الشخص) التي يطلقون عليها اسم «Self» أو «Soi»(١) [الذات]. والطور الآخر ينطبق على الأنا بوصفها مرجعًا مركزيًا، ووكالة عُهد إليها إدارة المصالح المتناقضة، للهو، والأنا العليا والعالم الخارجي. ويبدو لنا، عندما نفحص النصوص، شاقًا مع ذلك أن نقبل ما يظهر، في نهاية المطاف، كأنه ضرب من التبسيط.

(١) - انظر الفصلين الأخيرين من كتاب التوحّد: الآخر إنما هو أنا، في المجموعة نفسها.



(خاطف القمر) نصب تذكاري أُهدي تمجيداً لروّاد الطيران. تحتفظ المشروعات الإنسانية الكبيرة دائماً بأثر من جنون العظمة في الطفولة.

ويلي هذا المقال، مقال فورنزي، ذلك المثال الذي كان فرويد قد خصّصه آنفًا لمبدأي العمل الوظائفي النفسي (مبدأي اللذة والواقع). وينطلق المؤلف من فكرة مفادها أن الطفل، في الحالة الجنينية، يشعر بعاطفة القوة الكلية. فرغباته وحاجاته مشبعة دفعة واحدة، حتى قبل أن توجد، وذلك على نحو آلي. إنه يتجنّب إذن أن يكون عليه أن يعدّل العالم الخارجي؛ إنها مرحلة القوة الكلية غير المشروطة. ولهذا السبب يرغب الوليد فيما بعد، باذلاً كل قواه، أن يجد هذا الوضع الفردوسي مجدّداً. وهذا التوق يظهر، خلال كل نماء الطفل، ظهوراً جديداً ذا مستويات أكثر تطوّراً فأكثر.

والمقال الذي سنكتشفه للتو، مقال تنعشه نفحة مبدعة وخيالية، وتنفذ إليه حدوس عيادية، ينظر إلى نموّ الأنا بالنسبة إلى الحنين إلى الفردوس المفقود. وسنرى أن الوظائف التي سيعزوها فورنزي إلى الأنا، قبل عشر سنوات من عرض الموقعية الثانية، ستكون الوظائف نفسها التي عرضها فرويد في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ونقول أخيراً إن الأنا، المرتبطة في رأي فورنزي بمصادر نفسية بيولوجية عميقة، التي يصفها إيف هانْدرِيك، الذي نختتم به هذا الجزء الثالث من كتابنا، تبدو على العكس مقطوعة من جذورها.

النص

بيّن فرويد أن نموّ أشكال الفاعلية النفسية الخاص بالفرد يكمن في إحلال التكيّف مع الواقع، أي اختبار الواقع القائم على حكم موضوعي، محل مبدأ اللذة الغالب في الأصل وآلية الكبت النوعية له. فمن المرحلة النفسية «الأوّلية» كما تظهر في الفاعليات النفسية لدى الموجودات البدائية (حيوانات، متوحشين، أطفال) وفي الحالات النفسية الأولية (أحلام، عصاب، استيهام)، ستنبعث المرحلة الثانوية، مرحلة الإنسان السويّ في حالة اليقظة.

ويحاول الطفل الوليد، في بداية نموّه، أن يبلغ حالة الإشباع بفعل عنف الرغبة وحده (امتثال)، إذ يهمل (يكبت) فقط الواقع غير المرضي ليهب نفسه، بوصفه حاضراً، الإشباع المرغوب ولكنه الغائب؛ إنه يزعم أنه يؤمّن كل حاجاته، دون جهد، بواسطة الهلوسات الإيجابية والسلبية. و«الغياب الدائم للإشباع المنتظر، أي خيبة الأمل، هو الذي سبّب وحده هجر هذه المحاولة من الإشباع على النمط الهلوسي. ووجب على الجهاز النفسي، بدلاً من هذا الإشباع الهلوسي، أن يصمّم على أن يتمثّل الحالة الواقعية للعالم الخارجي وأن يبحث عن التعديل الواقعي لهذا العالم الخارجي. وبفعل ذلك كان مبدأ جديد للفاعلية النفسية قد أُدخل: فما كان متمثّلاً لم يكن المتمتع بل الممتع ما هو واقعي، وإن كان ذلك لا بدّ له من أن يكون غير ممتع»[٢].

وفي الدراسة الهامة التي يعرض خلالها فرويد هذا الواقع الأساسي للمنشأ النفسي، يقتصر على أن يميّز المرحلة - اللذة من المرحلة - الواقع تمييزاً واضحًا. ويُعنى في هذا الدراسة جيداً بحالات متوسطة حيث يوجد معًا مبدآ العمل الوظائفي النفسي (استيهام، فن، حياة جنسية)، ولكنه يترك دون جواب تلك المسألة التي مفادها أن نعرف ما إذا كان الشكل الثانوي للفاعلية النفسية ينمو تدريجيًا أو بمراحل انطلاقًا من الشكل الأولي، وما إذا كان، من جهة ثانية، ممكنًا أن نميّز هذه المراحل أو نكشف عن مشتقّاتها في الحياة النفسية السوية أو المرضية.

وفي مقال سابق يكشف لنا فرويد خلاله عن أفكار عميقة خاصة بالحياة النفسية لدى العصابين المصابين بالوسواس[٣]، يجذب انتباهنا مع ذلك إلى واقع مفاده أن بوسعنا أن نتّخذه نقطة انطلاق لنحاول ردم الهوّة الموجودة بين مرحلتي النموّ النفسي، المرحلة - اللذة والمرحلة - الواقع.

(٢) - فرويد: «صياغات لمبدأي العمل الوظائفي النفسي»، ١٩١١.

(٣) فرويد: «ملاحظات لحالة عصاب وسواسي (**خمس حالات من التحليل النفسي**، المنشورات الجامعية النفسية).

١ - عندما تختلط الرغبة والعمل: «القوة الكلية للأفكار»

يعترف الموسوسون الذين يخضعون لتحليل نفسي، نقرأ في هذا المقال، أنهم عاجزون عن التخلّص من اعتقادهم بـ **القوة الكلية** لأفكارهم، وعواطفهم، وأمنياتهم الطيّبة أو غير الطيّبة. فلديهم **الشعور** أن أمنياتهم تتحقّق على نحو يتعذّر شرحه، مهما كانوا مستنيرين، ومهما كانت قوة المعارضة لثقافتهم وعقلهم. وكل محلّل يمكنه بسهولة أن يقتنع بهذه الحالة من الأمور. وسيلاحظ أن لدى الموسوس انطباعًا مفاده أن سعادة الآخرين وشقاءهم، بل حياتهم وموتهم، تتعلّق ببعض أعماله وسيروراته الفكرية غير المؤذية. إنه حريص على أن يذكر بعض الصياغات السحرية أو ينجز عملاً محدّدًا: وإلا سيقع شقاء كبير لهذا الشخص أو ذاك (ولشخص قريب على الأغلب). وهذا الاقتناع الحدسي الخرافي لا تزعزعه التجارب المتكرّرة التي تكذّبه(٤).

فلنستبعد حاليًا واقعًا مفاده أن التحليل سيكشف في هذه الأفكار وهذه الأفعال الوسواسية **بدائل** اقتراحات رغبة، اقتراحات منطقية تمامًا مكبوتة لأنها يتعذّر التسامح بها(٥)، ولنوجّه انتباهنا فقط إلى الشكل النوعي الذي تبدو عليه هذه الأعراض الوسواسية: علينا أن نسلّم أنها تكوّن الآن في ذاتها مشكلاً.

وقادتني تجربة التحليل النفسي إلى أن أعدّ هذا العَرَض، عاطفة القوة الكلية، إسقاطًا لإدراكنا أن علينا أن نخضع خضوع العبيد إلى بعض الدوافع التي يتعذّر قمعها. فالعصاب الوسواسي عودة الحياة النفسية إلى مرحلة طفالية من النموّ، تتميّز على وجه الخصوص بواقع مفاده أن فاعلية الكفّ، وإرجاء الفكرة وإعدادها، لم تتوسّط بعد بين الرغبة والعمل وأن الرغبة تليها الحركة الخاصة

---

(٤) - هذا المقال كان فورنزي قد حرّره قبل أن يكون بوسعه أن يأخذ بالحسبان دراسة فرويد «الإحيائية، السحر والقوة الكلية للفكر» (في **الطوطم والتابو**، ١٩١٣) حيث يعالج الموضوع نفسه من وجهة نظر مختلفة.

(٥)س. فرويد؛ «نُفاسات الدفاع»، ١٩٨٣ و«الوساوس والرهابات»، ١٨٩٥.

بإنجازها على نحو عفوي وحتمي: حركة تجنّب لمصدر اللالذة أو الاقتراب من مصدر اللذة[٦].

وفي أعقاب ضرب من كفّ النموّ (التثبيت)، ثمة جزء من حياة الموسوس النفسية، تهرّب من وعيه قليلاً أو كثيراً، يظلّ إذن - كما يبيّن التحليل - في هذه المرحلة الطفالية، وثمة تماثل بين الرغبة والعمل لأن هذا الجزء المكبوت من الحياة النفسية لم يتمكن من أن يتعلّم، جرّاء الكبت وتراجع الانتباه، أن يميّز بين هاتين السيرورتين. والأنا، على العكس، التي تطوّرت دون كبت، وعلّمتها التربية والتجربة، لا يمكنها إلا أن تبتسم لهذا التماثل. ومن هنا منشأ تباين الموسوس: التواجد المتعذّر شرحه للصفاء والخرافة.

وبالنظر إلى أن هذا الشرح لعاطفة القوة الكلية، بوصفها ظاهرة رمزية ذاتية[٧]، لم يرضني إرضاء تامًّا، فإنني تساءلت: أين يتجرأ الطفل على أن يجعل الفكر والعمل متماثلين؟ ما مصدر هذا الأمر الطبيعي الذي يمدّ بواسطته يدَه نحو أي موضوع، سواء كان المصباح المعلّق فوقه أو القمر الذي يلمع بعيداً، مع الأمل المؤكد أنه سيبلغهما ويستولي عليهما بهذه الحركة؟

٢ - الطفل ذو قوة كلية حقًّا في رحم أمه

تذكّرت عندئذ أن الموسوس، وفق فرض فرويد، «يعترف صراحة بجزء من جنون العظمة الطفالي القديم» في استيهام القوة الكلية لديه، وحاولت أن أبحث أصل هذا الوهم وأن أتابع مصيره. وكنت آمل أن أتعلّم في الوقت نفسه شيئًا جديداً عن تطوّر الأنا من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع، ذلك أن أمر إحلال الاعتراف بسلطة

---

(٦) - من المعلوم أن الأطفال الصغار يمدّون يدهم مداً شبه انعكاسي نحو كل موضوع لامع أو يروق لهم لأي سبب آخر. إنهم عاجزون في البداية حتى عن أن يمتنعوا عن «أمر غير لائق» يؤمّن لهم لذة إذا مثُلت إشارة بهذا المعنى. وثمة صبيّ صغير، كانت أمه تمنعه من وضع أصابعه في أنفه، أجابها: «أنا لا أريد، إن يدي هي التي تريد وليس بوسعي أن أمنعها».

(٧) - على هذا النحو إنما يسمّي سيلبورر الإدراكات الذاتية ذات التمثيل الرمزي.

قوى الطبيعة، إحلال تفرضه التجربة، محلّ جنون العظمة الطفالي، يكوّن، كما كان يبدو لي، الأساسيّ من نموّ الأنا.

ويصف فرويد تنظيماً سيكون عبداً لمبدأ اللذة ويهمل واقع العالم الخارجي أنه ضرب من الخيال، وهذا مع ذلك، يقول، هو الذي يتحقّق عملياً بالنسبة للرضيع، وحسبك أن تأخذ بالحسبان عنايات الأم. وسأضيف أن ثمة حالة من النموّ الإنساني تحقّق هذا المثال لوجود خاضع للذة وحدها، لا في الخيال وبصورة تقريبية فحسب، بل في الواقع وبصورة فعلية.

إنني أفكّر في مرحلة الحياة التي انقضت في جسم الأم. ويعيش الموجود الإنساني في هذه المرحلة من جسم الأم حياة طفيلية. وما يكاد يوجد «عالم خارجي» بالنسبة للموجود في حالة التفريخ؛ فكل حاجاته، حاجات الحماية والحرارة والتغذية، تؤمّنها الأم. وليس عليه حتى أن يبذل جهداً للاستيلاء على الأغذية والأوكسجين الضروريين له، ذلك أن ثمة آليات مناسبة تتكفّل بإيصال هذه المواد مباشرة في أوعيته الدموية. وبالمقارنة مع دودة في الأمعاء، على سبيل المثال، نجد أن على الدودة أن تقوم بعمل كبير حتى «تعدّل العالم الخارجي»، إذا شاءت أن تستمرّ حيّة. أما بقاء الجنين حيّاً، فأمر يقع عبئه على الأم كليّاً. وينجم عن ذلك أن الموجود الإنساني إذا كان حياة نفسية، ولو لاشعورية، - ومن العبث أن نعتقد أن الحياة النفسية لا تباشر عملها الوظائفي إلا عند الولادة - فإن عليه أن يختبر الانطباع، جرّاء وجوده، أنه **قوة كلية** فعلاً. ذلك أننا نتساءل ما هي القوة الكلية؟ إنها الانطباع أن المرء يحصل على ما يريد ولم يعد لديه شيء يرغبه. وذلك هو ما يمكن أن يدّعيه الجنين، فيما يخصّه، ذلك أن لديه باستمرار ما هو ضروري له لإشباع دوافعه(٩)؛ فليس لديه إذن شيء يرغب فيه، إنه خالٍ من الحاجات.

(٨) - هامش في المجلد الأول، ص. ٤١١. انظر أيضاً الجدال بين بلولر وفرويد، الخاص بهذا المشكل (بلولر، الفكر المنطوي على الذات، المجلد٤).

(٩) في أعقاب اضطرابات ناجمة على سبيل المثال عن مرض الأم أو داء يصيبها أو يصيب حبل السرّة، يمكن أن تنقضّ الحاجة على الفرد منذ الحياة داخل الجنين، وأن تجرّده من قوته الكلية وترغمه على أن «يحاول تعديل العالم الخارجي»، وأن ينجز عملاً بعبارة أخرى. ويمكن أن يكمن هذا العمل في أن يتنفّس من السائل الأمينوسي في حالة الاختناق.

٣ - إيجاد هذه الحالة المثالية مجدّداً بأي ثمن

«جنون العظمة لدى الطفل» فيما يخصّ قوته الكلية الخاصة ليس إذن **محض** وهم؛ فالطفل والمصاب بالوسواس لا يطلبان شيئًا متعذّرًا من الواقع حين يصرّان على أن رغباتهما ينبغي أن تتحقّق بالضرورة؛ إنهما يقتصران على أن يقتضيا **عودة** حالة وجدت فيما مضى، عودة هذا «الزمن القديم الطيّب» الذي كانا فيه قويين كل القوة (**مرحلة القوة الكلية اللامشروطة**).

وبحكم الحق الذي يسمح لنا أن نفترض تحويل الآثار التذكّرية لتاريخ النوع على الفرد، بل وبالحري، بوسعنا أن نؤكّد أن آثار السيرورات النفسية داخل الرحم لا تظلّ دون تأثير على تشكّل المادة النفسية التي تظهر بعد الولادة. وينطق سلوك الطفل مباشرة بعد الولادة لمصلحة مثل هذه الاستمرارية للسيرورات النفسية(١٠).

ولا يتكيّف الوليد على نحو مماثل، فيما يخصّ حاجاته المختلفة، مع هذا الوضع الجديد، وضع يكون بالنسبة له مصدر لالذة على نحو واضح. ويباشر بعد «الخلاص» مباشرة في أن **يتنفّس** ليعوّض غياب التزوّد بالأوكسجين الذي يلي ربط شرايين الحبل السريّ؛ وتتيح له ملكية جهاز تنفّسي متكوّن مسبقًا منذ الحياة داخل الرحم أن يعوّض في الحال ذلك الحرمان من الأوكسجين تعويضًا **فاعلاً**. ولدينا الانطباع مع ذلك، عندما نلاحظ سلوكات الوليد الأخرى، أنه غير مغتبط بالاضطرب العنيف الطارئ على غبطته الخالية من الرغبات، التي كان يستمتع بها في رحم الأم، وحتى أنه **يرغب بكل قواه في أن يوجد في هذه الحالة من جديد**. فالأشخاص الذين يُعنون بالطفل يفهمون هذه الرغبة فهمًا غريزيًّا، ومنذ أن يُظهر انزعاجه بضروب الصراخ والهياج، يضعونه في ظروف أقرب ما يمكن إلى الحالة داخل الرحم. إنهم يضعونه قرب الجسم الفاتر للأم أو يغلّفونه بالأغطية ولحافات الزغب الحارّة الناعمة بهدف ظاهر مفاده أن يُمنح وهم الحماية الحارة للأم.

(١٠) - ذكر فرويد عَرَضًا أن إحساسات الطفل خلال الولادة تثير على وجه الاحتمال أول حالة وجدانية من الحصر لدى الوليد، حالة ستظلّ النموذج الأولي لكل حصر وكل قلق لاحقين.

ويحمون عينيه من المنبهات الضوئية، وأذنيه من الضجة، بغية أن يُتاح له أن يستمرّ في الاستمتاع بغياب الإثارات الخاص بالحالة الجنينية، أو أنهم يُحدثون التنبيهات اللطيفة والرتيبة التي لا يكون الطفل مستثنى منها حتى وهو في الرحم (هدهدات عندما تنتقل الأم، دقات قلب الأم، ضجيج مكبوح يرشح من الخارج حتى داخل الجسم)، ويهدهدون الطفل ويدندنون له تهليلات ذات إيقاع رتيب.

٤ - النوم يعيد إنتاج الوضع داخل الرحم

إذا حاولنا أن نتماثل مع الوليد تماثلاً لا يقتصر على المستوى الوجداني، كما يفعل الأشخاص الذين يُعنون به، بل على مستوى الفكر أيضًا، فينبغي لنا أن نسلّم أن صرخات الضيق والهياج لدى الطفل يكوّنان ارتكاسًا يبدو أنه سيّء التكيّف جداً مع **الاضطراب** غير المستساغ الذي يطرأ فجأة، جرّاء الولادة، في وضع الإشباع الذي كان يستمتع به حتى هنا. وانطلاقًا من الملاحظات التي عرضها فرويد في الجزء العام من كتابه **تفسير الأحلام**، بوسعنا أن نفترض أن النتيجة الأولى لهذا الاضطراب كانت **إعادة التوظيف الهلوسي** لحالة الإشباع المفقودة: الوجود الهادئ في حرارة جسم الأم والغبطة فيه. فـ**الرغبة الأولى لدى الطفل** لا يمكنها إذن أن تكون سوى **وجوده من جديد في هذا الوضع**. والأكثر إثارة للفضول إنما هو أن هذه الهلوسة لدى الطفل - شريطة أن يُعنى به عناية طبيعية - تتحقّق بالفعل. فالقوة الكلية لدى الطفل اللامشروطة التي كان يتمتّع بها لم تتغيّر، من وجهة نظره الذاتية إذن، إلا من حيث أن عليه أن يوظّف ما يرغب فيه توظيفًا على النمط الهلوسي (تمثّل) دون أن يكون مرغمًا على أن يغيّر شيئًا في العالم الخارجي حتى يحصل بالفعل على تحقيق رغباته. وكون الطفل ليس لديه بالتأكيد أي فكرة عن تسلسل الأسباب والنتائج الواقعي، ولا عن وجود الأشخاص الذين يُعنون به وعن فاعليتهم، فإنه يُقاد إلى الشعور بأنه يملك قوة سحرية قادرة على أن تحقّق بالفعل رغباته بواسطة مجرد أن يتمثّل إشباعاتها. (مرحلة القوة الكلية الهلوسية السحرية).

ونرى أن الأشخاص الذين يُعهد إليهم أمر العناية بالطفل تكهّنوا جيداً، بنتيجة الانطباع الذي تحدثه فاعليتهم، هلوساته. ومنذ أن يكون الطفل قد تناول المقدار الغذائي، فإنه يهدأ و«ينام». فليس **النوم** الأول إذن سوى **إعادة إنتاج ناجحة للوضع داخل الرحم الذي يقي بقدر ما هو ممكن من الإثارات الخارجية**، وربما تكون الوظيفة البيولوجية تركيز كلية الطاقة على النماء والتجدّد دون أن تصيبه بالاضطراب مهمة ينبغي له تنفيذها. وثمة اعتبارات لا يمكنها أن تُعرض في هذا السياق أقنعتني أن النوم اللاحق نفسه ليس سوى نكوص مرحلي ومتكرّر إلى مرحلة القوة الكلية المطلقة للوضع داخل الرحم. وينبغي لنا، في رأي فرويد، أن نفترض أن كل جهاز حيّ يملك وفق مبدأ اللذة آليات تتيح له أن يفلت من منبّهات الواقع(١١). ويبدو أن النوم والحلم هما الوظيفتان التي تقوم بها هذه الآليات، وبعبارة أخرى آثار القوة الكلية الهلوسية لدى الطفل الصغير التي تستمرّ في حياة الرشد. والمكافئ المرضي لهذا النكوص سيكون الإنجاز الهلوسي للرغبات في الذهان.

٥ - تعلّم الرضيع

بما أن الرغبة في الإشباعات الدافعية تنبعث دوريًا دون أن يكون لدى العالم الخارجي معرفة باللحظة التي ظهر خلالها الدافع، فإن الامتثال الهلوسي لإنجاز الرغبة لم يعد يكفي في الحال إلى أن يؤدّي بالفعل إلى إنجاز الرغبة. وهذا الإنجاز مرتبط بشرط جديد: ينبغي للطفل أن يُنتج بعض **الإشارات**، وبالتالي أن ينفّذ عملاً حركيًا، ولو كان غير مناسب، بغية أن يتعدّل الوضع في اتجاه رغباته، وأن تكون «وحدة الإدراك» المرْضي تالية لـ «وحدة الامتثال»(١٢).

وكانت المرحلة الهلوسية تتميّز سابقًا بظهور تفريغات حركية غير متناسقة (صراخ، هياج) حين كانت حالات وجدانية من اللالذة تنبعث. والطفل يستخدم الآن هذه التفريغات الحركية بوصفها إشارات سحرية يحقق إصدارها بسرعة إدراك

(١١) - «صياغات لمبدأي اللذة والواقع»، مصدر مذكور سابقًا.
(١٢) - فرويد: تفسير الأحلام.

الإشباع (بفضل عون خارجي بالطبع ليس لدى الطفل مع ذلك أي ظن به). وما يستشعره الطفل من الناحية الذاتية خلال هذه السيرورات يشبه على وجه الاحتمال ما يكابده ساحر حقيقي ليس له إلا ينفّذ حركة معيّنة حتى يثير الأحداث الأكثر تعقيداً في العالم الخارجي كما يشاء(١٣).

ولْنلاحظ أن القوة الكلية لدى الموجود الإنساني مرتبطة بـ «شروط» يتنامى عددها بمقدار ما يزداد تعقيد رغباته. وسرعان ما لم تعد هذه المظاهر بفعل التفريغ تكفي لإثارة حالة الإشباع. فالرغبات، التي تتّخذ أشكالاً نوعية أكثر فأكثر بحسب النموّ، تقتضي إشارات متخصّصة موافقة. وتحدث في المستوى الأول ظاهرات هي: محاكاة بالفم لحركات المصّ عندما يرغب الرضيع في التغذية، والمظاهر المميّزة، بواسطة الصوت والتقلّصات البطنية عندما يرغب في التبديل له. ويتعلّم الطفل بالتدريج أيضًا أن يمدّ يده نحو الأشياء التي يشتهيها. وتخرج من ذلك لغة حركية حقيقية: يصبح الطفل قادراً، بفعل تركيب مناسب للحركات، على أن يعبّر عن حاجات نوعية كليًّا، ستكون مشبعة بالفعل على الأغلب؛ بحيث أن الطفل يكون بوسعه - على أن يحترم الشرط الذي يكمن في التعبير عن الرغبة بواسطة

---

(١٣) - إذا بحثت عن مكافئ لهذه التفريغات في علم الأمراض، فإنني أفكر في الصرع الأساسي الأكثر إشكالية من الأعصبة الكبرى. وإذا سلّمت أن من الصعوبة، فيما يخصّ الصرع، فصل الفيزيولوجي عن السيكولوجي، فإنني أتيح لنفسي أن ألفت النظر إلى أن المصابين بالصرع يُعدّون أفراداً «حسّاسين» إلى الحدّ الأقصى، أفراد طواعيتهم تتيح لأتفه عذر أن يبين غيظ وظمأ للسيطرة مخيفان. وكانت سمة الطبع هذه، حتى الوقت الراهن، تفسَّر على وجه العموم أنها مفعول ثانوي، نتيجة أزمات متواترة. ولكن ينبغي لنا أيضًا أن نأخذ بالحسبان إمكانًا آخر: ألا يمكن أن تكون الأزمة الصرعية ضربًا من النكوص إلى مرحلة الطفولة لـ **إنجاز الرغبة بواسطة حركات غير متناسبة**؟ فيكون المصابون بالصرع إذن أفراداً حالاتهم الوجدانية لـلالذة تتراكم وتتفرغ دورياً في أزمات تبلغ حدّها الأقصى. وإذا كان هذا الشرح يبين صحيحًا، فإننا ينبغي لنا نحدّد موقع نقطة التثبيت لإصابة صرعية مستقبلية في هذه المرحلة من التعبيرات غير المتناسقة عن الرغبات. فضرب الأرض بالرجل غير العقلاني، وتشنّج قبضة اليد، وصرير الأسنان، إلخ، التي ترافق انفجار الغضب لدى غالبية الناس، الأسوياء مع ذلك، قد تكون أشكالاً معتدلة من النكوص نفسه.

حركات موافقة - أن يستمرّ في اعتقاده أنه ذو قوة كلية: إنها **مرحلة القوة الكلية بواسطة الحركات السحرية**.

٦ - حركات سحرية تصبح غير ناجعة

لهذه المرحلة أيضًا مكافئ في علم الأمراض. وتتضّح القفزة المدهشة لعالم الفكر في عالم السيرورات الجسمية التي اكتشفها فرويد في **التحوّل الهستيري**(١٤)، إذا تصوّرناها أنها نكوص إلى مرحلة السحر الحركي. والواقع أن الأمات الهستيرية تمثّل، في رأي التحليل النفسي، إنجاز الرغبات المكبوتة بواسطة الحركات. وفي حياة الفرد النفسية السوية، تكون الحركات الخرافية أو المزعومة أنها ناجعة (حركات اللعنة، والتبريك، واليدان المضمومتان للصلاة، إلخ)، المتعذّر إحصاؤها، رواسب تنتمي إلى مرحلة حسّ الواقع حيث كنا ما نزال نشعر أننا أقوياء إلى حد يكفي لنقض النظام الطبيعي للكون بواسطة هذه الحركات غير الناجعة، التي لانرتاب بوجودها والحق يُقال. فالسحرة، والعرّافون، والشفاة بسيّالتهم المغناطيسية، ما يزالون يجدون من يصدّقهم حين يؤكدون هذه السلطة المطلقة لحركاتهم، دون أن ننسى ذلك الذي يحمي نفسه من العين الشرّيرة بحركة رمزية.

ومع تنامي الحاجات كمّا وتعقيداً على حدّ سواء، لن تكثر فحسب «الشروط» التي ينبغي للفرد أن يخضع لها إذا شاء أن يرى حاجاته مشبعة، ولكن ستكثر أيضًا تلك الحالات التي لن تتحقّق فيها رغباته التي تتعاظم جرأتها، حتى لو احترم الشروط التي كانت فيما مضى ناجعة احترامًا بدقة. فاليد الممدودة تعود فارغة على الغالب، والشيء المشتهى لا يلي الحركة السحرية، بل إن قوة خصم لاتُقهر يمكنها أن تعارض بالقوة هذه الحركة وترغم اليد الممدودة على أن تستعيد وضعها السابق. وإذا كان الموجود ذو «القوة الكلية» حينئذ بوسعه أن يشعر أنه واحد مع الكون الذي كان يطيعه ويتبع علاماته، فإن تباينًا مؤلمًا سيحدث شيئًا فشيئًا في

---

(١٤) - انظر أعمال فرويد في **دراسات في الهستيريا**.

كنف معيشه . إنه مرغم على أن يميّز من أناه بعض الأشياء الخبيثة، بوصفها تكوّن **العالم الخارجي**، أشياء تقاوم إرادته، أي مرغم على أن يفصل المحتويات النفسية الذاتية (عواطف) عن المحتويات الموضوعية (انطباعات حسّية). إنني سمّيت من قبلُ **طور الاجتياف** للحياة النفسية أولى هذه المراحل، حيث لا تزال كل التجارب متضمّنة في الأنا، و**طور الإسقاط** الذي يلي الطور الأول(١٥). ويمكن أن يسمّي المرء، وفق هذه المصطلحات، مراحل القوة الكِلية **أطوار الاجتياف** ومرحلة الواقع **طور الإسقاط**، من نموّ الأنا.

وحتى إضفاء الموضوعية على العالم الخارجي لا يقطع دفعة واحدة كل صلة بين الأنا واللاأنا مع ذلك. ومن المؤكد أن الطفل يتعلّم جيداً أن يقنع في أن يتصرّف بجزء واحد فقط من العالم، الأنا، في حين أن الباقي، العالم الخارجي، يقاوم رغباته غالبًا، ولكنه يستمرّ مع ذلك في توظيف العالم الخارجي بصفات اكتشفها في نفسه، أي بصفات الأنا. فكل شيء يدلّ على أن الطفل يعبر **مرحلة إحيائية** في فهمه الواقع، مرحلة يبدو له كل شيء خلالها تدبّ فيه الحياة ويحاول أن يكتشف في كل شيء خلالها أعضاءه الخاصة أو عملها الوظائفي(١٦).

٧ - من الحركة إلى الكلام

أدلى أحدهم يومًا ضدّ التحليل النفسي بملاحظة تهكّمية مفادها أن «اللاشعور» يرى، وفق هذه النظرية، عضو ذكر في كل شيء محدّب وفرجًا أو إستًا في كل شيء مقعّر. وفي رأيي أن هذه القضية تحدّد الأمور تحديداً جيداً جداً. وتحمل الحياة النفسية للطفل (وميل اللاشعور الذي يبقى لدى الراشد) - فيما يخصّ الجسم الخاص - اهتمامًا حصريًّا أول الأمر، وراجحًا فيما بعد، بإشباع دوافعه، وبالاستمتاع الذي تؤمّنه له وظائف البراز وفاعليات أخرى كمصّ المناطق المثيرة للغلمة، وأكلها، ولمسها. وليس ثمة ما يثير الدهشة أن تسترعي انتباهَه أول

(١٥) - انظر «الاجتياف والتحويل»، ١٩٠٩، فورنزي، **مصدر مذكور سابقًا**، المجلد١.

(١٦) انظر، عن الإحيائية، محاولة ساش «عاطفة الطبيعة»، في مجلة الصورة الذهنية المثالية، ١، ١٩١٢.

الأمر أشياءُ العالم الخارجي وسيروراته، التي تذكّره، بسبب تشابه ولو بعيد، بتجاربه الأعزّ عليه.

وهكذا تقوم هذه العلاقات العميقة، الدائمة كل الحياة، بين الجسم الإنساني وعالم الموضوعات، علاقات نسمّيها **العلاقات الرمزية**. وفي هذه المرحلة، لا يرى الطفل في العالم سوى إعادة إنتاج جسمانيته ويتعلّم من جهة أخرى أن يمثّل كل تنوّع العالم الخارجي. وهذه القابلية، قابلية الجسم للتمثيل الرمزي، تمثّل إتقاناً ذا أهمية للغة الحركية: إنها تتيح للطفل ألا يشير فقط إلى الرغبات التي تخصّ مباشرة جسمه، بل أن يعبّر عن رغباته ذات العلاقة بتعديل العالم الخارجي، الذي يُعترف به بوصفه كذلك من الآن فصاعداً. وإذا كانت العناية بالطفل مصحوبة بالحب، فإنه لا يكون مرغماً، حتى في هذه المرحلة من وجوده، على أن يهجر وهمه بالقوة الكلية. وحسبه أيضاً أن يمثّل تمثيلاً رمزياً موضوعاً من الموضوعات حتى «يأتي» إليه الشيء (الذي يعتبره ذا حياة) في عدد كبير من الحالات؛ إنه، دون ريب، الانطباع الذي يشعر به الطفل في هذا الطور من الفكر الإحيائي عندما تكون رغباته مشبعة، وتجعله الريبية فيما يتعلّق بظهور الإشباع يستشعر مع ذلك تدريجيّاً أن ثمة أيضاً قوى عليا، «إلهية» (أم أو مرضعة) ينبغي له أن يفوز بنعهما الطيّبة حتى يلي الإشباع بسرعة الحركة السحرية. ولكن الإشباع يحصل بسهولة، وعلى وجه الخصوص مع محيط يتميّز بالتساهل.

إحدى «الوسائل» المادية التي يستخدمها الطفل لتمثيل رغباته والموضوعات التي يشتهيها تكتسب عندئذ أهمية خاصة ستتغلب على الأنماط الأخرى من التمثّل، أي اللغة. واللغة، في البدء، هي المحاكاة، أي إعادة إنتاج صوتي للأصوات والضجّات التي تُحدثها الأشياء أو الحادثة بـ«واسطتها»؛ فمهارة أعضاء التصويت تتيح أن تعيد إنتاج تنوّع كبير جداً من الأشياء وسيرورات العالم الخارجي، وذلك على نحو أسهل كثيراً من اللغة الحركية. وتحلّ الرمزية اللفظية إذن محلّ الرمزية الحركية: بعض المجموعات من الأصوات يوضع في علاقة ترابطية

وثيقة مع أشياء وسيرورات معيّنة، بل تكون **متوحّدة** معها تدريجيًّا. وتلك هي نقطة انطلاق لتقدّم ذي أهمية: يصبح **التمثيل** الشاقّ بالصورة **والمسرحة** الدرامية، الأصعب أيضًا، غير مجديتين؛ فتصوّر هذه المجموعات من الظاهرات التي تُسمّى الكلمات وتمثّلها، يتيحان نسخة أكثر اقتصادية ودقة للرغبات. وتجعل الرمزية اللفظية في الوقت نفسه الفكر الواعي ممكنًا من حيث أنها تمنح السيرورات الفكرية، اللاشعورية في ذاتها، صفات يمكن أن تُدرك، إذ ترتبط بها(١٧).

٨ – عاطفة الدونية تخفي على الغالب عاطفة من القوة الكلية المفرطة

الفكر الواعي بواسطة العلامات اللفظية هو الإنجاز الأسمى إذن للجهاز النفسي، وهو الوحيد الذي يتيح التكيّف مع الواقع إذ يؤخّر التفريغ الحركي المنعكس وتحرير اللالذة، ويتوصّل الطفل، على الرغم من كل شيء، إلى أن يحتفظ، حتى في هذه المرحلة من النموّ، بعاطفته، عاطفة القوة الكلية. والواقع أن الرغبات التي يتصورّها الطفل على شكل أفكار ما تزال من قلّة العدد وضعف التعقيد نسبيًّا بحيث أن من يحيطون به، المنتبهين والحريصين على راحته، يفلحون بسهولة في أن يتكهّنوا غالبية هذه الأفكار. وتسهّل الإيماءات التي ترافق الفكرة على وجه العموم (وبخاصة لدى الطفل) تسهيلاً كبيراً على الراشدين هذا النوع من قراءة الأفكار. وإذا كان الطفل، علاوة على ذلك، يصوغ رغباته في كلمات، فإن المخلصين الذين يحيطون به يبادرون بأسرع ما يمكن لتحقيقها. أما الطفل، فإنه يعتقد فعلاً أنه يملك سلطات سحرية، إنه موجود في **مرحلة الأفكار والكلمات السحرية**(١٨).

وفي هذه المرحلة من حسّ الواقع إنما يبدو أن العصابيين الموسوسين ينكصون إليها، هؤلاء العصابيون الذين لا يمكنهم أن يتخلّصوا من عاطفة القوة الكلية،

(١٧) – س. فرويد، **تفسير الأحلام**.

(١٨) – لا يستبعد التفسير السيكولوجي لـ «السحر»، بالطبع، **إمكان** أن يوجد أيضًا، في هذا الاعتقاد، هاجس بوقائع مادية (تخاطر، إلخ).

والذين يضعون الفكرة مكان العمل كما بيّن فرويد ذلك. وفي الاعتقاد الخرافي، يؤدّي السحر، والعبادة الدينية، والإيمان بالقوة، المتعذّرة مقاومتها، لبعض الصلوات، واللعنات والصيغ السحرية - يكفي التفكير فيها داخليًّا أو لفظها بصوت عال حتى تُحدث مفعولها - دورًا كبيرًا[١٩].

وجنون العظمة هذا، غير القابل للشفاء تقريبًا لدى الموجود الإنساني، لايكذّبه إلا في الظاهر بعض العصابين، الذين تبين بسرعة متابعتهم الحامية للنجاح أنها تحجب عاطفة دونية (أدلر) يعرفها المرضى أنفسهم معرفة جيّدة. وفي كل الحالات من هذا النوع، يبيّن التحليل في الأعماق أن هذه العواطف من الدونية، التي لاتكوّن الشرح النهائي للعصاب على الإطلاق، هي ارتكاسات من قبلُ على **عاطفة** مغالية من القوة الكلية التي تثبّت عليها المرضى في طفولتهم الأولى والتي تمنعهم، فيما بعد، من أن يتحمّلوا أي إحباط. وليس الطموح **الظاهر** لهؤلاء الأشخاص سوى «عودة المكبوت»، محاولة يائسة هدفها أن يسترجعوا، إذ يغيّرون العالم الخارجي، تلك القوة الكلية التي كانوا يتمتّعون بها في البدء دون بذل أي جهد.

وليس بوسعنا إلا أن نكرّر: كل الأطفال يعيشون في الوهم السعيد، وهم القوة الكلية التي أفادوا منه في الزمن الغابر - ولم يكن ذلك إلا في رحم الأم. ويُناط بـ «شيطانهم أو «برجهم الفلكي» أمر القدرة على الاحتفاظ بهذه العواطف من القوة الكلية خلال حياتهم ويصبحون **متفائلين**، أو سيضخّمون عدد **المتشائمين** الذين لا يقبلون أبدًا أن يتخلّوا عن رغباتهم اللاشعورية واللاعقلانية، ويشعرون بالإهانة والنبذ لأوهى سبب، ويعدّون أنفسهم أطفالاً لا ينصفهم القدر - لأنهم لايمكنهم أن يظلّوا **أطفاله الوحيدين أو الأثيرين**.

---

(١٩) - هذه «القوة الكلية» («قوة حركية») تميّز أيضًا تمييزًا كبيرًا كلمات فاحشة. انظر مقالي «الكلمة الفاحشة»، **مصدر مذكور سابقًا**، المجلد١.

٩ - حسّ الواقع المقابل للبارانويا

عندما ينفصل الطفل انفصالاً كاملاً عن أبويه على المستوى النفسي، عند ذلك فقط إنما يتوقّف، يقول فرويد، عهد مبدأ اللذة. وفي هذه المدّة نفسها أيضًا، المتغيّرة تغيّراً كبيراً وفق الحالات، إنما تتخلّى عاطفة القوة الكلية عن مكانها للاعتراف الكامل بعبء الظروف. ويبلغ حسّ الواقع ذروته في العلم حيث يسقط وهم القوة الكلية، على العكس، إلى مستواه الأدنى؛ وتنحلّ القوة الكلية القديمة هنا إلى «شروط» فقط (الشرطية، التقيّدية). ونجد مع ذلك في نظرية الحرية المطلقة مذهبًا فلسفيًّا تفاؤليًّا يحقّق أيضًا استيهامات القوة الكلية.

والاعتراف أن رغباتنا وأفكارنا مشروطة يعني الحدّ الأقصى من **الإسقاط** السوي، أي من إضفاء الموضوعية. وثمة أيضًا مرض نفسي، **الذهان الهذائي** (بارانويا)، يتميّز من أمراض أخرى بواقع مفاده إرجاع المرء المصاب به أفكاره الخاصة ورغباته إلى العالم الخارجي وإسقاطها عليه(٢٠). وبوسعنا، على ما يبدو، أن نحدّد موقع نقطة التثبيت لهذا الذهان في عصر التخلّي النهائي عن القوة الكلية، أي في طور إسقاط حسّ الواقع.

١٠ - العودة إلى مرحلة الحركة السحرية في العصاب

لم نعرض حتى الآن مراحل النمو لحسّ الواقع إلا بلغة الدوافع الأنانية، التي تسمّى «دوافع الأنا» وهي في خدمة المحافظة الذاتية على البقاء؛ والواقع أن للواقع على وجه الضبط، كما أكّد فرويد، علاقات مع الأنا أعمق من علاقاته بالجنسية، والسبب، من جهة، أن الجنسية أكثر استقلالاً عن العالم الخارجي (إنها يمكنها خلال زمن طويل أن تحصل على الإشباع على نمط الغلمة الذاتية، ولأنها من جهة أخرى مقموعة في أثناء مرحلة الكمون ولا تقيم أي اتصال مع الواقع). فالجنسية

---

(٢٠) - فرويد: نُفاسات الدفاع، (المجلد ١). فرويد: «ملاحظات تحليلية نفسية عن حالة من الذهان الهذائي (بارانويا) (**خمس حالات من التحليل النفسي** (المنشورات الجامعية الفرنسية). فورنزي: «دور الجنسية المثلية في النشوء المرضي للذهان الهذائي».

تظلّ إذن طوال الحياة أكثر خضوعاً لمبدأ اللذة، في حين أن الأنا تعاني في الحال خيبة أكثر مرارة من خيبات الأمل حين تجهل الواقع[٢١]. فإذا فحصنا الآن من زاوية **النموّ الجنسي عاطفة القوة الكلية** التي تميّز المرحلة - اللذة، فإننا نلاحظ أن **مرحلة القوة الكلية اللامشروطة** هنا تدوم حتى تُهجر أنماط الإشباع الغلمي الذاتي، في حين أن الأنا في هذا العصر تكون قد تكيّفت منذ زمن طويل مع شروط الواقع التي تزداد تعقيداً، وبعد أن تكون قد تجاوزت مراحل الحركات والكلمات السحرية، تكون الآن قد توصّلت على وجه التقريب إلى الاعتراف بالقوة الكلية لقوى الطبيعة. فالغلميةالذاتية والنرجسية هما إذن **مرحلتا القوة الكلية للغلمة**؛ وبما أن النرجسية لا تتوقّف أبداً، ولكنها تبقى دائماً إلى جانب الغلمة ذات العلاقة بالموضوع، فإن بوسعنا أن نقول - من حيث يقتصر المرء على أن يحب ذاته - إن بإمكاننا في مجال الحب أن نحتفظ طوال الحياة بوهم القوة الكلية. وكون سبيل النرجسية هي أيضاً درب النكوص، الذي يظلّ دائماً سهل المنال بعد كل خيبة أمل يفرضها موضوع الحب، ذلك أمر أشهر من أن يكون علينا أن نبرهن عليه. وبوسعنا، في أعراض البارافرينيا والهستيريا(*)، أن نفترض ضروباً من النكوص غلمية ذاتية ونرجسية، في حين أننا سنجد على وجه الاحتمال نقاط التثبيت للعصاب الوسواسي والذهان الهذائي (بارانويا) في مستوى من مستويات «الواقع الغلمي» (**ضرورة وجود موضوع**).

وهذه العلاقات لم تكن بعدُ، والحق يُقال، قد دُرست دراسة كافية بالنسبة لكل الأعصبة وينبغي لنا، بالتالي، أن نكتفي، فيما يخصّ **اختيار العصاب**، بصياغة فرويد العامة التي يتحدّد بحسبها نموذج الاضطراب اللاحق تبعاً لـ «طور نموّ الأنا والليبيدو حيث يحدث كفّ النمو، الذي يهيّئ مسبقاً للعصاب».

ولكن بوسعنا الآن أن نحاول إكمال هذه القضية بقضية ثانية. إنَ **فحوى**

---

(٢١) - «صياغات لمبدأي اللذة والواقع»، **مصدر مذكور سابقاً**، المجلد١.

(*) - انظر معنيي هذين المصطلحين في «المعجم الموسوعي لعلم النفس»، ترجمة وجيه أسعد، نشر وزارة الثقافة، دمشق.

العصاب **من ناحية الرغبات**، أعني الأنماط والأهداف الغلمية التي تمثّلها الأعراض بوصفها متحققّة، ذو علاقة بالطور الذي كان **نموّ الليبيدو** موجوداً فيه حينما حدث التثبيت؛ أما **آلية الأعصبة**، فإن من المحتمل أن تحدّدها مُرحلة **نموّ الأنا** التي كان الفرد موجوداً فيها خلال مدّة الكفّ المهيّأ للعصاب. وبوسعنا تماماً، من جهة أخرى، أن نتخيّل أن المرحلة التطوّرية لحسّ الواقع التي كانت سائدة خلال التثبيت تنبعث مجدّداً في آليات تكوين العصاب عندما يكون ثمة نكوص لليبيدو إلى مراحل سابقة. وبما أن أنا العصابي الراهنة لا تفهم هذا النمط القديم من «اختبار الواقع»، فليس ثمة ما يمنع أن يكون هذا النمط موضوعاً في خدمة الكبت، ويصلح لتمثيل مركّبات الأفكار والحالات الوجدانية المراقبة. وتكون الهستيريا والعصاب الوسواسي، وفق هذا التصورّ، على سبيل المثال، متّصفين، من جهة، بنكوص الليبيدو إلى مراحل سابقة من التطوّر (الغلمة الذاتية - الأوديبية)، ومن جهة ثانية، ممتّصفين، من حيث **آلياتهما**، بعودة حسّ الواقع إلى مرحلة الحركات السحرية (التحوّل) أو **الأفكار السحرية (القوة الكلية للفكرة)**. فلنكرّر: ثمة أيضاً كثير مما ينبغي فعله قبل نحدّد بيقين نقاط التثبيت لكل الأعصبة. وفيما يخصّ ما سبق، كنت أريد فقط أن أذكر حلاّ ممكناً - حلاّ معقولاً في رأيي.

١١ - «نبوءة علمية»: نموّ حسّ الواقع خلال العصور

أما فيما يخصّ ما نفترضه عن **النشوء النوعي** لحسّ الواقع، فالأمر لا يتعدّى النبوءة العلمية حاليًّا. ولا ريب في أن الإنسان سيفلح يوماً من الأيام في مقارنة المراحل المختلفة لتطورّ الأنا، كذلك لنماذجها العصابية في النكوص، والمراحل التي سلكها تاريخ النوع الإنساني، تماماً كما اكتشف فرويد، على سبيل المثال، سمات طبع العصابيين الموسوسين في الحياة النفسية لدى المتوحّشين(٢٢).

ويبدو نموّ حسّ الواقع، على وجه العموم، بوصفه مجموعة من هبّات

---

(٢٢) - فرويد، **الطوطم والتابو**. «بعض الملاحظات عن الحياة النفسية لدى المتوحشين وعن أعصبتهم»، ١٩١٢، ١٩١٣ (بيّو).

الكبت المتتالية، التي يكون الموجود الإنساني مرغماً عليها بفعل الضرورة، بفعل الإحباط الذي يقتضي التكيّف، وليس بفعل «ميول للتطوّر» عفوية. والكبت الأول الكبير أصبح ضرورياً بفعل سيرورة الولادة التي تحدث بالتأكيد دون الإسهام الفاعل من جانب الطفل ودون أن يقصد ذلك. ويؤثر الجنين إيثاراً شديداً أن يبقى أيضاً في غبطة جسم الأم، ولكنه يوضع في العالم وضعاً دون رحمة، وعليه أن ينسى (يكبت) أنماط إشباعه المفضّلة، وأن يتكيّف مع أنماط أخرى من الإشباع. وتتكرّر اللعبة القاسية في كل مرحلة جديدة من النمو"(٢٣).

وربما يمكننا أن نجازف بالفرض الذي مفاده أن التغيّرات الجيولوجية للقشرة الأرضية، ونتائجها الكارثية على أسلاف النوع الإنساني، هي التي أرغمت على كبت العادات المفضّلة وعلى «التطوّر». ومن الممكن أن تكون هذه الكوارث قد كوّنت نقاط كبت في تاريخ تطوّر النوع، وأن تكون شدتها وتموضعها في الزمن قد حدّدا طبع النوع وأعصبته. فطبع النوع هو، وفق ملاحظة أبداها فرويد، راسب تاريخ النوع. وبما أننا جازفنا الآن بعيداً جداً في حقل المعارف غير اليقينية، فلْنمتنع عن أن نتراجع أمام مماثلة أخيرة، ولْنربط هبّة الكبت الفردي الكبيرة، **مرحلة الكون**، بعلاقة مع الكارثة الأخيرة الأكبر بين الكوارث، تلك التي نزلت على أسلافنا (في عصر حيث كانت موجودات إنسانية موجودة بالتأكيد على الأرض)، مع نكبة **العهد الجليدي** التي ما زلنا نكرّرها تكراراً أميناً في حياتنا الفردية(٢٤).

(٢٣) - ينبغي لنا، إذا مضينا إلى نهاية هذا الاستدلال، أن نأخذ بالحسبان ميلاً إلى العطالة أو ميلاً إلى النكوص الذي يسود حتى الحياة العضوية؛ الميل إلى التطوّر، إلى التكيّف، إلخ، ذو علاقة فقط بالمنبهات الخارجية.

(٢٤) يبدو أن الحالات التي يسبق التطوّر فيها الحاجات الواقعية تكذّب الفرض الذي مفاده أن هجر الآليات المألوفة (التطوّر) لا يسبّبه ميل عفوي، بل يسبّبه على وجه الحصر إرغام خارجي. والمثال على ذلك نموّ الآلية التنفّسية للحياة داخل الرحم. ولكن ذلك لا يحدث في التطور الفردي، ذلك أمر يمكننا أن نحسبه الآن تلخيص سيرورة تطوّرية تقودها الضرورة في تاريخ النوع. وليست التمرينات اللعبية لدى الحيوانات (غروس) بداءات وظيفة مستقبلية من وظائف النوع، بل هي ضروب من تكرار قابليات مكتسبة من ناحية تطوّر النوع. إنها إذن تفسح مجالاً لشرح محض سببي وتاريخي، ولا تفضي بالضرورة إلى وجهة نظر غائية.

١٢ - القصص تخلق الفردوس المفقود خلقًا جديدًا

هذه الرغبة الجارفة في معرفة كل شيء، التي قادتني في هذا المقطع الأخير صوب الأبعاد الخرافية للماضي، وجعلتني أتجاوز بعون ضروب من المماثلات ما لايزال يفلت منا، وتعيدني إلى نقطة الانطلاق من هذه الاهتمامات: إلى مشكل ذروة عاطفة القوة الكلية وانحسارها. فالعلم ينبغي له، كما قلنا، أن يتخلّى عن هذا الوهم، أو على الأقلّ أن يعرف دائمًا في أي مرحلة ينفذ إلى مجال الفروض والتخيّلات. وتستمرّ بالمقابل استيهامات القوة الكلية، في القصص، في أن تسود سيادة كلية(٢٥). وحيث ينبغي لنا أن ننحني بتواضع أمام قوى الطبيعة، تأتي القصة لنجدتنا مع موضوعاتها النمطية. والواقع أننا ضعفاء، وسيكون إذن أبطال القصة أقوياء ولا يقهرون؛ إننا محدودون بالزمان والمكان في فاعليتنا ومعرفتنا: نعيش في القصص عيشًا أبديًا، ونحن موجودون في ألف مكان معًا، ونتبأ بالمستقبل ونعرف الماضي. والجاذبية الأرضية، وصلابة المادة وتعذّر النفوذ إليها، تكوّن في كل لحظة عوائق على دربنا، ولكن للإنسان، في القصص، جانحين، ونظرته تثقب الجدران، وعصاه السحرية تفتح له كل الأبواب. فالواقع معركة شاقّة من أجل الوجود: ويكفي في القصة أن يلفظ بعض الكلام السحري: «ليكن لك، أيتها الطاولة، غطاؤك»! إننا نعيش في خوف دائم من أن تهاجمنا بهائم خطرة أو أعداء مفترسون: يتيح الرداء السحري في القصة كل التحولات ويضعنا بسرعة في منجى من أي خطر؛ كم يكون من الصعب في الواقع أن يبلغ المرء حبًا يشبع كل رغباتنا: بطل القصة لا يُقاوم، أو أنه يأسر أيًا كان بحركة سحرية.

وهكذا فإن القصة، التي يقصّ الراشدون فيها عن طيب خاطر على أطفالهم رغباتهم الخاصة غير المشبعة والمكبوتة، تمنح في الحقيقة تمثيلاً فنيًا في غاية الروعة لوضع القوة الكلية المفقود.

ساندور فورنزي

---

(٢٥) - انظر ريكأن: «الرمزية وإنجاز الرغبات في القصص».

الفصـل الثاني

في نُوى الأنـا

مقدّمـة:

الانغليزي إدوار غلوفر، الذي كان كارل أبراهام قد حلّله تحليلاً نفسيًا، تصوّر، بين ما تصوّر، فرضًا أصيلاً لتكوّن الأنا - يقول فيه هنا، مع ذلك، إنه كان ضربًا من الإخفاق في البداية...

وفي رأيه أن الأنا البدئية تتكوّن من «نوى» متعدّدة يسم توحيدها التدريجي ضروب تقدّم الأنا. وكان غلوفر يحاول، في نص يسبق النص الذي نعرضه سبقًا زمنيًا، أن يصنّف الاضطرابات العقلية إذ يعيدها إلى خلل طارئ في تكوّن نوى الأنا وتوحيدها. ويستأنف هذه الفكرة، مستوحيًا في الوقت نفسه أيضًا من مقال خصّصه فورنزي في الفصل السابق لنموّ حسّ الواقع.

وهاجس المنهجية الذي يبعث فيه النشاط، بغية توضيح ظاهرات في منتهى التعقيد، لا ينبغي أن يُنسينا أن هذا المؤلف، ذا الفكرة القاطعة ولكنها الصعبة، أدى دورًا ذا أهمية في الحركة التحليلية.

وكان في ذلك منظّرًا لامعًا. وإذ انضمّ في البدء إلى المدرسة الكلاينية، فإنه تحيّز بعنف فيما بعد ضدّ مؤسّستها التي كان كارل أبراهام قد حلّلها هي أيضًا...

النص

إنني صَغت، إذ تكلمت في مكان آخر عن محاولاتي الأولى الهادفة إلى إقامة ارتباط بين تصنيف الاضطرابات العقلية وسلسلة تكونات الأنا[1]، والهادفة أيضًا إلى أن تحدّد، في نهايات عملنا، في أي شيء يكمن تكوين نووي، عددًا معيّنًا من الاعتراضات والانتقادات لأطروحاتي الخاصة، كما كنت قد نشرتها عام ١٩٣٢. وسيتبيّن القارئ على وجه السرعة أن أحد الاعتراضات الرئيسة لهذه المنظومة الناتج عن واقع مفاده أن تصنيفي حالات الاضطراب كانت غير كاملة على نحو منافٍ للعقل. وكنت قد نسيت على سبيل المثال (باستثناء وهم منفصل عن سياق الكفّ الجنسي) تلك التشكيلة الكاملة للاضطرابات الجنسية لا سيّما الانحرافات التي تكوّن، في الواقع، أحد المجالات الكبيرة لتطبيق التحليل النفسي في العلاج. فأي نظرية لتكوين الأنا النووي لا يمكنها أن تُعدّ مرْضية إذا لم تذكر الدور الذي تؤدّيه التكوينات في الانحرافات الجنسية. وكان من المهمّ، بالنظر إلى أن اختبار الواقع وظيفة من الوظائف التي كانت تُسمّى «الأنا الواقع»[2]، أن نرى إلى أي حدّ كانت التكونات البدئية للأنا تمارس هذه الوظيفة، وإذا كانت ممارسة هذه الوظيفة على أنحاء شتّى وفي إجراءات شتى. وهكذا عرضت خلال العام نفسه مداخلة تناولت «العلاقة بين تكوّن الانحرافات وحسّ الواقع»[3].

١ - صعوبة على التحليل النفسي: ترتيب الانحرافات

ومن المؤكد أن الضرورة كانت تقضي أن ندرس أول الأمر نتائج الانحراف

(١) - إ. غلوفر: **ولادة الأنا**، ص. ٢٤-٣٠ (جورج ألن، ٢٩٦٨). والطبعة الفرنسية لهذا الكتاب ظهرت عام ١٩٧٩، دار نشر بريفا في تولوز بالعنوان نفسه.

(٢) - المقابلة بين «الأنا - لذة» و «الأنا -واقع» تابعة لتأسيس مبدأ الواقع (ملاحظة لجنة الإشراف).

(٣) - إ. غلوفر «في العلاقة بين تكوين الانحرافات وتطور حسّ الواقع» مقال أكملته مداخلة وعُرضت في المؤتمر الثاني عشر للتحليل النفسي بوسْبادن، (٧ سبتمبر - أيلول ١٩٣٢). ونُشر في **صحيفة التحليل النفسي العالمية**، ١٩٣٣، مجلد XIV، وأعيدت طباعته في كتاب **التطور المبكّر للنفس**، نشر إيماغو (حاليًّا ألن وإنْوِن، لندن).

الجنسي ونرى كيف كان ممكنًا أن ننظّمها في ترتيب قائم على نموّها، بهدف وضعها في ارتباط مع تصنيف الاضطرابات العقلية ونموّ نوى الأنا التسلسلي المعروضة من قبل بوصفها مسلّمات. وفيما يخصّ المسألة الأولى كان تنضيد الانحرافات قد اقترحه من قبل ساش منذ عام ١٩٢٣ (٤) منطلقًا من مبدأ مفاده أن الكبت سيرورة تسلسلية. وكان رانك يعتقد، هو أيضًا (٥)، أن مجموعة الانحرافات تنطوي على عدة مسافات تطوّرية ذات علاقة بالمنظومات النفسية، أو بالأماكن المقابلة. ولم يكن فينيشل (٦)، على العكس، يعتقد أن ثمة إمكانًا لوضع تصنيف مقابل لتصنيف الأعصبة، جرّاء الغياب، في الانحرافات، لعنصر التشوّه الذي يميّز الأعصبة ويجعل تصنيفها ممكنًا. وينبغي تمامًا أن نسلّم أننا عندما ندرس التكوّنات المنحرفة (أو المنظومات الاستيهامية- تكوّنات الرغبات المنحرفة) التي تبدو في الذهانات، الأعصبة أو اضطرابات الطبع الخاصة بها، نكتشف في بعض الأحيان أن التكوّنات المنحرفة التي ترافقها حالات كالذهانات واضطرابات الطبع العميقة - المعتبرة على وجه العموم أنها ذات جذور «عميقة» - هي من نموذج خفيف نسبيًّا (متأخر، منظّم). وثمة بالمقابل بعض الانحرافات، التي ترافق في بعض الأحيان الأعصبة واضطرابات الطبع المقابلة، تكون «عميقة» ومتعدّدة الأشكال. وبوسعنا بالتأكيد أن نكتشف درجات شتّى، وتنوّعات مختلفة من الانحراف ذات ارتباط بتكوّنات للأنا تبدو سوية.

وهكذا فإن المهمة التي تكمن في وضع تصنيف تسلسلي للانحرفات لن يكون يسيرًا. ولكن ذلك لم يكن يعني أنه كان متعذّرًا. وثمة عنصر، يُضاف إلى اللبس إضافة فريدة، كان مصدره تعميم فرويد الذي مفاده أن العصاب يكوّن النسخة السلبية للانحراف. و«هذا، كنت أقول، يظلّ صحيحًا بعمق، ولكن بمعنى

(٤) - ساش، «في نشوء الانحرافات»، **المجلة العالمية للتحليل النفسي**، ١٩٢٣، مجلّد IX، ص ١٧٣.

((٥) -رانك، «الانحراف والعصاب»، **المجلة العالمية للتحليل النفسي**، ١٩٢٢، مجلّد VIII، ص. ٣٩٧.

(٦) - فينيشل، «الانحرافات، الذهانات، اضطرابات الطبع»، **مجلة التحليل النفسي العالمية**، فبرلاغ، ١٩٣١ (مقال منشور للمرة الأولى في بريطانيا العظمى، بعنوان **نظرية التحليل النفسي للعصاب**)، لندن، كيغان بول، ١٩٤٦.

محدود على وجه الدقة . . . وعلينا الآن أن نضيف أن بعض الانحرافات تكوّن النسخة السلبية لبعض التكوّنات الذهانية وانحرافات أخرى تكوّن النسخة السلبية لحالات ذهانية انتقالية» . وهذه القائمة من الارتباطات كان ممكنًا أن تطول وتضمّ تشكيلة الحالات الانتقالية الحقيقية (كهوس الإدمان على المخدرات مثلاً) وتضمّ بالطبع اضطرابات الطبع المقابلة . والخلاصة ، «**يبدو محتملاً أن الانحرافات تنطوي على مجموعة مرتبّة من التمايزات - فيما يخصّ الهدف وكمال الموضوع على حدّ سواء - ولكن هذا الترتيب التطوري يوازي ترتيب الذهانات، والحالات الانتقالية، والأعصبة، وضروب الكفّ الاجتماعية**» .

٢ - تكوّنات الأنا في أصل الانحرافات

حاولت أول الأمر ، منطلقًا من هذه المقدمة الكبرى ، أن أدرج الانحرافات ، بواسطة المدّ الاستقرائي ، في أماكن شتّى من تصنيف حالات الأعراض ، وأن أُدخل ، في أعقاب ذهانات ، تلك الانحرافات التي يُفترض أنها ذات ارتباط بها . ثم تناولت ضروب الإدمان على السموم ، بوصفها حالات انتقالية ، وأدخلت الانحرافات الأقلّ بدئية والمنطوية أيضًا على سمة متعدّدة الأشكال ؛ وتابعت مع الأعصبة الوسواسية إذ أدرجت هنا الفيتيشيات ، والانحرافات الجنسية المثْلية المنظّمة ، لأنتهي بضروب الهستيريا والرهابات ، حيث تكون العناصر المنحرفة أكثر عرضة ، مع أنها ظاهرة ، للكبت وتفسح المجال ، على وجه العموم ، إلى ضروب جنسية من الكفّ وضروب من الحصر الاجتماعي . وإذ وصلت إلى هذه المرحلة ، تبيّنت مع ذلك أن أسلوب المدّ الاستقرائي لم يكن قط مرْضيًا واستنتجت من ذلك أن تصنيف الانحرافات المنفصل ، على نحو موازٍ لتصنيف الأعراض ، كان ضروريًّا . ويتيح ذلك أن نتجنّب الاعتراض الذي مفاده - فيما يتعلّق بتكوّنات الأنا ولا سيّما نوى الأنا - أن يكون ممكنًا لتكوين واحد ووحيد أن يكون جلّه السبب لانحراف ولحالة عرَض .

ومن هنا إنما استخلصت ، فيما يتعلّق بالأساسيّ ، مادة مداخلتي . فكيف

يمكن أن نقيّم عوامل الأنا وتمايزاتها انطلاقًا من انحرافات؟ كان واضحًا أن واحدًا من التقييمات الأكثر أهمية ذات علاقة بالدرجات المختلفة لحسّ الواقع المقابل للمراحل المختلفة. وهذه المقاربة - أي تمايز أطوار حسّ الواقع - لم يكن ثمة بدّ لها مع ذلك من أن تدعها وسائل أخرى، بالنظر إلى أن الأكثر سهولة في التطبيق هو تمايز التكوّنات الاستيهامية (**اللاشعور، قبل الشعور، الشعور**، التي يستنجد الاثنان الأولان منها بالترابط والتفسير معًا). وكانت المقاربة الثالثة تكمن على نحو أساسي في منظور دينامي يأخذ بالحسبان تغيّرات في الطبيعة، شدّة التجارب الانفعالية ودوامها، ولا سيّما درجات السيطرة على الحصر والإثمية.

٣ - صوب فرض لأنا مبكّرة

كل مقاربة من هذه المقاربات الثلاث عرضة بالطبع لعدد معيّن من التحفّظات ولا يلبث عدد كبير من التحفظات أن يولّد اعتراضات وضروب من الرفض. وبوسعنا أن نعزو على نحو رئيس هذه الصعوبات، وهذه التعقيدات إلى تأثير عوامل النكوص الاقتصادية، والانزياح وسيرورات أولّية أخرى. فنظم الأنا، والنظم الاستيهامية يمكنها أن تنزاح إلى الأمام أو إلى الوراء، وهي تغيّر في الوقت نفسه، من زمن إلى آخر، ما يخصّ التوظيف وبلوغ الوعي على حدّ سواء؛ ولهذا السبب، يمكن أن يحجب نظام نظامًا آخر. وكان بعبع التحليل النفسي دائمًا ضرورة أن يقوم تمييز، في مجال الزمن والمحتوى، بين تثبيت ونكوص غير مستقرّ، دفاعي أو وفق الظروف، أو ارتقاء غير مستقرّ أيضًا. وذلك أمر يمكننا أن نجيب عنه فقط أن التقييمات من هذا النوع تقتضي كثيرًا من البصيرة والأكثر ما يمكن من التجربة.

فلنقل قولاً عابرًا إن ما شجّعني على أن أُقيم ارتباطًا بين الانحرافات وأطوار واضحة من تطوّر الأنا هو دراسة محاولة قام بها فورنْزي سابقًا بغية تحديد المراحل في نموّ حسّ الواقع[7]، بقدر ما شجعتني هذه الدراسة على أن أُقيم ارتباطات،

---

(٧) - فورنزي، **مداخلة في التحليل النفسي**؛ الترجمة الانغليزية بوسطون، بادجر، ١٩١٦ (الترجمة الفرنسية: المؤلفات الكاملة، المجلّد ٢، بيّو؛ انظر الفصل السابق).

لابين المراحل والأطوار الليبيدية الدقيقة فحسب، بل بين بعض الأطوار التطوّرية لحسّ الواقع والحالات السيكولوجية المرضية النوعية. مثل ذلك أن فورنزي لم يكن يربط ما كان يسمّيه «طور القوة الكلية اللامشروطة» لدى الطفل (الطور البدئي للأنا) بالطور «الفموي» للنموّ الليبيدي فحسب، ولكنه كان أيضًا يربط «الأطوار السحرية» لتطوّر الأنا (الأطوار السحرية البدئية أيضًا) ببعض المظاهر الوسواسية. وكانت هذه الصياغات ذات أهمية من وجهتي نظر: الأولى أن ثمة ارتباطًا كان قد أُقيم، والثانية أن ثمة تباينًا بارزًا بين نكوص الأنا ونكوص الليبيدو في الأعصبة الوسواسية، إذا افترضنا أن الارتباط (القائم على فروض مستمدّة من دراسة سلوكية[٨] **للأطفال الصغار** وللآليات الذهنية التي لوحظت في تحليل الراشدين) كان صحيحًا. ونقول، بعبارة أخرى، إن أنا الفرد المصاب بالوسواس كانت في مراحل مبكّرة من النموّ، في حين أن التثبيت الليبيدي للمصاب بالعصاب الوسواسي كان ينتمي، وفق الفروض المقبولة في ذلك العصر، إلى نموذج لاحق كثيرًا (المرحلة السادية الشرجية). أضف إلى ذلك أن ظهور الأعصبة الوسواسية كان يُعدّ في ذلك العصر أكثر تأخّرًا أيضًا. وإذا كان ترتيب الدرجات في حسّ الواقع، الذي اقترحه فورنزي، صحيحًا، فإنه لم يكن ثمة بدّ لنا من أن نجد، في الطفولة الأولى، مظاهر وسواسية تنطوي أقلّه على عناصر فموية متأخّرة وعناصر شرجية مبكّرة.

٤ - مراحل متعدّدة في تطوّر الأنا

كان فورنزي يعي هذا التناقض، ويحرص على شرحه مقترحًا أن المريض الذي يعاني هذا الوسواس **ينكص نكوصًا جزئيًا** إلى هذه المرحلة المبكّرة. ومن الواضح أن الأمر يبدو أكثر احتمالاً إذا كان الكلام ينصبّ على نكوص يوظّف توظيفًا مضاعفًا نواتين أو عدة نوى مبكّرة للأنا، وواضح بالمقدار نفسه أن لنا الحقّ، إذا كان للارتباط بين العصاب الوسواسي وبعض الانحرافات (كالفيتيشيات ومن بعض الأشكال من الجنسية المثلية الأقل بدئية، على سبيل المثال) قيمة من القيم، أن

(٨) - أي قائمة على ملاحظة السلوك (ملاحظة لجنة الإشراف).

نتساءل إن كان النكوص هو نفسه في الحالتين، أعني إذ كان ليس بوسعنا أن نجد أصله في النوى نفسها للأنا. فالشيئان المساويان لشيء ثالث متساويان فيما بينهما - بدهية يمكننا أن نعبّر عنها بلغة التحليل النفسي في مجال «التكافؤ» العيادي والنظري.

وكانت محاولتي تنشد: أ) أن تبرهن على وجود مراحل متعدّدة في تطوّر الأنا، إذ ننوّه على وجه الخصوص بالنوى المبكّرة للأنا؛ ب) أن نقيم ارتباطًا بين هذه المراحل ومجموعة من الظاهرات السيكولوجية المرضية (بما فيها، انطلاقًا من هنا، تشكيلة الاضطرابات السيكولوجية الجنسية)؛ جـ) أن أرجع، بصورة متوازية، تأييدًا لهذا الارتباط الرئيس، إلى بعض المراحل في تغيّر الحصر، والإثمية وأحداث وجدانية أخرى، وإلى بعض الأطوار في تكوّن الموضوعات، وإلى أشكال مختلفة من التكوّن الاستيهامي، وإلى تراتب للآليات الذهنية. وهذه المحاولة، كما ذكرت، كانت قائمة، في الجزء الأكبر منها، على دراسة عيادية للحالات الانتقالية كالإدمان على المخدرات - لاسيّما على الملاحظة التي مفادها أن المدمنين على المخدرات ذوو علاقة عكسية مع بعض الانحرافات بالنظر إلى أن إحدى وظائف الانحرافات تكمن في المساعدة على الاحتفاظ بحسّ الواقع لدى الأنا المهدّدة، ضمن نطاق معيّن. وأذكر: **تساعد الانحرافات على الاحتفاظ بالدرجة التي يكتسبها الطفل آنفًا من حسّ الواقع بواسطة ما يمثّل، في الأجل الطويل، تضحية بحرية الوظيفة الليبيدية الراشدة (الناضجة)**؛ في حين أن الأعصبة تتيح على الغالب ضربًا من حرية الوظيفة الليبيدية الراشدة، لقاء بعض من الكفّ في علاقات الواقع؛ وتُظهر الذهانات على الغالب حرية ظاهرة للوظيفةً الليبيدية الراشدة يرافقها اضطراب خطير في حسّ الواقع. وإذا كانت هذه الدعاوى أو هذه النتائج صحيحة، فينبغي أن يكون ممكنًا أن نبرهن على وجود أطوار أكثر وضوحًا في تطوّر حسّ الواقع (إحدى وظائف الأنا) إذ نستند إلى تطوّر الانحرافات.

٥ - معطيات تؤكد النظرية

ولكن الضرورة تبرز مباشرة، ضرورة صياغة تعريف لاختبار الواقع الطبيعي (الناجع). وذلك هو ما اقترحته اقتراحاً لا يخلو من بعض التحفّظات على النحو التالي: «الاختبار الفعلي للواقع، لكل فرد تجاوز عمر البلوغ، يكافئ القدرة على الاحتفاظ باتصال نفسي مع الموضوعات التي تشجّع إشباع الغريزة، بما في ذلك إشباع الدوافع الطفولية، سواء كانت متغيّرة أو راسبية». ونضيف، على سبيل النتيجة الطبيعية، أن «الموضوعية تكافئ القدرة على أن نقيّم تقييماً صحيحاً علاقة الاقتراح الدافعي بالموضوع الدافعي، بصورة مستقلّة عن أن الأهداف الخاصة للاقتراح تكون مشبعة، أو يمكنها أن تكون مشبعة أو تنتهي، فيما بعد، إلى أن تكون مشبعة». وذلك كان يعني بدوره أن فرض عدد كبير من المراحل في تكوّن الموضوع كان يمنحنا وسيلة إضافية لتمييز أكبر عدد من المراحل في تكوّن الأنا.

وفيما يخصّ مصادر أخرى من التأكيد، وبالطبع، البحوث المتمحورة على تعدّدية الأطوار الذهنية، فإنه أمر مسلّم به منذ زمن طويل أن العامل الأقوى - السوي أو المضطرب على حد سواء- في حالة النموّ العقلي، يكمن في المشتقّات الوجدانية لتقلّبات الغريزة؛ وأن مفعول نظم الرعب التي لا تأخذ مقتضيات الواقع بالحسبان، على سبيل المثال - لاسيما الناجمة عن ارتكاسات سادية أو العدوانية المغالية - يمكنه أن تعدّله، في حدود معيّنة، سيرورة إضفاء الصفة الليبيدية. وذلك أمر صحيح على وجه الخصوص بالنسبة للانحرافات، مع أن النظام لا يبلغ دائماً غرضه بالطبع، ولا تفلح الأجهزة الحامية للعصاب، دائماً، في اهتلاك الحالة الوجدانية المؤلمة (العصابي«الذي أفلح في ذلك يلجأ نادراً إلى التحليل النفسي، إن لم يكن بالمناسبة، في حالة مرشّحين لأن يكونوا محلّلين نفسيين في مرحلة التكوّن). ويبدو، لهذا السبب، أن التساؤل، إن كانت الارتكاسات الوجدانية لايمكنها، هي أيضاً، أن تنقسم على وجه التقريب إلى مراحل، أمر على جانب من الأهمية. فمباشرة تعرّف الحالات الوجدانية الكيفي والكمّي (إجراءات قياسات

خاصة بكل منهما، وتحديد موقعها في مجموعة تطوّرية)، يكوّن مع الأسف إحدى مهمات التحليل النفسي الأكثر عسراً - عسيرة على وجه التقريب بقدر ما يعسر أن نقيس الليبيدو والعدوان قياساً كمياً. وتُجرى في بعض الحالات تقديرات تقريبية تبعًا لقوة استجابات الأعراض، ولكن هذه التقديرات معيبة بفعل التغيّرات في درجة الكبت - كمية مجهولة.

٦ - واقع الراشد: مكتسب يحتفظ بملكيته

أضف أننا سنعمل عملنا في الظلام قليلاً أو كثيراً ما دام عامل **اندماج الحالات الوجدانية** بالمراحل المختلفة لن يكون موضوع دراسة شاملة. ونجد أنفسنا على هذا النحو ملزمين بأن نقيم تمييزات تقريبية تبعًا للنتاجات الاستيهامية التي تشير إلى درجة التشوّه التي طرأت بفعل مشتقّات تكوّن الأفكار وتسلسلها لدى الطفل خلال النموّ. وذلك يعني أن نفترض، أيًّا كانت القدرة على بلوغ الواقع البدئي لدى الطفل الصغير خلال ما أعتقد أن بوسعي أن أسمّيه **أطواره الوظيفية** المبكّرة وغير المتبنينة نسبيًّا، أن هذه القدرة تميل إلى أن تكون مدموغة بدمغة الإسهامات البعيدة عن الواقع لآليات الدفاع الأولّية. وبوسعنا أن نقول، من وجهة النظر هذه، إن المنظور الأصلي لواقع الطفل ينبغي، مع الزمن، أن يُقتلَع (يُنقذ، يحرّر) من مجموعة من الارتكاسات البعيدة عن الواقع، وإن الواقع الموضوعي لدى الراشد ليس تماماً ما نتعرّفه بوصفه إرث الطفولة، بل هو بالحري ما نحتفظ بملكيته ونمدّه، بواسطة الانزياح، بعد أن يكون قد مرّ في مصافي الحصر، وإضفاء الصفة الليبيدية، ودرجات مختلفة من التصعيد. وخلال نضج الأنا المبكّر، ينبغي لها مع ذلك أن تمرّ بأطوار من النموّ والتكامل لا يُحصى الآن عددها. وهذا ما يعيدنا إلى النظرية التي مفادها أن الأنا المبكّرة ناجمة عن تأليف نوى الأنا، النوى المستقلّة في الأصل. إنه تأليف مبهم جداً دون شك، ذلك أن ما يميّز النموّ العقلي يكمن في أن نظمه التي عفا عليها الزمن لا تختفي مع النضج، ولكنها تستمرّ في وجودها على نحو من الأنحاء (مع الأخذ بالحسبان وجود حاجز الكبت) إلى جانب نظم أفضل تكيّفًا مع

الواقع. وخلاصة القول إن هذه النظم التي عفا عليها الزمن تحتفظ بطاقاتها الكامنة طوال حياة الفرد.

٧ – من الماء إلى طاحونة الفرض الخاص ببنى الأنا

يكفي، فيما يخصّ مصادر الإعلام في مجال المراحل، أن نكرّر أن من العسير، جرّاء وجود النكوص، والكبت والتثبيت، أن نتوصّل إلى اليقين فيما يخصّ دلالة التكوّنات الاستيهامية. وذلك منوط، على كل حال، بتقلّبات التفسير التحليلي إلى حدّ كبير؛ ذلك أن الأمر الذي لا يتطرّق إليه الشك يكمن في أن لاشيء يُذكر باقٍ، في أيامنا هذه، من الإجماع التحليلي النفسي فيما يخصّ التفسيرات السابقة على ١٩٢٤. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه الصعوبات وضروب اللبْس المحتملة الناجمة عن سيرورة التكوّن الرمزي، ليس من المتعذّر أن نكوّن، على نحو إجمالي، تراتبًا للتكوّنات الاستيهامية وأن نستخدمه، لا لعزل الأجزاء المختلفة من جهاز الأنا فحسب، ولكن لنحدّد أيضًا ما إذا كانت هذه الأجزاء قوية قوة كافية بحيث نقترح وجود ضرب من الاستقلال النووي.

وبوسعنا أن نصوغ ملاحظات شبيهة إلى حد كاف فيما يخصّ تطبيق معرفتنا بالآليات العقلية على تمايز الأنا. وهذا لا يمكنه بالطبع أن ينطبق إلا على الآليات التي تؤثر في بنية الأنا. والسبب أن ثمة، على الرغم من وجود آليات كثيرة – كالاجتياف والتوحّد – تكون مولّدة للأنماط، بالمعنى البنيوي للفظة أنماط، آليات أخرى – كالكبت، والإسقاط في نطاق معيّن – لا تمارس أي تأثير إيجابي على البنية، في حين أن آليات أخرى تكون أيضًا، على نحو أساسي، حركات توظيف أو توظيف مضادّ، حركات تتيح لنا نتاجات التكوّن الاستيهامي أن نتكهّنها. ويبحث المحلّلون النفسيون غالبًا مع ذلك في ربط الآليات الخاصة بأطوار خاصة من النموّ – السوي والمضطرب على حدّ سواء – أو، على الأقل، في تأسيس أولوية للآليات في كل مرحلة، وهذا كله يجلب الماء، في رأيي، إلى طاحونة النظرية النووية. والكثير من هذه الارتباطات القديمة هي تلك التي تبين معًا أنها مفيدة ومحرّضة؛

وعيبها الرئيس ناجم عن أن المقصود على وجه الخصوص تقريبات عامة خالية من كل تفصيل دقيق أو كاف. إنها تتطلّب، بكل وضوح، عرضًا مفصّلاً.

٨ - الأخذ بالحسبان تجربة الطفل في مجال الإدراك:

أخيراً، يبدو واضحًا، وفق الشرح الموقعي الذي قدّمه فرويد للجهاز النفسي وتاريخ تكوّن الموضوع - مع الأخذ بالحسبان وظائف إدراكية تستثمرها الأنا، لاسيّما حسّ الواقع - أنْ ليس ثمة بدّ من وجود علاقة معقولة بين هذه الوظائف ونسق إدراكات العالم الخارجي عندما يشع اهتمام الطفل، الذي تقوده حاجات ومخاوف دافعية، انطلاقًا مما يعلمه الملاحظ أنه «جسم» الفرد - أو، بالحريّ، مناطق من الجسم ذات أهمية - وانطلاقًا مما يعلمه الملاحظ أنها مصادر عضوية من اللذة واللالذة. وهذا الإشعاع نحو الخارج تقوده أيضًا حاجات دافعية ومخاوف من الإحباط ومن الإثارة المغالية. وهذه الحاجات والمخاوف هي التي تولّد **الإدراك الانتقائي** لدى الطفل؛ ولو لم تكن هذه هي الحالة، لكان ممكنًا أن نتصوّر أن بؤرات هذا الإشعاع تكوّن مجموعة من الدوائر المتحدة المركز. وينبغي بالطبع أن نأخذ بالحسبان عمل الآليات العقلية الوظائفي المتوجّهة نحو الخارج - كالإسقاط - التي تميل إلى أن تجعل الصورة مضطربة وتشوّشها، كما يفعل الميل إلى التكوين الرمزي. وإلا، فإن المسؤول عن المحذور الرئيس لهذه المقاربة، مقاربة الأنا، سيكون الملاحظ المحلّل الراشد الذي ينزع، إذ ينسى على سبيل المثال أن الظلّ بالنسبة للطفل «مشخّص» شأنه شأن الموضوع الذي يُسقطه، إلى أن يفرض على النظام الطبيعي لدى الطفل نظامًا راشدًا في مجال الاهتمام والتجربة الإدراكيين. وهذا الخطأ، المنتشر بقدر ما هو غبيّ، الناجم في الجزء الأكبر منه عن عادة ما يُسمّى ruckphan-tasieren (أن ننسب إلى الطفل نتاجات تجربة متقدّمة للبيئة، أو ننقل إلى أنا الطفل بعض الواجهات من أنانا الخاصة الراشدة - وهو خطأ لا يرتكبه الأطفال)[٩] ذي

(٩) - لا أتكلم هنا على هؤلاء الملاحظين الذين يسقطون على الطفل «انطباعاتهم» الخاصة فيما يتعلّق بالوظيفة الطفلية العقلية دون أن يمارسوا رقابة كافية بواسطة الملاحظة أو بواسطة تأكيد عيادي في التحليل.

العلاقة بالميل الذي أسهم، أكثر من أي شيء آخر، في أن يعيب الجهود الهادفة إلى ضرب من إعادة تكوين فرضي للحياة العقلية المبكّرة. وتكوّن مع ذلك، كما تبيّن بوضوح دراسة الفيتيشية وظاهرات من النسق نفسه، دراسة النموّ الإدراكي، المحقّقة وفق الأصول - ذلك أن المقصود بصورة أساسية، بالنسبة لغالبية الدراسات من النمط السلوكي - متمّمًا مفيدًا لدراسة الأنا النظرية ولأجزائها الكثيرة.

٩ - تجنّب التبسيط في تصوّر تطوّر الأنا

ألححت إلحاحًا طويلاً جداً على هذا الجانب الخاص من المسألة، هادفًا لا إلى أن أذكر وأجمع شتّى الزوايا التي نجد أن من الضروري أن يُدرس منها مشكل تمايزات الأنا فحسب، بل أن أذكر وأجمع بعض الصعوبات التي ينبغي أن نتجاوزها عندما نعكف على مفهوم كمفهوم نوى الأنا. وإذا استأنفنا بعض المصطلحات الأقدم - كما ابتكرها المحلّلون النفسيون ويستخدمونها أيضًا (مع أنها لا تخلو في الوقت الراهن من الغطرسة) - فإنه يبدو بوضوح أن تعبيرات، على سبيل المثال، كـ «العقدة اللاشعورية»، أو حتى «الكوكبة قبل الشعورية»، تشمل تجمّعًا من العوامل. والكلمات توحي بذلك على نحو مؤكد، ولكن دون أن تذكر بوضوح أن العوامل هي من **طبيعة** مختلفة: إن أجزاءها المكوّنه لا تبدأ في أن تبرز إلا عندما نطبّق عليها الأنظمة الميتاسيكولوجية. والأمر نفسه ينطبق على طرائق البحث. وفي رأيي أن الميتاسيكولوجيا أداة جيدة جداً لعرض مفاهيم لا يمكن أن يُنظر إليها من زاوية واحدة، وذلك أمر يهمله إهمالاً شائعًا مؤلفو الكتابات النظرية، والعيادية في بعض الأحيان. والأمر الذي لا يمكننا تجنّبه مع ذلك هو أن المنظورات تتداخل، أوتكوّن فقط أنحاء مختلفة في مقاربة فاعلية عقلية واحدة. فكل العوامل تلتقي ومن الصعوبة أن نحافظ على انفصالها، حتى لأهداف العرض الاعتباطية بعض الشيء.

وحاولت، من جهة أخرى، أن ألفت النظر إلى مختلف الأخطاء المرتكبة - المقصود، على وجه العموم، نهوج مزيّفة في مجال الاستدلال أو انتباه غير كاف

موجّه إلى تفصيلات عند عرض الدعوى. وحاولت أن أصحّح هذه الأخطاء خلال عرضي. ولن أتكلّم إلا على تصحيح رئيس، تجنباً لتكرار الأقوال غير المفيدة. إنني مقتنع، منذ عدة سنين، أن النهج الذي يكمن في إجمال المراحل لتطوّر الأنا وتطوّر الليبيدو، كذلك لعلاقاتها بتراتب الاضطرابات العيادية، غير كاف إلى الحدّ الأقصى، مبسّط، وخادع في بعض الأحيان. وينبغي، حتى تُعالج هذه المسألة معالجة صحيحة، إما أن توضع رزمة من الرسوم التخطيطية تمثّل جوانبها المختلفة، وإما أن يوضع رسم بياني أكثر طموحًا وذو أبعاد كبيرة، يوضّح ارتباطات عوامل مختلفة موصولة بتخطيطية مركزية للأنا. والحل الأول سيكون، ربما، متعباً ومملاً في حين أن الثاني قد يتعرّض إلى أن يغرق في عدم الفهم أو المضحك. فالرسوم التخطيطة لدى علماء الأعصاب التي تنصبّ على تشريح الدماغ لا تتميّز بالتأكيد ببساطتها؛ ولا يغتاظ عالم الأعصاب الفيزيولوجي، ولا عالم الأعصاب الباثولوجي أمام الضرورة لتعدّد المصطلحات وإعدادها، شريطة بالطبع أن تكون هذه المصطلحات محدّدة حسب الأصول ومشروحة. وقد يحدث يوماً أن يكون مسموحًا لعالم النفس - الذي يجد نفسه في الحقيقة أمام تعذّر أن يصور البنية العقلية تصويراً فوتوغرافيًّا - أن يوسّع ما لا يكون، بعد كل شيء، سوى مفهوم يصلح لكل مناسبة؛ شريطة دائمًا، بالتأكيد، أن لا تكون العناصر المرئية المستخدمة في العرض ممكنة الفهم فحسب، ولكنها مرفقة أيضًا بتعريف صحيح للمصطلحات المستخدمة. والواقع أن مصطلحات التحليل النفسي، على الرغم من تعقيدها الظاهر، فقيرة ولم تكن بعدُ، في حالات عديدة، قد حُدّدت تحديداً واضحًا.

١٠ - فكرة مهجورة ثم مستأنفة

ملاحظة: التقرير السابق يستند إلى مقالا نُشرت بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٣. وخلال السنوات الإحدى عشرة التي تلت، لم أبحث في إرصان المفهوم الخاص بنُوى الأنا، ولا في تطبيقه على مشكلات أخرى من النموّ السويّ أو السيكولوجي المرضي. وأبديت بصورة منعزلة، خلالها، بعض الإلماعات الموجزة في بعض

المقالات التي تناولت **مبادئ التحليل النفسي في الطب النفسي** (١٩٣٥) **ودراسة نموّ الأعصبة الوسواسية**. وحاولت عام ١٩٣٨، في مقال **تناول التحليل النفسي للحالات الوجدانية**، مع أنني لم أشر أية إشارة إلى مفهوم نوى الأنا، أن أضع تصنيفًا واسعًا للحالات الوجدانية، إذ عكفت بصورة خاصة على الحالات الوجدانية «المختلطة» وظاهرة «انصهار» الحالات الوجدانية، إذ ربطت هذه الفئات بحالات نفسية مرضية خاصة وبتجارب وضروب من تكوين الأفكار اللاشعورية الخاصة بالمراحل المختلفة للنموّ(١٠). وبالنظر إلى أن هذه الأعمال لم تكن تتضمّن أي مقاربة جديدة للمسألة، فإنني امتنعت عن أن أتكلّم عليها في هذا الكتاب الحالي. ولم أنتهز فرصة نشر مقال جديد عن هذا الموضع إلا عام ١٩٤٣(١١).

إدوار غلوفر

ترجمة عن الانغليزية س.م. أبيلّيرا

(١٠) - انظر أيضًا المقاطع من **ولادة الأنا** ذات العلاقة بالعوامل الوجدانية والصلات التي تربطها بتكوّنات الأنا، **مرجع مذكور سابقًا**، ص٣٩/ ٤٠، ٤٤، ٤٦/ ٤٧.

(١١) - من المناسب، ربما، أن نشير إلى أن أوساط التحليل النفسي لم تعرض، خلال المرحلة المتوسطة، إلا قليلاً من الحالات من هذه الدعوى النووية، التي يمكننا أن نقول إنها أخفقت. والمقصود تجربة مفيدة وحفّازة معًا للمنظّر المبتدئ، وحتى للعيادي المبتدئ في الحقيقة. فهي مفيدة لأنها تكبح طموحه، وهي حفّازة من حيث أنها تدفعه إلى أن يتصرّف بحيث تكون مقاربته أصوب ما يمكن أن تكون.

الفصل الثالث

ثالوث الأنا

مقدّمة

رونالْد د. فيربرن محلّل إيكوسي مارس التحليل النفسي في إيدامْبرغ [(١)] خلال سنين طويلة. ويرصن فيها تصوّرات أصيلة، قائمة على دراسة العلاقات بالموضوع. وفي رأيه أن الليبيدو هو، في الواقع، باحث بصورة أساسية عن الموضوعات قبل أن ينشد اللذة. وهدفه في رأي فرويد، بالمقابل، هو تفريغ الشحنة قبل كل شيء؛ ولهذا السبب يكون الموضوع طارئًا، أي منشوداً بهدف الإشباع، بل قابلاً للتبادل في بعض الحالات، بما في ذلك مع جزء من الجسم الخاص. ونجد إبانة رائعة لهذه الظاهرة في الغلمة الذاتية، حيث يمكن أن ينوب الإبهام مناب الثدي. وتقود فكرة ليبيدو متوجّه بدئيًا نحو الموضوع فيربرْن إلى تعديل نظرية الأنا بعمق بالنسبة لما هو مقبول كلاسيكيًا.

وهكذا، ينتهي فيربرْن إلى أن يعتبر أن السيرورات لايحكمها بصورة أوّلية مبدأ اللذة، بل يحكمها مبدأ الواقع. وتنجم مراجع الجهاز النفسي قبل كل شيء عن العلاقات بالموضوعات المستدخَلة. إنه يعدّل نظرية فرويد البنيوية إذ يدمج الهو بالأنا.

---

(١) انظر مراحل الليبيدو (الجزء الثاني، الفصل الثامن، في المجموعة نفسها).

ويُعتبر السلوك الفموي الأبكر لدى الطفل، في المنظور نفسه، بوصفه متوجّها منذ البداية نحو الثدي وليس نحو تسكين الجوع: فلن يكون مبدأ اللذة سوى بديل لمبدأ الواقع أمام إخفاق البحث عن الموضوع. ذلك أن هذا البحث يقتضي في الوقت نفسه، إذا كان أوّليًا، استخدامًا مباشرًا لمبدأ الواقع، لأن الفرد لايبحث عن تفريغٍ آني لشحنة توتراته (وفق مبدأ اللذة)، بل عن تفريغ شحنة موضوع يمكنه أن يستجيب لحاجته. وينطوي هذا الفرض، دفعة واحدة، على توجّه، على الأقلّ، نحو الدروب الملتوية، والتلمّسات، وضروب التأجيل لمبدأ الواقع، إن لم تنطوِ على قابلية لهذه الأمور.

وينجم عن ذلك أيضًا إعادة نظر في ماهية الكبت. وفي رأي فيرْبرْن أن الكبت لايمارس مفعوله ممارسة أساسية على دوافع الهو، كما تذكر النظرية الفرويدية، ولكن على الموضوعات المستدخَلة عندما تُعاش بوصفها «رديئة». والكبت موجّه، على النحو نفسه، ضد أجزاء الأنا التي تبحث عن إقامة علاقات مع هذه الموضوعات الداخلية الرديئة. فالأنا تكبت نفسها في هذا المنظور.

ذلك أن فيربرن ينتهي إلى أن يتصوّر أن جزءًا من الأنا يكبت جزءًا آخر، بحيث يفصلها إلى ثلاث «قطع»: **الأنا المركزية، الأنا الليبيدية** وما نسمّيه **المخرّب الداخلي**. ويقارن فيربرن هنا بنيته الخاصة بالجهاز النفسي بالبنية التي حدّدها فرويد. والأنا المركزية لديه تتميّز من الأنا الفرويدية بأنها ليست ضربًا من تمايز الهو، ولكنها تحتوي هذا الهو. إنها، أخيرًا، بنية أوّلية ودينامية تُشتقّ منها البنيات الأخرى.

و«الأنا الليبيدية» تطابق الهو الفرويدي. وإذا كانت أنا الموقعية الثانية مشتقّة من الهو، فإن الأنا الليبيدية ناجمة مع ذلك عن الأنا المركزية.

ونقول أخيرًا إن «المخرّب الداخلي» لايمثّل الأنا العليا، لأنه في كليته بنية من الأنا ولأنه يخلو من كل دلالة أخلاقية. وإذا يهجر فيربرن مفهوم الهو، فإنه يحتفظ بمفهوم الأنا العليا: إن الإثمية تنجم على وجه الدقة عن هذه الأنا العليا.

وتبدو الأنا العليا مع ذلك ذات درجة من التنظيم النفسي تفوق درجة التنظيم لدى المخرّب الداخلي.

وليست هذه التصورات المستندة إلى مَثَل عيادي «مخالفة» كليًّا لأفكار فرويد. فكل شيء يحدث في الحقيقة كما لو أن فيربرن كان قد دفع إلى نتائجها الأخيرة تلك الفكرة، الموجودة لدى فرويد، فكرة عجز الطفل وبؤسه الأوّليين، الناجمين عن نضجه البيولوجي قبل الأوان، وعن تبعيته للموضوعات التي لاغنى عنها لبقائه حيًّا، تبعية تميّز الطفل الإنساني من الطفل الحيواني.

النص

حاولت، في مقال هو الآن قديم، أن أصوغ نسخة جديدة من نظرية الليبيدو وأن أرسم رسماً أوليًا تلك السمات العامة التي تبدو أنها سمات سيكولوجيا مرضية قائمة على هذه الصياغة الجديدة. وبحسب المفهوم الأساسي الذي كنت قد اقترحته في ذلك الزمن ـ وأتمسّك به دائمًا ـ، بكون الليبيدو متوجّهًا بصورة أساسية نحو البحث عن الموضوعات (بدلاً من البحث عن اللذة كما تذكر النظرية الكلاسيكية)؛ ففي اضطرابات العلاقات بالموضوعات لدى الأنا السائرة في درب النموّ إنما ينبغي لنا إذن أن نبحث، في نهاية المطاف، عن أصل الحالات النفسية المرضية كلها. وفي رأيي أن هذا المفهوم ليس أقرب إلى الواقع السيكولوجي والإعلام العيادي من نظرية الليبيدو التي أرصنها فرويد فحسب، بل يكوّن، فضلاً عن ذلك، المآل المنطقي، مآل الحالة الراهنة لفكر التحليل النفسي، وهو أيضًا نهج ضروري لنموّ نظرية التحليل النفسي. ويبدو لي، على وجه الخصوص، أن هذا المفهوم ينجم حتمًا عن المفهوم، مفهوم يوضّح استدخال الموضوعات، الذي عرضته ميلاني كلاين عرضًا مفصّلاً على نحو مثمر إلى الحدّ الأقصى، ولكن أصله العلمي يكمن في النظرية الفرويدية للأنا العليا (بنية نفسية داخلية كان فرويد قد تصوّرها، بالتأكيد، بوصفها سبب استدخال الموضوعات).

١ ـ ليبيدو باحث عن موضوعات

ثمة، ربما، مجال لنؤكّد، إذا تجاوزنا الملاحظات التي قدّمتها في مقالي الأول والأدلّة الأخرى التي يمكن أن نستند إليها، أن الاجتياف السيكولوجي للموضوعات، ولاسيما المحافظة على الموضوعات المجتافة في الواقع الداخلي، هما سيرورتان تنطويان، جرّاء طبيعتهما نفسها، على أن لليبيدو توجّهًا نحو الموضوعات بصورة أساسية؛ ذلك أن مجرّد حضور الاقتراحات الدافعية الفموية لاتكون كافية في ذاتها لتشرح التعلّق البارز جداً بالموضوعات التي تتيح هذه الظاهرات افتراضها. ويبدو أن استنتاجًا من النسق نفسه ينجم عن أن وضعًا أوديبيًا يمكنه أن يدوم في اللاشعور، ذلك أن التعلّق المستمرّ بموضوع يكوّن ماهية هذا الوضع نفسها. فنظرية استدخال الموضوعات كانت موضع الإرصان مع ذلك دون أن يتدخّل أي تعديل ذي أهمية على نظرية الليبيدو، نظرية ثمة مجال للاعتقاد بأنها غير متلائمة مع النظرية الأولى. ولم يعتقد فرويد نفسه قط مناسبًا أن يباشر ضربًا من إعادة النظر المنهجية لنظريته الأولى في الليبيدو، حتى بعد أن أدخل الأنا العليا. وثمة في الوقت نفسه مقاطع لايُحصى عددها في مؤلفاته، حيث يبدو بدهيًا أن الليبيدو متوجّه بصورة أساسية نحو البحث عن الموضوعات. ومن المؤكد أن المرء يمكنه أن يكتشف بعض المقاطع حيث تصبح هذه الفكرة الضمنية صريحة ـ مثال ذلك عندما يصرّح بكل بساطة: «الحب يبحث عن موضوعات[٢]». وهذا التصريح يمثُل في مقطع حيث يكتب، إذ يشير إلى نظريته الأولى في الدوافع، مايلي: «هكذا بدا التباين للمرة الأولى بين دوافع الأنا ودوافع الموضوعات. وأدخلتُ، للدلالة على طاقات هذه الدوافع الأخيرة وحدها، مصطلح ليبيدو؛ وتكوّنَ عندئذ ضرب من نقيض الدعوى بين دوافع الأنا والدوافع الليبيدية المتوجّهة نحو الموضوعات». فالتمييز بين هاتين الفئتين من الدوافع كان، كما يذكر فرويد، قد أُهمل عند إدخال مفهوم النرجسية، أي الفكرة التي مفادها أن الليبيدو يوظّف الأنا

(٢) **عسر في الحضارة**، المنشورات الجامعية الفرنسية. ١٩٧١.

نفسها؛ ولكن لايبدو ثوريًّا جداً، في ضوء الاستشهاد الذي قدّمناه، أن نزعم أن الليبيدو متوجّه بصورة أساسية نحو البحث عن الموضوعات؛ خاصة، كما قلت في مقالي الأول، إذا تصوّرنا النرجسية حالة تتماثل فيها الأنا مع الموضوعات[٣].

٢ ـ فرض قد يلغي صعوبة التحليل النفسي

التركيز المتنامي لبحث التحليل النفسي على العلاقات بالموضوعات لم يغيّر شيئًا مع ذلك في النظرية البدئية التي مفادها أن الليبيدو متوجّه بصورة أساسية نحو البحث عن اللذة ولا في الفكرة الملحقة كذلك، التي ترى أن سير السيرورات النفسية يحكمها آليًّا «مبدأ اللذة» (فرويد ١٩٢٠)[٤]. وأتاح دوام هذه الفكرة ظهور مشكلات شتّى ربما يكون حلّها أكثر سهولة على نحو آخر. وأحد هذه المشكلات الرئيسة هو المشكل الذي عكف فرويد على حلّه في «ماوراء مبدأ اللذة» (١٩٢٠) ويكمن في معرفة السبب الذي يدفع العصابيين إلى أن يظلّوا متعلّقين بتجاربهم المؤلمة. إن الصعوبة الكامنة في شرح هذه الظاهرة وفقًا لمبدأ اللذة، هي التي قادت فرويد إلى أن يحسمها معتمداً على مفهوم «قسر التكرار». وإذا اعتبرنا مع ذلك أن الليبيدو متوجّه بصورة أساسية نحو البحث عن الموضوعات، فليس ثمة مجال للجوء إلى هذا الاصطناع؛ إنني بيّنت في مقال أحدث (١٩٤٣)كيف أن الميل إلى التمسّك بتجارب مؤلمة يمكنه أن يُشرح تبعًا للعلاقات بموضوعات سيئة. وحاولت أن أبيّن أيضًا، في هذا المقال نفسه، كيف أن الصعوبات التي سبّبها مفهوم «دوافع الموت» الأولية (المتعارضة مع مفهوم ميل عدواني أولي) يمكن أن نتجنّبها إذا أخذنا بالحسبان كل ما تنطوي عليه العلاقات بموضوعات سيئة.

---

(٣)لا وجود بالضرورة، بمعزل عن هذا الاقتراح، لتعارض بين الفكرة التي مفادها أن الليبيدو متوجّه بصورة أساسية نحو البحث عن الموضوعات ومفهوم توظيف الأنا بالليبيدو، ذلك أن من الممكن دائمًا أن يعامل جزء من الأنا جزءاً آخر بوصفه موضوعًا ـ وذلك إمكان ليس بوسعنا أبداً أن نجهله في ضوء مايلي عن انشطار الأنا.

(٤) «ماوراء مبدأ اللذة» في **محاولة في التحليل النفسي**، باريس، بيّو، ١٩٥١.

٣ ـ لنظريات الدوافع حدودها

الواقع أن الوضع الخاص بـ «العلاقة بالموضوعات»، الذي كنت مسوقًا إلى أن أتبنّاه، نتيجة محاولة فرضتها الظروف، محاولة تنشد تكوين فكرة أكثر كمالاً لمشكلات كان بعض المرضى ذوي الاتجاهات الشبيهة بالفصامية قد طرحوها، أي فئة من الأفراء تكون علاقاتهم بالموضوعات صعبة على نحو خاص؛ وهنا أتجرّؤ على القول، بين معترضتين، إن البحث التحليلي النفسي في أطواره الأكثر حداثة عانى، في رأيي، مغالاة في الاهتمام الموجّه إلى شكل الاكتئاب السوداوي. وقبل أن أتوصّل إلى هذه النتيجة، كانت مع ذلك حدود «سيكولوجيا الاقتراحات الدافعية» قد أقلقتني على وجه العموم وكنت قد أصبحت مرتابًا، مهما كان ارتيابي قليلاً، فيما يخصّ القيمة الشارحة لكل نظريات الدوافع التي مفادها أن الدوافع كانت موجودة بذاتها. ومن الممكن أن نمسّ بإصبعنا حدود سيكولوجيا الاقتراحات الدافعية في المجال العلاجي؛ لأن أمر الكشف إلى المريض، بواسطة تحليل شاقّ، عن طبيعة «اقتراحاته الدافعية» إذا كان شيئًا، فإن أمر منحه الوسائل لمعرفة ما يفعل بهذه الاقتراحات شيء آخر. وما سيفعل فرد بمقترحاته الدافعية يتعلّق بالتأكيد بعلاقاته بالموضوعات. وذلك يتوقّف أيضًا على شخصيته. ولكن مشكلات الشخصية (كل عامل فريد تكويني يوضع على حدة) ترتبط هي نفسها بعلاقات الأنا بموضوعاتها المستدخلة ـ أو ترتبط، كما أفضّل أن أقول لأسباب سأذكرها في الحال، بعلاقات الأجزاء المختلفة للأنا بموضوعاتها المستدخلة، وبالعلاقات التي توجد بين هذه الأجزاء بوصفها موضوعات. ونقول بعبارة أخرى إننا لايمكننا أن ننظر إلى الاقتراحات الدافعية بصورة مستقلة عن البنيات النفسية الداخلية التي تقدّم لها الطاقة هذه الاقتراحات، ولا عن العلاقات بالموضوعات التي تتيح لهذه البنيات أن تتأسّس؛ ولايمكن كذلك للدوافع أن يُنظر إليها نظرة مفيدة إلا بوصفها أشكال طاقة تكوّن ديناميك هذه البنيات النفسية الداخلية.

٤ ـ تقنية دفاعية رائعة

من وجهة النظر العملية، وفي مجال العلاج النفسي، يبين تحليل الاقتراحات الدافعية، إذا نظرنا إليها بصورة مستقلة عن البنيات، أنه أسلوب عقيم على نحو فريد، لاسيّما في حالات الأمراض ذات الاتجاهات الشبيهة بالفصامية البارزة جداً. ويسهل جداً في بعض الأحيان أن نحرّر، بواسطة تفسيرات صريحة، وعلى نحو حصري على وجه التقريب، وتبعًا للاقتراحات الدافعية، سيلاً من الترابطات بين الأفكار (بشكل استيهامات سادية فموية على سبيل المثال) تُحدث انطباعًا قويًّا بوصفها تجلّيات اللاشعور، ولكنها يمكنها أن تدوم زمنًا غير محدود، دون أوهى تقدّم نحو تكامل ودون أوهى تطور علاجي ذي أهمية. وهذه الظاهرة يمكن أن يشرحها واقع مفاده أن الأنا (أو **الأنا المركزية**، وهو مصطلح أفضّله) لاتشارك في الاستيهامات الموصوفة إن لم يكن من أجل تدوينها. فالأنا المركزية تتصرّف، في هذا النوع من الوضع، بوصفها، إذا جاز القول، مشاهداً وتصف ضروب الدراما التي تُمثَّل على مسرح الواقع الداخلي دون أن تشارك فيها حقًّا. وهي تستمدّ في الوقت نفسه إشباعًا كبيراً جرّاء موقفها الملفت للانتباه، موقف الشاهد، الذي يتيح لها أن تتوحّد بالمحلّل بصفته ملاحظًا، إذا تؤكد في الوقت نفسه تفوّقها عليه، على مجرد الملاحظ، جرّاء كونها لاتكتفي بأن تلاحظ، ولكنها تقدّم، بالإضافة إلى ذلك، مادة موضوع الملاحظة. ويكوّن هذا الأسلوب تقنية دافعية حقيقية رائعة ـ لايميل الأفراد شبه الفصاميين إلى اللجوء إليه في أفضل الحالات ـ تمثّل محاولة لاتقاوم على وجه التقريب عندما تكون تفسيرات المحلّل تعبّر تعبيراً حصريًّا جداً تبعًا للاقتراحات الدافعية. ويقدّم مثل هذه التقنية للمريض أفضل وسيلة ليتجنّب المشكل العلاجي الأساسي، أي كيف يحرّر هذه الشحنات الدينامية، باسم مقترحات دافعية، في إطار الواقع. والمقصود بوضوح مشكل العلاقات بالموضوعات في كَنَف النظام الاجتماعي.

٥ ـ حالة عيادية توضّح بالمثال حدود نظرية

أطروحتي، فيما يخص قصور سيكولوجيا الاقتراحات الدافعية، يمكن أن توضّحها بالمثال حالة من الحالات التي ولّدت آرائي الراهنة. وكانت هذه الحالة حالة امرأة ذات سمات شبه فصامية، موجودة جرّاء أعراض رهابية وهستيرية بارزة جداً، وحصر معمّم أيضاً كان يسود اللوحة العيادية. وكان كبتها متناسباً مع درجة كبيرة من التوتر الليبيدي غير المحررَّ. وعندما كان هذا التوتر الليبيدي ينبعث، خلال جلسة، لم يكن نادراً أن تشكو من ألم في قلبها. وهذا الانطباع بالغثيان كان يكوّن، دون ريب، ظاهرة تحويل ناجمة عن موقفها من أمها ومن ثديها، موقف متأثّر بأبيها وبعضو الذكر لديه، إذ يكوّن كل ذلك موضوعات مستدخَلة؛ وكان ذلك كله يمكنه أن يفسَّر بسهولة تبعاً للاقتراحات الدافعية الفموية، من حيث أن كل الترابطات بين أفكارها كانت تتميّز، منذ البداية، بمادة فموية كبيرة. فدلالة غثيانها الرئيسة كانت تبدو متأثّرة بتثبيت ليبيدي على ثدي الأم من جهة، ومن جهة ثانية بموقف رفض لموضوع حاجتها الليبيدية. والحقيقة أن فموية ارتكاسها كانت بالتأكيد مرتبطة بكبت خطير لجنسيتها التناسلية؛ وربما كانت على صواب في أن تفترض ـ كما فعلت في عدة مناسبات ـ أنها ستكون باردة في علاقات جنسية محتملة، مع أن صوابية هذا الفرَض لم تكن قط قد تحقّقت. ويبدو معاً أن صعوبة الاضطلاع بموقف تناسلي يشرح رفضها عضو الذكر لأبيها أفضل مما يشرحها تثبيت على مرحلة فموية؛ ، وهذا الرفض مبنيّ، في جزء منه، على توحّد هذا الموضوع بالثدي السيء، وعلى تثبيت تفضيلي على الثدي، في جزء آخر منه، وعلى، في جزء ثالث، صفة أبيها السيئة من الناحية الانفعالية، بوصفه موضوعاً كليًّا. وكانت كفّة الميزان تميل أقلّ لمصلحة موقف تناسلي جرّاء كون الموقف الفموي ينطوي على التزام أوهى بالموضوع، مع منح سلطة كبيرة جداً على هذا الموضوع. ولم يكن من النادر أن تقول المريضة نفسها، خلال جلسة، «بحاجة إلى أن أذهب إلى المرحاض». وهذا التصريح كان للمرة الأولى ذا دلالة حرفية؛ ولكنه فيما بعد، خلال التحليل، انتهى أكثر فأكثر إلى أن يدلّ على أنها كانت تشعر برغبة في أن تعبّر عن عواطفها

الليبيدية التي جيّشها وضع التحويل. وهنا أيضًا، لم يكن في طبيعة الاقتراح الدافعي المعنيّ، المنظور إليه بوصفه مرحلة (مرحلة بولية وشرجية هذه المرة)، إنما تكمن الدلالة الأساسية لهذه الظاهرة. إنها كانت ترتبط بالحري بنوعية العلاقة بالموضوع المعنيّة. فـ «الذهاب إلى المرحاض»، كذلك «الإصابة بالغثيان»، كان يمثّل دون ريب نبذ الموضوع الليبيدي المنظور إليه بوصفه محتوى. وذلك كان يعني مع ذلك، مقارنةً بـ «الإصابة بالغثيان»، درجة أضعف من النبذ؛ ذلك أن تفريغ المحتوى، مع أن المقصود في الحالتين تفريغ تنفيسي للتوتر الليبيدي، الذي يمثّلة «الذهاب إلى المرحاض» ـ بوصفه تفريغًا لمحتوى مثيل ـ كان يشير إلى إرادة فضلى للتعبير عن عواطف ليبيدية تجاه موضوع خارجي، دون التوصل مع ذلك إلى التفريغ المباشر لعاطفة إزاء موضوع يميّز الاتجاه التناسلي.

٦ ـ هذه الاقتراحات الدافعية التي تنشّط الأنا

الصحة العلمية لنظرية سيكولوجية لايمكن بالتأكيد أن يُنظر إليها فقط تبعًا للنجاح أو الإخفاق العلاجي النفسي؛ ذلك أن الأهمية العلمية للنتائج العلاجية لايمكننا أن نحكم عليها إلا عندما نعلم على وجه الضبط كيف كان الحصول عليها قد جرى. وسيكولوجيا الاقتراحات الدافعية لايمكن أن تُعدّ أنها تشكل استثناء من هذه القاعدة العامة؛ ولكن الأمر ذا الدلالة، فيما يخصّ التحليل النفسي، أن من المقبول الآن على وجه العموم أن النتائج العلاجية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بظاهرة التحويل، أي أن المريض يقيم علاقة بالموضوع خاصّة، علاقة بالمحلّل. ومن المقبول على نحو رائج، من جهة أخرى، فيما يخصّ تقنية التحليل النفسي، أن على المحلّل أن يبدو متحفّظًا إلى حد غير مألوف. ولديه أسباب سليمة ليفعل ذلك كما نعلم؛ ولكن من المحتّم أن يكون مفعول ذلك جعل العلاقة بالموضوع بين المحلّل والمريض وحيدة الجانب بعض الشيء، من وجهة نظر المريض، وذلك أمر يشجّع المقاومة. فبعض من وحدة الجانب في علاقة المريض ـ المحلّل أمر يلازم الوضع التحليلي بالتأكيد؛ ولكن يبدو أن جهداً كبيراً يكون مفروضًا عندئذ على المريض فيما يخصّ قدرته على إقامة علاقات بالموضوعات مرْضية (قدرة يمكننا أن

نعدّها الآن موضع شبهة منذ أن يكون المقصود مريضًا) عندما يكون تحفّظ المحلّل متضافراً مع نمط من التفسير قائم على ضرب من سيكولوجيا الاقتراحات الدافعية. والمريض خاضع، من جهة أخرى، إلى غواية كبيرة مفادها أن يتبنّى ـ بين آليات دفاع أخرى ـ آلية دفاع ألمعنا إليها من قبلُ، أي التقنية الكامنة في وصف مشاهد يجري تمثيلها على خشبات مسرح الواقع الداخلي، دون أن تشارك الأنا المركزية مشاركة ذات دلالة، سواء في مثل هذه المشاهد أو في علاقة بالموضوع فعلية مع المحلّل. قال لي يومًا من الأيام أحد مرضاي، صائغ خبير، بعد أن قدّم وصفًا فكريًّا كاملاً لحالة التوتّر الدافعي التي كانت سائدة لديه: «حسن، ماذا ستفعل فيما يخص ّهذا الموضوع؟» شرحت له، على سبيل جواب، أن المهم كان أن نعرف ماذا كان سيفعل هو فيما يخص ّهذا الموضوع. وبدا له هذا الجواب مربكًا إلى حد أقصى ـ فلم يكن لديه مع ذلك هدف آخر. وكان الجواب مربكًا لأنه كان قد وضعه فجأة أمام مشكل حقيقي من التحليل ومن حياته. فما سيفعل فرد بتوتره الدافعي يتوقّف بوضوح، كما قلنا، على علاقاته بالموضوعات، وعلى شخصيته أيضًا لأن ثمة بالضرورة، في علاقة بموضوع، ذاتًا فضلاً عن الموضوع. وتقودنا العلاقات بالموضوعات على هذا النحو، بصورة حتمية، إلى أن نعتقد أن من المتعذّر أيضًا، إذا كان من المتعذّر أن ننظر في الاقتراحات الدافعية بصورة منعزلة عن الموضوعات الخارجية أو الداخلية، أن ننظر إلى هذه الاقتراحات بصورة منعزلة عن بنيات الأنا. ومن المؤكد أيضًا أن النظر إلى الاقتراحات الدافعية بصورة منعزلة عن بنيات الأنا أكثر تعذراً لأن بنيات الأنا هي وحدها التي يمكنها أن تبحث عن أن يكون لها علاقات بالموضوعات. ونحن نجد أنفسنا على هذا النحو نعود إلى النتيجة التي لاحظناها من قبل، نتيجة ليست الاقتراحات الدافعية وفقًا لها إلا الجانب الدينامي من البنيات النفسية الداخلية ولايمكنها أن تُعدّ موجودة في حال غياب هذه البنيات، أيًّا كانت درجة عدم نضجها. وثمة مجال، في نهاية المطاف، لافتراض الاقتراحات الدافعية، بكل بساطة، أشكالاً من الفاعلية تمثّل الحياة نفسها، حياة بنيات الأنا.

٧ ـ مبدأ اللذة: ضرب من إخفاق مبدأ الواقع

من الواضح، ما إن نتوصّل إلى النتيجة المشار إليها أعلاه(٥)، أن يكون علينا إعادة النظر في نظريتنا للجهاز النفسي. والمقصود، على وجه الخصوص، أن ننظر إلى أي حدّ يمكننا الاحتفاظ بالوصف الفرويدي للبنية النفسية، تبعًا للهو والأنا والأنا العليا، دون تعديل. ومن الواضح أن وضع الهو سيكون الأول موضع الاتهام منذ أن يُطرح السؤال؛ فإذا كان صحيحًا أن أي اقتراح دافعي لايمكنه أن يعدُّ موجودًا حال غياب بنية للأنا، فإنه لم يعد ممكنًا أن نحتفظ بأوهى تمييز بين الهو والأنا. وعلى التصوّر الفرويدي لـ **أصل** الأنا، بوصفها بنية تنمو على سطح النفس لتنظيم دوافع الهو وفقًا للواقع، أن تخلي المكان إلى تصور للأنا، مصدر التوتر الدافعي منذ البداية. وهذا التضمين، تضمين الهو في الأنا، لايمسّ بالطبع نظرية فرويد لـ **الوظيفة** التي تمارسها الأنا في تنظيم تفريغ التوترالدافعي، طبقًا للواقع الخارجي. وهذا التضمين ينطوي مع ذلك على الفكرة التي مفادها أن الاقتراحات الدافعية تتوجّه نحو الخارج ويحدّدها على هذا النحو، منذ البداية تمامًا، «مبدأ الواقع» في بعض الحدود. وهكذا سيكون السلوك الفموي الأبكر لدى الطفل على سبيل المثال معدودًا أنه موجّه نحو الثدي منذ البداية. وسيكفّ مبدأ اللذة، طبقًا لوجهة النظر هذه، أن يعدّ مبدأ أساسيًّا للسلوك، وسننتهي إلى النظر إليه أنه مبدأ ثانوي للسلوك، ينطوي على إفقار للعلاقات بالموضوعات ويعمل بصورة متناسبة على إخفاق مبدأ الواقع ـ سواء كان هذا الإخفاق ناجمًا عن عدم النضج في بنية الأنا أو عن قصور نموّها. وبدلاً من أن نتساءل في أي حدود يحلّ مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة، سنتساءل في أي حدود يتقدّم ضرب من مبدأ الواقع ـ غير الناضج في الأصل ـ نحو النضج؛ وبدلاً من أن نتساءل عن قدرة الأنا على تنظيم دوافع الهو طبقًا

---

(٥) واضح الآن، بصورة ماضوية، أن بعض النتائج المتضمّنة في هذا الفصل والفصل السابق من المقال الحالي، كانت مرسومة من قبل في مقالنا المعنون «خصائص تحليل مريض ذي شذوذ تناسلي جسمي»، المكتوب عام ١٩٣١ والمتضمَّن في الفصل الحالي.

للواقع، سنتساءل في أي حدود تكون بنية الأنا، التي ينبعث التوتر الدافعي في كنَفها، منظّمة وفقًا لمبدأ الواقع أو، في حال غياب التنظيم، في أي حدود لجأت إلى مبدأ اللذة بوصفه وسيلة تنظيم.

٨ ـ هل تكبت الأنا نفسها؟

إذا كان الاقتراح الدافعي ينبغي أن يُعدّ مقترنًا ببنيةٍ للأنا على نحو غير منفصل، فماذا يصبح عندئذ تصوّر فرويد للكبت، بوصفه وظيفة تمارسها الأنا في مواجهة الاقتراحات الدافعية التي تولد في الهو؟ ذكرت من قبلُ في مكان آخر (١٩٤٣) ماتنطوي عليه نظريتي في العلاقات بالموضوعات بالنسبة إلى مفهوم الكبت. وكنت في هذا المقال قد أبديت الرأي الذي مفاده أن الكبت يمارس مفعوله أساسًا على **الموضوعات المستدخَلة** التي انتهت إلى أن تُعامل معاملة الموضوعات السيئة، وليس على الاقتراحات الدافعية التي أصبحت مؤلمة أو «سيئة» (كما في نظرية فرويد النهائية)، ولاحتى على الذكريات المؤلمة (كما في النظرية الفرويدية السابقة). إنني أرى دائمًا أن هذه النظرية صائبة؛ ولكن أفكاري عن الكبت تغيّرت في ظلّ بعض الجوانب. وكنت مسوقًا إلى الاعتقاد، على وجه الخصوص، أن الكبت لايمارس مفعوله على الموضوعات (التي ينبغي لها، مع أنها ليست، بالمناسبة، من بنيات الأنا، أن تعدُّ كأنها بنيات نفسية داخلية) فحسب، بل يمارس مفعوله أيضًا على أجزاء الأنا الباحثة عن إقامة علاقات بالموضوعات المستدخَلة. وربما يعارضنا القارئ بنقد هذا الاتجاه، مفاده أن هذه القضية تنطوي على شذوذ إذا كان الكبت وظيفة من وظائف الأنا. وقد يتساءل المرء ماإذا كان ممكن التصوّر أن الأنا تكبت الأنا. والجواب عن السؤال هو التالي: في حين أن الأنا، في مجموعها، تكبت نفسها أمر لايمكننا تصوره، فإن جزءاً من الأنا، ذا شحنة دينامية، يكبت جزءاً آخر من الأنا، ذا شحنة دينامية أيضًا، أمر يمكننا تصوره. وذلك بالطبع يختلف عن أن مجموعة من الاقتراحات الدافعية تكبت مجموعة أخرى، وهو مفهوم رفضه فرويد بحق خلال صياغته نظريته في الجهاز النفسي.

ووجد فرويد نفسه، حتى يشرح الكبت، ملزمًا بأن يصادر على وجود **بنية** قادرة على أن تُحدث الكبت ـ أي **الأنا العليا**.

٩ ـ بعض الحالات العيادية تؤكد وجود عدة ضروب من الأنا

من الضروري بالتالي أن نخطو خطوة إضافية في الاتجاه نفسه، إذ نعدّ قائمًا وجود بنيات مكبوتة. وبمعزل عن كل الملاحظات النظرية، كالتي كنا قد أبديناها سابقًا، ثمة أسباب عيادية غالبة تتيح صياغة مثل هذا الفَرَض. وأحد هذه الأسباب الأكثر وضوحًا من بينها يكمن في الصعوبة التي يعرضها «تصعيد» «الاقتراحات الدافعية» الليبيدية. وشرح هذه الصعوبة لا يمكنه أن يكمن في عناد متأصّل ملازم لـ «الاقتراحات الدافعية»، ولاسيما جرّاء واقع مفاده أننا كنا مسوقين إلى عدّ «الاقتراحات الدافعية» أشكالاً بسيطة من الطاقة موضوعة بتصرف بنية الأنا. وهذه الصعوبة لايمكنها، على العكس، أن تُشرح شرحًا مرْضيًا إلا حين نفرض أن «الاقتراحات الدافعية» المكبوتة لاتنفصل عن بنيةٍ للأنا تستجيب لنمط محدّد جيداً. وصوابية هذا الفرض تؤكدها ظاهرة الشخصيات المتعدّدة، حيث الرابط بين «الاقتراحات الدافعية» المكبوتة وبنية للأنا مجتاحة أمر ليس موضع شك؛ ولكن رباطًا من هذا النوع يمكنه أيضًا أن يُكتشف في بعض أشكال التفكّك الأقل عمقًا، أشكال مميّزة جداً لدى الهستيريين. فيبدو إذن أننا مرغمون، لنشرح الكبت، على ضرورة أن نفترض وجود ضرب من تعدّد الأنا. ولا ينبغي لهذا المفهوم أن ينطوي على صعوبات خاصة لمن يعرف المشكلات التي يطرحها المرضى شبه الفصاميين معرفة جيدة ولكننا لانستطيع، في هذا المجال ومجالات أخرى أيضًا، أن نجهل الحدود المفروضة على نظرية التحليل النفسي، في بعض من تطوّراتها الأحدث، بفعل الأهمية التي يمنحها بعضهم لظاهرة الاكتئاب السوداوي.

١٠ ـ «حلم الضروب الثلاثة من الأنا»

(يقصّ المؤلف هنا، حتى يوضّح بالمثال أطروحته، أطروحة تعدّد ضروب الأنا، حلم مريضة من مرضاه أتت إلى التحليل بسبب برودتها الجنسية التي يعزوها

المحلّل إلى التفكّك الهستيري. وفي حلمها، تهاجم المريضة جسمياً ممثّلةٌ مشهورة. ويشهد المشهد زوجُ الحالمة دون أن يفعل شيئًا لمساعدتها ولا حتى لحمايتها. وترى نفسها تسبح في دمها، عندما يصبح هذا الوجه، الذي هو وجهها، وجه رجل. ثم تتلاشى الرؤية، ومن جديد إنما تتأمل سماتها الخاصة. وتستيقظ بالتالي فريسة الحصر...

وتبيّن الترابطات الأولى بين أفكارها أن وجه الرجل، الذي بدا على نحو عابر، يمكنه تمامًا أن يكون وجه الزوج؛ أما الممثّلة، فإن المادة العيادية البادية خلال التحليل تبرهن أنها تمثّل، بين ماتمثل، أم المريضة، امرأة مصطنعة، خالية من كل دفء وعفوية.

ويميّز رونالد فيربْرن، في التفسير، ثلاثة ضروب من الأنا في هذا الحلم، أحدها الأنا المركزية، والآخرين هما ثانويان، ويفحص فيما يلي علاقاتها بالموضوعات).

كل ضرب من الضروب الثلاثة للأنا تصلح بصورة طبيعية لارتباط بموضوع خاص. فالموضوع الخاص للأنا المركزية كان زوج الحالمة؛ ومن المناسب أن ننكبّ أول الأمر على طبيعة موقف الأنا المركزية للحالمة من زوجها. وبالنظر إلى أن الأنا المركزية كانت «الأنا الشخصية» مراقبة الحلم، المحسوس أنه مستمرّ دون انقطاع بفعل «الأنا الشخصية» اليقظة التي تصف هذا الحلم لاحقًا، فإن بوسع المرء أن يفترض، دون مجازفات، أن هذه الأنا قبل شعورية إلى حد كبير ـ وذلك أمر يوافق في جميع الأحوال ماللمرء حق في أن يتوقّعه من أنا جديرة بأن توصف أنها «مركزية». ويعزّز هذا الفرض واقعٌ مفاده أن زوج الحالمة كان يكوّن موضوعًا ذا أهمية قصوى في الواقع الخارجي وكان يحتلّ مكانًا كبيراً في الأفكار الشعورية لدى الحالمة عشية الحلم. وعلى الرغم من أن الوجه الذي يمثّله في الحلم ينبغي أن يُعدّ موضوعًا مستدخَلاً، فإن هذا الموضوع يجب، بكل وضوح، أن يحتلّ، في كنف النفس، موقعًا أكثر سطحية من مواقع الموضوعات الأخرى الممثَّلة (موضوعات

أبوية مستدخلة خلال الطفولة)؛ وينبغي لهذا الموضوع أن يكون مطابقًا، على نحو دقيق نسبيًّا، مع نظيره في الواقع الخارجي. وبالتالي، يتّخذ موقف الحالمة من زوجها، بوصفه موضوعًا خارجيًّا، أهمية كبيرة فيما يخصّ المشكلات التي تشغلنا. وهذا الموقف يتصف على نحو أساسي بثنائية المشاعر، لاسيّما في مجال العلاقات الزوجية. وكان غياب مظهر العدوان الفاعل إزاء زوجها، مع ذلك، مدهشًا؛ كذلك التعلّق الليبيدي بالزوج كان موسومًا على نحو قويّ بكبت جدّي؛ وكانت المريضة، في الترابطات الخاصة بالحلم بين أفكارها، تلوم نفسها على النقص لديها في عواطفها العميقة إزاء زوجها كما تلوم نفسها على عجزها عن أن تهبه شيئًا من نفسها، مع أن إمكاناتها الشعورية لعلاج هذه الضروب من القصور كانت محدودة في أن تؤدّي دور «الزوجة الطيبة». ويمكن أن نتساءل عندئذ، لأن العدوان الخفي إزاء زوجها وحاجة زوجها الخفية، اللذين لايبدوان علانية في الحلم، ماإذا كان ممكنًا أن يظهرا بصورة غير مباشرة.

١١ ـ هجمات «المخرّب الداخلي» على الأنا الليبيدية وموضوعها

نحن نتذكّر مباشرة، منذ طرح السؤال، ذلك التحوّل الذي طرأ على وجه الأنا الليبيدية التي يهاجمها وجه المخرّب الداخلي. فالأنا الليبيدية تحوّلت وبدأت في الحال تتناوب مع رجل كان مع ذلك يقترن اقترانًا عميقًا بزوجها، مع أنه يمثّل في الوقت نفسه أب الحالمة على مستوى عميق. فمن الواضح إذن أن نسبة كبيرة من عدوان المريضة كان قد امتصّه هجوم ليس موجّهًا ضد الأنا الليبيدية فحسب ولكنه موجه أيضًا ضد موضوع داخلي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذه الأنا، بدلاً من أن تتوجه الحالمة إلى الزوج بوصفه موضوعًا خارجيًّا. ومن الواضح أيضًا أن هذا الحجم من العدوان كان بتصرّف المخرب الداخلي وليس بتصرف الأنا المركزية. فماذا نقول عندئذ عن المكوّنة الليبيدية لثنائية المشاعر؟ إن الموقف الليبيدي من الزوج كان ينطوي على علامات إفقار كبير، على الرغم من النوايا الطيبة الظاهرة على المستوى الشعوري. ومن الواضح بالتالي أن ماكان صحيحًا عن العدوان كان صحيحًا أيضًا

عن الليبيدو. فثمة نسبة كبيرة منه كانت قد كفّت عن أن تكون بتصرّف الأنا المركزية. والموضوع الذي كان يتوجّه إليه هذا الحجم من الليبيدو لايمكنه أن يكون موضع شك. ففي الحلم، لايمكن أن يكون المقصود سوى الرجل الذي كان يتناوب مع الذات الليبيدية بوصفها موضوع العدوان. ولم يكن هذا الليبيدو، على عكس العدوان، بتصرف المخرب الداخلي مع ذلك. وينبغي لنا أن نعدّه، على العكس، بتصرف الأنا الليبيدية. ومن المؤكد أن لهذا السبب على وجه الدقة إنما فرض نفسه عليّ مصطلح «الأنا الليبيدية». وفي هذه المرحلة، من المناسب أن نصوغ ريبة وجب عليها أن تولد في ذهن القارئ، بمعنى أن هجوم المخرب الداخلي غير موجه، مع أنه ممثّل في الحلم، ضد الأنا الليبيدية إلا بصفة ثانوية، وأنه موجه أساساً إلى الموضوع الليبيدي المتناوب مع هذه الأنا. وإذ نفترض أن هذه الريبة مشروعة، فإننا ينبغي لنا أن نعدّ المحنة التي تتعرّض لها الأنا الليبيدية علامة توحّد كامل جداً ـ وبالتالي علامة تعلّق ليبيدي عميق جداً للأنا الليبيدية بالموضوع موضع الهجوم. إن هذا إنما هو البرهان على درجة «الألم» الذي تكون الأنا الليبيدية مستعدّة لمعاناته بفعل حبها لموضوعها. والحصر الذي تستشعره الحالمة عند الاستيقاظ يمكننا تفسيره على نحو مشابه؛ والواقع أنني أتجرّأ على أن أزعم أن هذا الحصر كان يمثّل غزوة هذا الألم للأنا الليبيدية على مستوى الوعي. وهذا يذكّر في الحال تصور فرويد للحصر العصابي بوصفه ليبيدو يتحوّل إلى ألم. وهذه الأطروحة التي طرحت عليّ المشكلات النظرية الأكثر خطورة، في مرحلة معينة، انتهيت إلى تثمينها في ضوء موقعي الراهن وإنني أفضّلها كثيراً على الأطروحة المعدّلة التي تبنّاها فرويد لاحقاً تبنياً لايخلو في رأيي من بعض التردّد.

١٢ ـ أنا مركزية عدوانية مقابل ضربين ثانويين من الأنا

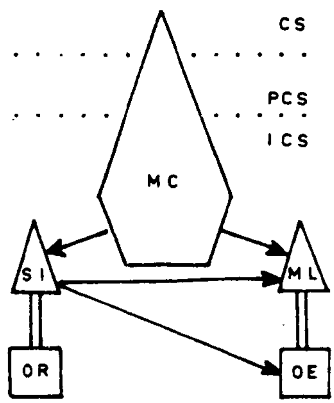
النظرية الخاصة بالعلاقات بالموضوع لثلاثة ضروب من الأنا، ممثّلة في الحلم، تتوضّح الآن في بعض الحدود؛ ولكن هذا التوضيح لايزال غير كلّي. ويبدو أن الوضع، كما ظهر حتى هنا، هو التالي: موقف الحالمة قبل الشعوري من زوجها ثنائي المشاعر؛ والمقصود هو الموقف الذي تبنّته الأنا المركزية إزاء الموضوع الخارجي والممثّل المستدخَل لهذا الموضوع على حدّ سواء. ومكوّنتا العلاقة

بالموضوع ـ الليبيدية والعدوانية معًا ـ للأنا المركزية هما مكوّنتان سلبيتان بصورة خاصة. وثمة، من جهة أخرى، نسبة كبيرة من ليبيدو الحالمة الفاعل هي بتصرف الأنا الليبيدية وتتوجّه إلى موضوع مستدخَل ربما ينبغي لنا، لأسباب مصطلحية، أن نسمّيه باسم «موضوع (داخلي) مثير». أضف إلى ذلك أن نسبة كبيرة من العدوان هي بتصرّف المخرّب الداخلي وتتوجّه أولاً إلى الأنا الليبيدية، وإلى الموضوع المثير (أي موضوع الأنا الليبيدية) ثانيًا. ومن المتعذّر أن لايلاحظ المرء مع ذلك أن هذا التركيب لايأخذ بالحسبان بعض العلاقات النفسية الداخلية التي يمكننا أن نفترض وجودها ـ لاسيّما علاقة الأنا المركزية بضربي الأنا الآخرين وعلاقة المخرب الداخلي بالموضوع المستدخَل، المقترن به اقترانًا وثيقًا، الذي تمثّله مكوّنة الأم في وجه الممثّلة. ونحن نرى دون صعوبة، إذا بدأنا بهذه العلاقة الأخيرة، أن المخرب الداخلي يتوحّد توحدًا متينًا بموضوعه لأن الممثّلة في الحلم وجه مركب يمثّل أم الحالمة والحالمة معًا، وينبغي أن نعدّه بالتالي مرتبطًا بهذا الموضوع بفعل تعلق ليبيدي قويّ وعلينا، لغايات وصفية، أن نطلق اسمًا على هذا الموضوع؛ وأقترح تسميته «موضوعًا (داخليًا) رافضًا». واخترت هذا المصطلح بالأساس لسبب سيبدو فيما بعد؛ ولكنني سأسوّغ في غضون ذلك هذا الاختيار قائلاً إن أم الحالمة ـ نموذجًا أصليًّا لهذا الموضوع المستدخَل ـ كانت على نحو أساسي وجهًا رافضًا وأن باسم هذا الموضوع إنما يتوجّه عدوان المخرب الداخلي، إذا جاز القول، إلى الأنا الليبيدية.

أما علاقة الأنا المركزية بالضربين الآخرين من الأنا، فإن المؤشر الأهم الموجود بمتناولنا لنتكهّن طبيعتها يكمن في واقع مفاده أن الضربين الآخرين من الأنا ينبغي أن نعدّهما لاشعوريين بصورة أساسية، في حين ينبغي أن نعدّ الأنا المركزية ذات عناصر قبل شعورية وكذلك لاشعورية. وبوسعنا أن نستنتج من ذلك أن الأنا الليبيدية والمخرب الداخلي مرفوضان من الأنا المركزية؛ وهذا الاستنتاج يؤكده واقع مفاده، كما رأينا، أن الحجم الكبير لليبيدو والعدوان، الذي كفّ عن أن يكون بتصرف الأنا المركزية، موجود الآن بتصرف الضربين الثانويين من الأنا. وإذ نفترض عندئذ أن الأنا المركزية ترفض الضربين الثانويين الآخرين، فإن بوسعنا أن

نتساءل عن ديناميك هذا الرفض الذي لايمكن بكل وضوح أن يكوّنه الليبيدو. فليس بوسعنا إذن إلا الاعتقاد أن العدوان هو الذي يكوّنه. والعدوان، لهذا السبب، ينبغي أن ننظر إليه أنه الخاصة التي تحدّد موقف الأنا المركزية من الضربين الثانويين من الأنا.

١٣ ـ تخطيطية مميّزة لما يحدث في النفس



MC = الأنا المركزية؛

SI = المخرّب الداخلي؛

OR = الموضوع الرافض؛

ICS = اللاشعور ⟵ العدوان = الليبيدو؛

CS = الشعور؛

PCS = قبل الشعور؛

ML = الأنا الليبيدية؛

OE = الموضوع المثير؛

إنني انتهيت بهذا التقرير من محاولتي الهادفة إلى أن نعيد تكوين الوضع النفسي الداخلي الممثَّل في حلم مريضة، تبعًا للبنية الدينامية. واتّخذ هذا التقرير شكل تصريح استدلالي؛ وهو، بوصفه كذلك، ينبغي له أن يقدّم أضواء فيما يخصّ دلالة أطروحتي التي تكون الأحلام بحسبها، على نحو أساسي، «صوراً موجزة» للواقع الداخلي (أكثر من كونها إنجازات رغبات). ولم يكن هدفي بصورة أساسية مع ذلك أن أسوّغ أفكاري عن الأحلام على وجه العموم إذ لفتّ انتباه القارئ في هذه النقطة إلى حلم واحد. بل على العكس، لأن الحلم المعنيّ يبدو لي أنه يمثّل وضعًا نفسيًّا داخليًّا كلاسيكيًّا له في الواقع سمة أساسية تتيح أن نعدّه النموذج الإرشادي لكل الأوضاع النفسية الداخلية. وبقصد السهولة في الفهم، أوضحنا السمات الأساسية لهذا الوضع في التخطيطية السابقة.

١٤ ـ الوضع النفسي الأساسي

إنني مقتنع أن الوضع النفسي الداخلي الأساسي المذكور أعلاه مضمر في وصف فرويد الجهاز النفسي القائم على الأنا والهو والأنا العليا. والمقصود، على كل حال، هو الوضع النفسي الداخلي الذي بَنيتُ عليه النظرية المنقحة، نظرية البنية النفسية التي عرضتها بالتتابع وعبّرت عنها تبعًا للأنا المركزية والأنا الليبيدية والمخرب الداخلي. وثمة بالطبع، كما يمكن أن نتوقّع، توافق عام بين المفاهيم الفرويدية والمفاهيم التي انتهيت إلى أن أتبنّاها. والتوافق مع أنا فرويد، في حالة الأنا المركزية، وثيق جداً من وجهة النظر الوظيفية؛ ولكن هناك فروقًا كبيرة بين هذين المفهومين. فالأنا المركزية، على عكس أنا فرويد، لا أتصورها تولد انطلاقًا من شيء آخر (الهو) أو بوصفها بنية سلبية تتوقّف، فيما يخصّ فاعليتها، على الاقتراحات الدافعية الصادرة عن الرحم الذي خرجت منه وعلى سطحه تكوّنت. فالأنا المركزية أتصورها، على العكس، بنية أولية دينامية تُشتقّ منها بالتالي، كما سنرى في الحال، تلك البنيات النفسية الأخرى. أما الأنا الليبيدية، فإنها تقابل الهو الفرويدي بالطبع؛ ولكن الأنا الليبيدية مشتقة، في رأيي، من الأنا المركزية (المقابلة

للأنا)، في حين أن الأنا مشتقة من الهو في رأي فرويد. وتختلف الأنا الليبيدية أيضًا عن الهو بمعنى أنها متصوّرة بوصفها، لامجرد خزّان للدوافع، بل بنية دينامية شبيهة بالأنا المركزية، مع أنها تختلف عن هذه الأنا المركزية من جوانب كثيرة، بسبب، على سبيل المثال، سمتها الأكثر طفولية، ودرجة أقلّ من التنظيم، ودرجة أقلّ من التكيّف مع الواقع، ودرجة أكبر من التعلّق بالموضوعات المستدخَلة. ويختلف المخرّب الداخلي عن الأنا العليا من عدد معيّن من وجهات النظر. فهو، من جهة، لايتُصورّ على أي حال بوصفه موضوعًا داخليًا. إنه يكوّن، في كليته، بنية من الأنا، مع أنه، كما رأينا، يكون مرتبطًا بموضوع داخلي على نحو وثيق. أما الأنا العليا، فإنها أقرب في الواقع إلى أن تكون مركّبًا من هذه البنية ومن موضوعها المقترن (كما في حالة وجه الممثّلة في الحلم) من أن تكون مخربًا داخليًا. ويختلف المخرب الداخلي عن الأنا العليا، من جهة أخرى، بسبب كونه يتُصورّ أنه خالٍ في ذاته من كل دلالة أخلاقية. وهكذا لاأعزو الحالة الانفعالية للإثمية إلى فاعليته، مع أن هذه الفاعلية تكوّن دون شك مصدر حصر متكاثر. وهذا الحصر يمكنه بالطبع أن ينصهر بالإثمية؛ ولكن هاتين الحالتين الانفعاليتين متمايزتان تمامًا، من وجهة نظر نظرية. وثمة مجال لأن نلاحظ هنا أنني لست على استعداد، مع أنني أدخلت مفهوم المخرب الداخلي، للتخلّي عن مفهوم الأنا العليا كما انتهيت إلى التخلّي عن مفهوم الهو. ويبدو لي، على العكس، متعذّرًا أن نشرح الإثمية على نحو مرْض، من وجهة النظر السيكولوجية، في حال غياب الأنا العليا؛ ولكن هذه الأنا العليا ينبغي أن نعدّها ناشئة في درجة من التنظيم النفسي أعلى من الدرجة التي يعمل فيها المخرب الداخلي. فمسألة الطبيعة الدقيقة للعلاقة بين فاعليتي هاتين البنيتين ينبغي أن تظلّ معلّقة مؤقتًا؛ وعليّ أن أحيل القارئ، فيما يخصّ التعبير الأحدث عن آرائي ذات العلاقة بأصل الأنا العليا ووظيفتها، إلى مقال سابق (١٩٤٣).

١٥ ـ الأنا الليبيدية لدى فِرْبِرْن تقابل الهو الفرويدي

بدا لي ضروريًا، قبل الانتقال إلى النظر في أصل ماسمّيته «الوضع النفسي الداخلي الأساسي»، أن أذكر بعض النتائج من النسق العام التي يظهر أنها ناجمة عن طبيعة هذا الوضع نفسها. وأولى هذه النتائج، والأكثر وضوحًا، تكمن في الاعتراف بانشطار الأنا. وبهذا الصدد، بالتالي، يكون الوضع النفسي الداخلي الأساسي كما بدا مماثلاً لنموذج الوضعية شبه الفصامية، وتلك وضعية انتهيت إلى أن أعدّها مركزية (بدلاً من الوضعية الاكتئابية). وكان فرويد قد بسط نظريته في الجهاز النفسي انطلاقًا من الوضعية الاكتئابية بالطبع؛ وعلى هذه القاعدة نفسها إنما بسطت ميلاني كلاين قضاياها. إن الوضعية شبه الفصامية هي التي، على العكس، تكوّن قاعدة نظرية البنية التي سأعرضها للتوّ. وثمة مجال، بالإضافة إلى ذلك، لأن نلاحظ أن الوضع النفسي الداخلي الذي كشف عنه حلم مريضتي كان يقدّم أيضًا، مع أنه يقابل في الوقت نفسه نموذج الوضعية شبه الفصامية، شرحًا مرْضيًا، تبعًا لبنية دينامية، للبرودة الجنسية الهستيرية لدى الحالمة. ونحن نعيد التفكير، في هذه المناسبة، بارتباط الأعراض الهستيرية الشائع باتجاه شبه فصامي مضمر ـ ارتباط كنا قد ألمحنا إليه آنفًا. ويبدو أن هناك أسبابًا مناسبة لنصوغ نتيجتنا الثانية التي تنجم وفقًا لها الظاهرات الهستيرية، على نحو متلازم، عن وضعية شبه هستيرية وأساسية. وتأتي نتيجتنا الثالثة في أعقاب ماكان قد قيل عن الاتجاه العدواني لدى الأنا المركزية فيما يخصّ ضربي الأنا الثانويين. وتكمن هذه النتيجة في القول إن انشطار الأنا الملاحظ في الوضعية شبه الفصامية ناجم عن فاعلية حجم معيّن من العدوان يظلّ بتصرّف الأنا المركزية. وهذا العدوان هو الذي يقدّم ديناميك الفصل بين ضربي الأنا الثانويين والأنا المركزية. فضربا الأنا الثانويان هما بالطبع لاشعوريان على وجه العموم. ويمكننا، لهذا السبب، أن نشتبه في الحال أنهما عرضة للكبت. تلك بالتأكيد هي حالة الأنا الليبيدية (المقابلة للهو الفرويدي). ولكن أي شيء لايتيح لنا أن نعتقد، إذا كانت إحدى البنيتين الثانويتين من الأنا

يمكنها أن تُكبت، أن البنية الأخرى تفلت من معاملة مماثلة من جانب الأنا المركزية. وستكون نتيجتنا الرابعة، بالتالي، أن المخرب (الذي يقابل في جزء كبير منه الأنا العليا الفرويدية من حيث وظائفها) ليس أقلّ عرضة للكبت من الأنا الليبيدية. وقد تبدو هذه النتيجة، للوهلة الأولى، أنها تدخل في نزاع مع النظرية التي كنت قد قدّمتها آنفًا (١٩٤٣)، بمعنى أن الكبت يتوجّه توجهًا أساسيًا إلى الموضوعات السيئة المستدخَلة.

١٦ ـ طبيعة الكبت الحقيقية

لا وجود في الواقع لتناقض حقيقي؛ ذلك أنني أعدُّ كبت الضربين الثانويين من الأنا، كما أنظر إليهما حاليًا، ضربًا من النتيجة لكبت الموضوعات السيئة المستدخلة. فالهجوم الذي يقوده المخرب الداخلي ضد الأنا الليبيدية يقدّم لنا مثالاً مفيدًا؛ ذلك أن العدوان المستخدم في هذا الهجوم يتوجّه توجّهًا أساسيًا، كما رأينا، إلى الموضوع المثير الذي ترتبط به الأنا الليبيدية، وإلى الأنا الليبيدية نفسها على نحو ثانوي فقط. كذلك أعدُّ كبت الأنا الليبيدية بفعل الأنا المركزية تاليًا لكبت الموضوع المثير. فنتيجتنا الخامسة ليست، في ضوء ماسبق، بحاجة إلى أي إرصان. إنها تكمن في القول إن العدوان يكوّن ديناميك الكبت. أما نتيجتنا السادسة والأخيرة، الناجمة عن الملاحظات السابقة أيضًا، فهي تكمن في أن انشطار الأنا، من جهة، وكبت الضربين الثانويين من الأنا بفعل الأنا المركزية، من جهة أخرى، يكوّنان بصورة أساسية الظاهرة نفسها حين ننظر إليها من زاويتين مختلفتين. ومن المناسب أن نذكّر بأن فرويد أرصن في هذه المرحلة مفهوم الكبت ليحاول شرح ظاهرة الهستيريا، في حين أن بلولر صاغ مفهوم انشطار الأنا ليحاول شرح الظاهرة التي تُسمّى **الخبل المبكّر**، منتظرًا إدخال مصطلح «فصام» ليحل محلّه. وتتيح نتيجتنا الأخيرة على هذا النحو أن تسوّغ الفكرة التي مفادها أن الوضعية المضمرة في نموّ الأعراض الهستيرية وضعية شبه فصامية بصورة أساسية.

١٧ ـ تأكيدٌ بفعل العيادة: السوداوية

إننا أكملنا، إذ وصفنا أصل الاتجاه العدواني الذي يتبنّاه المخرب الداخلي إزاء الأنا الليبيدية والموضوع المثير، شرحنا السيرورات التي تحدّد النمط الدينامي للوضع النفسي الداخلي الأساسي. وثمة مجال، مع ذلك، لأن نضيف شيئًا إلى ما قلناه آنفًا فيما يخصّ طبيعة الكبت وأصله. فالكبت، وفق المبادئ المعروضة حتى هنا، سيرورة ناجمة عن رفض الأنا غير المنشطرة ذلك الموضوع المثير، كذلك الموضوع الرافض. وهذه السيرورة للكبت الأولية ترافقها سيرورة ثانوية تنقسم الأنا وفقها وتنبذ جزأين من أجزائها يظـلّان مرتبطين، بالتبادل، بكلا الموضوعين الداخليين المكبوتين. وتتبنّى الأنا المركزية (راسب الأنا غير المنقسمة)، في الوضع الناجم عن ذلك، اتجاه النبذ، نبذ ليس إزاء الموضوع المثير والموضوع النابذ (الرافض) فحسب، ولكنه نبذ إزاء ضربي الأنا الثانويين، ثمرتي الانشطار، المرتبطين بالتبادل بهذين الموضوعين ـ أي الأنا الليبيدية والمخرب الداخلي. وهذا الاتجاه الذي تتبنّاه الأنا المركزية، اتجاه النبذ، يكوّن الكبت؛ ويكوّن العدوان ديناميك النبذ. فكل شيء على مايرام حتى هنا. ولكن هذا الشرح، شرح الكبت وطبيعته، غير كامل من حيث أنه مايزال لايأخذ بالحسبان ماتستلزمه التقنية الكامنة في تقليص حجم الليبيدو والعدوان الجاهزين، لتعبّر عن نفسها إزاء الموضوعات الخارجية، إذ تستخدم الحدّ الأقصى من العدوان لتبيد الحد الأقصى من الليبيدو. وهذه التقنية، كما رأينا، تظهر بسيرورة يستعيد المخرب الداخلي وفقًا لها فائض العدوان ويُستخدم لمهاجمة الأنا الليبيدية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، تستعيد الأنا الليبيدية وفقًا لهذه السيرورة فائض الليبيدو ويُوجَّه ضد الموضوع المثير. فإذا أكبّ المرء على الدلالة الحقيقية لهذه السيرورة، فإنه يفهم مباشرة أن الهجوم المستمر للمخرب الداخلي على الأنا الليبيدية ينبغي أن يؤثّر تأثيرًا قويًّا ليبلغ أغراض الكبت. ومن المؤكد، فيما يخصّ الديناميك، أنه يبدو أكثر من محتمل أن المقصود بذلك العامل الأكثر أهمية في صيانة الكبت. فعلى الظاهرة التي ذكرناها للتوّ إنما بُني بكل تأكيد تصوّر فرويد الأنا العليا ووظائفها الكابتة؛ ذلك أن العداء العنيف

الذي يميّز، في رأي فرويد، موقف الأنا من دوافع الهو، يطابق على وجه الدقة ذلك الموقف العدواني المتشدّد الذي يتبنّاه المخرب الداخلي إزاء الأنا الليبيدية. كذلك ملاحظة فرويد، التي تكون وفقها ضروب اللوم الذاتي لدى السوداوي، في نهاية المطاف، ضروب لوم موجّهة إلى الموضوع المحبوب، تطابق الاتجاه العدواني كل المطابقة، الاتجاه الذي يتبنّاه المخرب الداخلي إزاء الموضوع المثير.

١٨ ـ الذئب المقنّع في خروف، أو عناد ثنائية المشاعر، الأولية

ليس من الضروري، في هذه المرحلة، أن نكرّر الانتقادات التي صيغت ضد تصوّريّ فرويد الأنا العليا والهو وكذلك ضدّ ما ينطوي عليه هذان التصوران. ويبدو مع ذلك مستحبًا أن نلفت انتباه القارئ إلى واقع مفاده أن فرويد جهل في وصفه جهلاً كليًّا كل ماتنطوي عليه الظاهرة التي وصفتها كتعلّق الأنا الليبيدية بالموضوع المثير. وهذا التعلّق ينتهي إلى أن يمتصّ حجمًا كبيراً من الليبيدو. أضف إلى ذلك أن الليبدو المعنيّ يتوجّه إلى موضوع داخلي ومكبوت معًا؛ وهو، لهذا السبب، متوجّه حتمًا في اتجاه الواقع الخارجي. تلك هي الحالة؛ فبحث الأنا الليبيدية عن الموضوع يعمل بوصفه مقاومة، إذ يعزّز المقاومة الناجمة مباشرة عن الكبت تعزيزاً قويًّا، مع أنه، على غرار المقاومة الأخيرة، في نزاع مع الأغراض العلاجية. والمقصود مبحث كنت قد عالجته آنفًا (١٩٤٣)، **إذ أغيّر ماينبغي أن يتغيّر**، وأضيف هنا شرط **تغيير ماينبغي أن يتغير**، ذلك أني لم أكن، حين كنت قد كتبت هذا المقال، قد صغت بعدُ هذه الدعاوى الحالية التي تتناول البنيات النفسية الداخلية؛ ولكن لهذه الدعاوى الجديدة مفعول مفاده أنه يدعم البحث الأولي بدلاً من العكس. وهذا المبحث يتناقض كليًّا بالطبع مع التصريح الذي صاغه فرويد (١٩٧٧)[٧]: (اللاشعور، أي المادة «المكبوتة»، لايقدّم أي مقاومة للجهود العلاجية). والمقصود مع ذلك مبحث ينمو بصورة طبيعية انطلاقًا من فكرة مفادها أن الليبيدو يتوجّه توجهًا أساسيًّا نحو البحث عن الموضوعات، في حين أننا نأخذ

(٦) «ماوراء مبدأ اللذة»، في محاولات في التحليل النفسي، باريس، بيّو، ١٩٥١.

بالحسبان مايجري عندما يكون الموضوع المنشود موضوعًا داخليًّا مكتوبًا. وليس ثمة مايثير الشك في أن تعلّق الأنا الليبيدية العنيد بالموضوع المثير ونفورها من التخلّي عن موضوعها يكوّنان مصدر مقاومة هائلة على نحو خاص ـ ودورها لن يكون مطلقًا غير ذي دلالة في تحديد ما يُسمّى الارتكاس العلاجي السلبي. فالتعلّق المعنيّ، ذو الطبيعة الليبيدية، لايمكنه بالتأكيد أن يُعدّ في ذاته ظاهرة كابتة؛ ولكنه يعمل أيضًا، مع أنه في الوقت نفسه نتيجة الكبت الذي تمارسه الأنا المركزية، بوصفه مساعداً قوياً في سيرورة الكبت هذه. ولهجوم المخرب الداخلي ضد الأنا الليبيدية (الموضوع المثير) مفعول مفاده بالتأكيد أن يستمرّ أبدًا تعلّق الأنا الليبيدية بموضوعها، بمقتضى واقع مؤدّاه أن هذا الموضوع مهدَّد باستمرار. ونحن نميّز هنا الذئب الأولّي المقنّع بجلد خروف، أعني أن لدينا فكرة عن الوضع ثنائي المشاعر الأولي الذي يدوم في ظلّ تقنّعاته كلها؛ ذلك أن مايمثّله بالفعل تعلّق الأنا الليبيدية العنيد بموضوعها المثير، والعدوان العنيد أيضًا، والمخرب الداخلي إزاء هذا الموضوع نفسه، إنما هو عناد الاتجاه ثنائي المشاعر الأولي. والحقيقة أن الفرد ينفر كثيراً، أيًّا كانت نوعية التقنّع، من التخلّي عن الكره الأصلي، ومن التخلّي أيضًا عن الحاجة الأصلية إلى الموضوعات الأصلية للطفولة. وهذا أمر صحيح بصورة خاصة بالنسبة للأفراد المصابين بالعصاب النفسي (النُفاس) والمصابين بالذهان، دون أن نتكلّم على أولئك الذين يدخلون في فئة السيكوباتيين.

١٩ ـ ضرب من نظرية للكبت أكثر صحة

إذا كان تعلّق الأنا الليبيدية بالموضوع المثير مساعداً قويًّا على الكبت، فإن بوسعنا أن نتكلّم أيضًا على الاتجاه العدواني الذي يتبنّاه المخرّب إزاء الموضوع الداخلي. أما مايخصّ سيرورة الكبت الحقيقية، فإن المخرب الداخلي يختلف مع ذلك عن الأنا الليبيدية من جانب ذي أهمية؛ ذلك أنه لايشجّع على الكبت فحسب، ولكنه يعمل بصورة واقعية كالكبت فضلاً عن ذلك ـ فهو يمارس، في

على الموضوع المثير، وظيفة محارب مشارك في الواقع، مع أنه ليس حليفًا ـ مع الأنا المركزية التي يمثّل كبتها الموضوع المثير، كما رأينا، مظهر عدوان. ويعمل المخرب الداخلي، بالإضافة إلى ذلك، عمل محارب مشارك مع الأنا المركزية، بسبب هجومه على الأنا الليبيدية ـ هجوم يُضاف إلى الهجوم الذي ينطوي عليه كبت الأنا المركزية هذه الأنا الليبيدية. وبمعنى من المعاني، يمكننا القول بالتالي إن هجمات المخرب الداخلي على الأنا الليبيدية والموضوع الذي ترتبط به تمثّل **شكلاً غير مباشر للكبت** يكمل ويشجّع معًا ذلك الكبت المباشر الذي تمارسه الأنا المركزية على هذه البنيات.

ويدين ضربا الأنا الثانويين بأصلهما لانشطار الأنا غير المقسومة، كما قلنا آنفًا؛ ولكن مايبدو، كما رأينا أيضًا، بوصفه مجرد انشطار الأنا، من وجهة نظر موقعية، يمثُل، من وجهة النظر الدينامية، بوصفه نبذًا فاعلاً وكبتًا تمارسه الأنا المركزية على ضربي الأنا الثانويين. وهكذا، ثمة مجال لأن نلاحظ أن ضربًا واحدًا من ضربي الأنا الثانويين ـ الأنا الليبيدية ـ ينبغي أن يكون خاضعًا لسيرورة الكبت غير المباشر، في حين أن ضربي الأنا الثانويين ـ الأنا الليبيدية والمخرب الداخلي ـ يشاركان في القدر نفسه فيما يخصّ الكبت المباشر. وإذا أخذنا بالحسبان مايميّز الكبت المباشر من الكبت غير المباشر، في ضوء ماسبق، فإن من المؤكد بالطبع أن سيرورة الكبت التي يصفها فرويد تماثل، على نحو أوثق، وصفي الكبت غير المباشر أكثر مما تماثل وصفي الكبت المباشر. وإذا قارنا مع ذلك تصوّر فرويد الكبت بتصوري إياه بوصفه ظاهرة كلية ـ مباشر وغير مباشر على حدّ سواء ـ فإن من الممكن أن نكتشف سمة مشتركة بينهما: المكوّنات الليبيدية للنفس خاضعة لكبت أكثر بروزًا من كبت المكوّنات العدوانية؛ ولكن الأمر الذي لايكون موضع شك بالطبع أن ثمة كبتًا للمكوّنات العدوانية؛ ولكن من الصعب على المرء أن يرى كيف يمكن أن يُفسّر هذا الواقع تفسيرًا متماسكًا في ضوء نظرية فرويد في الجهاز النفسي. فهذه النظرية، كما هي متصوَّرة، على قاعدة الطلاق الأساسي بين الدافع والبنية، تبدو أنها لاتتيح إلا كبت الليبيدو؛ ذلك أن كبت العدوان في النظرية الفرويدية،

ينطوي على ضرب من التنافر، بالنظر إلى أن العدوان يُستخدم لكبت العدوان. وعلى العكس، إذا كان الدافع، طبقًا للدعوى التي أقترحها، غير منفصل عن البنية ويمثّل الجانب الدينامي من هذه البنية ببساطة، فلا يكون شرح كبت المكوّنات العدوانية للنفس أكثر صعوبة من شرح كبت المكوّنات الليبيدية. فينبغي لنا عندئذ أن نفهم أن بنية من الأنا تستخدم العدوان لكبت بنية أخرى من الأنا مشحونة بالعدوان، لا أن نفهم أن العدوان يكبت العدوان. أما وقد قلنا قولنا هذا، فإن فكرتي، التي مفادها أن الأنا المركزية تكبت المخرب الداخلي ـ والأنا الليبيدية أيضًا ـ، تشرح كبت المكوّنات العدوانية شرحًا مرْضيًا. ويشرح الكبت غير المباشر من جهة أخرى، شرحًا مرْضيًا، واقعًا مؤدّاه أن المكوّنات الليبيدية خاضعة لكبت أكثر بروزًا من المكوّنات العدوانية. وتبدو الحقيقة كما يلي: إذا كان **مبدأ الكبت** يحكم استخدام **فائض الليبدو** في حدود أكبر من استخدام فائض العدوان، فإن **مبدأ إعادة التوزيع الموقعي** يحكم استخدام **فائض العدوان** في حدود أكبر من استخدام فائض الليبدو.

ر. د فيرْبرْن
نصّ ترجمه عن الانكليزية
س. م. أبيلّيارا

الفصل الرابع

الأنا ذات الاستقلال الذاتي

مقدّمة

هانْز هارتمان، المهاجر إلى الولايات المتحدة وأحد تلاميذ فرويد الأثيرين في رأي إرنسْت جونز، مارس التحليل النفسي بعض الزمن في باريس قبل الحرب العالمية الثانية.

ويُعدّ هارتمان في الولايات المتحدة الأمريكية، المشارك مع الألماني رودولف لووِنشتايْن الذي أسهم، خلال إقامته بفرنسا، في تأسيس رابطة باريس للتحليل النفسي[١]، أحد الذين شيّدوا هذه المدرسة الأمريكية على نحو نوعي، مدرسة سيكولوجيا الأنا[٢].

والنصّ الذي اخترناه، مستخلص من كتاب عنوانه **سيكولوجيا الأنا ومشكلات التكيّف**، سابق على المرحلة الأمريكية لمؤلفه، لأنه عُرض أمام رابطة التحليل النفسي بفيينا عام ١٩٣٧. فالأفكار التي عرضها فيه تميّز التطور الذي عرفه التحليل النفسي في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تجد سيكولوجيا الأنا تربة ملائمة على نحو خاص. ولاتضمّ سيكولوجيا الأنا مع ذلك مجموع التحليل النفسي الأمريكي، الذي تغذّيه تيارات متعدّدة ومختلفة.

---

(١) إنه حلّل أيضاً جاك لاكان، دانيال لاغاش وساشا نخْت.

(٢) سنعود إلى ذلك في آخر كتاب من هذه المجموعة.

فلْنوضّح أيضًا أن كلمة «تكيّف»، مع تضمينها المعياري، لاتتقلّص إلى مجرّد تسوية مع الواقع الاجتماعي.

إننا نفهم من «تكيّف» بالحري، في سياقه، تكامل المقتضيات الغريزية ومقتضيات العالم الخارجي والأنا العليا على حدّ سواء: إنها المهمّة التي تنجزها الأنا خلال التعلّم واختبار الواقع.

ونقول بعبارة أخرى إن سيكولوجيا الأنا تُعنى بالشروط الخاصة التي تجعل الأنا خادمًا أمينًا للسادة الثلاثة ، وتلك هي المهمة التي يحدّدها فرويد لها. وهذا العمل يتحقّق، في رأي فرويد، من خلال النزاعات ولايفضي دائمًا إلى نتيجة تقريبية وموضوعة موضع تساؤل. ويكشف هارتمان وعلماء سيكولوجيا الأنا، على العكس، عن وجود «دروب خالية من النزاع» في الأنا ـ وذلك مايسمّونه «الأنا المستقلة». وثمة في رأيهم، بالتالي ، طاقة حيادية في خدمة الأنا، أي طاقة نفسية غير غريزية.

وتبدو بعض وظائف الأنا، من هذا المنظور، مقطوعة عن جذورها الغريزية في الهو: الإدراك، الفكر، القصد، اللغة، وعدد معيّن من سيرورات النضج والتعلم أيضًا.

ومثل هذا التصور يقلّص التحليل النفسي بالفعل إلى سيكولوجيا؛ بمعنى أنه يمثّل نكوصًا تمامًا. وبوصفه تصورًا غير نزاعي، فإنه يعكس تفاؤل درب الحياة الأمريكي، ويشوّه رؤية فرويد للتصعيد[٣] تشويهًا عميقًا. إنه يعارض التشاؤمية الفرويدية معارضة جذرية.

---

(٣) انظر التصعيد: دروب الإبداع، كتاب ظهر في هذه المجموعة.

النصّ

نحن نصادف في التحليل النفسي مشكل التكيّف في علاقة مع نظرية الأنا بصورة رئيسة؛ ويبدو التكيّف أيضًا بوصفه هدف العلاج، وأخيراً يبدو في ارتباط باعتبارات بيداغوجية. ولكننا ـ وذلك مايدهشنا منذ البداية ـ في حين أننا نفهم على وجه التقريب مايعني مصطلح «مطابق للأنا»، يبدو أن مصطلح «مطابق للواقع» مرن جداً ويشمل في الواقع تصوّرات مختلفة جداً، بل متعارضة في بعض الأحيان.

ومن المؤكد أن مشكل التكيّف ليس من المشكلات التي يمكن أن يحلّها التحليل النفسي وحده. فللبيولوجيا وعلم الاجتماع حقوق مؤكدة في هذا الحقل من البحث. ونعتقد مع ذلك أن التحليل قدّم لنا آنفًا هنا أيضًا ـ وسيقدم كذلك ـ نتائج يمكن أن تؤمّنها لنا نظريات أخرى وطرائق أخرى بصعوبة؛ فنحن لنا الحق في أن نقتضي حاليًا أن لاتكون ضروب التفكّر في مشكل التكيف متناقضة مع الظاهرات والعلاقات الأساسية التي اكتشفها التحليل النفسي. والاهتمام المتزايد الذي تثيرها في الوقت الراهن هذه المشكلات يرتبط في جزء كبير منه بتوجّه معيّن في كَنَف التحليل النفسي، توجّه جعل انتباهنا يتمحّور على معرفة وظائف الأنا؛ واهتمامنا ذو علاقة أيضًا بالاهتمام الناشط على نحو متصاعد الذي نوجّهه إلى الشخصية الكلية، وذو علاقة أيضًا بالانتقادات المصاغة هنا وهناك ضدّ بعض التصورات النظرية لمفهوم الصحة النفسية الذي يُعزى على وجه الضبط إلى «حالة التكيّف مع الواقع».

وسيكون علينا، في هذا العرض، أن نذكر أشياء معروفة جداً، وربما بعض الأشياء التي ستثير تناقضًا، وأخرى أيضًا لن تكون تحليلية نفسية بالمعنى الضيّق للمصطلح ـ ولكن المرء لن يجد فيها شيئًا يكون على خلاف مع تصورات التحليل النفسي الأساسية. وبوسعنا أن نصف محاولة مفادها أن نمدّ بعض المفاهيم، التي

كانت قد أُرصنت فيما يخصّ بعض المشكلات المشخّصة من الدائرة المركزية للشخصية، على مجالات أخرى من الحياة النفسية، بأنها محاولة تحليلية نفسية بالمعنى الواسع للمصطلح، وأن ندرس تغيّرات هذه المفاهيم المرتبطة بشروط خاصة في هذه المجالات.

١ ـ أصالة التحليل النفسي

سنبدأ ببعض الملاحظات العامة المخصّصة لرسم إطار ستنبسط في كنفه مناقشتنا ـ دون أن يكون قصدنا عرضًا منهجيًّا، مقتصرين على أفكار لاغنى عنها لفهم المشكل. فالتحليل النفسي نما في زمن مبكّر جداً في اتجاه يكشف ببروز عن غَرَض أضيق وعن غرض أوسع. إنه وُلد مع دراسة المرضيّ ومع حالات على حدود السويّ والمرضيّ؛ وحقل بحثه الضيق في هذا العصر كان قد تبيّن أنه الهو والدوافع. ولكننا سرعان ما وجدنا بصورة موازية مشكلات، ومفاهيم، وصياغات، ومحاولات شرح، تتجاوز هذا الحقل الضيق وتنشد نظرية عامة للحياة النفسية. وثمة مرحلة حاسمة، وربما الأهم، كانت سيكولوجيا الأنا قد عبرتها (إننا نفكّر بأعمال فرويد نفسه خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة، ثم نفكر على نحو خاص بأعمال آنّا فرويد وبأعمال المدرسة الانغليزية، فيما يخصّ مجالاً جزئيًا آخر من البحث ـ يستند هذان الاتجاهان الأخيران أيضًا، على أي حال، إلى تصورات صاغها فرويد). ولن نشك قط، في الوقت الراهن، أن التحليل النفسي يمكنه بحق أن يزعم أنه يكوّن سيكولوجيا **عامة** بالمعنى الأوسع للمصطلح. فنحن وسّعنا على هذا النحو، وعمّقنا وأرهفنا تصوّرنا طريقة عمل تحليلية نفسية على نحو حقيقيّ.

وهدف التحليل النفسي يكمن، كما بيّنت آنّا فرويد، في معرفة معمّقة ماأمكن للمراجع الثلاثة. ولا يتيح هذا بالتأكيد أن نصف كل محاولة تسهم في هذا الهدف أنها محاولة تحليلية نفسية. فلا يمكن أن يكون المقصود هنا تعريفًا للتحليل النفسي يرتكز فقط على طريقته العلمية، على جهازه المفاهيمي، ويهمل غرضه. فلكل عمل سيكولوجي أهداف جزئية مشتركة مع أهدافنا. ولكن هذا الاشتراك

الجزئي في الموضوع يُبرز أيضًا بروزًا أوضح سمات الفكر التحليلي الأصيلة. (وحسبنا أن نأخذ التعارض بين السيكولوجيا التحليلية للأنا والتحليل النفسي لدى أدلر على سبيل المثال بالحسبان). ولم يغيّر التطور الحديث للتحليل النفسي شيئًا من توجّهه البيولوجي، ولا من تصوره التكويني، الدينامي، الاقتصادي، الموقعي، ولا من طبيعته التي تشرح مفاهيمه. وينجم عن ذلك أن نتائج السيكولوجيا التحليلية والسيكولوجيا غير التحليلية مختلفة بالضرورة عندما تدرسان الموضوع نفسه. وتختلفان على وجه الخصوص، في نهاية المطاف، بتصورهما ما هو أساسي، وهذا يقود إلى أوصاف وشروح مختلفة جداً. وكذلك الأمر في مجال علم التشريح، حيث السمات الثانوية تمامًا على مستوى مجرّد الوصف يمكنها أن تكون محدّدة في منظور تطور للفرد أو تطور للنوع. كذلك الفحم والماس يمثّلان الشيء نفسه من الناحية التحليلية في نظر الكيميائي، في حين أن ثمة فروقًا هائلة بين الجسمين في منظور آخر. وبعض السمات، التي يمكننا أن نهملها في دراسة محدودة، يمكنها على النحو نفسه، أن تكون ذات دلالة في إطار نظرية أكثر عمومية. وتمثّل هذه الأمثلة أكثر من مجرد تماثلات. ونحن نعتقد في الواقع أن التحليل النفسي يقدّم لنا نظرية نموّ نفسي تمضي أبعد من التصورّات الأخرى للحياة النفسية، بفروضها ونتائجها. وهذا يرغمنا على أن نعيد النظر، في ضوء التحليل النفسي، في الظاهرات السيكولوجية التي يتّخذها علم النفس موضوعًا له، قبل قدوم التحليل النفسي أو بصورة مستقلة عنه، وتأكيدها ودمجها.

٢ ـ مايميّز «سيكولوجيا الهو» من سيكولوجيا الأنا.

قيل غالبًا إن سيكولوجيا الأنا تكوّن حقل لقاء مع النظريات السيكولوجية غير التحليلية ـ في حين أن سيكولوجيا الهو كانت دائمًا مجالاً موقوفًا على التحليل النفسي وظلّت أيضًا خاصة به. ومن المؤكد أن الحجج التي يعارض بعضهم بها السيكولوجيا التحليلية للأنا مختلفة عن تلك التي تصطدم بها سيكولوجيا الهو؛ إنها تشبه كثيراً تلك التي تُستخدم استخدامًا شائعًا في المجال العلمي ـ إنها أقلّ عداء

وأقل حسمًا. ويتصورّ بعض المحلّلين مع ذلك أن هذا الأمر حجةتتيح الشك في واقع هذه الكشوف أو في أهميتها. ونقول إن هذا خطأ، ذلك أننا لايمكننا أن نعدّ مقاومة معرفة جديدة كالنقد المطلق لقيمتها العلمية. فإذا كان النقد المصاغ ضدّ سيكولوجيا الأنا معتدلاً بصورة نسبية، فذلك لأن غير المحلّلين لايدركون أيضًا، إلا نادراً، خلفيتها ومتضمّناتها. إن فرويد رفض، رفضًا صائبًا، عدّ التحليل النفسي «مذهبًا» بالمعنى الحقيقي للمصطلح. فهو يكوّن مع ذلك كلاً منظّمًا متماسكًا، إلى درجة مفادها أن محاولة اقتلاع أجزاء منه لا تفضي فحسب إلى تدمير الكل، ولكنها تغيّر الأجزاء وتلحق الضرر بها. فالسيكولوجيا التحليلية للأنا تختلف كثيراً، كما أكّد فينيشل، عن ضرب من «سيكولوجيا السطح»، ولو أنها تأخذ بالحسبان، على نحو متصاعد، تفصيلات السلوك والتجربة الواعية بكل أشكالها. إن السيكولوجيا التحليلية للأنا تدرس أيضًا مشكلاً قلّما عولج، مشكل السيرورات قبل الشعورية والعلاقات بينها أيضًا وبين الأنا اللاشعورية وقبل الشعورية والشعورية. ولم تكن وجهة النظر الدينامية الاقتصادية مطبّقة على هذه السيرورات إلا قليلاً جداً، ولكنها تُعنى بكلية الحياة النفسية. ويتيح لنا تطور السيكولوجيا التحليلية النفسية أن نفهم لماذا لانعرف أيضًا إلا معرفة نسبية جداً طرائق عمل الجهاز النفسي، وأنماط إعداده التي تفضي إلى **أعمال متكيّفة**. ولا يمكننا ببساطة أن نقارن بين الأنا، التي نتصورها أنها الجزء غير البيولوجي من الشخصية، وبين الهو الذي يكوّن البيولوجي: هذا المشكل، مشكل التكيّف، يحذّرنا على وجه الضبط من تمييز من هذا النوع. والصحيح والمؤكد أن الجانب، مجرد الوصفي والفينومينولوجي، يتخذ أهمية خاصة بالنسبة لسيكولوجيا الأنا. إنها تولي أهمية تفاصيل السطح النفسي، الذي كانت تميل إلى إهماله. ونحن جميعنا ولاريب على وفاق مع ذلك في الاعتقاد أن هذه التفاصيل الفينومينولوجية التي تسترعي انتباهنا حاليًا لاتكوّن في رأينا سوى درب للنفوذ أو نقطة انطلاق. أما بالنسبة إلى سيكولوجيا فينومينولوجية، بالمقابل، فإن تراكم معارف التفاصيل الوصفية يكوّن هدفًا أيضًا ـ ولاينبغي أن نستنتج من ذلك أن السيكولوجيا التحليلية

للأنا تلاحق الأهداف نفسها. فالفارق الأساسي بين العمل الفينومينولوجي والعمل التحليلي يظلّ دون تغيّر. ولايمكننا على سبيل المثال، بهذا المعنى، أن نُدخل سيكولوجيا الأنا لدى فودرنْ، المتمحورة على كل الأشكال من تجربة الأنا، في إطار الفينومينولوجيا؛ والواقع أن هذه الأشكال من التجربة المعيشة تكوّن، في تصور فودرن، مؤشّرات سيرورات (ليبيدية) أخرى ولايمكننا أن ندركها إلا بمفاهيم شارحة لا بمفاهيم واصفة.

٣ ـ الأنا لاتتشكّل إلا في النزاعات

التحليل النفسي يتميّز برباط وثيق يربط النظريات بالمهمات العملية، وهذا يشرح واقعًا مفاده أن بعض وظائف الأنا استرعت انتباهنا قبل وظائف أخرى ـ والمقصود على وجه الخصوص تلك الوظائف ذات العلاقة المباشرة بالنزاعات السائدة بين المراجع النفسية المختلفة: فالوظائف الأخرى للأنا، كذلك الشرح بالوسط المحيط، لم تكن قد ارتفعت، بسبب هذا التطور، إلى رتبة المشكل إلا في مرحلة لاحقة من علمنا ـ ولو أن بعض المشكلات المعزولة قد أدّت منذ البداية دورًا في التحليل النفسي. ومن المؤكد أن الملاحظة التحليلية النفسية اصطدمت دائمًا ببعض الظاهرات التي كانت تعاينها وتحاول إعدادها وهي ظاهرات ذات علاقة بوظائف أخرى للأنا؛ ولكن هذه الظاهرات لم تشكّل إلا نادرًا موضوع دراسة مفصّلة وموضوع تفكّر نظري. ونعلم أيضًا. بالتجربة، أن للوظائف النفسية أهمية أقلّ اتصافًا بأنها حاسمة، لفهم الاضطرابات المرضية وعلاجها ـ أي بالنسبة للمجال الذي كان دائمًا موضع الاهتمام الأكبر من المحلّلين النفسيين ـ، من سيكولوجيا النزاع الذي نجده دائمًا في أصل العصاب. ونحن بعيدون مع ذلك عن أن نبخس قيمة الدلالة العيادية لهذا المجال، ولكن الجانب النظري لهذه المسائل إنما هو الذي سيشغلنا هنا، على وجه الخصو ص، وننظر فيه مع ذلك من وجهة نظر محدّدة. ونحن نسلّم بالتأكيد أن الأنا تتكوّن مستندةً إلى النزاعات، ولكن هذه النزاعات لاتمثّل الجذر الوحيد لتكوين الأنا. فينبغي لـ **سيكولوجيا عامة للنموّ**، كما سيمكن،

في اعتقادنا، أن يكوّنها التحليل النفسي في الوقت الراهن، أن تأخذ بالضرورة هذه المجالات بالحسبان. وهذا الاندماج ينبغي له أن يجري بالمعنى المذكور أعلاه، أي أن يمثّل إعداداً جديداً لهذه الحقول من البحوث، التي تدرسها السيكولوجيا غير التحليلية، من وجهة نظر التحليل النفسي وبطرائقه. ومن المؤكد أن الملاحظة المباشرة لسيرورات النموّ، التي يجريها المحلّل النفسي (وملاحظة الأطفال المباشرة قبل كل شيء)، ستكتسب لهذا السبب أهمية علمية متنامية بالنسبة للتحليل.

٤ ـ أتوجد منطقة من الأنا خالية من النزاع؟

كل مناقشة مع الناس، كل سيرورة تعلّم أو نضج، لاتكوّن نزاعاً بالضرورة. ونجد في هذه المنطقة ذلك النموّ غير النزاعي أيضاً للإدراك، والقصد، وتصوّر الأشياء، والفكر، واللغة، وظاهرات الذكرى، والإنتاجية؛ وتُمثل فيها أيضاً مراحل النموّ الحركي المعروفة ـ الإمساك باليد، والحبو، وتعلّم المشي ـ وأخيراً السيرورات الكلية للنضج والتعلّم، إذ نقتصر على ذكر بعضها. وثمة عدد كبير من أعمال التحليل النفسي المعروفة، التي لن نذكرها هنا، وجد في ذلك نقطة انطلاقه. والحقيقة أننا لاننظر في المشكل، أغلب الأوقات، من وجهة نظر السيكولوجيا الراهنة للأنا. (درَسَ إ. بيبرنْغ، عام ١٩٣٦، تغيّرات السيكولوجيا التحليلية في الدوافع والأنا). وليس من الضروري أن نعدّد هذه الوظائف كلها. ولانريد بالتأكيد أن نزعم أن النزاعات النفسية لاتمسّ فاعليات الطفل، المذكورة أعلاه، أو الفاعليات الأخرى، التي يتحدّد موقعها أيضاً في هذا السياق. ولانعارض أن اضطرابات خلال التطور تتيح المجال لنزاعات ويكون إعدادها في ظلّ شكل من النزاعات. فنحن نبحث، على العكس، عن أن نلفت الانتباه إلى دلالة قدرها أن تكون مرتبطة بعلاقة مع ضروب النموّ والنزاعات الدافعية المعروفة جيداً، النمطية أو الفردية، وكذلك إلى النحو الذي تساعد عليه الفرد أو تمنعه من أن يسود هذه النزاعات. ونحن نقترح أن نسمّي كلية هذه الوظائف من حيث أنها تجري عملياً خارج مجال النزاعات النفسية، بالمصطلح المؤقت «منطقة الأنا الخالية من النزاع». وآمل أن

لايختلط الأمر على القارئ باستخدامنا هذا المصطلح. ونحن لانفهم منه مقاطعة نفسية ينبغي لتطوّرها بالضرورة أن يحدث بمنجى من النزاع، ولكننا نفهم منه أكثر من ذلك، أن بعض السيرورات تظلّ من الناحية الاختبارية، لدى الفرد، خارج منطقة النزاع. ومن الممكن أن نذكر ماينتمي إلى هذه الدائرة من الأنا الخالية من النزاع ذكراً من وجهة نظر طولانية وعرضانية من الحياة النفسية على حدّ سواء. وما فاتنا حتى الوقت الراهن يكمن في أن نعرف هذه المنطقة معرفة تحليلية منهجية وفي أن نحوز أيضًا معرفة أكثر كمالاً لـ «الحصر الواقعي» وسيرورات الدفاع من حيث أنها تقود إلى تطوّر سويّ، وأخيراً في أن نحوز وعيًّا أكثر بروزاً بالإسهامات التي تقدّمها هذه المنطقة الخالية من النزاع فيما يخصّ طبيعة الدفاع ونتيجته (وأشكال المقاومة) وكذلك انزياح الأهداف الدافعية. ومن الواضح، من جهة أخرى، أن بحوثًا تقتصر على هذه المنطقة ـ ذلك ما يفعله علم النفس الكلاسيكي في الأغلب ـ ستهمل بالتأكيد أوضاعًا نفسية أساسية.

٥ ـ سيكولوجيا الأنا ليست غريبة أبدًا عن التحليل النفسي

ستقدّم دراسة منطقة الأنا الخالية من النزاع، وهي تحوز على بعضٍ من الدلالة من وجهة النظر التقنية (في تحليل المقاومات على سبيل المثال)، لمشاكل التقنية التحليلية، إسهامًا أوهى من دراسة النزاعات والدفاعات؛ ولكن تلك مسألة أخرى لن ننظر فيها هنا. وربما يعترض بعضهم أن هذه المنطقة تمثّل الجزء من السيرورات النفسية الذي ينبغي أن يظلّ خارج اهتمامات التحليل النفسي ومن الأفضل أن يتركه لفروع سيكولوجية أخرى. ونحن ذكرنا آنفًا لماذا لانعتقد أن مثل هذا التحديد ومثل هذا التخلّي غير مسوّغين. وليس لنا الحق في أن نقسم مجالات علم النفس بين التحليل وفروع سيكولوجية أخرى ـ ذلك أن ممثّلي هذه التوجّهات الأخرى يجازفون في إهمال ظاهرات نموّذات أهمية تؤثّر نتائجها أيضًا في مجالات كنا نعدّها فيما مضى «خارج مجال التحليل النفسي». فإذا كنا نريد حقًا أن نجعل التحليل النفسي نظرية عامة للنموّ النفسي، فينبغي لنا أن نعمّق دراسة هذا الجزء من

علم النفس انطلاقًا من وجهة نظرنا وبطرائقنا الخاصة ـ في التحليل وبالملاحظة المباشرة لنموّ الطفل. فسيكولوجيا الأنا كلها كانت تمثّل فيما مضى، بالنسبة للتحليل النفسي، هذا «المجال الغريب» الذي كان عليه أن ينفذ إليه في كل لحظة، ولكنه كان متعذّرًا اندماجه من الناحية النظرية. كذلك الأمر في أيامنا هذه فيما يخصّ منطقة الأنا الخالية من النزاع. ولكن هذه الحدود ستنتهي، هي أيضًا، إلى أن تُرفع.

ومن المؤكد أن مشكل **التكيّف** على وجه الخصوص يُدخل سيرورات مرتبطة بأوضاع نزاعية وسيرورات أخرى مرتبطة على نحو ظاهر بهذه المنطقة الخالية من النزاع، على حدّ سواء؛ وفيما يخصّ مع ذلك مشكل التكيّف إنما فرضت المسائل التي ناقشناها هنا نفسها علينا للمرة الأولى. وسيكون مثيراً للدهشة على وجه الخصوص أن ندرس كيف تتداخل أنماط إعداد المثيرات الخارجية والداخلية ـ التي تفضي إلى القدرة على التكيّف المتوسط وإلى حالة من التكيف السويّ ـ في الحالة المشخّصة مع آليات أخرى نعرفها معرفة أفضل ونعدها سبب اضطرابات التطوّر. وسيكون مثيراً للاهتمام أيضًا أن ندرس، في هذا المنظور، مشكلات عديدة خاصة بنموّ الطبع، وجوانب الشخص التي نسمّيها «اهتمامات الأنا»، ومشكل القابليات، إلخ. وهكذا فإن مشكلاً ذا أهمية من الناحية العيادية، لم يحظ قط أيضًا بما يستحقّه من الدراسة، يكمن في النحو الذي تؤثّر بعض القابليات في توزيع الطاقة النرجسية، والطاقة ذات العلاقة بالموضوعات أو العدوانية، وكيف تيسّر إمكاناتٍ محدّدة لحلّ النزاعات وكيف تشجّع بعضَ سيرورات الدفاع.

٦ ـ الأنا: حالة ينبغي النظر فيها من زوايا مختلفة

تعلّمنا أن نعرف الأنا في فاعليتها الدفاعية المعروضة في كتاب كلاسيكي من تأليف آنّا فرويد (١٩٣٦). ولكن ثمة مشكلات وُلدت في حقل التحليل (وربما لايكون نافلاً أن نلح عليها)، تدفعنا إلى الاهتمام بوظائف أخرى للأنا وبجانب آخر من فاعلية الأنا. وبوسعنا أن نصف نموّ الأنا متّبعين النزاعات التي ينبغي لها أن

تحلّها في صراعها مع الهو والأنا العليا؛ وبوسعنا أيضاً أن نضمّن في هذه النزاعات تلك النزاعات مع العالم الخارجي وعدّ الأنا، بالتالي، متورّطة في حرب على ثلاث جبهات. وعلى هذا النحو إنما نذكر ـ على سبيل المقارنة- لنصف بلداً، أمة أو دولة، ما هي حدودها ونصف منازعاتها العسكرية مع الشعوب أو الدول المجاورة. (وهذا ليس سوى صورة من صور أخرى؛ وما نسمّيه هنا البلد ـ الجوار يكوّن على وجه الضبط جزءاً أساسيًّا ممّا نطلق عليه عموماً ـ مستخدمين صورة أخرى ـ مجال الشخصية «المركزي»). ولكننا يمكننا أيضاً أن نفحص نموّ السكان في أيام السلم، اقتصادهم، بنيتهم الاجتماعية، كذلك العلاقات السلمية التي يقيمونها مع الجيران. ويمكن أن نتصور الدولة أيضاً منظومة من المؤسسات التي يتجلّى عملها في التشريع، والسلطة القضائية، إلخ. وثمة على نحو ظاهر صلات نظامية بين وجهات النظر المختلفة هذه، ونحن نعود إلى نقطة انطلاقنا السيكولوجية ـ فهذه الصلات، والعلاقات، هي التي تنطوي على الاهتمام الأكبر بالنسبة لنا. وينبغي أن ندرس العلاقة المتبادلة بين نموّ داخلي (وخارجي أيضاً: بعض أشكال «الإعداد»، على سبيل المثال) «هادئ» وبين النزاع النفسي، من حيث أنهما يشجّع أحدهما الآخر أو يكفّ أحدهما الآخر. فإذا ضربنا مثال المشي العمودي، فإننا نرى ائتلاف عوامل بنيوية، وعوامل نضج في الأجهزة المستخدمة في المشي، وسيرورات تعلّم، وسيرورات ليبيدية، وتوحّدات. وكذلك عوامل داخلية وخارجية المنشأ ناجمة عن الدوافع والعالم الخارجي، يمكنها كلها أن تقود إلى نزاعات واضطرابات وظيفية (م. شميدو برْغ، ١٩٣٧). وأي عامل من هذه العوامل لايمكنه أن يشرح وحده هذه المرحلة الهامّة من النموّ.

٧ ـ إسهامات سيكولوجيا الأنا في علم الاجتماع والبيداغوجيا

قد يكون مع ذلك خطأً أن نعتقد أن التقابل بين وضع نزاعي ونموّ هادئ يناظر التقابل القائم بين المرضيّ والسويّ مناظرة مباشرة. فالإنسان السليم لايفلت من المشكلات ولا من النزاع. ومن المؤكد أن حقل عمل النزاع ودرجته مختلفان.

والتقابل مرضيّ ـ سويّ لايتطابق مع التقابل ناشئ من دفاع ـ غير ناشئ من دفاع (أو: نموّ ناجم عن نزاع ـ نمو خال من النزاع). فموقعنا يتحدّد من **وجهتي نظر** مختلفتين، عندما ننطلق في حالة من التقابل بين الاضطراب والأداء، وفي حالة أخرى من التقابل بين نزاع وخلوّ من النزاع. إن دفاعًا ناجحًا قد يعني «إخفاقًا» في الأداء، والعكس بالعكس. وهذا أمر بدهي بالطبع، ولكن ربما لايكون نافلاً أن نقوله صراحة، ذلك أننا استطعنا أن نعاين أن هذين الزوجين من المفاهيم ليسا متميّزين دائمًا بوضوح كبير. ولانريد أن نعارض بذلك أن الوصول الأكثر نجاحًا إلى مشكل النزاع مرّ بمعرفة الوظيفة المضطربة (وهذا لأسباب مفهومة جيدًا)؛ ونحن مستعدون أيضًا للتسليم أننا لايسعنا أن نعلم ما إذا كان سبر المنطقة الخالية من النزاع سيستخدم الطريقة نفسها على نحو رئيس، أو بالحري سيستخدم ملاحظة (مباشرة أو غير مباشرة) النموّ غير المضطرب.

وفي عداد مجالات البحث التحليلي، أو مجالات يُخصبها التحليل ويمكنها أن تفيد من توسّع أفقنا في هذا الاتجاه، نودّ أن نذكر على الوجه الأخص علم الاجتماع والبيداغوجيا. ومن اليسير أن نبيّن أين توجد، في سيكولوجيا الأنا، نقاط الانطلاق لمثل هذا التوسّع؛ وحسبنا أن نفحص، من زاوية مختلفة، بعض المشكلات المعروفة جيدًا. وتكوّن أعمال آنّا فرويد دون ريب العرض الأول الشامل لجانب من جوانب وظائف الأنا، ذي أهمية لحديثنا. وكانت السيكولوجيا التحليلية للأنا، حتى الوقت الراهن، سيكولوجيا نزاع قبل كل شيء؛ وكانت الدروب الخالية من النزاع، الخاصة بإعدادٍ وتطورٍ متكيّفين مع الواقع، قد ظلّت في الظلّ بالمقابل. فلكل علم حق في أن يبحث عن دربه ملتمسًا من نتيجة إلى نتيجة تالية، وكل علم اختباري مرغم على أن ينهج على هذا النحو. وبُنيت البيداغوجيا، بالضرورة ودائمًا، على صورة الشخصية الكلية، سواء أكانت هذه الشخصية ذات أساس من الناحية العلمية أم لا. وتتوافق أهداف البيداغوجيا مع مقتضيات اجتماعية وتُعنى على الوجه الأخص بتصرّفات التكيّف (باستثناء واحد سنتكلم عليه فيما بعد). ولهذا السبب لن تتمكّن طرائق التربية أن يكون لها حظ اجتماعي

(نحن هنا نترك جانبًا مشكلات القيم التي ترتبط بها) إلا إذا أخذت بالحسبان كلية سيرورات التطوّر، وبنيتها، ومنزلتها في التراتب البيولوجي، وقيمتها الإنتاجية والتكيّفية.

٨ ـ إضفاء الصفة الفكرية على الدوافع: فتح أساسي للأنا

نحن نعرف على هذا النحو جيداً جداً بعض العلاقات الموجودة بين الحياة الدافعية والتطور الفكري. ونعلم كيف يمكن أن تكفّ النزاعات أو الممنوعات الدافعية، كفًّا مؤقتًا أو دائمًا، نموّ الفكر. وبيّنت لنا آنّا فرويد من جهة أخرى أن إضفاء الصفة الفكرية في مرحلة البلوغ يمكنه أن يُستخدم دفاعًا ضد الأخطار الدافعية، وكيف يكوّن محاولة للتغلّب على الدافع بوسائل غير مباشرة. ولهذه السيرورة نفسها جانب آخر أيضًا، متّجه نحو الواقع؛ ويتيح لنا هذا الجانب أن نرى في هذه الآلية شيئًا يمكن أن نعدّه أيضًا سيرورة تكيّف. واستطاعت آنّا فرويد أن تقول، بهذا المعنى، إن «أخطار الدوافع تجعل الناس أذكياء». وبوسعنا المتابعة والتساؤل لماذا تُستخدم هذه الوسيلة بدلاً من أخرى ليدافع المرء عن نفسه ضدّ الدوافع ولماذا يكون إضفاء الصفة الفكرية ناميًا وفق الحالات قليلاً أو كثيراً. والمقصود هنا بالتأكيد تلك العلاقات المعقَّدة التي نعرفها مع ذلك معرفة جزئية: فلْنفكّر على وجه الخصوص بالدلالة التي تتّخذها محاولات الحلّ المبكّرة لدى الطفل من أجل تطوّره اللاحق. ونحن لنا الحق في التسليم بعامل ذكاء يعمل بوصفه متغيراً مستقلاً ويُسهم في تحديد اختيار السيرورة الدفاعية ونجاحها. ومع أن لدينا بعضًا من الوعي بهذه الظاهرات، فإننا لانحوز مع ذلك معرفة منهجية بها. فتعلّم التفكير والتعلّم على وجه العموم يكوّنان وظيفة بيولوجية مستقلة، موجودة على حدة ومستقلة جزئيًا عن الدوافع والدفاعات.

والفكر المنطقي متّجه نحو الواقع، سواء كان اتجاهه مباشراً أو غير مباشر. فعندما تقود أشكال نمطية من الدفاع كالدوافع إلى فاعلية فكرية متنامية، فذلك يعني أن هذا الشكل من حلّ النزاع يمكنه أن ينطوي على سيرورة تكيّف مع العالم

الخارجي. وهذا ليس بالتأكيد هو الحال على النحو نفسه بالنسبة لكل سيرورات الدفاع، ولكننا، فيما يخصّ إضفاء الصفة الفكرية، نجده عاملاً بعد مرحلة البلوغ تماماً. «وإضفاء الصفة الفكرية هذا على الحياة الدافعية، هذه المحاولة في السيادة على الدوافع إذ نربطها بتصوّرات يمكننا أن نتلاعب بها على نحو واعٍ، تكوّن فتحًا من الفتوحات الأكثر كلية، وقدمًا، وأساسية، للأنا. ونحن نعدّها فاعلية من فاعليات الأنا، بل عنصراً لاغنى عنه للأنا». (آنّا فرويد).

وينجم عن ذلك أننا لايمكننا أن نقتصر على أن نحدّد مثل هذه الظاهرة أنها سيرورة دفاع. ينبغي أن نصفها بالسمات والعلاقات التي تتوجّه نحو العالم الخارجي وتشجّع التكيّف. وينبغي أن ندرس أخيراً كيف تكون طبيعة الدفاع وشدّته منوطتين بوظائف الأنا، التي لاتنتمي مباشرة إلى النزاع. وليس التطور الفكر ي فقط نتيجة شرح بالدوافع وموضوعات الحب، والأنا العليا، إلخ، والسبب في المستوى الأول أن لدينا بواعث للتسليم بوجود أجهزة تعمل عملها الوظائفي منذ البدء وموضوعة في خدمة هذا النموّ. فالذاكرة والترابط بين الأفكار، إلخ، لاتكوّن على أي حال قدرات لايمكننا أن نستنتجها من علاقة الأنا بالدوافع وموضوعات الحب. ولكننا، في تصوّرنا لهذه العلاقات وتطوّرها، **نفترض أنها معطيات مسبقة**.

٩ ـ حلّ النزاعات والأنا «القوية»

ليس علينا فقط، لنحكم على نجاح دفاع ضد الدوافع، أن نتساءل ماكان قدر الاقتراح الدافعي وبأي نحو حمت الأنا نفسها. إننا نُعنى على وجه أعم بالأسلوب الذي به ستكون مؤثّرة وظائف الأنا التي لاتشارك مباشرة في الدفاع. ومن المؤكد أن مفاهيم كقوة الأنا، وضعف الأنا، وتحديد الأنا، إلخ، تشكّل أيضاً جزءاً من هذا السياق، ولكنها تظلّ سديمية ما دامت الوظائف النوعية للأنا المتورّطة فيه لن تكون مدروسة. فمفهوم كمفهوم قوة الأنا لايمكنه أن يكون محدّداً فقط انطلاقًا من مناطق حدود الأنا، لأنه يظهر على النحو الأوضح في الصراعات داخل المنطقة النزاعية.

ونقـول، كي نعـو د إلى مـقـارتنا، إن الدعـم، أو نقص الدعم، المرسل من البلد المؤخّرة يؤدّي أيضًا دوراً أوليًا لقوة مقاومة الجيوش على الحدود. وحين نتوصّل إلى أن نحدّد تحديداً موضوعيًّا عوامل القابلية، والطبع، والإرادة، إلخ، التي ترتبط ـ ارتباطًا اختباريًّا لانظريًّا ـ بالأنا «القوية» أو «الضعيفة»، ننتهي إلى أن نتجاوز نسبية التحديدات المشتركة التي تحدّد قوة الأنا فقط انطلاقًا من علاقة هذه الأنا بالهو والأنا العليا. وسنكون عندئذ قادرين على أن نقارن قوة الأنا لدى مختلف الأفراد، ولو أن العلاقة بين السيادة على الواقع والأداء، من جهة، وبين السيادة على الواقع وقوة الأنا من جهة أخر، علاقة معقّدة جداً. ويكوّن عمل هنْدريك (١٩٣٦) إسهامًا في تحديد قوة الأنا. ونلاحظ دائمًا من جديد، خلال عملنا العيادي، كيف أن الفروق في النموّ الفكري تنعكس في الأسلوب الذي يسود به الطفل تلك النزاعات، وكيف أن أسلوب السيادة على النزاعات يؤثّر بدوره في هذه الفاعليات. وبوسعنا، من وجهة نظر وصفية، أن نعاين عملاً متضافراً تقوم به الدائرة النزاعية ووظائف أخرى من الأنا.

والمقصود **عمل متضافر واقعي** أو، يمكننا أن نقول، التحديد المتضافر للسيرورة النفسية. وبحسب الأسلوب الذي تُمثل به هذه الظاهرات للتقصّي العلمي، يمكننا أيضًا أن نتكلم على **جانبين** من سيرورات الأنا؛ والواقع أننا إنما نفحص السيرورات نفسها على الغالب. تارة، على سبيل المثال، في علاقة مع مشكلات النزاع الداخلي، وتارة أخرى نأخذ بالحسبان تبعيتها للأجهزة المكلّفة بالسيادة على الواقع وتأثيرها عليها. ولكن هذه السيرورة نفسها يمكنها أيضًا، بالمناسبة، أن تعنينا في علم الأمراض، في علاقتها التكوينية باضطرابات التكيّف، في حين أنها تتّخذ في الوقت نفسه دلالة إيجابية بالنسبة للتكيف في سياق آخر. فأحد عاملي هذه السيرورة سيصبح ذا أهمية تبعًا لكوننا نعدّ هذه السيرورة تحت مظلّة أحد هذين الجانبين؛ والمقصود هنا إذن تصنيف وفق وجهتي نظر مختلفتين (انظر ما قلناه أعلاه عن مشكل الصحة ومشكل النزاع).

١٠ ـ متى تصبح الفاعلية الاستيهامية مرضية؟

سنضرب مثالاً آخر يقود إلى النتيجة نفسها؛ إنه يؤدّي دوراً في سيكولوجيا الطفل والبيداغوجيا، ولكننا نصادفه باستمرار أيضًا في تحليلات الراشدين: والمقصود هو الفاعلية الاستيهامية.

ولسنا بحاجة إلى أن نذكّر بدلالة تكوين الاستيهامات، بالمعنى الضيّق للمصطلح، في سيكولوجيا الأعصبة. إن آنّا فرويد عرضت، في كتابها الأخير، وظيفتها في نموّ الطفل. وتفحص فيه نفي الواقع بواسطة استيهام وتبيّن كيف ينفي الطفل جزءاً غير مستساغ من الواقع يرفض قبوله، في بعض الظروف، ويُحلّ محله استيهامًا. وثمة سؤال يفرض نفسه وطرحته آنّا فرويد أيضًا: إنه يكمن في معرفة أي الشروط تصبح فيها مثل هذه السيرورة مرضية. وهناك مجموعة كاملة من العوامل مسؤولة عن ذلك ولاريب، ولكننا نجد منها واحداً يؤدّي بالتأكيد دوراً ذا أهمية: إن درجة النضج في **أجهزة الأنا** التي تُستخدم في الإدراك والفكر (لاسيّما الفكر السببي)، إلخ، هي التي تضمن علاقات الفرد بالمحيط. «... وربما يكون الرباط الذي يجمع إلى الواقع أنا ناضجة نسبيًّا رباطًا أقوى على وجه العموم» (آنّا فرويد، ١٩٣٦).

وعندما يحلّ استيهام محلّ جزء كبير من الواقع، نجد أنفسنا أمام لوحة مختلفة جداً من وجهة نظر اقتصادية، تبعًا لكون الفرد راشداً أو طفلاً. ومن الضروري هنا، كما بالنسبة لمشكل نموّ الذكاء وضروب كفّه، أن ندرس وظيفة هذه الأجهزة ونموها؛ وإلا ظلّ المشكل متعذّر الحلّ.

وثمة، انطلاقًا من هذه الملاحظات، سؤال ثان يفرض نفسه مباشرة: مادور عناصر الفاعلية الاستيهامية التي تشجّع التكيّف؟ ولاينبغي أن يكون جوابنا بالتأكيد أن نهمل الدلالة البيولوجية الأساسية لاختبار الواقع، ولاسيّما التمييز بين استيهام وواقع. ويعتقد فارنْدونْك(١٩٢١)، المؤلف المحلّل النفسي الوحيد بعد فرويد الذي درس السمات العامة للفاعلية الاستيهامية، أن للفكر الاستيهامي وظيفة

بيولوجية بفعل محاولته أن يحلّ مشكلات حياة اليقظة ـ وهذا على عكس عمل الحلم. ونشير عابرين أننا نصطدم من جديد، في عمل فارنْدونْك على الفكر الاستيهامي، بآليات قبل الشعور التي أكّد كريس (١٩٣٩) دلالتها بالنسبة للمشكلات التي تشغلنا. فمفهوم الاستيهام واسع جداً وغير دقيق نسبيًا. ولدينا الانطباع مع ذلك أن لكل الظاهرات المسماة بهذه الكلمة نقاطًا مشتركة. ونعلم جيداً أن «المخيّلة»[٤]، بمعنى قابلية للتركيب، وبمعنى أيضًا فكر بالقياس وبالصور، يمكنها أن تكون خصبة حتى في المجال الأخص بالعقل، أعني الفكر العلمي. بل ينبغي التسليم أن الحياة النفسية لدى الراشد السوي لاتخلو أبداً خلواً كاملاً من عناصر نفي الواقع ولا من إبداع استيهامات تنوب منابه، وهذا، مهما قيل عنه، تصور إجمالي لمفهوم الصحة النفسية. وما علينا إلا أن نفكر باتجاه الإنسان إزاء جنسية الطفولة والتصورات الدينية.

١١ ـ من اللعب إلى الاستيهام، يمرّ تعلّم الواقع بمنعطفات

تعلّم العلاقات بالواقع يمرّ على وجه الاحتمال بـ **منعطفات**. وتبدأ بعض دروب التكيّف مع الواقع بالابتعاد عن الوضع الواقعي. ونحن سنذكر وظيفة اللعب مثالاً ـ ولن نرجع بذلك إلى نظرية غائية للعب الطفل، بل إلى دوره الفعلي فقط في النموّ الإنساني. وبوسعنا أيضًا أن نفكر هنا بوظيفة الاستيهام المساعدة في سيرورة التعلّم بالمعنى الحقيقي للمصطلح. ويقود الاستيهام دائمًا إلى الانحراف أول الأمر عن وضع واقعي؛ ولكنه يمكنه أيضًا أن يكوّن استعداداً للواقع. ويبتعد نموه دائمًا بعض الابتعاد عن الواقع، ولكنه يمكنه بالتالي أن يفضي إلى السيادة عليه على نحو أفضل. وبوسعه أن ينجز مهمة توليفية إذ يربط حاجاتنا وأهدافنا مؤقتًا بإمكانات تحقيقها. ونحن نعرف أيضًا معرفة جيدة جداً استيهامات تبعد الفرد عن

(٤) الكلمة الألمانية «fantasie» تدلّ معًا على «fantsie» بمعناها الأقدم وهو الخيال (imagination)، قابلية تركيب صورة، وعلى استيهام «fantasme»، بوصفه إبداع هذه المخيّلة «fantasie» الشعوري أو اللاشعوري. ونحن استخدمنا، وفق السياق، إحدى هاتين الكلمتين (ملاحظة المترجم).

العالم الخارجي، ولكنها تجعله مستقبلاً للواقع الداخلي. وكونّت الظاهرات والسيرورات النفسية محتوى مثل هذه «الاستيهامات» قبل أن تصبح، بزمن طويل، موضوعاً علمياً (بفضل التحليل النفسي). والوظيفة الأولية لهذه الاستيهامات ذاتية المرونة وليست ذات أشكال من المرونة، ولكننا نحن الأخيرون الذين يعارضون ضرورة معرفة معمّقة للحياة الداخلية وأهميتها في السيادة على العالم الخارجي. وينبغي مع ذلك أن ندرك جيداً أن **معرفة الواقع والتكيّف مع الواقع** ليسا مفهومين متماثلين ولكننا سنعود إلى ذلك. ويبيّن، على أي حال، ماقلناه مجدّداً كيف يكون من الضروري أن نميّز جيداً جوانب المشكل المختلفة. وينجم عن هذا التمييز وضع مفارق في الظاهر: إذا انطلقنا من علم الأمراض وسيكولوجيا الأعصبة والذهانات، فإننا سنصل إلى أن نولي نموّ الدروب الأكثر قصراً، التي تقود إلى الواقع، قيمة عليا، في حين أننا إذا انطلقنا فقط من التكيف مع الواقع، فإننا إنما سنفهم قيمة الاستيهام على سبيل المثال. والواقع أن ظاهرة واحدة إنما تتّخذ، وفق وجهات النظر، مظهراً إيجابيًّا تارة، وسلبيًّا تارة أخرى. ففي حالة من الحالتين، يعني «إيجابي» على كل حال «تفادي العصاب»، وفي الحالة الأخرى «تشجيع التكيّف». إن ضرباً من الفحص المتسرّع جداً أو الوحيد الجانب يجازف في فصل ماهو مرتبط بصورة أساسية. ولم يكن لدى التحليل، خلال زمن طويل، أي داعٍ يدعوه إلى الاهتمام بالجانب الآخر من السيرورات، التي تنتمي إلى ميدان علم النفس السويّ، ولكن أي علم نفس للسويّ غير تحليلي عاجز عن فهم هذا الجانب.

وفي قاعدة **إنكار** الواقع، نجد الهروب. وتبدو سمة الهروب هذه على نحو أبرز في التجنّب. وأبانت آنّا فرويد (١٩٣٦) نتائج هذا التجنب التي تكمن أساساً في تقليص الأنا. فتجنّب عالم محيط يحتوي صعوبات ومقابله الإيجابي، البحث عن عالم آخر، يوفّر إمكانات أفضل وأسهل منالاً، وهما يكوّنان مع ذلك، في الوقت نفسه. سيرورة تكيّف ناجع إلى الحدّ الأقصى (إذا تجاوزنا التصوّرات الشائعة للمرونة الذاتية والمرونة ذات الأشكا ل المختلفة). وبين سيرورات التكيف بالمعنى

الواسع للمصطلح، ينبغي أن نولي، دون ريب، سيرورة البحث عن عالم محيط ملائم وسيرورة الاختيار بين عدة أوساط ممكنة والاختيار أيضًا بين عدة وظائف ممكنة، مكانًا أكثر مركزية (انظر أ. إ. بارْ، ١٩٢٦). وبوسعنا أن نلاحظ هاتين السيرورتين في مملكة الحيوان، ونجد منهما دون ريب أيضًا أمثلة عديدة لدى الإنسان. وهنا يظهر مجدّداً هذا الوجه المزدوج للمشكل وهذا التضمين لمجموعة أخرى من ميول الأنا.

١٢ ـ حقل مهمل: التحليل النفسي المطبّق على علم الاجتماع

ماقلناه عن الاستيهام ينطبق أيضًا (في هذا المنظور) على **العمل الوجداني** . ويبدو العمل الوجداني، منظور إليه من زاوية سيكولوجيا الأعصبة وبالمقارنة مع الصورة المثالية النظرية للعمل العقلي، بقية كئيبة من حالات نفسية بدائية ويبدو كانحراف بالنسبة إلى السويّ. ومن المؤكد أننا نتبيّن بوضوح تلك الصعوبات بالنسبة للعلاج ونموّ الشخصية اللذين تستمدّ الصعوبات مصدرها منهما، وأننا نهمل الاندفاع إلى السيادة على الواقع، المحتوى فيهما أيضًا. ولكننا نعلم أيضًا أن الوجدانية منظّم ذو أهمية، إذ تُسهم في وظائف عديدة للأنا، وأنها تتيح وتشجّع هذه السيرورات. وبيّن فرويد ١٩٣٧، على نحو أقرب إلينا أيضًا من الناحية الزمنية، أن نتيجة تحليل مكتمل كليًّا لم يكن يكمن في جعل الفرد موجوداً محرومًا من الأهواء.

وبوسعنا أن نكثر من الأمثلة إلى حدّ كبير. وسنقتصر على أن نذكر أيضًا مجالاً يبيّن ببروز خاص ضرورة أن نفحص هذا الجانب الآخر وندخل منطقة الأنا الخالية من النزاع. والمقصود تطبيق التحليل النفسي على العلوم الاجتماعية. ونعتقد أن التحليل النفسي ينبغي له أن يصبح ضربًا من العلم الأساسي لعلم الاجتماع ـ وبيّن ولْدَرْ (١٩٣٦) تلك الدلالة التي كان بوسع التحليل النفسي أن يكتسبها من المشكلات الجزئية التي تدرسها العلوم الاجتماعية. ولكن مراكز الاهتمام ليست واحدة لدى التحليل النفسي وعلم الاجتماع؛ وهذا العلم الأخير يولي أهمية بعض المشكلات التي نعدّها نحن ليست أساسية. فالفاعلية الاجتماعية

هي الأساسي بالنسبة له، أي إنجاز أو عدم إنجاز المهمات التي يقتضيها المجتمع (أي مهمات التكيف)؛ إنه لايولي سيكولوجيا النزاعات النفسية أهمية، ولا إعداد الاقتراحات الليبيدية، العدوانية، إلا في حدود ماتتجلّى هذه السيرورات في تصرّف اجتماعي. فالمهمّ هو الإنسان من حيث أنه ينجز ويحقّق (الإنجاز مأخوذ هنا بمعناه العام). وإنجازات الجهاز النفسي هي ذات الأهمية، وذو أهمية على نحو غير مباشر فقط ذلك الأسلوب الذي به يتجاوز صعوباته. ووجهتا النظر هاتان، تلك التي تنطلق من الأداء وتلك التي تنطلق من النزاع، هما ضروريتان من الناحية السيكولوجية. وإذ نطبّق التحليل النفسي على علم الاجتماع، فإننا ننسّق بين وجهتي النظر هاتين. وإذ نتوجّه نحو المنطقة الخالية من النزاع في الأنا ونحو وظائفها، وإذ ننفذ نفوذاً أبعد في مشكل التكيّف، فإن بوسعنا أن نأمل باستثمار هذا الحقل المهمل الذي يقع بين المنطقتين، وبمدّ إمكانات التحليل إلى هذه المشكلات في العلوم الاجتماعية. وقد يكون يسيراً أن نبرهن على ماقلناه للتوّ، بواسطة أمثلة مشخّصة، ولكننا لايمكننا أن نتوسّع في هذا الموضوع.

هانز هارتمان

الفصل الخامس

الأنا، عامل مبتدئ

مقدّمة:

هذا الدافع، «دافع الاستيلاء»، الذي سيشغلنا هنا، لم يكن فرويد قط قد حدّده على نحو خاص. ولكنه مذكور في بعض نصوصه، ويبدو أنه ينطبق، قبل إدخال غريزة الموت، عام ١٩٢٠(١)، على دافع غير جنسي، موجّه نحو موضوع خارجي: وهكذا قد يكون وحده في أصل عدوانية الطفولة. ثم يتوحّد، في مرحلة ثانية، مع الدافع الجنسي، بحسب المعلومات التي يقدّمها فرويد عام ١٩٠٥، في **المحاولات الثلاث في نظرية الجنسية**.

وكون فرويد يعزو إليه الجهاز العضلي مركزاً له فإنه يجعله في علاقة مع الطور السادي، إذ يكوّن الاستيلاء العضلي، على نحو من الأنحاء، ضرباً من امتداد فاعلية العضلة الصارّة. ذلك أن الفاعلية تميّز دافع الاستيلاء؛ وهي تمنح السادية وجودها، إذا أُضفيت عليها الصفة الجنسية (انظر فرويد: «الاستعداد المسبق للعصاب الوسواسي» ١٩١٣). ويعدّ فرويد، في «الدوافع وقدرها»، أن السادية ليست مرتبطة بالجنسية على نحو أوليّ، بسبب عنف ليست ممارسته عامل لذة.

(١) انظر الدوافع: الحب والجوع، الحياة والموت، كتاب يصدر في المجموعة نفسها.

(٢) انظر، فيما يخصّ المرحلة السادية، **مرحلة الليبيدو**. في المجموعة نفسها.

ويجازف هذا الاستخدام لكلمة «سادية» في جعلها مرادف «عدوانية». والواقع أن علاقة العدوانية بالجنسية هي التي كان التحليل النفسي قد احتفظ بها لتحديد السادية.

وعندما يعرض فرويد عام ١٩٢٠ تصوّره غريزة الموت، يصبح دافع الاستيلاء ذلك المظهر الذي تتّخذه هذه الغريزة عندما تضع نفسها في خدمة الجنسية التناسلية نفسها: والمقصود السيادة على الموضوع في الفعل الجنسي.

ويبدو عندئذ أن دافع الاستيلاء لم يعد ينشد ممارسة العنف وحدها: فهذا الهدف هو هدف غريزة الموت التي تنحرف نحو الموضوعات. ذلك أن غريزة الموت ذات علاقة بالأنا أول الأمر، ثم تنعطف نحو الخارج لغايات المحافظة الذاتية على البقاء.

ودافع الاستيلاء يتشابك دائمًا مع غريزة الحياة (الجنسية)، فهو من ماهية سادية إذن (غلمية)، وفق مصطلحات التحليل النفسي المعاصر. وظلّ دافع الاستيلاء، كما نرى، غير واضح لدى فرويد، فالسيادة والاستيلاء يمثّلان مع ذلك أحد أكبر فتوحات المرحلة السادية الشرجية. ويطرح أحد مدراء هذه المجموعة، بيلا غرانْبرجر، من جهة أخرى، ذلك السؤال الذي مفاده أن نعرف ما إذا كانت السيادة والاستيلاء مكوّنة لاغنى عنها لكل علاقة بالموضوع، سواء اعتقدنا أو لم نعتقد بوجود غريزة الموت.

وكان المحلّل النفسي الأمريكي إيف هنْدريك قد استعاد مبحث دافع الاستيلاء الذي يسمّيه **غريزة السيادة**. وفي رأيه أن غريزة السيادة تخدم التعلّم، «العمل وتعلّم العمل» لا البحث عن اللذة. إنها ليست جنسية دفعة واحدة، ولو أن بوسعها أن تصبح كذلك فيما بعد؛ والإشباع الحاصل هو «لذة العمل الوظائفي».

وهكذا إذن تندرج غريزة السيادة، في رأي هذا المؤلف، في منظور سيكولوجي (تكويني) أكثر مما هو تحليلي نفسي، يعكس على نحو كامل ضربًا من الحركة التحليلية الأمريكية. ففكرة غريزة، موجودة في الأنا، تنطوي على

تخطيطيات وراثية من السلوك مصدرها البيولوجي هو الأنا، ليست أقلّ إشكالية من «الأنا المستقلة» لهانْز هارتمان. أليست الألعاب الجنسية في الطفولة تُعتبر هنا، كما سنرى، تقنيات تعلّم لم تُضف عليها الصفة الجنسية؟

وستُحفظ القصة الصغيرة أخيرًا أن هربرت ماركوز ـ الذي ليس محلّلاً نفسيّا ـ ينحاز بقوة إلى إيف هنْدريك وعلماء سيكولوجيا الأنا في الإيروس والحضارة.

النصّ

رَسَمَ التحليل النفسي، في رأينا، لتجربة الطفولة لوحة ادعاءاتُها بالصحة والمشروعية موضع شك من بعض الجوانب. ولهذا السبب، يبدو أن مصدر بعض الصور التحليلية، الخاصة بما هو عليه الطفل الصغير واقعيًّا، يكمن في إسقاط النظرية التحليلية وأهواء الراشدين أكثر مما يكمن في الملاحظة العلمية. وتكوّنت هذه اللوحة للطفولة الأولى بصورة رئيسة، كما نعلم، من استيهامات جنسية لاشعورية ومن نظرية الليبيدو. وليست قيمة هاتين المساهمتين بحاجة إلى أن تتأكّد؛ وما يسترعي انتباهنا إنما هو التواتر الذي به تنطوي نتائجنا الخاصة بالطفولة الأولى على فَرَض، يصعب الدفاع عنه، مفاده أن حياة الراشد (أو الطفل في العمر الدراسي) النفسية اللاشعورية نسخة عن تجارب الرضيع.

١ ـ نظرية في الطفولة الأولى ينبغي إعادة النظر فيها

ثمة خطأ شبيه قد يكمن، بالنسبة لمن يدرس التطور العضوي، في عدّ تطور الفرد التشريحي يحاكي **على وجه الضبط** تطور النوع. ففرويد لاحظ ملاحظة رائعة مفادها أن المنحرف الفموي، كالعصابي، الذي تكون أعراضه ناجمة عن قمع الاستيهامات «المنحرفة»، يديمان لذائذ الرضاع الشهوانية؛ إن هذا الفرض تسوّغه

المادة التحليلية كلياً: ولكن الاستنتاج أن التجربة الواقعية للطفل الذي يرضع شبيهة بتجربة المنحرف الفموي أو العصابي سيكون خاطئًا. ومن المؤكد أن فرويد لم يطلق قط حكماً عبثًا من هذا النوع ولم يطلقه، على ما أعلم، أي محلّل ذكي آخر. ولكن افتراضات من هذا النوع، في كثير من المناقشات التي تدور حول الطفولة الأولى لأفراد أسوياء، تظلّ ضمنية. ويبدو لي أن علينا بالتالي أن نفكر على نحو أكثر قبولاً أن رواسب الطفولة الأولى، التي ندرسها في مجرى الحياة اللاحق، هي نفسها مآل تطوّرات معقّدة جداً وليست هي نفسها ذكريات تجارب أولى.

وأقترح أن تكون بعض التعديلات، التي تذكرها المعارف الراهنة للمحلّلين النفسيين وعلماء سيكولوجيا الأطفال، محمولة على وصفنا المألوف للطفولة الأولى. ونفهم هنا من «الطفولة الأولى» أو «مرحلة الطفولة» تلك السنوات الخمس أو الست الأولى من المصطلح بالمعنى الفرويدي، وبعبارة أخرى المرحلة قبل المدرسية، وسيقتصر حديثي على السنتين الأولى والثانية بصورة رئيسة. وسأدرس على وجه الخصوص بعض الفروق بين التجربة الطفولية والتجربة الجنسية اللاحقة، فروق يهملها المحلّلون النفسيون عادة؛ فنموّ الأدوات الجسمية لدى الطفل يسعى جاهداً إلى السيادة على بيئته، وعلى العلاقة بين هذه المرحلة الأولى من التعلّم والقسر العصابي ونموّ الأنا. ودعواي ستكون مايلي: أهمل التحليل النفسي هذا الواقع المؤكد، أي أن الحاجة إلى التعلّم، التي تبين في استعمال الرضيع وسائله الحسية، والحركية والفكرية، من أجل السيادة على بيئته، هي ذات أهمية على الأقلّ توازي أهمية البحث عن اللذة في تحديد سلوكه وتطوّره خلال السنتين الأولى والثانية من حياته. ورجع فرويد غالبًا إلى هذه الوظائف في ملاحظاته الأولى لغرائز الأنا، ولكنه لم يفحص أبداً هذه الوظائف فحصًا عميقًا ولا طوّرها. وثمة مع ذلك صياغة أكثر ملاءمة تفرض نفسها، لا من أجل فهم للطفل أفضل فحسب، ولكن من أجل معرفتنا نموّ الأنا أيضًا.

٢ ـ مثالان على الألعاب الجنسية لدى الأطفال

في البدء سندرس الدلالة الذاتية للاستيهامات الجنسية بالنسبة للطفل نفسه. وليس ثمة مايثير الشك أن تحليل لاشعور الراشد أتاح لفرويد أن يكتشف آثاره خلال الطفولة الأولى. ولكن التحليل النفسي عزا إلى هذا الاستيهامات على وجه العموم سمة قسرية أو حاجة غير مشبعة إلى المنحة. وذلك غير مسوّغ على وجه الاحتمال الكبير إلا عندما يقترن الاستيهام بالحصر المبكّر أو الموظّف بفعل دافع جنسي معزّز من الناحية البيولوجية بعد البلوغ. وعلينا أن نأخذ بالحسبان تلك البراهين على غيابٍ كلّي للقسر في ملاحظات مباشرة عديدة لجنسية الطفولة، وأن نحذر من أن نمدّ على كل سلوك تلك الحدّة الانفعالية التي تظهر في الوقائع العصابية لدى الطفل كما في التوترات الجنسية والعصابية لدى الراشدين. وذلك يعني أن هدف غلمة الطفولة ليس النشوة الجنسية على وجه العموم. وليس المقصود، في العادة، حاجة قسرية، إلا إذا اقترنت بالحصر، ولا تختلف بديناميتها عن حاجة الراشد إذن.

وهاكم، لأوضّح حديثي، مثالين اخترتهما من ملاحظات عديدة متشابهة. ثمة صبي وبنت صغيرة في الثالثة من عمرها يلعبان لعبًا «بريئًا». وتتمدّد البنت الصغيرة على ظهرها وتطوي ساقيها وهي تبعد الواحدة عن الأخرى. ويتمدّد الصبي الصغير عليها، ويحاكيان جماعًا. وتقول البنت الصغيرة « إنني الأم»، ويقول الصبي الصغير «إنني بابا». ويتوقفان، بعد ثلاثين ثانية من هذه المناورة، وينتقلان إلى لعب مختلف كليًّا. ومثالنا الثاني من الغلمة في الطفولة الأولى ذو علاقة بالمسألة التي نوقشت كثيرًا، مسألة «اكتشاف الفرج». ثمة بنيّة عمرها سنة ونصف تتمدّد على ظهرها، وتمدّ ساقيها، وتدغدغ بإصبع بظرها. ثم تلتقط صحيفة، تمزّقها إلى قطع تضغط بها عندئذ، ضغطًا ساديًّا، أسفل فرجها. ومن

الواضح تماماً أنها استمدّت لذة شهوانية من إثارة بظرها، يليها استيهام ولوج، ذلك أن مرونة الورق تلغي قيمته بوصفه أداة لذة بالدلْك. وتنهض بعد ثلاثين ثانية وتنتقل إلى ألعاب أخرى (٤).

٣ ـ ضرب من علاقة الراشدين بالأطفال يولّد نزاعًا

إنها إبانات نمطية للجنسية الغلمية في الألعاب والاستيهامات الطفالية كما يأمل المحلّل أن تكون لدى زبُنُه الراشدين. ولكن مايمكن ان يدهشه إنما هو غياب القسر في السلوك الجنسي $لدى هؤلاء الأطفال. وثمة، في الحياة فيما بعد، أوضاع شبيهة تنتهي حتماً بنعمة النشوة الجنسَة أو بإحباط يليه نزاع وتوترات غير محلولة. ولا وجود مع ذلك لأية علامة من نزاع تزرع الاضطصاب في الألعاب التي ينكبّ عليها بالتالي هؤلا] الأطفال، ولا في علاقاتهم السعيدة بعضهم مع [عض، وبينهم وبين الراشدين (٥).

وفي كتابها «امكنا وآليات الدفاع»، تلفت أنّا فرويد الانتباه إلى واقع ذي علاقة وثيقة بحديثنا: «مشاركة الراشدين الإرادية في تشويه الواقع من جانب الطفل ترتبط دائماً ببعض الشروط الصارمة ... فنيّة الراشد الطيّبة إزاء آلية النفي

(٣) هذه الملاحظة يمكن أن تفسّر أنها استيهام أنثوي أو ثنائي الجنسية، ذلك أنها تؤدّي بوضوح دور مايلج. وفي الحالتين، يبدو أن الفكرة التي مفادها أنه لاوجود فقط لبظر بل فوهة تقتضي الولوج، وأنها ليست الفوهة الشرجية بل فوهة أخرى يجري الوصول إليها من الأمام، فكرة بُرهن عليها بوضوح. وفي عمر الثلاث سنوات، لوحظت هذه البنيّة حين كانت تدلّ على بظرها إذ تسميّه «حلَمة»، و تدل على فرجها وتسميه «كا ـ كا» (شرج)، وأخيراً تقول عن الفاصل بين الاثنين، ولكن مع قليل مع الاهتمام والحالة الوجدانية، إنه «بي ـ بي» (بول). وتبدو الملاحظة الأخيرة أيضاً أنها تدل على معرفة واهتمام معاً بالبظر والفرج: أما أن تكون قد عدّت الفرج شرجًا، أو بصفته شرجًا، أمر لايمكن أن نبرهن عليه.

(٤) يعترف المؤلف عن طيب خاطر أن هذه الملاحظة والملاحظات التالية غير كاملة، وأن مظهر النزاعات الأكثر أهمية والحصر مكبوت غالبًا على النحو الأكثر كلية. فالخطر الماثل في تفسير سيِّئ للمادة بعبارة الافتراض النظري، المشار إليه هنا، وكذلك خطر القفز إلى نتائج انطلاقًا من علامات سطحية، ينطوي دائمًا على مشكل من مشكلات الحكم.

للواقع لدى الطفل تتوقّف عندما لايجري الانتقال من الاستيهام إلى الواقع بصورة متناغمة، في الحال، ودون مقاومة ... إنها تتوقّف عندما تكفّ الفاعلية الاستيهامية لدى الطفل عن أن تكون لعبًا لتصبح آلية أو قسرًا».

ذلك مايبدو لي أنه يكوّن أحد النقاط الأكثر أهمية من كتاب أنّا فرويد. وفي رأيي أن هذا التشابك بين اللعب القسري وعدم التسامح لدى الراشد يتحقّق بفعل موقف الراشد من نفي الواقع لدى الطفل، ولكنه يتحقّق أيضًا بفعل موقفه من ألعابه وسلوكه على وجه العموم. فعندما تثير الحصر استيهامات الطفولة أو ترجمتها في السلوك («حصراً أمام خطر واقعي» خلال الطفولة الأولى، وفق مصطلحات أنّا فرويد)، يوجد نزاع، وذلك يولّد سلوكًا قسريًّا يرتكس عليه الراشد بميل إلى القمع أو الإدانة(٥).

وتبدو لي هذه الوقائع أنها توضّح جزئيًّا ذلك السبب الذي مفاده أن ألعاب الأطفال لاتبدو على وجه العموم للراشد أنها ذات جنس بقدر ما تعتقد نظرية التحليل النفسي: ينبغي لذلك أن تكون الألعاب الغلمية قسرية، وأن تتجاوز تجاوزًا متكرّرًا تلك الحدود التي حدّدها تسامح الراشد، أيًا كانت هذه الحدود لدى كل أب منظور إليه فرديًا. وتوحي هذه الوقائع أيضًا أن الانتقادات الموجهة للنظرية التحليلية لاينبغي أن تُرفض رفضًا دوغمائيًّا، عندما تدعم مامفاده أن الطفل، الذي يؤكد نظرية جنسية الطفولة لدى فرويد تأكيداً باديًا للعيان ودائمًا، يعرض سلوكًا من سلوكات عصابي.

---

(٥) حول هذا المشكل، يضع د. بُرترام موضع الشك أن القسر لدى الطفل يمكنه أن يكون مسؤولاً عن عدم التسامح لدى الراشد. وذلك صحيح بالتأكيد فيما يخصّ الانتهاك الأولي للطفل محرّمات الراشد، وأوافق كليًا على القول هنا إن إثمية الراشدين والآليات الحليفة مسؤولة عن عدم التسامح. ولكن عندما لاتكون فاعليات الطفل قسرية، فإن الطفل يتكيّف بسرعة مع عدم التسامح لدى الراشدين، إذ يخفي ألعابه السرية. وهكذا يحقّق الطفل باستمرار توازنًا بين دوافعه وأخلاقية أبويه، شريطة أن لايبرّر هذه التسوية عجز عن تغيير السلوك القسري.

٤ ـ هل تقدّم لنا ضروب التحليل النفسي للراشدين معلومات عن ماهية فكر الطفل حقًا؟

ينبغي للمحللين النفسيين أن يعيدوا فحص هذه المقدّمة الأولى الأخرى المقبولة ضمنيًا في جزء كبير من أدب التحليل النفسي: إن عقدة لاشعورية (مجموعة من الاستيهامات وأجزاء من ذكريات ترتبطان ارتباطًا وثيقًا من الناحية الانفعالية) تكرّر، ببعضٍ من الصحة، تكوّن الأفكار لدى الطفل الصغير. وكان فرويد خلال زمن طويل مرغمًا على تعديل اكتشافه الأولي، اكتشاف المشهد الأصلي، إذ فسّره تفسيراً جديداً بوصفه ذكريات استيهام. وأرى أننا سنخطو خطوة إلى الأمام حين نتساءل ما إذا كانت الاستيهامات اللاشعورية التي كشفت عنها تحليلات الراشدين تشبه بالفعل استيهامات الأطفال.

والاستدلال الخاطئ الذي به نبحث عن تحديد حياة الطفل الصغير بمصطلح «عُقَد» الراشد توضّحه على وجه الخصوص توضيحًا جيداً بالمثال تلك المجادلة الخاصةبنموّ الجنسية النسوية. وتبيّن دراسةٌ لهذا الأدب واقعين يسترعيان الانتباه: تنوّع وجهات النظر النظرية، والغياب المذهل للتباين (باستثناء ميلاني كلاين) في الملاحظات العيادية التي تستمدّ منها كل هذه النظريات أصلها مع ذلك. وما يبعث على الجدال إنما هي إعادة الإنشاءات التحليلية النفسية المتعدّدة لتجربة البنت الصغيرة انطلاقًا من هذه المواد. فلجونز رأي قريب من رأيي عندما يؤكد أن هذه الملاحظات توضّح العقد التي وصفها فرويد، ولكن ينبغي النظر إليها أنها أعصبة ثانوية وليست شهادات على نموّ سويّ لدى البنت الصغيرة.

والنظرة الوضعية لكل الذين غذّوا هذا الجدال كان جهد قد ولّدها، جهد الجميع في إعادة إنشاء الطفولة الأولى النسوية على مقدّمة أولى مفادها أن المقصود هنا مخطّط يحاكي الاستيهامات اللاشعورية لدى المرأة الراشدة على وجه التقريب. وإذا كانت الحالة هي هذه، فإن نتائج عديدة مستمدّة من موادّ مماثلة لايمكن الدفاع عنها بالقدر الذي يُدافع فيه عنها. وإذا تخلّينا مع ذلك عن التسليم ضمنيًا أن

استيهام المرأة اللاشعوري إعادة إنتاج حرفي إلى حدّ كاف لتجربة الطفولة، فإن الجدال يصبح أقلّ إرباكًا، وتظهر بوضوح القيم الإيجابية لهذه المساهمات. ويمثّل التفسير، الذي وضعته ميلاني كلاين للطفولة الأولى بلغة ضروب العدوان الأولية، المقترنة بالحصر، تشويهًا أكثر انفعالية. فأن تكون قد وصفت استيهامات موجودة بالفعل ورئيسة في نمو بعض النماذج من الطباع، أمر يمكنه أن يكون مؤكّدًا؛ أما أن تكون هذه الاستيهامات موظّفة كليًا في الطفولة الأولى، مع الانفعال والقسر في إفراغ الرغبات المكبوتة شبه الذهاني الهذائي، فذلك تشويه خطير لتجربة الطفولة الأولى السوية.

٥ ـ ملاحظة بنيّة

توضّح المناقشة المفتوحة التي تتناول الجنسية النسوية أطروحة أوسع. فرغبة الراشد في أن يمسك قلمًا أو يسحب دفعة دخان من لفافة التبغ التي يدخنّها هي التعبير على نحو شائع جدًّا عن استيهام غلمي؛ وسيكون مع ذلك أمرًا سخيفًا أن نعدّ أن حركة رضيع في مهده، ماسكًا إبهام شخص، تعبّر عن استيهام من النسق التناسلي. فحركته ذات أهمية بالنسبة لرضيع في هذا العمر، ولن تتّخذ أهمية قسرية فيما بعد إلا إذا اعترُف بها أنها مفيدة، أو أُضفيت عليها الصفة الجنسية. كذلك الاهتمام البارز لدى الراشد بالدم والجروح يعني على نحو شائع كبت استيهام الخصاء. إن بنيّة أظهرت، خلال ملاحظة، إثارة تولّد اللذة وهي تجرح نفسها للمرة الأولى وترى بعض نقاط من الدم تظهر. وبدت فخورة بجرحها ثم عُنيت بدميتها فيما بعد بقليل. ولا تنطوي هذه الارتكاسات بالضرورة، في هذه المرحلة، على ارتباط باستيهامات خاصة بالأعضاء التناسلية. ومثل هذه الاستيهامات أصبحت مع ذلك واضحة حوالي نهاية السنة الثانية من عمرها. وحين كانت، في هذا الزمن، تزور صبيًّا، جلست على أرضية الغرفة وغرقت في تأمل سمكة من الخشب كانت تمسكها كما لو أن المقصود عضو ذكر. واستخدمت على الغالب، في الشهرين التاليين، ملاقط غسيل على النحو نفسه. وخلال هذه

المرحلة، بان على الغالب اكتشافها جسم الغير بعلامات عديدة. ولكن الدليل الموضوعي الوحيد على الحصر لدى هذه البنيّة ظهر عندما تناقص اهتمامها بهذا الاكتشاف. إنها رأت على شاطئ بحر عضو ذكر صبيّ صغير: توقّفت مباشرة عن اللعب، وبدت مدهوشة، وظلّت مضطربة خلال عدة ساعات. (ربما كانت قد استنتجت من بحوثها السابقة أن أباها وأخاها كانا الوحيدين مالكي عضوي ذكر، وأثار زوال الوهم في نفسها حصراً مرئياً لم يكن قد أثاره الكشف البدئي). ولكن أي إشارات حصر ولانزاع لم تحدث فيما بعد. وفي السنة الرابعة والنصف من عمرها، كانت هي وأخوها يرى أحدهما الآخر عدة مرات حين كانا يُظهر أحدهما للآخر أعضاءه الجنسية، وكانا يلعبان لعبة البول كل منهما بحضور الآخر. وهذه الغلمة البيّنة لم تكن تنطوي، حتى في هذا العمر المتأخّر، على سمة قسرية ولم يكن أي نزاع ولا صعوبة يبدوان على هذين الطفلين في التحوّل نحو ألعاب أخرى عندما كانت تتوقف هذه الألعاب.

فأن يكون ممكنًا لهذه المرحلة، التي كانت خلالها البنيّة تكوّن استيهامات لعضو الذكر ـ ملقط الغسيل وتظهر فضولاً بيّنًا، أن تكون ذات دلالة في نموّها الجنسي، أمر لامجال للشك فيه. وأن يكون ممكنًا لهذه الاستيهامات وهذه التجارب أن تندمج فيما بعد في عقدة من الاستيهامات، مماثلة لعقدة بنيّات أخرى، ولكنها مميّزة بصورة خاصة لهذه البنية، وأن تصبح ضروب الحصر الواضحة جداً مقترنة بهذه العقدة لاشعورياً، فثمة داع كامل لافتراض ذلك. وستصبح التجارب الأولية مكوّنات التجربة الكلية، ولكنها لن تكون بالضرورة المحدّد لاستيهامات الخصاء لدى الراشد ولانموذجها. فغير مباح لنا إذن أن نرى مشكلاً نفسياً لدى هذه البنيّة على قاعدة هذه التجارب (ربما باستثناء ارتكاس الصدمة على الشاطىء). ولا أن نربط بهذه التجارب معنى ميول مشابهة في حياتها اللاحقة، ولاسيّما الخصائص القسرية.

٦ ـ هل «النقل إلى الماضي» ضرب من الخطأ؟

تندّد جانّ لامبْل ـ دو غروت بالاستدلال الخاطئ الذي «ينقل إلى الماضي» تلك المادة التحليلية، بهذه العبارات: «أرى خطأ منهجياً في الاتجاه الذي يكمن في الافتراض، عندما توجد علاقة تكوينية بين أحداث شتّى، أن هذه الأحداث متطابقة. فكون A تلي B لايعني أن A هي B نفسها. [...] ويبدو لي، تتابع جانّ، أننا إذا لم نبق باستمرار حذرين من إقامة موازيات بين ضروب النموّ اللاحقة ومراحلها السابقة، فإننا سنُقاد حتماً إلى أن نتخيّل وجود سيرورات ذهنية في المراحل الأولى للحياة، حيث ليس لدينا وسيلة للتحقّق من فرضياتنا على نحو اختباري ... ذلك أننا نهمل، إذ نجعل المراحل السابقة تماثل المراحل اللاحقة، سيرورات النموّ، والطريقة المستخدمة ليست تكوينية دينامية إلا في الظاهر».

إنني أتفق اتفاقًا كليًّا مع هذا التحذير الذي يوجد في أصل هذا المقال. ولا أريد أن نقول هنا أن معرفتنا التحليلية عقد الطفولة، الحاصلة في حالات فردية انطلاقًا من ذكريات وإعادة إنشاءات بارعة، ليست صائبة في بعض الأحيان. ولكنني أرى أن هذه المواد تمثّل الأثر الباقي اللاشعوري من مجموعة من الاستيهامات، التي يبلغ فيها الأوج عصاب الطفولة؛ وهذه المجموعة هي، على الغالب، نتيجة عقدة ذات تكوين عصابي سابق على الكبت أكثر مما هي أصل هذه العقدة. فذكريات الطفولة، التي يتيح اكتشافها تحليلُ راشد، ينبغي لها، بالتالي، أن تُحسب نقاطًا نهائية حرجة من عصاب الطفولة الذي كان قد كُبت، ولكن دون أن يمثّل تجارب حياة الطفل الصغير، التجارب الأكثر أهمية والأكثر تمييزاً لهذه الحياة.

٧ ـ غريزة السيادة أكثر أهمية من البحث عن اللذة

الملاحظة الأكثر إتقانًا لشكلي اللعب اللذين عرضناهما سابقًا، أي الشكل العابر، المتكرّر، السارّ، والشكل القسري، تسوقنا إلى أن نرى أن جانبًا رئيسًا من نموّ الطفل الصغير يهمله التحليل النفسي كثيراً. وأريد أن أتكلم على نموّ القابلية للسيادة على جزء من البيئة. وأرجع إلى **غريزة السيادة**، أو «غريزة الاستيلاء»،

لأدلّ على الحاجة الأولية إلى ممارسة الوظائف التي تنشد هذا الغرض. وأقصد بذلك دافعًا فطريًّا إلى الفعل وإلى تعلّم كيفية الفعل. ويبدو أن هذه الغريزة تحدّد سلوك الطفل خلال أعوامه الأولى أكثر مما تحدّد البحث عن اللذة الشهوانية نفسها.

وليست «غريزة السيادة»، ربما، أفضل مصطلح يُستخدم. ويؤخذ عادة على كلمة «غريزة» معناها التحليلي النفسي بصورة نوعية لـ **الدافع**، ومعنى الحاجة البيولوجية المحسوسة نفسيًّا بوصفها انفعالاً يدفع العضوية إلى أن تتحرّر من توتراتها. ومصطلح غريزة السيادة توحي به إحالات فرويد العَرضية إلى «Bewáltigungstrieb»؛ ولكن استخدامه هذا المصطلح يبدو أنه قام مقام مخرج سهل عندما كان تصنيفه بوصفه أنا أو بوصفه غريزة موضع شك، في حين أن حديثي يكمن في أن أجعل مظاهره الأولية مقابلاً لمظاهر الغريزة الجنسية. فغَرَض الغرائز الجنسية النهائي (الليبيدو) هو اللذة الشهوانية أو مشتقّاتها دائمًا، بحيث تكون اللذة النوعية هي لذة الأعضاء الجنسية أو منطقة من المناطق المثيرة للغلمة؛ في حين أن هدف دافع الاستيلاء هو اللذة الناجمة عن ممارسة وظيفة بنجاح، بمعزل عن قيمتها الشهوانية. وليس دافع الاستيلاء يطابق السادية بالضرورة ذلك أن السادية ارتكاس إزاء الموضوع الموظّف جنسيًا، في حين أن غرض دافع الاستيلاء تعديل (ومعرفة بعض الأحيان) وضع خارجي. ومصطلح غريزة الاستيلاء مصطلح مناسب على الأقلّ، بمعنى أن كل مظاهر هذه الغريزة (كالمعالجة باليد والانتقال؛ والفهم والاستدلال) تبدو، على أنحاء مختلفة، أنها تستجيب للغرض النهائي، غرض تكييف البيئة مع الذات. ومظاهرها الأبسط هي استعمال أعضاء الحواس، والجهاز العضلي المحيطي، والترابط العقلاني بين الأفكار. فالوظائف النامية استجابة لهذه الغريزة تندمج في هذه الأنا فيما بعد وشكّلت مظاهرها المتأخرة نسبيًّا موضوع دراسات كثيفة، ولكن أصولها لم تحظ إلا بالقليل من الانتباه من جانب المحلّلين.

٨ ـ ثمة ضرورة: التعلّم

اعتدنا أن نعتقد الوليد مجهّز بصورة كلية بهدف التكيف مع بيئته على الأقلّ، أي للرضاع. وما نهمله غالبًا إنما هو أن المص ليس فقط فعلاً منعكسًا فطريًّا، ولكنه أيضًا «فاعلية مكتسبة بالتعلّم». إن وليدًا سويًّا ينفّذ حركات مصّ كاملة عندما تكون شفتاه موضع إثارة، ولكن ثمة هوّة بين الارتكاس الانعكاسي الأول والمصّ المناسب لدى غالبية الأطفال الأسوياء؛ وربما تكون المسألة مسألة دقائق أو ساعات. وهكذا يحتاج الطفل على وجه العموم، في تنفيذ هذه الوظيفة الأولى، إلى ضرب من الممارسة حتى يفلح في أداء ناجع تمامًا. وينجم عن ذلك أن من المباح لنا، في العادة (إن لم يكن دائمًا)، أن نميّز بين طورين في نموّ هذا النموذج الإرشادي الأولي لغريزتي الرغبة والسيادة: طور الفعل المنعكس وطور الكفاية المكتسبة والمنحة[٦].

وهذان الطوران نفساهما أكثر وضوحًا في النموّ الأولّي لأشكال أخرى من السلوك تستجيب لحاجة الطفل إلى أن يمدّ سيادته على العالم الخارجي. ولاينبغي لنا أن نهمل ضروب النموّ الأخرى للحواس النوعية بوصفها أدوات أساسية للسيادة على البيئة. ويشير كل شيء إلى أن تكيّف أعضاء السمع والرؤية واللمس، إلخ، مع أوضاع متغيّرة، يجري بواسطة مراحل ممارسة تتمركز على موضوعها. فنموّ القدرات الحركية، كعمل المسْك، والنيْل، والمعالجة باليد، وحركات الاستدارة والجلوس، إلخ، يفُهم على نحو أفضل. وبرهن جوزلْ على أن هذه الوظائف تبدو دون تعلّم خاص بوصفها استجابات لسيرورة نضج الجهاز العصبيّ الفيزيولوجي الضروري لتباشر التنفيذ. وبيّن أن كل قدرة عضلية عصبية تبدو بمراحل زمنية محدّدة جيدًا في حياة الرضيع. ولكن استخدام هذه القدرة الفعلي لايترسّخ مباشرة. فتمرين كل قدرة من هذه القدرات يمتدّ على عدة أسابيع. ويضع الطفل،

---

(٦) من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن التنفّس نفسه لدى الوليد تسبقه حركات تنفسية قبل ولادية. انظر، في سبيل دراسة معمّقة لمنعكسات الجنين، دراسة ليونار كارميكايل الأحادية، ودراسات الجنين البشري لدى دافنْبور هوكَرْ.

حتى يسود الانتقال، قدماً أمام الأخرى مستنداً إلى يديه الاثنتين، ثم على واحدة. ويتقدّم بالتالي، دون أن يستعين بيديه، نحو نقطة ارتكاز قريبة جداً، ويمشي مستعيناً بدعم واحد. وينتهي إلى أن يتقدّم دون عون. ويظلّ جزء كبير من سلوكه، خلال هذه الأسابيع، متمحوراً على ممارسة هذه المراحل في تعلّم السيادة المكانية بساقيه. ولكنه منذ أن يتعلّم المشي، يزول هذا القسر، قسر التكرار لحركة انتقال محدّدة، والممارسة للممارسة، وتوضع الوظيفة عندئذ بتصرف الأنا حتى تُستخدم في عدد كبير من الأوضاع.

٩ ـ من الفعل المنعكس إلى الوظيفة: طورا النموّ الحركي

نموّ الأعضاء الصوتية يوضّح أيضًا هذين الطورين من نموّ وظيفةٍ للأنا. ويتمرّن الطفل الصغير، قبل أن يستخدم الكلمات بوصفها كذلك، على أن يُصدر الأصوات المتوافقة مع كل مقطع من مقاطعها. إنه يكرّر غالبًا، خلال أيام وأسابيع، حرفًا صامتًا جديداً، وبخاصة عندما يكون وحده في مهده، لاسيّما في الليل. وعندما يتعلّم صوتًا، ينتقل إلى آخر. فأن تكون ممارسته كل صوت تكرارية إلى أن يسود آلية إصداره، تلك خاصّة من خصائص سلوكه.

فأن تقودنا هذه الملاحظات الخام فعلاً إلى مبدأ أساسي للسلوك البشري، ذلك أمر كانت الدراسات المعمّقة التي أجرتها ميرْتل ماك غرو قد برهنت عليه بصورة أكثر اتّصافًا بالصفة العلمية. فعملها، المتوجّه على نحو أساسي تبعًا لاهتمامه **بسيرورة النموّ**، وباكتساب معارف خاصة بسيكولوجيا الطفل، وبالسلوكات أو التخطيطيات التي تظهر في الطفولة الأولى، يصف أيضًا تلك المراحل التي تظهر فيها موضوعات اهتمامها هذه؛ ويوضّح المبدأ الأساسي الذي يعتمد عليه ظهورها، وتراجعها، وتفاعلها. وأجرت هذه المؤلفة مجموعة من الملاحظات عن عينات مختارة من سلوكات الأطفال (مانسميّه «تخطيطيات العمل» وأسميه «الوظائف الجزئية للأنا»). وانطلاقًا من هذه المعطيات، برهنت على أن نموّ كل القدرات الحركية المفيدة خلال الطفولة، قدرات تُستخلص من مجموعة

ملاحظاتها، يكشف أول الأمر عن تخطيطية انعكاسية. وتبدو هذه التخطيطية، بعد مرحلة من كفّ الفعل المنعكس، بوصفها وظيفة تسيطر عليها القشرة الدماغية، ولم تعد عندئذ فعلاً منعكسًا مقولبًا بل وظيفة تتعدّل وتنمو بالاستعمال فيما بعد. وتصف هذه المؤلفة ذلك الميل المتنامي إلى استخدام هذه الوظائف وممارستها خلال الطور اللاحق، وتصرّح في هذا الصدد: «نموّ هذه الحركات المقصودة أو الإرادية تتقدّم انطلاقًا من نموذج منظّم ومندمج». «التعلّم وسيرورة النضج ليسا سيرورتين متمايزتين، بل هما جانبان من السيرورة نفسها. فعزو نموّ السلوك لدى الأطفال الصغار إلى أحد هذين الجانبين بدلاً من الآخر ليس مسوّغًا بالتالي[٨]».

١٠ ـ النضج: تأليف طاقات نامية في الطفولة

أطروحتي تكمن في أن المبدأ الذي يعبّر عنه هذان الطوران الفاعلان (إذ نهمل الطور الوسيط من الفعل المنعكس المكفوف) موجود أيضًا في وظائف اللعب المعقّدة والعمل التي تنطوي على الشخصية برمتها، وأن هذه الوظائف تنمو انطلاقًا من هذه الوظائف الجزئية التي كان علماء النفس التكوينيون قد درسوها على نحو أفضل في ملاحظتهم المباشرة لسلوك الطفل. وتقدّم ترجمة النتائج الموضوعية، كنتائج ماك غرو في نظرية الغريزة، مفهومًا واسعًا يتيح لنا أن نصوغ العلاقة بين الوظيفة الجسمية والحاجة البيولوجية والدافع الانفعالي، وأن نوسّع رؤيتنا العلاقة البينية لسلوكي الطفل والراشد، العصابية والسوية، في منظور مبدأ أساسي. وينبغي لنا،

(٧) هذا التمييز بين الاستعمال «الانعكاسي» والاستعمال الذي «تعدّله القشرة الدماغية» للبنية نفسها، يُعترف به في علم النفس منذ زمن طويل كما التمييز بين تخطيطيات العمل «المندمجة ذهنيًا» و«غير المندمجة ذهنيًا». ويصرّح د. أدولف ميير: «أسترعي انتباه طلابي على وجه العموم إلى الحركة الانعكاسية للركبة واستخدام الساق الإرادي لتوجيه ركلة. وركلة بالون تنطوي على لحظة زمنية. واختيار، ومخطّط إجمالي مختلف عن مجرد حركة انعكاسية للركبة. وما يصحّ بالنسبة للركلة يصحّ بالنسبة لكل المتشاكلات الذهنية وغير المندمجة». وهذا التصوّر مبدأ من مبادئ علم النفس منذ زمن طويل.

حتى مع خطر ضرب من التعقيد في المصطلحات، أن نحلّل السيرورة التي ينمو بواسطتها سلوك طفل يشبع الحاجة الأساسية، وكذلك العلاقة بين الوظيفة الجزئية وضروب الضبط النامية تماماً للعضوية برمتها.

ذلك أن الوقائع التي ذكرناها تبيّن أن سلوك النضج تأليفٌ بين القدرات التي نمت في البدء نمواً جزئيًا خلال الطفولة الأولى. فنموّ كل عنصر من العناصر الجزئية، قبل الاندماج الأكثر تعقيداً، يتبع مخططًا مشتركًا بين الجميع: ظهور قدرة فيزيولوجية على إجراء تخطيطية انعكاسية؛ مرحلة من الممارسة والتعلّم؛ اكتساب ناجع على استخدام هذه الوظيفة. ويتميّز **الطور الانعكاسي** بمظهره المقولب وعلاقته الوثيقة بالمنبّهات النوعية أكثر مما يتميز بأغراض مفيدة أو بحاجة انفعالية. ويتميز **طور التعلّم** بالاستقلال إزاء المنبّه وظهور حاجة إلى الممارسة التكرارية، وبالقابلية المتنامية لتعديل التخطيطية المقولبة على نحو مفيد. ويتميّز **نضج** الوظيفة الجزئية بالقابلية لاستخدام الجهاز استخدامًا إراديًا، دون أي تعلّم، وبقابلية هذه الوظيفة لضروب من الضبط في الشخصية الإجمالية بدلاً من الممارسة للممارسة لديها، واندماجها المتنامي مع وظائف جزئية أخرى.

١١ ـ التعلّم أساس الأنا

طور التعلّم هو الذي يعنينا هنا على الوجه الأخص، ذلك أن الطفل الصغير ينبغي له أن يتعلّم استخدام جهازه العضلي العصبي قبل أن يكون بمقدوره أن يفعل مايشاء، ويبلغ هذا الغرض بالممارسة وتكييف جهازه الانعكاسي الأصلي. وفي الحاجة إلى ممارسة وظيفة جزئية حتى الاكتساب الناجع لاستخدامها، نرى الدليل الموضوعي الأول على أن «غريزة السيادة»، أو دافع الاستيلاء، عاملة. وميل الطفل الصغير، كما في حالة كل المظاهر الغريزية الأخرى، إلى أن يستغرق في فاعلية جديدة خلال أيام وأسابيع، يقدّم الدليل على معاودة الدافع. وثمة على الغالب

سمة قسرية على نحو واضح في الحاجة إلى تكرار الوظيفة التي لايتعلّمها المرء، وظيفة لم تعد تبدو لاحقًا في الممارسة السويّة للوظيفة المكتسبة. وهذه السمة القسرية تذكّر بالاستجابة المقولبة لمنبّه نمطي في المرحلة الانعكاسية، وتشبه أيضًا ذلك السلوك القسري الذي كان التحليل النفسي على وجه الخصوص قد درس مظاهره العصابية.

وتوحي هذه الوقائع بتصميم واسع إلى الحدّ الأقصى وذي أهمية: **القسر** (كقسر اللعب غير السويّ في المجرى اللاحق للطفولة الأولى، الذي رأيناها آنفًا في هذا المقال وقسر السمات العصابية في أي مرحلة من الحياة) هو دائمًا **نكوص إلى مرحلة سوية من الوظيفة غير المكتسبة**. وهذا القسر **يقترن دائمًا بعجز عن ممارسة وظيفة بكفاية، وظيفة بسيطة أو معقدة، وذات نعم لدافع الاستيلاء**. وعندما تكون القدرة على ممارسة وظيفة للسيادة على وضع وتعديله مكتسبة وتبيّن أنها غير محبطة، تختفي المظاهر القسرية. ولكنها تعود طوال الحياة كلما كانت الرقابة على الجهاز غير نامية أو أن أسبابًا داخلية أو خارجية تعوق استخدامه الفعلي. وينجم عن ذلك أن وظائف غير نامية أو معاقة تثير القسر دائمًا، ولكن الوظائف التي تبلغ أغراضها لاتفعل ذلك، سواء كانت هذه الأغراض من النسق الليبيدي، الأناني، أو من النسقين معًا كما هي الحال على وجه العموم.

١٢ ـ تعلّم واحد للجنسية التناسلية لدى المراهق

هذه السيرورة من التعلّم هي، بالتالي، أساس نموّ الأنا. فكلما كانت الأنا ناضجة، تناقصت الأدلة على وجود نموذج قسري من التكرار بأي شكل. ويمكننا، من وجهة النظر هذه، أن نعرّف الأنا أنها مجموع هذه الاندماجات للوظائف الجزئية، التي تتيح للطاقة الغريزية أن تفرّغ شحنتها على نحو مناسب بحيث لانلاحظ قسر التكرار. ويبدو أن غرض الأنا الأول هو نموّ وسائل التدريب على

تفريغ الشحنة لتوتّر الغريزة إلى هذا الحدّ الكامل، بحيث يصبح قسر التكرار المستتر غير ظاهر. وثمة مثال على نكوص إلى طور الطفولة للوظيفة غير المكتسبة يكمن في التجربة الجنسية قبل الجماع لدى المراهق. ونحن نميل إلى أن نجعل العلاقة بالموضوع الجنسي لدى الراشد الناضج متعارضة مع الكفّ العصابي، وأن نعترف أن هذا الكفّ ينتشر في المراهقة انتشاراً كبيراً بحيث يكون «سويًّا» من الناحية العملية. ولكن دراسة التحليل النفسي انزياحات متتالية لموضوع الحب خلال الطفولة في تقليص الحصر الذي يكفّ الفرد غير الناضج على نحو كاف قادتنا إلى إهمال السيرورة المرافقة، ذات الأهمية أيضًا، التي بها يتعلّم المراهق، خلال تعاقب من التجارب الجنسية، أن يثمّن موضوعات حبه بواقعية متصاعدة، وكذلك العلاقة التناسلية معها. فنموّ وظائف الأنا والتخلّي عن موضوعات الطفولة هما بالتالي أساسيان للتوصّل إلى النضج الجنسي. ويبدو لي هذا الجانب من السيرورة المعقدة لدى المراهق (التي يمكن أن «تُعاش مجدّدًا» في تحليلات علاجية ناجمة) مشابهًا لنموّ القدرات الحركية الأبسط. والآليتان تنطويان على سياق من التهيئة البيولوجية، من فاعلية قسر التكرار خلال مرحلة التعلّم، ومن زوال هذا القسر عندما يبلغ نضج الوظيفة أوجه.

١٣ ـ الاضطرابات الذهنية وعدم نضج الأنا

نجد نكوص الوظائف الجزئية على مستوى الأنا إلى طور التعلّم لنموّ الطفل في كل الأعراض، وسمات الطبع والسلوكات العصابية. وأكبر نجاح علاجي حقّقه التحليل النفسي كان البرهان على الدور السببي لآليات الإثمية، والحصر، والنزاعات اللاشعورية، والتثبيت الطفولي، في حدوث هذه الأعراض. وأودّ فقط أن أجذب هنا الانتباه إلى واقع مفاده أن كل أعصبة التحويل تنطوي على بعض الاضطراب في وظيفة الأنا الراشدة، جرّاء نزاعات نألفها منذ زمن طويل. إنني بيّنت في إصدارات سابقة، ذلك الدور الأساسي لنموّ قاصر لدى بعض وظائف الأنا في مبحث أسباب الاضطرابات الأخرى في الشخصية (الشخصية

شبه الذهانية الهذائية، الشخصية شبه الفصامية، طبع أنثوي غير فعّال، ذهانات، إلخ)[٨]

وبوسعنا أن نلخّص بعض الشروط، التي تثير هذا التكرار القسري لجهد يميّز طور الوظائف الجزئية غير المكتسبة، كما يلي:

١ ـ في التمرين الإرادي على التخطيطيات الحسية الحركية، قبل أن يكون

(٨) ثمة ملاحظة أخرى أبداها جوزل عن نمو الوظيفة العضلية العصبية ذات دلالة على نحو خاص. إنها خاصة بالواقع الذي مفاده أن ملاحظة مستمرّة ستبيّن، في الحالات الاستثنائية حيث يتعلّم طفل صغير أن يمشي منتصبًا قبل أن يتعلّم المشي على أربع (الحبو)، أنه يشرع دائمًا في المشي على «أربع» خلال مرحلة معيّنة، مباشرة بعد أن تعلّم المشي منتصبًا. ومثل هذه المعاينات تدلّ على أن من المحتمل أن أية وظيفة، بسيطة أو معقّدة، لاتُكتسب اكتسابًا نهائيًا قبل أن تكون الأطوار التكوينية التي تسبق هذه الوظيفة قد بُلغت وتحقّقت. ويبدو أن الدليل على وجود مثل هذا القانون، في وظائف معقدة بقدر ما هو السلوك الاجتماعي وحب الموضوعات، أوضحته الجوانب العلاجية من التحليل النفسي إيضاحًا رائعًا. ونحن نبيّن بوضوح، في حال النجاح، كيف أن طورًا من الطفولة الأولى، من الطفولة، من المراهقة، كان مكبوتًا (أو «متجاوزًا»)، ينبغي له أن يخضع للتجارب قبل أن يكون بوسع تصعيد، أو وظيفة اجتماعية، يساهم فيه، أن يبلغ النضج. وهكذا، كان مريض قد عاش، بين مرحلة بلوغه والثانية والعشرين سنة من عمره، كفًّا شبه كامل لدوافعه الاستمنائية وانجذابه نحو الصبايا. وخُتن في الثانية والعشرين من عمره، واستمتع بين هذه المدّة الزمنية وتحليله، بعدد كبير من العلاقات الجنسية التي كانت تبلغ في بعض الأحيان كمالاً سويًا راشدًا على وجه التقريب. وحلّت محل الجماع، في الأشهر الأولى من تحليله، سلوكات كان السبر النقدي فيها يتغلّب على الرغبة في الجماع، واستيهامات استمناء بديل، وفاعليات تميّز خصائصها المراهقة السوية أكثر مما تميّز رجلاً لديه التجربة التي كان قد اكتسبها. وما دام المعيش المؤجّل من أطوار مهملة لم يفعل فعله، فإن قسر التكرار يستمرّ، إما على شكل ظاهر من الأعراض العصابية أو على شكل سمة طبع، وإما على شكل كامن بوصفه كفًّا وحفاظًا على تجنّب هذه الوظيفة: وهذا صحيح بالنسبة للوظائف الحركية الأولى التي درسها جوزيل، كما بالنسبة للمظاهر المعقّدة التي يدرسها محلّل.

وخلال مناقشة انصبّت على هذه المسألة، صرّح د. إدوار لِس: «أرى أن قيمة مقالك تكمن في واقع مفاده أن الفعل التكراري يمكنه، على بعض المستويات الانفعالية، أن يكون ظاهرة سليمة تمامًا. وهذا أمر لن يسترعي أبدًا، لأهداف علاجية، انتباه أحدٍ على نحو كافٍ، ذلك أن تقنية ميلاني كلاين ستكون بوضوح مضادة للاستطباب في الطور التكراري مع أنها مسوّغة تمامًا في الطور القسري. وذلك يثير أيضًا مشكل المعايير في ضرورة تحليلٍ قبل السنوات الست من العمر.

بوسع القدرة على أداء فاعل أن تبلغ هدفها بالممارسة :

آ ـ الحواس الخاصة ؛

ب ـ الوظائف التي تسهم في السيادة الحركية على البيئة (مصّ، معالجة باليد، انتقال، إلخ) ؛

جـ ـ لغة، فهم.

٢ ـ خلال مرحلة التعلّم لتخطيطيات جديدة من طبيعة أخرى أكثر تعقيداً، قبل حصول أداء فاعل :

آ ـ بعض أشكال اللعب ؛

ب ـ العمل الذهني والعضلي ؛

جـ ـ السلوك الجنسي المراهق.

٣ ـ عندما تكون الممارسة السوية لوظيفة بلغت النضج قد أصابها الاضطراب بفعل :

آ ـ إحباط خارجي (الدين، عصاب التحويل التحليلي، تحديدات يفرضها أفراد آخرون أو جماعة) ؛

ب ـ حَصَر وإثمية (نُفاس)(*) ؛

جـ ـ حصر واقعي (أخطار واقعية، عصاب الصدمة، ذعر) ؛

د ـ أثر باق من تخطيطية، ذات صفة غالبة قسرية، لتفريغ غريزي غير خاضع لمبدأ الواقع لدى مبدأ الأنا العليا (عصاب المصير، ارتكاس علاجي سلبي، شخصية اندفاعية).

٤ ـ عندما لاتبلغ النضج وظائف أساسية ذات ارتباط بعلاقات الراشدين السوية بالموضوع (ذهانات، أعصبة خلل الأنا).

إيف هندريك

المقال ترجمته إيفون بودري

عن الانكليزية الأمريكية

(*) Psychanévrose

الجزء الرابع

الأنا العليا

أهي وريثة عقدة أوديب؟

الفصل الأول

أخلاق الصارّات(*)

رحم الأنا العليا

مقدّمة:

ثمة عدد من المؤلفين، فرويديين أو بعد الفرويديين، عزوا، كما يفعل فورنزي هنا، بشائر إلى الأنا العليا ـ المعرّفة كلاسيكيًا أنها «وريثة أوديب» ـ أو قدّموا ظهورها في تسلسل أحداث النموّ. فعقدتا أوديب والخصاء لن تؤثرا عليها فيما بعد، في هذا المنظور، إلا من حيث تعديلها وإضافة مكوّنات جديدة إليها.

وإذا تبنيّنا وجهة النظر الأولى، فإن ظهور بشائر الأنا العليا، في المادة العيادية التي يكشف عنها مريض، لايستبعد فرض نكوص الأنا العليا الأوديبية. وهكذا يبدو أن مايسمّيه فورنزي «أخلاق الصارّات» يمكنه أن يكون مفهومًا. إن هذه الأخلاق تكوّن، حين ترتبط بالتربية، ذلك الرحم الذي تنمو الأنا العليا فيما بعد انطلاقًا منه، مستقلّة لاشخصية، ناجمة عن انحسار الأوديب.

(*)صارّة: عضلة شرجية تغلق أو تضيّق فوهة أو قناة طبيعية «م»

النص

إحدى القواعد الرئيسة الخاصة بالاتجاه العام الواجب تبنّيه إزاء المحلَّل موجودة دون شك في صيغة فرويد التي ينبغي للتحليل بموجبها أن يجري في حالة نفسية من **الحرمان** (الإحباط). والمعنى الوحيد الذي أطلقناه على هذه القاعدة، حتى الوقت الراهن، يكمن في معنى أن نترك الأمنيات والمقتضيات التي تصدر عن المريض في التحليل غير مشبعة، لاسيّما رغبته الواسعة الأرجاء في المحبة وميله إلى أن يستقرّ في التحليل طوال الحياة على نحو من الأنحاء. وأودّ أن أضيف الآن أن من الممكن أن نفرض أيضًا، فرضًا ذا فائدة، ضروبًا أخرى من الحرمان، من أصناف شتّى، وأضرب عليها مثال الملاحظة الأهم من ملاحظاتي.

ذكرت في أعمالي السابقة، من بين الأمثلة الصائرة إلى توضيح المهمّة الفاعلة خلال التحليل، حالة المرضى الذين يعرضون «العَرَض العابر في أثناء الجلسة التحليلية، الذي تكوّنه **رغبة في البول** قوية، ورفضت أن أستسلم لهذه الرغبة، آملاً أن يبعث تنامي التوتّر، الذي يصيب الحياة النفسية جرّاء منع الإفراغ، بعثًا أكثر يسرًا تلك المادة التي كانت تحاول أن تحتجب خلف هذا العرض. وكنت مسوقًا فيما بعد إلى أن أقدّم أيضًا، في بعض الحالات، توجيهات خاصة بالتغوّط، لاسيّما إلى المرضى الذي يصيبهم الحصر على وجه الخصوص بفعل ضرورة أن يراعوا مهلة معيّنة. ولم أكن، هنا أيضًا، أتوقّع أو ل الأمر شيئًا أكثر من ضرب من تقدّم التحليل عندما أزرع الاضطراب في هذه العادات. والحال أن النتائج تجاوزت توقّعي. فالمرضى الذين كانوا يعرضون هذا العرض، الحاجة إلى البول، بانوا أشخاصًا كانوا يبولون على وجه العموم كثيرًا في الأغلب، ونقول، بعبارة أخرى، إنهم مرضى مصابون بشكل خفيف من البُوال كانوا يحجبون خشية لاشعورية من سوء الرقابة على الصارّات البولية، وذلك فسيلٌ وراسبٌ من صعوبات الطفل في التكيّف مع هذا الانضباط في إفراز البول. ويمكننا أن نلاحظ الظاهرة نفسها لدى

المدقّقين في التغوّط . إنهم يعوّضون بسرعتهم وانتظامهم عن ميل في الطفولة، غلمي شرجي، إلى الاحتفاظ بالبراز أطول مدّة ممكنة؛ ولكن هنا أيضًا يتدخّل الخوف اللاشعوري من أن الاحتفاظ المديد يؤدي إلى تراكم كمية من البراز يثير طردها ألمًا حادًا على وجه الخصوص . إنه المريض نفسه على الغالب الذي أرغمني على اللجوء إلى إجراءات إحليلية وشرجية على حدّ سواء؛ وكان المقصود على وجه العموم رجالاً عاجزين جنسيًا ونساء باردات جنسيًا .

١ ـ كيف نجعل نموذجًا معيّنًا من المقاومة يتراجع؟

الارتكاس الذي كنت قد أثرته وأنا أزرع الاضطراب في هذه العادات القديمة كان التالي على وجه العموم : كان المريض يستجيب للمنع الإحليلي باتجاه مفعم بالكفاية، محتجًّا أنه كان قادرًا على أن يمسك بوله يومًا كاملاً، وأنه ذو قوة مفرطة في هذا الصدد . وعندما كنت قد دخلت في لعبته وفرضت عليه أن يمسك بوله زمنًا أطول مايمكن، كان يفلح أحيانًا في تحقيق أداءات مدهشة، ممسكًا بوله خلال ثماني ساعات أو عشر متواليات وعشرين ساعة مرة واحدة . وكان الأمر على هذا النحو للمرة الأولى أو خلال بعضٍ من الزمن . وكان المريض يشعر بالصعوبة على الأغلب في الامتثال إلى تعليمات متابعة التجربة، وحتى كان حادث عارض واحد أو حادثان يكفيان في بعض الأحيان للكشف عن الضعف الذي كان يحجب هذه «القوة الفائقة» لتقنيع ميل إلى سلس البول لا يعرفه المريض حتى الآن، وكان اكتشافه يتيح توضيح أجزاء ذات أهمية من طفولته الأولى الأولى . وكان كل شيء يحدث كما لو أن ضروب الضعف المستمرّة لدى الصارّات الداخلية للمثانة كان إعصاب متنامٍ للصارات المساعدة يعوّض عنها حتى لاتظهر إلا بعد أن تُنهك هذه الصارات المساعدة .

كذلك كنت قد فرضت على المدقّقين في الانعتاق من عبء أن ينتظروا حتى تأتي الرغبة في البراز لذاتها . وكانت المقاومة تتّخذ عندئذ شكل المخاوف لتوهّم المرض (تلك كانت الحال أيضًا، في بعض الأحيان، في تجربة البول) : كانت

الأمعاء تتعرّض إلى خطر الانفجار، أو، كذلك، إن إمساك البراز كان بوسعه أن يُحدث ضروبًا من النزيف والبراز الذي لايُفرز كان سيسبّب الضرر للعضوية أو حتى أنه يسمّمها؛ وبعضهم كان يشكو أيضًا أوجاعًا في الرأس، وفقدان الشهيّة، والعجز عن التفكير؛ وكانوا يستشهدون بحالات كان الإمساك قد سبّب ضروبًا من القيء وكان من الصعب جداً منعهم من اللجوء إلى عادتهم القديمة في تناول الحقن الشرجية أو المليّنات. وكانت كل هذه المخاوف، في الواقع، مجرد إنشاءات رهابية تسدّ الوصول إلى الغلمة الشرجية والحصر الشرجي، المكبوتين كليهما. وإذا كانوا يرفضون الاستسلام للتأثّر، فإنهم يفلحون على الأغلب في أن يلمحوا بعمق كاف تلك الدافعية المكبوتة خلف هذه السمات من الطبع. وكان ثمة، هنا أيضًا، عنيدون يمسكون برازهم، ليُظهروني بمظهر العبثي، أربعة أيام، خمسة، ثمانية أيام وحتى أحد عشر يومًا في حالة مؤكدة حسب الأصول. وعندما كانوا يدركون في نهاية المطاف إدراكًا لاريب فيه أني لم أكن أستسلم، كانوا يتسبّبون في تغوّط قاس إلى الحَد الأقصى، برازه يخرج على شكل كرات، يليه براز كثير، وكل ذلك يرافقه آلام حادّة، شبيهة بآلام الولادة.

وكانت محاولة واحدة تكفي على وجه العموم، كما في الحالات الإحليلية، إلى تحطّم عناد المريض، ولكن ليس دائمًا. وإذا أُعطي المريض مجدّدًا أمر الإمساك زمنًا أطول مايمكن، فإن ذلك لم يكن سهلاً قط بالقدر الذي كان في المرة الأولى وحتى كان يحدث أن يسبّب هذا الإيعاز زوال إمساك كان موجوداً منذ زمن طويل. وهنا أيضًا يمكن لسيرورات الصارّات الخارجية خلال إخراج البراز، أن تحجب على مايبدو ضروبًا من ضعف الصارات الداخلية[1].

---

(١) أولئك الذين يعرفون ملاحظاتي عن «ظاهرات التجسيد المادي الهستيري» المدهشة على الغالب (في **أعمالي الكاملة**، المجلد الثالث) لن يرفضوا قبليًا بوصفها عبثًا تلك الفكرة التي مفادها أن اللاشعور يمكنه أن يجد تعبيرًا مباشرًا في شكل البراز وبنيته، وذلك إمكان كان غروديك قد ذكره آنفًا ذكرًا جديًا على وجه التقريب في مقاله «سابر الأنفس».

٢ ـ فَرَض خاص بالتناسلية

من المؤكد أنني لم أكن قط أعير هاتين الوظيفتين هذا القدر من الانتباه لو لم أكن أبديت الملاحظة التي تستلفت الاهتمام، وكنت المدهوش الأول في بادئ الأمر، ومفادها أن هاتين الوظيفتين تتيحان أن نكتشف على النحو الأسرع بعض العلاقات، المنيعة على نحو آخر، بين خصائص الطبع والأعراض العصابية، ومن جهة أخرى بين مصادرها الدافعية وما قبل التاريخ الطفولي. وما نسمّيه «تحليلات الطبع» يمكنها على وجه الخصوص أن تقتضي هذا الردّ إلى الاهتمامات الجنسية الفموية، الإحليلية والشرجية، بواسطة أساليب فاعلة؛ كما لو أن المقصود في هذه الحالة أن نعود إلى المصادر الدافعية ونجعل الطاقة الدافعية المشتقّة منها متشابكة ونستخدمها على نحو مختلف.

وهذه التجارب الخاصة بإمساك البراز بانت خصبة فضلاً عن ذلك في اتجاه غير متوقّع، إذ أقدمت على تأييد «نظرية المزيج الثنائي» للتناسلية كما عرضتها في محاولتي، **محاولة في نظرية التناسلية**[٢]. وكنت، في الواقع، مصاباً بالدهشة في بعض الحالات بفعل التأثير الذي لايقبل المنازعة، مفاده أن منعاً إحليليًّا كان يمارس تأثيره بصورة ظاهرة على الوظيفة الشرجية، كما لو أن الميل إلى إفراز البول انتقل إلى الوراء على نحو من الأنحاء؛ فالمرضى كان لديهم براز أكثر تواتراً، ولديهم على الغالب انتفاخ بطن وغازات معوية غزيرة. ولكن المرء كان يمكنه أن يلاحظ أيضًا انتقالات من نوع آخر، كالتأثير البارز على الشهيّة والتأثير الأبرز والأكثر أهمية بالتأكيد على ظهور انتصابات حتى لدى العاجزين جنسيًّا الذين لم يحظوا بها منذ زمن طويل. وكان الأمر يقتضي أن توضع هذه الظاهرات في علاقة مع بعض التصوّرات النظرية، التي كنت قد أدليت بها في محاولتي «نظرية التناسلية»، من حيث نشوء التناسلية، بل كان صعبًا أن لانرى فيها تأكيداً تجريبيًّا للتصور الذي كان معروضًا فيها، أعني أن وظيفتي الإمساك والإفراغ للمثانة والأمعاء يمكنهما أن

---

(٢) فورنزي: «البحر، محاولة في نظرية التناسلية»، في **أعمالي الكاملة**. المجلد الثالث.

ينطويا على ضروب من الإعصاب الشرجي والإحليلي بشكل مزيج ثنائي، وأن هذين الميلين ينتقلان بصورة ثانوية إلى العضو التناسلي حيث يراقبان قذف المنيّ وكفّه. وبدا لي هاماً جداً على المستوى العملي، بالإضافة إلى أهمية هذا الاكتشاف النظرية، أن نرى ينفتح، بفضل هذه الإجراءات الفاعلة، منظور ضرب من إعادة إنشاء أكثر سهولة لبنية الجنسية في حال العجز. وأشاطر من جهة و. رايخ [٣] كلياً رأيه في أن اضطرابات ذات أهمية على وجه التقريب في التناسلية ترافق كل حالات العصاب وليس فقط حالات العجز الظاهر، وأنا قادر على أن أبرهن على الفرصة المؤاتية للفاعلية الإحليلية الشرجية في البنيات العصابية الأكثر تبايناً.

٣ ـ الغُلمة التناسلية تمرّ بمواجهة الغُلمة قبل التناسلية

أجيب عن الاعتراض الواضح، الذي مفاده أن المقصود فقط في الإمساك إثارة ميكانيكية للأعضاء التناسلية، أن الانتصابات لاتبدو فقط على شكل «صلابة مائية»، أعني عندما تكون المثانة مملوءة، ولكن بعد الإفراغ أيضاً. أضف إلى ذلك، وهو دليل أكثر إقناعاً بكثير، أن الاتجاه النفسي لدى المحلّل يتكلم لمصلحة العلاقة التي وصفناها للتوّ. فأولئك الذين كانت «القوة الفائقة» لديهم تحجب ضروباً كامنة من الضعف الطفالي كانوا قد أصبحوا أكثر تواضعاً بصورة محسوسة، في حين أن الأفراد الذين كانوا يفلحون في تجاوز شيء من القلق خلال محاولات الإمساك كانوا يقدّمون الدليل على ثقة أكبر كثيراً على المستوى الجنسي. وكانوا يجدون الشجاعة، بين مايجدون، على التعبير عن ترابطات الأفكار لديهم وذكرياتهم المطمورة بعمق، وعلى التقدّم في وضع التحويل إلى مستوى ماكان بوسعهم أبداً أن يبلغوه من قبل. ولست مع ذلك واثقاً جداً أن يكون بمقدور أحدهم أن يقدّم شرحاً محض ميكانيكي لما يُسمّى «الصلابة المائية» دون اللجوء إلى مفهوم انتقال المزيج الثنائي للإعصاب.

(٣) تقرير إلى مؤتمر سالزبورغ، ١٩٢٤، «الدلالة العلاجية لليبيدو التناسلي».

وهذه الملاحظات أتاحت المناسبة لي أن أكون الشاهد على الشروط التي تسود تربية الأطفال قبل التناسلية وأن أدرس بالتفصيل هذه الشروط في «التربية البعدية» التحليلية. واكتشفت أن **الخشية من الألم** هي التي كانت تكوّن في نهاية المطاف سبب الميل إلى الإفراغ الإحليلي والميل إلى الإمساك الشرجي؛ ففي حالة إفراغ المثانة، تكون الخشية من التوتر الذي تثيره المثانة المملوءة، وفي إفراغ البراز تكون الخشية من الألم حين مرور الفتيل البرازي الذي يوسّع فتحة المستقيم ويزيد حجمه. **فـالإفراغ ينطوي إذن على اللذة بالنسبة للمثانة وعلى اللالذة بالنسبة للمستقيم**(٤). **ويقتضي الاستخدام الغلمي** لهاتين الوظيفتين أن يتحمّل المرء ازدياد التوترات المعنيّة ازدياداً كبيراً بصورة نسبية. فإفراغ المثانة لا يؤمّن لذة حقيقية إلا إذا تجاوز توتّر جدار المثانةحداً معيّناً. كذلك لاتحصل علاوة اللذة الغلمية في التغوّط، التي كان فرويد أول من أشار إليها، إلا إذا بلغت اللالذة أو التوتر المحسوسان قبل التغوّط درجة لايُستهان بها؛ وتكمن هنا ظاهرة عامة لأن السمة النوعية للغلمة تكمن في ظفر شهواني يتغلّب على الصعوبة العضوية التي يسبّبها المرء لنفسه(٥). وثمة عدد من العُصابيين يبينون أنهم قلقون بإفراط وهم يحرّمون على أنفسهم لذة الغلمة الشرجية والإحليلية خوفاً من الألم الحتمي المقترن بها، ويبدو أن الشجاعة على مواجهة الغلمة قبل التناسلية تكون عاملاً ضرورياً لايمكن أن تكون بدونها غلمة تناسلية متينة. فالصراع ضد العادات الشرجية والإحليلية يتكرّر في التحليل ويفضي هذه المرة إلى نتيجة أفضل؛ وتفترض هذه النتيجة افتراضاً مسبقاً استئصال بعض القدرات والعادات التي كانت تمنح وهم ضرب من الاندماج الناجح لهذا الطور التربوي.

---

(٤) انظر ملاحظات د. فورسايت عن هذه المسألة.

(٥) انظر نظرية التناسلية.

٤ ـ اكتساب ضرب من التفوّق على ميول طفولية غير متجاوزة

النتائج الفيزيولوجية لهذه التجارب من الإمساك ليست الظاهرات الوحيدة ذات الأهمية مع ذلك، وينبغي أن نضيف إليها المادة الترابطية التي يكشف عنها المريض بهذه المناسبة. فتوحّد الطفل بأبويه يمرّ، كما نعلم، بطور أولّي قبل تناسلي. وقبل أن يجرؤ على أن يقيس نفسه بأبويه على المستوى العام، يحاول الطفل أن ينافسهما على مستوى المآثر الإحليلية والشرجية، وهو مجال يكافئ فيه البراز، وذلك يتفق اتفاقًا تامًا مع نظرتي، «نظرية التناسلية»، أطفالاً ويمكن فيه لأعضاء عملية البراز، أعضائها نفسها، أن تؤدي دور الإنجاب، دورًا لايزال غير متمايز على المستوى الجنسي.

وتدخلّنا الفاعل، لاسيّما فيما يخصّ البراز، يمكنه إذن أن يوصف أيضًا على النحو التالي: نجعل بعض التوترات تزداد إلى أن يتغلّب الألم الذي يسبّبه الإمساك على الخوف من التغوّط؛ وفي حالة الإيعازات الإحليلية، يكون المقصود بالحري التعوّد إذا صحّ القول على توتّرات جدار المثانة، وتعلّم تحمّله. ولاينبغي أن نهمل، إلى جانب هذه العوامل الفيزيولوجية، دور التحويل الأبوي على الطبيب. وتكرّر ضروب الإيعاز والمنع التي يصوغها الطبيب على نحو من الأنحاء تلك الأوامر السلطوية التي يطلقها في الطفولة أولئك الأشخاص ذوو الأهمية، مع فارق لايُستهان به مع ذلك: كل شيء في الطفولة كان يُسهم في فطام الطفل عن علاوة اللذة، في حين أن هذه التربية الأولى الناجحة نجاحًا باهرًا تحلّ محلها في التحليل تربية أخرى تترك للغلمة ذلك الهامش الذي هو من حقّها(٦).

(٦) مصطلحا «الإيعاز» و«المنع» مبهمان إلى حدّ كاف ولايمنحان الأسلوب الذي به ينبغي، في رأيي، أن نستخدم هذين الإجراءين فكرة صائبة جداً. وكنت سأفضّل أن أتكلم على **نصائح** سلبية وإيجابية لأبيّن أن المقصود ليس تعليمات آمرة، كما هي العادة في تربية الأطفال، بقدر ماهي أنماط من السلوك يتحمّلها المريض إذا جاز القول على سبيل التجريب، مع موافقة الطبيب، أو على الأقل مع الأمل الوطيد أن تبين في نهاية المطاف مفيدة. وليس ثمة أبعد عن مقاصد المحلّل النفسي من أن يؤدي دور الديكتاتور ذي القوة الكلية أو أن يترك الحبل على غاربه لضرب من القسوة السادية ونحن نسقط، إذ نتصرف على هذا النحو، في العلاج النفسي السلطوي القديم. ومن النادر أن نتوصّل إلى أن نجعل متابعة العلاج متوقفًا على قبول نصائحنا.

ويحدث على وجه العموم في التحليل، بعلاقة مع ضبط الوظيفتين الشرجية والإحليلية، ضرب من وضع جديد موضع الاتهام بعض **سمات الطبع** التي، كما بيّن فرويد، تكون مجرد نتاجات إنابة، وتخمّر وتصعيد، لهذه الأجهزة الدافعية العضوية. والتنشيط الجديد التحليلي للغلمة الشرجية يحدث على حساب الطبع الشرجي. فالمرضى الذين كانوا حتئذٍ مصابين بالحصر وبخلاء يصبحون بالتدريج أكثر كرمًا، وليس المقصود فقط مادتهم البرازية؛ والطبع الإحليلي، السريع الغضب بسهولة، العاجز عن تحمّل توتر، بما في ذلك توتر نفسي، دون تفريغ مباشر، يكتسب اعتدالاً أكثر. ويمكننا أن نقول، على وجه العموم، إن هذه الإجراءات تقنع المريض أنه قادر على أن يتحمّل قدراً أكبر من اللالذة، بل أن يستخدم هذه اللالذة حتى للحصول على كسبٍ من اللذة الغلمية أكبر، وهذا الاقتناع يمنحه ضرباً من عاطفة الحرية والثقة بالذات، التي يكون العصابي محروماً منها على وجه الخصوص؛ ولابدّ من هذه العاطفة، عاطفة التفوّق، حتى تنبعث تطلّعات جنسية أعلى درجة، من طبيعة تناسلية، وتنبعث الشجاعة الضرورية، انبعاثًا في نهاية المطاف، لتنشيط النزاع الأوديبي مجدّداً وتجاوز حصر الخصاء.

٥ ـ ثمة أخلاق قاسية جدًا، أخلاق الصارّات

يبدو، في نهاية تحليل ناجح، أن الأعراض العصابية الخاصة بالتبوّل والتغوّط لاترجع كليًّا إلى الميول إلى تكرار نزاعات التكيّف بين الدوافع المرتبطة بإفراز الفضلات وبين المقتضيات الاجتماعية. وتبين القوة الصدمية الفاعلة هنا حقًا، كما في الأعصبة على وجه العموم، أنها الميل بالحري إلى الهروب من النزاع الأوديبي ومن التناسلية انطلاقًا منه؛ فالتعبيرات الظاهرة والكامنة عن ضروب الغلمة الإحليلية والشرجية والغلمات الأخرى، التي نجدها في العصاب، هي إذن ثانوية بصورة عامة: إنها تكوينات إنابية نكوصية لعوامل مثيرة للعصاب بالمعنى الحقيقي للمصطلح، لاسيّما حصر الخصاء.

ويبدو أن التوحّد الإحليلي والشرجي بالأبوين، الذي أشرنا إليه فيما سبق، يكوّن ضرباً من **البشير الفيزيولوجي لمثال الأنا والأنا العليا** في حياة الطفل النفسية. ولا يقيم الطفل باستمرار مقارنات بين أداءاته في هذا المجال وأداءات الراشدين فحسب، ولكنه يكوّن في نفسه أخلاق الصارّات، أخلاقاً قاسية جداً بحيث لا يمكن أن ينتهكها دون شعور بالندم ووساوس حادة. وغير مستبعد أن تكون هذه الأخلاق التي ماتزال نصف فيزيولوجية نابضاً من النوابض الأساسية للأخلاق اللاحقة محض النفسية؛ كما أن الشمّ(قبل الأكل)، الفعل الفيزيولوجي المحض، سيكون بموجب فرضي النموذج الأصلي أو بشير الإنجازات الفكرية العليا كلها حيث يكون المقصود دائماً تأجيل الإشباعات الدافعية (التفكير).

٦ ـ ما هي الصارّات، هذه السكور الفيزيولوجية؟

من الممكن أن نكون قد بخسنا كثيراً حتى الآن قيمة الدلالة البيولوجية والسيكولوجية للصارات. ويبدو أن بنيتها التشريحية ونمط عملها الوظائفي تجعلها على وجه الخصوص قادرة على إنتاج التوترات، وتراكمها، وتفريغها؛ إنها تعمل عمل السكور التي تقع في نقطتي الدخول والخروج من فوهات الجسم وتتيح درجة إعصابها المتغيّرة ضرباً من التنوّع في إحساسات التوتّر والاسترخاء، من حيث أنها تسهّل أو تكفّ سيل المحتويات الجسمية ورجوعها. وفحصنا هذه الظاهرات حتى الآن فقط من الزاوية النفعية وأهملنا إهمالاً كليًّا أهمية حركة الصارّات في مقاربة اللذة واللالذة، دون أن نتكلّم على أهميتها محض الغلمية. ويمكننا أن نؤكد انتقال كميات من الإعصاب من صارة إلى أخرى أو إلى عدة صارات. وثمة حالة من الحصر على سبيل المثال تترافق على الغالب مع انكماش بارز للفتحة الشرجية، ومع ميل إلى إفراغ المثانة. وهذا الانقباض يمكنه، في الهستيريا، أن ينتقل إلى أعضاء أخرى ويكوّن كرة الجهاز العضلي للحلْق، وتشنّجات الحنجرة (الصمتة الهستيرية)، وانقباض البوّاب (فتحة المعدة التحتية المرتبطة بالاثني عشر)، وتشكّل صارات شاذة في مختلف النقاط المفضّلة من الأنبوب الهضمي في الهستيريا، ويبين أن مصدر كل هذه التشنّجات هو الخوف من إعصاب مناظر للصارات التناسلية،

خوف يظهر لدى الرجل باضطرابات القوة الجنسية ولدى المرأة بآلام الطمث (تقلّصات رحمية). وتقود هذه الملاحظات عن الصارات، بفعل الترابط بين الأفكار، إلى شرح عدد كبير من الأعراض العصابية بحصر الخصاء أو حصر الولادة (رانك) وبحصر المخاض المفهوم على نحو سيّىء والمبخوس قدره. ويمكننا أن نقترح مقياساً لضغط التوتر الصارّي الشرجي على علم النفس التجريبي لقياس حدّة التموّجات في الانفعالات ولاسيّما الحصر؛ وأتاحت لنا جيداً ملاحظة الفاعلية الصارّية على مستوى الفم والحلْق أن نفهم فهمًا أفضل فيزيولوجيا وباثولوجيا التنفّس، والكلام، والغناء، لاسيّما في علاقاتها بالانفعالات (انظر بفيفر، فورسايس)[٧].

وكان المرضى، في الحالات التي تتجاوز خلالها التمرينات نقطة معيّنة، يُظهرون على وجه العموم، بمناسبة ترابطات بين الأفكار كانت تنشّط ضروب المعيش الطفولية، حصراً حاداً وسلس بول عابر في بعض الأحيان. وبوسعنا أن نتصوّر هذا العَرَض الأخير المرتبط بالحصر أنه ضرب من الذعر حيث يزول كل حساب لـ «أخلاق الصارّات» وحيث تعود الأعضاء إلى حالة الإشباع الذاتي الطفولي البدائي[٨].

٧ ـ تعليمات هذه الطريقة في العلاجات التحليلية:

ذكرت آنفًا كيف أن ازدياد التوتر كان يتجاوز الفوهات التناسلية، الإحليلية والشرجية، إلى كل الدينامية السيكولوجية الفيزيولوجية. وكانت أحلام مريض، خلال مرحلة فاعلية من هذا النوع، تبيّن بيانًا واضحًا جداً أن التمطّي (تمديد الجسم مع الشدّ) كان يمثّل بالنسبة له ضرباً من انتصاب الجسم كله، انتصاب كان يتيح له أن يكوّن بصورة لاشعورية استيهام جماع مع أمه، إذ يتّخذ الجسم مكان عضوه الذكري الذي ينتصب انتصاباً غير كاف.

(٧) انظر أيضاً ملاحظاتي عن التلعثم (**نظرية التناسلية**)، مصدر مذكور آنفًا.

(٨) انظر الاختفاء المفاجئ لهذه الرقابة على الصارّات في حالات الحصر أو الخوف المفرط وفي حالات الشنق.

ويمكن أن يبين هذا التوحّد العصابي للجسم كله بالأعضاء التناسلية، في رأيي، أنه ذو أهمية كبيرة، فيما يخصّ علم أمراض الأعصبة وعلم الأمراض العضوية على حدّ سواء. وعندما عرضت هذه المادة، مادة الملاحظة، على د. فرويد، لخّص هذا العالم تلخيصًا موجزًا وجهة نظري قائلاً إن العاجزين جنسيًّا، الذين تنقصهم الشجاعة في العلاقات الجنسية، يُنجزون الجماع بكل جسمهم في استيهاماتهم (اللاشعورية)؛ وربما يكون ذلك مصدر كل «استيهام داخل رحمي».

وأودّ أن أضرب أيضًا بعض الأمثلة المدهشة على الأسلوب الذي يمكن به أن يتقدّم التحليل بفضل التأثير الذي يُمارس على سيرورات إخراج الفضلات. ففي حالة من الحكّة الشرجية العصابية التي يصعب تحمّلها على وجه التقريب ويليها استمناء شرجي ومستقيمي لا يُقاوم، كان العرض يدوم على الرغم من تقصٍّ لاينتهي للمادة الترابطية. ولم يكن ثمة بدٌّ من أن يكون ضرب من إمساك الغائط الإرادي الذي يطول زمنه جداً، والإحساس بالتوتر الذي يرافقه، قد ألغيا سمة عضو اللذة اللاشعورية في الأمعاء، حتى يصبح انتقال الميل إلى الغلمة إلى الأعضاء التناسلية واضحًا. وثمة مريض آخر، عاجز عن إنجاز الفعل الجنسي دون أن يُفرغ مثانته إفراغًا كاملاً قبله (ولم يكن يفلح في ذلك إلا جزئيًّا)؛ توصّل إلى أن يتحمّل انتصابات أكثر بروزًا وأطول مدة في أعقاب محاولات ناجحة في الإمساك البولي وأن يحقّق في الوقت نفسه ضروبًا من التقدّم كبيرة في الفهم التحليلي النفسي لحالته. ويعرض عدد من المرضى (بينهم رجال)، فيما يخصّ برازهم، سلوكًا يقدّم فكرة ذات أهمية عن التغوّط الذي يدركونه وكأنه ولادة. وفي الحالة التي كان خلالها التغوّط، القسري على وجه العموم، يؤمّن، على حساب التناسلية، إحساسات شهوانية يرافقه قذف المنيّ، تخلّى المريض عن هذا العَرَض بعد إمساك قسري يليه تغوّط مؤلم.

ويصعب أن نقول متى يمكن وينبغي أن تجري هذه المحاولة وفي أي الحالات. ومهما يكن من أمر، ينبغي أن يكون بمقدورنا أن ندعم الفرض دعمًا متينًا، فرضًا

مفاده نكوص (أو تفكّك) الجنسية التناسلية إلى مراحلها البيولوجية السابقة، أعني ضرباً من انزياح التهديد بالخصاء المرهوب، تهديد يخصّ الأعضاء التناسلية في الأصل، على الوظائف القليلة الأهمية من الإخراج الشرجي والإحليلي. وللإجراءات التي عرضناها للتوّ هدف مفاده تشجيع الانزياح على الأعضاء التناسلية.

٨ ـ اكتشاف ذو أهمية: «التحليل البيولوجي» للوظيفة التناسلية

ستبيّن لنا الحالة التالية كيف أن كميات كبيرة من الليبيدو ويمكنها أن ترتبط ارتباطًا لاشعوريًّا بالوظائف المعوية. فثمة مريضة كانت تصاب بأزمات غريبة تقترن بـ «عواطف الأبدية». وكان عليها خلالها أن تظلّ بعضًا من الزمن في مأمن من كل إثارة وفي حالة من الانطواء. وكانت هذه «الأبدية» تمثّل في الواقع الانتظار غير المحدّد للإفراغ المعوي الذي حلّ محلّه، بعد تجربة مؤلمة من الإمساك القسري، اندفاع لايُقاوم لوضع حدّ لهذه «الأبدية». وبعد أن أتاحت لنفسها فقط هزة الجماع في المرحلة الشرجية، استطاعت المريضة أن تبلغ هزة الجماع التناسلية التي كانت حتئذٍ ترفضها. واعتاد مريض، كان يعاني ضرباً من حصر الخصاء حادّ على نحو يفوق الوصف، على أن يُفرغ قطعة واحدة وحيدة من البراز، خوفًا رهابيًا من أن يرى برازه مقطّعًا إلى قطع بفعل الصارّات. وكانت لديه القدرة المدهشة، بالإضافة إلى ذلك، على أن يُنجز دون عون خارجي، إنجازاً على نحو كان بالنسبة لي غير مفهوم كليًّا على المستوى التشريحي، انكماشاً عابراً في عضو الذكر، إلى سنتيمتر واحد تقريبًا، وراء الحَشَفَة؛ وكان هذا الانكماش يحدث على وجه العموم خلال التغوّط. وعندما انزاحت غلمته مجدّدًا على العضو الجنسي، ضعف عجزه الجنسي تدريجيًا وحدث تحسّن دائم منذ أن استطاع أن يوضّح عقدته الأوديبية وأن يتجاوز حصره الجنسي إزاء أبويه. وكانت المادة الغائطية المرنة تعني أيضاً، هنا كما في كثير من الحالات الأخرى من هذا النوع، طفلاً. واستطاعت تلميذتي ف. كوفاكس من بودابست أن «تشرح عرّة في العضلات الوجهية، كان تأريخها يعود إلى الطفولة،

بالميل الكامن إلى الاستمناء وانزياحه على الأمعاء؛ وحصلت على شفاء دائم بواسطة التحليل النفسي وبعض الإيعازات الخاصة بالتغوّط.

وتميل كل هذه الملاحظات إلى أن تسوّغ الفكرة التي مفادها أن التحليل «البيولوجي التحليلي» للوظيفة التناسلية ليس ذا أهمية على المستوى النظري فحسب، ولكنه جدير بأن يزيد قدرتنا العلاجية.

وسنكمل ماقلناه للتوّ إذ نضيف أن الفاعلية يمكنها، في بعض الحالات، أن تكون ذات علاقة بوظائف التغذية ووظائف الإفراغ؛ وبوسعنا أن نكتشف الخلفية الدافعية لسمات الطبع الفموية بالتخلّي عن بعض اللذائذ الخاصة بالأكل أو الشرب، من وجهة نظر كمية وكيفية على حد سواء، كذلك في أعقاب قبول مقصود بأنماط من الاستمتاع والتغذية، أنماط يتجنّبها المرء بفعل خصوصية في السلوك.

سانْدور فورنْزي

الفصل الثاني
أنا عليا عتيقة وضمير مبكّر

مقدّمة:

بالأطوار الأكثر عتقًا من نموّ الطفل إنما عُنيت ميلاني كلاين. وما تكتشفه فيها يسوقها إلى أن تضع موضع الاتهام فكرة فرويد التي بمقتضاها لاتباشر الأنا العليا فاعليتها قبل انحسار الأوديب، وذلك بمفعول عقدة الخصاء. والأنا العليا العتيقة التي تصفها أكثر قسوة بكثير من الأنا العليا لدى الطفل الأكبر عمرًا أو الراشد.

وفي رأيها أن الطفل يكوّن لنفسه عن أبويه امتثالات مرعبة تهدّده. إنه يُسقط، منذ بداية الحياة، دافع الموت، دافعه، على الأشياء حتى يفلت من التدمير الذاتي، ويولّد هذا الانحراف لغريزة الموت تلك الصور الأبوية الاستيهامية المحفوفة بالأخطار. ويبدأ تكوّن الأنا العليا عندما ينجز الطفل أول اجتياف فموي للموضوعات[1]، التي رأينا أنها كانت مزوّدة مسبقًا بقسوة استيهامية تتجاوز الحدّ. فلن تكون الأنا العليا المبكرة لدى الطفل مرتبطة بواقع الأبوين بقدر ارتباطها بعنف الإسقاط لدافع الموت لديه؛ فوقائع الموضوعات يمكنها مع ذلك أن تساعده على أن يعدّل تدريجيًا إسقاطاته وتلطّف قسوة الأنا العليا.

وأخيرًا، يثير هذا التصور قبل الأوديبي للأنا العليا مسألة معيّنة كانت من قبل موضع المناقشة[2]: مسألة زوال التمركز بالقياس على التصوّر محض الفرويدي، الذي جعل بعض المحلّلين النفسيين عقدة الخصاء تعانيه.

---

(١) انظر كتاب مراحل الليبيدو في هذه المجموعة.

(٢) انظر الأوديب: عقدة كلية.

(٣) في الخصاء: استيهام أصلي.



حياة الطفل الاستيهامية ملأى بالمسوخ المستدخلة التي ليست في رأي ميلاني كلاين،
سوى أشباح عدوانية مكبوتة. (غرافيل: «عالم آخر»).

الـنـص

أحد المكتسبات الأكثر أهمية في البحث التحليلي النفسي كان اكتشاف السيرورات النفسية الخفيّة لنموّ الوعي الفردي. واعترف فرويد أيضًا، عندما أوضح الميول الدافعية اللاشعورية، بوجود قوى تُستخدم للدفاع ضد هذه الميول. وبحسب اكتشافاته، التي أكدتها الممارسة التحليلية النفسية في كل نقطة من نقاطها، يكون الضمير لدى فرد راسبًا، أو ممثّلاً لعلاقاته الأولى بأبويه. إنه استدخل، على نحو من الأنحاء، أبويه، إنه امتصّهما. فأصبحا داخل جسمه جزءاً لامتمايزاً من أناه، وأناه العليا، المرجع الذي يقدّم إلى أناه مقتضيات، وضروب لوم وتعنيف، تتعارض مع دوافعها.

وبيّن فرويد فيما بعد أن عمل الأنا العليا لايقتصر على الفكرة الشعورية، ولايرجع إلى القصد الشعوري. وتمارس الأنا العليا أيضًا تأثيراً لاشعوريًا ومرهقًا على الغالب، هو عامل ذو أهمية في المرض النفسي كما في نموّ شخصية سوية. وهذا الاكتشاف الجديد وضع دراسة الأنا العليا وأصولها في مركز بحوث التحليل النفسي.

١ ـ أنا عليا مبكّرة جدًا وأكثر قسوة

تحليلاتي الأطفال الصغار أتاحت لي أن أكتسب معارف مباشرة في موضوع الأسس التي تُبنى عليها الأنا العليا، وصادفت بعض الوقائع التي كانت تبدو أنها تتيح توسّعًا لنظرية فرويد في الأنا العليا. وكانت الأنا العليا دون شك عاملة من قبل منذ بعض الزمن لدى مرضى صغار في عمر السنتين والثلاث والأربع، في حين أنها، وفق الأفكار المقبولة، كانت لاتباشر فاعليتها قبل أن تنحسر عقدة أوديب

انحساراً كاملاً، أي قبل حوالي السنة الخامسة من عمر الطفل. أضف إلى ذلك أن معطياتي كانت تبيّن أن هذه الأنا العليا المبكّرة كانت أكثر صراحة وقسوة بما لايُقاس من الأنا العليا لدى الطفل الأكبر أو لدى راشد، وأنها كانت تسحق الأنا الضعيفة لدى الطفل الصغير سحقاً تاماً.

والحقيقة أن الأنا العليا لدى الراشد، التي نجدها عاملة، أكثر قسوة كثيراً مما كان والدا الفرد، ومختلفة جداً عنهما بجوانب أخرى أيضاً(٤). ولكنها قريبة منهما على وجه التقريب مع ذلك. ونجد أنفسنا على العكس، لدى الطفل الصغير، أمام أنا عليا ذات طبيعة وهمية بصورة لاتُصدّق. وذلك صحيح بقدر مايكون الطفل أصغر، أو بقدر مايكون المستوى النفسي الذي نتوصّل إليه أعمق. وننتهي إلى أن نرى خوف الطفل من أن يُفترس، ويُقطّع، ويمزّق، أو رعبه من أن تحيط به شخوص مهدّدة أو تتبعه، مكوّنة سوية من مكوّنات حياته النفسية؛ ونحن نعلم أن الذئب آكل الناس، والتنّين الباصق النار، وكل مسوخ الأساطير وحكايات الجنّيات، وافرة في الحياة الاستيهامية للطفل الصغير وتمارس عليها تأثيراً لاشعورياً، وأن الطفل يشعر أن هذه القوى الشريرة تضطهده وتهدّده. ولكنني أعتقد أن بوسعنا أن نعرف عنه أكثر من ذلك. ولاتتيح لي ملاحظاتي التحليلية الخاصة أن أشك في الأمر: الموضوعات الواقعية التي تحتجب وراء هذه الوجوه المتخيّلة المرعبة هي والدا الطفل، وهذه الأشكال المرهوبة تعكس على نحو أو آخر سمات الأب والأم، مهما كان التشابه مشوّهاً ووهمياً.

---

(٤) في الدراسة الجماعية المعنونة «ندوة عن تحليل الطفل» ISPA المجلد الثامن، كانت أفكار مماثلة، مبنيّة على تحليل الراشدين وتعبّر عن وجهات نظر مختلفة قليلاً، قد عرضها إرنست جونز، جون ريفيير، إدوار غلوفر ونينا سيرل. وكانت نينا سيرل، هي أيضاً، قد رأت أن تجربتها في تحليل الأطفال تؤكد أفكارها.

٢ ـ الركيزة الأولى للأنا العليا

إذا قبلنا هذه الوقائع التي تُظهرها ملاحظة تحليلية مبكّرة وإذا اعترفنا أن الأشياء التي يرهبها الطفل هي هذه البهائم المفترسة وهذه المسوخ المستدخلة التي يجعلها شبيهة بأبويه، فإننا نتوصّل إلى النتائج التالية: ١ ـ الأنا العليا لدى الطفل لاتتطابق مع صورة الأبوين الواقعيين، ولكنها مخلوقة انطلاقًا من اللوحات المتخيّلة، أو الصور الذهنية الاستيهامية، التي تمثّلهما والتي تشرّبها الطفل داخل ذاته؛ ٢ ـ خوفه من الأشياء الواقعية ـ حصره الرهابي ـ قائم على الخشية التي يعانيها معًا أمام الأنا العليا المنحرفة عن الواقعي وأمام الموضوعات الواقعية في ذاتها، التي يدركها الطفل، بوصفه متأثّرًا بأناه العليا، في جوّ متخيّل.

ولكن ذلك يقودنا إلى مشكل يبدو لي رئيسًا في مسألة تكوّن الأنا العليا. فكيف يحدث أن يخلق لنفسه صورة لأبويه وهمية بهذا القدر وبعيدة بهذا القدر عن الواقع؟ الجواب موجود في الوقائع التي يوضحها تحليل الأطفال الصغار. إننا حين ننفذ إلى الراقات الأعمق من فكر الطفل ونكتشف هذه الكميات الهائلة من الحصر وهذه الضروب من الرعب أمام إمكان الهجمات من كل نوع، نعرّي كمية مناظرة من الدوافع العدوانية المكبوتة، وبوسعنا أن نلاحظ العلاقة السببية التي تنشأ بين مخاوف الطفل وميوله العدوانية.

ويقترح فرويد في كتابه، **ماوراء مبدأ اللذة**، نظرية يعارض بموجبها الليبيدو، أو دافع الحياة ـ الإيروس ـ، دافع العدوان، أو دافع الموت، ويربطه به. ويلي انصهار بين الدافعين يولّد السادية. وتستخدم العضوية، حتى تفلت من التدمير بفعل دافعها، دافع الموت، ليبيدها على نمط نرجسي، أي ليبيدو متّجه نحو ذاتها، لطرد دافع الموت وتوجيهه نحو موضوعاتها. ويعدّ فرويد أن هذه السيرورة أساسية في العلاقة السادية بالموضوعات. وسأضيف من جهتي مايلي: ثمة ارتكاس دفاع داخل نفسي ينشأ، بصورة موازية لهذا النبذ لدافع الموت نحو الخارج والموضوعات، ضدّ الجزء من الدافع الذي لم يكن ممكنًا طرده إلى الخارج بهذا

الأسلوب. ذلك أن خطر التدمير بفعل دافع العدوان يثير، في اعتقادي، توترًا مفرطًا في الأنا التي تشعر به وكأنه حصر [٥]، بحيث أنها نفسها، منذ بداية نموّها، أمام مهمة مفادها تجنيد الليبيدو ضد دافع الموت. ولكنها ليس بوسعها أن تنجز المهمة إلا بصورة غير كاملة، ذلك أن انصهار الدافعين يمنعها، كما نعلم، من فصل الواحد عن الآخر. وثمة انقسام يحدث في الهو، أي في الراقات الدافعية من النفس، يتوجّه بسببه جزء من الدوافع ضد الجزء الآخر.

وهذا الإجراء الدفاعي ـ الأول على ما يظهر ـ الذي تقيمه الأنا، يكوّن، في اعتقادي، ركيزة النموّ للأنا العليا، التي يشرح عنفها المفرط في هذه المرحلة المبكّرة واقعٌ مفاده أنها نتاج دوافع التدمير الحادّة، وأنها تحتوي، إلى جانب نسبة من الميول الليبيدية، كمية كبيرة من الميول العدوانية[٦].

٣ ـ ثمة صور أبوية مرعبة وخاصة بكل طفل

يتيح هذا الشرح أيضًا أن نفهم فهمًا أيسر لماذا يصنع الطفل لنفسه صورة وهمية بهذا القدر ورهيبة لوالديه. إنه يدرك أن حصره مولود من دوافعه العدوانية بوصفه خوفًا من موضوع خارجي، لأنه، في آن واحد، جعل من هذا الموضوع هدفًا خارجيًا لدوافعه، ولأنه أسقطها على هذا الموضوع بحيث تبدو ناشئة منه[٧].

إنه ينقل على هذا النحو مصدر حصره نحو الخارج ويحوّل موضوعاته إلى موضوعات خطرة؛ ولكن هذا الخطر ينشأ من دوافعه العدوانية الخاصة في نهاية

(٥) الحقيقة أن الأنا تحسّ أيضًا بهذا التوتر وكأنه توتر ليبيدي، لأن الدوافع المدمّرة والليبيدية مختلطة؛ ولكن المكوّنات المدمّرة هي التي، في رأيي، توجد في أصل الحصر.

(٦) يقول فرويد، في **عسر في الحضارة** (باريس، دونويل وستيل، ١٩٣٤)، إن القسوة الأصلية للأنا العليا لاتمثّل، أو لاتمثّل كثيرًا، تلك القسوة التي يعانيها الموضوع أو يتوقّعها، ولكنها تعبّر عن عدوانية الطفل نفسه إزاء هذا الموضوع.

(٧) لدى الطفل، نقول عرضًا، بعض أسبابه المناسبة في أن يخشى أمه، ذلك أنه يتبيّن أكثر فأكثر أن لديها القدرة على أن تمنحه إشباع حاجاته أو على أن ترفض ذلك.

المطاف. ولذلك إنما سيكون خوفه أمام موضوعاته متناسبًا على الدوام مع قوة ميوله السادية الخاصة.

وليس المقصود فقط مع ذلك تحويل كمية معيّنة من السادية إلى كمية مناظرة من الحصر. فالعلاقة هي أيضًا علاقة محتوى. ويتبع الخوف، الذي يستشعره الطفل أمام موضوعه وأمام الهجمات المتخيّلة التي ينبغي له أن يعانيها، بكل التفاصيل، تلك الميول والاستيهامات العدوانية الخاصة التي يأويها في نفسه ليعارض بها وسطه. وعلى هذا النحو إنما يصنع الطفل صوراً أبوية خاصة به، على الرغم من أن لها، في جميع الحالات، سمة لاواقعية ومرعبة.

٤ ـ معلومات عن ضمير يصبح ممكنًا إرضاؤه

يبدأ تكوّن الأنا العليا، وفق ما أمكنني أن ألاحظ، حين ينجز الطفل أول اجتياف فموي لموضوعاته[٨]. وبما أن الصور الاستيهامية الأولى، المتكوّنة على هذا النحو، مزوّدة بكل صفات السادية العنيفة التي تميّز هذه المرحلة من النموّ، وبما أن هذه الصور ينبغي إسقاطها مجدّدًا على موضوعات العالم الخارجي، فإن الطفلَ يسوده الخوف من أن يعاني هجمات ذات قسوة يصعب تصوّرها، هجمات موضوعاته الواقعية وأناه العليا. وسيساعده حصره على تعزيز ميوله السادية، إذ تدفعه إلى تدمير الموضوعات المعادية ليفلت من عدوانها. فحصر الطفل يدفعه إذن إلى تدمير موضوعه، وذلك أمر يفضي إلى ازدياد الحصر، ويضغط عليه هذا الحصر مجدّدًا ليهاجم موضوعه؛ وتكوّن هذه الآلية السيكولوجية على شكل حلقة مفرغة، في رأيي، قاعدة الميول المعادية للمجتمع والإجرامية لدى الفرد. فينبغي لنا

(٨) هذه الفكرة مبنيّة أيضًا على رأيي الذي مفاده أن الميول الأوديبية لدى الطفل تولد هي أيضًا على نحوٍ أبكر مما كان بعضهم يعتقد، أعني عندما يكون الطفل ما يزال في مرحلة المصّ، قبل أن تكون ميوله التناسلية قد أصبحت هي السائدة بزمن طويل. وفي رأيي أن الطفل يدمج موضوعاته الأوديبية في أثناء المرحلة السادية الفموية، وفي هذه المدّة الزمنية نفسها إنما تبدأ الأنا العليا تنمو في علاقة وثيقة بالميول الأوديبية الأولى.

إذن أن نسلّم أن القسوة المفرطة والشراسة الساحقة للأنا العليا، وليس ضعفها أو غيابها كما يعتقد بعضهم على وجه العموم، هما اللتان تشرحان سلوك الأشخاص المعادين للمجتمع وسلوك المجرمين.

والخوف من الأنا العليا سيدفع الأنا، في مرحلة من النمو أكثر تأخّراً من الناحية الزمنية بعض الشيء، إلى أن تنصرف عن الموضوع مولّد الحصر. ويمكن أن تقود هذه الآلية الدفاعية، لدى الطفل، إلى علاقة بالموضوع معيبة أو مشوّهة.

وعندما تبدأ المرحلة التناسلية، تكون الدوافع السادية مغلوبة في الحالات السوية، وتكون علاقة الطفل بالموضوعات قد اتّخذت سمة إيجابية. وفي رأيي أن مثل هذا التقدّم في النمو ترافقه تعديلات في طبيعة الأنا العليا، ويؤثر في هذه الأنا العليا، ويتلقّى تأثيرها. ذلك أن سادية الطفل كلما تناقصت، يتقلّص تأثير صوره الاستيهامية اللاواقعية والمرعبة لأنها نتاج ميوله العدوانية الخاصة. وبمقدار ماتنمو قوة الميول التناسلية، تنبعث صور ذهنية مثالية خيّرة ومساعدة، قائمة على تثبيتات المرحلة الفموية للمص على الأم الكريمة الحنون، التي تقترب من الموضوعات الواقعية؛ وتبدأ الأنا العليا، بعد أن كانت قوة مهدّدة استبدادية تطلق أوامر عبثية ومتناقضة كانت الأنا عاجزة كليًّا عن تلبيتها، في أن تؤدّي دوراً أكثر اعتدالاً وإقناعاً وفي أن تعبّر عن مقتضيات يمكن أن تُلبّى. والواقع أنها تتحوّل بالتدريج إلى ضمير بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة.

٥ ـ صراع الأنا للبقاء على قيد الحياة

وإذا كانت سمة الأنا العليا، بالإضافة إلى ذلك، تتعدّل، فإن تأثيرها على الأنا وآلية الدفاع التي تبعث النشاط فيها يتحوّلان أيضاً. إن فرويد علّمنا أن الشفقة ضرب من ارتكاس القسوة. ولكن الارتكاسات من هذا النوع لاتنشأ قبل أن يكون الطفل قد بلغ، إلى حدّ واسع قليلاً أو كثيراً، علاقة بالموضوع إيجابية ـ وبعبارة أخرى، قبل أن يبين تنظيمه التناسلي. وإذا وضعنا هذا الواقع إلى جانب الوقائع، كما أراها، ذات العلاقة بتكوين الأنا العيا، فإن النتائج التالية ستفرض نفسها علينا:

طالما كانت وظيفة الأنا العليا الرئيسة تكمن في إيقاظ الحصر، فإنها ـ الأنا العليا ـ تستدعي، لدى الأنا، آليات دفاع عنيفة وصفتها أعلاه وهي آليات دفاع لاأخلاقية ومعادية للمجتمع بطبيعتها. ولكن آليات الدفاع التي تكوّن قاعدة اتجاه لأخلاق فلسفية وأخلاق السلوك تنتعش منذ أن تتناقص سادية الطفل وتتعدّل سمة الأنا العليا ووظيفتها بحيث أن هذه الأنا العليا تولّد عاطفة الإثمية بدلاً من الحصر، ويبدأ الطفل في أن يدلّل عل مراعاة موضوعاته وأن ينفتح على العاطفة الاجتماعية[٩].

وكانت تحليلات عديدة للأطفال من كل عمر قد أكّدت هذه الأفكار. ويتيح لنا تحليل اللعب أن نتبع، لدى مرضانا، مجرى الاستيهامات كما يمثّلها لعبهم، وإقامة علاقة بين استيهاماتهم وحصرهم. وعندما ننتهي إلى تحليل محتوى هذا الحصر، نرى الميول والاستيهامات العدوانية التي تولّده تظهر بقوة كبيرة أكثر فأكثر وتبلغ نسباً كبيرة في كميتها وحدّتها على حدّ سواء. فأنا الطفل الصغير تتعرّض إلى خطر أن تسحقها القوة الأولية لهذه الميول والاستيهامات العدوانية وعددها الكبير؛ إن أنا الطفل تدعم ضدّها صراعاً مستمراً رهانه هو بقاؤها على قيد الحياة، تساعدها في هذا الصراع ميولها الليبيدية؛ وهي تحمي نفسها منها باحتوائها، أو بتهدئتها، أوبجعلها غير مؤذية.

وتوضّح هذه اللوحة دعوى فرويد التي طرحها لدافع الحياة (الإيروس) الذي يشنّ حرباً على دافع الموت، أو دافع العدوان. أضف إلى ذلك أننا نعترف بالرباط الوثيق والتأثير المتبادل الموجود كل لحظة بين القوتين، بحيث أن التحليل لايمكنه أن ينجح إلا إذا تابع استيهامات الطفل العدوانية في أوهى تفاصيلها، وإلا إذا قلّص على هذا النحو مفعولها، من حيث أنه يمكنه أيضاً أن يتابع الاستيهامات الليبيدية ويكتشف مصادرها الأعمق.

---

(٩) لم يكن تحليل الراشدين يُظهر، في الجزء الأعظمي، سوى هذه الصفات الأخيرة للأنا العليا ووظائفها. فالمحلّلون كانوا إذن ميّالين إلى أن يروا أنها كانت تكوّن السمة النوعية للأنا العليا: إنهم كانوا في الواقع يعترفون بالأنا العليا بوصفها كذلك من حيث أنها فقط كانت تبين بهذا المظهر.

٦ ـ افتراس محتوى جسم الأم وتدميره

فيما يخصّ محتويات هذه الاستيهامات وأهدافها الحقيقية، علّمنا فرويد وأبراهام أن ميول الطفل السادية سائدة خلال المراحل الأولى، قبل التناسلية، من التنظيم الليبيدي، التي يحدث في أثنائها انصهار الليبيدو والدوافع المدمّرة. ويبرهن على ذلك تحليل كل راشد: يجتاز الطفل الصغير، خلال المرحلة السادية ـ الفموية التي تعقب المرحلة الفموية للمصّ، طوراً من أكل لحم البشر. وهذا الاستيهام، مع أن مسألة أكل ثدي الأم أو شخصها كله مطروح فيه، غير ذي علاقة فقط بإشباع رغبة الغذاء البدائية. إنه يُستخدم أيضًا لإشباع ميول الطفل المدمّرة. ويتميّز الطور السادي الذي يتبع هذا الطور، طور السادية ـ الفموية، باهتمام سائد بسيرورات التغوّط، بالبراز والشرج؛ وهذا الاهتمام يرتبط هو أيضًا بميول مدمّرة قوية إلى الحدّ الأقصى.

نحن نعلم أن إخراج البراز يرمز إلى الإخراج الإجباري للموضوع المندمج: فثمة عاطفة من العداوة والقسوة ترافقه، كما ترافقه رغبات مدمّرة شتى، إذ يتّخذ البراز أهمية بوصفه موضوع هذه الفاعليات. وفي رأيي مع ذلك أن الميول السادية الشرجية تحتوي أهدافًا وأغراضًا أكثر عمقًا وأشدّ كبتًا أيضًا. فالمعطيات التي قدّمها لي تحليل الأطفال الصغار تُظهر أن مرحلة تقع بين المرحلة السادية الفموية والسادية الشرجية، تبرز خلالها ميول سادية إحليلية؛ وتبرهن هذه المعطيات أيضًا على أن الميول الشرجية والإحليلية استطالة مباشرة للميول السادية الفموية فيما يخصّ هدف الهجوم وغرضه النوعي. فالطفل يهاجم، في استيهاماته السادية الفموية، ثدي الأم، والوسائل التي يستخدمها هي أسنانه وفكاه. وفي استيهاماته الإحليلية والشرجية، يسعى إلى تدمير داخل جسم الأم، ويستخدم لذلك بوله وبرازه. فالفضلات، في هذه الفئة الثانية من الاستيهامات، يُنظر إليها أنها مواد حارقة وقارصة، وحيوانات متوحّشة، وأسلحة من كل نوع، إلخ. ويدخل الطفل في طور يستخدم فيه كل أداة من ساديته بهدف وحيد هو تدمير جسم الأم وما يحتويه.

أما اختيار الموضوع، فإن الميول السادية الفموية ماتزال العامل الكامن فيه، بحيث أن الطفل يفكر في أن يُفرغ بالمص ويأكل داخل جسم الأم كما لو أنه كان ثديًا. ولكن هذه الميول توسّعها أفكار الطفل الجنسية الأولى، التي يعدّها خلال هذا الطور. ونحن نعلم الآن أن الطفل يبدأ، عندما تستيقظ دوافعه التناسلية، في أن تكون له نظريات لاشعورية لجماع أبويه، ولولادة الأطفال، إلخ. ولكن تحليل الأطفال الصغار يبيّن أن هؤلاء الأطفال يعدّون مثل هذه الأفكار في زمن أبكر بكثير، في زمن ماتزال خلاله الميول قبل التناسلية حاسمة، مع أن للميول التناسلية التي ماتزال خفيّة رأيًا في هذا الصدد. وينبغي لهذه الأفكار أن تؤكد أن الأم في الجماع تدمج باستمرار عضو ذكر الأب في جسمها بواسطة الفم، بحيث أن جسمها مليء بعدد كبير من الأعضاء الذكرية والرضّع. ويرغب الطفل في أن يأكلهم ويدمّرهم.

٧ ـ رغبة في التعويض تعبّر عنها بعض الألعاب

حين يهاجم الطفل داخل جسم الأم، فإنه يهاجم إذن موضوعات عديدة ويدلف في درب غنيّ بالنتائج. والرحم يمثّل العالم أول الأمر؛ ويقارب الطفل في الأصل هذا العالم ليهاجمه ويدمّره؛ إنه ذو استعداد منذ البدء ليرى العالم الخارجي، الواقعي، معاديًا له قليلاً أو كثيراً، وأنه مسكون بموضوعات جاهزه لتهاجمه[١١]. ويعتقد أنه يهاجم أيضًا أباه، وأخوته وأخواته، والعالم كله في معنى أوسع، حين يهاجم على هذا النحو جسم أمه؛ وهذا الاعتقاد، إذا أطلقت عليه حكمًا بالاستناد إلى تجربتي، هو أحد الأسباب الخفيّة لعاطفة الإثمية لديه ولنموّ

(١١) الحدّة المفرطة لأوضاع الحصر المشابهة لدى الطفل الصغير هي، في رأيي، عامل أساسي في نشوء الاضطرابات الذهانية.

عواطفه الاجتماعية والأخلاقية على وجه العموم[١٢]. ذلك أن ضروب اللوم التي توجّهها الأنا العليا إلى الأنا على هذه الهجمات المتخيّلة تولّد، عندما تتقلّص القسوة المفرطة لهذه الأنا العليا قليلاً، عواطف الإثمية التي تدفع ميولاً قوية إلى أن تعوّض عن الخسائر المتخيّلة التي ألحقها الطفل بهذه الموضوعات. وتسهم المحتويات الفردية وتفصيلات استيهاماته المدمّرة، في هذه اللحظة نفسها، في توجيه نموّ تصعيداته، التي تساعد ميوله المعوّضة[١٣] مساعدة غير مباشرة، أو في توليد الرغبة الأكثر مباشرة في مساعدة الناس الآخرين.

ويبيّن تحليل اللعب أن الطفل لايسأم، عندما تكون ميوله العدوانية في أوجها، من تمزيق كل الضروب من الأشياء، وتقطيعها، وتحطيمها، وبلّها بالماء وحرقها، كالورق، وأعواد الثقاب، والعلب، واللعبات الصغيرة، التي تمثّل كل أهله، والديه، وأخوته وأخواته، وجسم أمه وثدييها؛ ويبيّن التحليل أيضًا أن سُعار التدمير لديه يتناوب مع نوبات من الحصر والإثمية. ولكن الميول البنّاءة تبدأ ظهورها في وضح النهار[١٤]، عندما يشرع الحصر في أن يتناقص ببطء خلال التحليل. إن صبيا صغيراً لم يكن، على سبيل المثال، يفعل شيئًا سوى تقطيع قطع من الخشب إلى قطع أصغر، حاول أن يصنع من هذه البقايا أقلامًا وضعها في فرجه قطعه صغيرة من الخشب، ثم خا ط قطعة من النسيج حول الخشب الخام حتى يبدو

---

(١٢) يخلط الطفل، بسبب اعتقاده بالقوة الكلية للفكرة (انظر فرويد، **الطوطم والتابو**، ١٩١٨؛ فورنزي، **نموّ الحس بالواقع**، ١٩١٦)، اعتقاد يعود إلى مرحلة سابقة من نموّه، بين هجماته المتخيّلة وهجمات واقعية؛ ونتائج هذا الخلط لاتزال عاملة في حياة الراشد.

(١٣) في مقالي المعنون «أوضاع الحصر لدى الطفل وانعكاسها في عمل فنيّ وفي الدفعة الخلاقة»، المكتوب عام ١٩٢٩، كنت قد أكدت أن عاطفة الإثمية والرغبة في ترميم الموضوع المضرور كأنا عاملين كلّيين وأساسيين في نموّ التصعيد. وتتوصّل إلا شارپ، في مقالها المعنون «بعض جوانب التصعيد والضلال»، IJP.A، المجلّد الحادي عشر، ١٩٣٠، إلى النتيجة نفسها.

(١٤) ينجز التحليل تدريجيًّا ودون عثرات رفع الحصر، بحيث أن الميول البنّاءة شأنها شأن الغرائز العدوانية، تتحرّر شيئًا فشيئًا.

أجمل. وكان هذا القلم الأولي يمثّل عضو ذكر أبيه الذي كان قد دمّره في استيهاماته، ويمثّل عضو الذكر لديه، الذي كان يخشى تدميره بإجراء انتقامي؛ وكان السياق العام للمادة التي عرضها الصبي، والترابطات بين أفكاره التي قدّمها، تقيم البرهان الإضافي على ذلك.

٨ ـ أنا عليا رحيمة تصوغ الحسّ الأخلاقي والاجتماعي

عندما يبدأ الطفل، خلال تحليله، في إظهار ميول بنّاءة أقوى في لعبه وتصعيداته ـ إذ يرسم بالفرشاة، يكتب أو يرسم بقلم الرصاص بدلاً من أن يحيل كل شيء إلى أنقاض، يخيط أو يخترع نماذج من الفساتين في حين أنه كان من قبلُ يقطّع ويمزّق كل شيء ـ، يتيح أيضًا ظهور تعديلات في علاقته بأبيه، بأمه أو أخوته وأخواته؛ وتسم هذه التغيّرات بداية تحسّن في العلاقة بالموضوع بمجملها، ونمواً في الحسّ الاجتماعي. فما الدروب التي ستنفتح على التصعيد لدى الطفل، وما ستكون قوة ميوله إلى التعويض، وأي شكل ستتخذه هذه الميول؟ ليس اتّساع ميوله العدوانية البدائية هي التي تقرّر ذلك فقط، ولكن مايقرر أيضًا هو اللعبة المنسّقة لعدد معيّن من العوامل الأخرى التي ليس لدينا المكان للكلام عليها هنا. ولكن معرفتنا بتحليل الأطفال تتيح لنا على الأقّل أن نقول إن تحليل الراقات الأعمق من الأنا العليا يقود على نحو ثابت إلى تحسّن كبير في علاقات الطفل بالموضوع، وقدرته عل التصعيد وإمكانات التكيّف الاجتماعي لديه، وأن هذا التحليل لايكتفي بجعل الطفل أكثر سعادة وسلامة، ولكنه أكثر قدرة أيضًا على الحسّ الأخلاقي والاجتماعي.

وذلك يقودنا إلى أن نفحص اعتراضًا واضحًا يمكن أن يُثار ضد تحليل الأطفال. ويمكننا أن نتساءل ما إذا كان تقليص كبير جداً لقسوة الأنا العليا، تقليص مفضٍ إلى تحت مستوى معيّن ملائم، يمكنه أن يكون ذا نتيجة معاكسة ويقود إلى إلغاء الحسّ الأخلاقي والاجتماعي لدى الطفل. وأجيب أن تقليصًا كبيراً بهذا القدر لم يحدث قط حسبما أعلم؛ أضف أن ثمة أسبابًا نظرية للاعتقاد أن ذلك لايمكنه أن

يحدث. أما عن التجربة الواقعية، فإننا نعلم أننا عاجزون، حين نحلّل التثبيتات الليبيدية قبل التناسلية، عن أن نفلح، ولو في الظروف الأكثر ملاءمة، إلا في تحويل جزء معيّن من كميات ليبيدية منخرطة في اللبيدو التناسلي، والباقي، باقٍ كبير جداً، يتابع عمله بوصفه ليبيدو قبل تناسلي وسادي؛ مع أن الأنا يمكنها، وقد رسّخ الطور التناسلي عندئذ سيطرتها على نحو أكثر متانة، أن تقيم علاقات مع هذا الباقي أسهل، إما أن تمنحه إشباعاً أو تقمعه، وإما بإحداث تعديل فيه أو تصعيده. وليس بوسع التحليل أبداً، على النحو نفسه، أن يزيل النواة السادية للأنا العليا المتكوّنة في ظلّ أوّلية الأطوار قبل التناسلية، إزالة تامة؛ ولكن بوسعه تلطيفها إذ يزيد قوة المستوى التناسلي بحيث أن الأنا، الأكثر قوة، يمكنها أن يكون لها مع أناها العليا، كما مع ميولها الدافعية، اتجاه أكثر إرضاء للفرد نفسه وللعالم الذي يحيط به معاً.

٩ ـ التأثير في الحياة الإنسانية بتحليل الأطفال

نحن بذلنا جهداً حتى هنا لنرسّخ واقعاً مفاده أن الحسّ الاجتماعي والأخلاقي ينمو انطلاقاً من أنا عليا أكثر اعتدالاً، يسوسها مستوى تناسلي. فلننظر الآن في النتائج الناجمة عن ذلك. فكلما نفذ تحليل المستويات العميقة لفكر الطفل نفوذاً أعمق إليها، توصّل على نحو أفضل إلى تلطيف قسوة الأنا العليا، إذ يتقلّص تأثير عناصرها السادية، وتنبعث مراحل أولى من النموّ. ويتيح التحليل، إذ ينجز ذلك، أن يكتسب الراشد وسائل التكيّف مع الحياة الاجتماعية؛ ولكنه يتيح أيضاً نموّ النماذج الأخلاقية والاجتماعية لدى الراشد، ذلك أن هذا النموّ غير ممكن إلا إذا بلغت الأنا العليا والجنسية كلاهما، في نهاية تفتّح للحياة الجنسية لدى الطفل (١٥)، مستوى تناسلياً دون عائق؛ وستكون الأنا العليا، في هذه الحالة، قد اكتسبت السمة والوظيفة اللتين تنشأ منهما عاطفة الإثمية بحيث تكون لها قيمة اجتماعية، أي الضمير.

وبيّنت التجربة، منذ بعض الزمن، أن التحليل النفسي للأمراض النفسية يبلغ، مع أن فرويد تصوّره في البدء طريقة علاجية، هدفًا آخر. إنه يصحّح اضطرابات تكوين الطبع، لاسيّما لدى الأطفال والمراهقين، حيث وسائل إنجاز تحوّلات كبيرة موجودة لديه. وبوسعنا أن نقول في الواقع إن طفلاً يتيح ظهور تغيّرات جذرية في طبعه، بعد أن يكون قد خضع للتحليل؛ ولايمكننا إلا أن نكون مقتنعين، بفعل ملاحظة الوقائع، أن تحليل الطبع بوصفه إجراءً علاجيًّا ليس أقلّ أهمية من علاج الأعصبة.

وليس بوسعنا، أمام هذه الوقائع، أن نتجنّب التساؤل عمّا إذا كان حقل تأثير التحليل النفسي غير صائر إلى أن يتجاوز الفرد ليؤثّر على الحياة الإنسانية بمجموعها. والمحاولات المبذولة في سبيل إصلاح الإنسانية، لجعلها أكثر وداعة على وجه الخصوص، أخفقت لأن أي شخص لم يفهم عمق الدوافع العدوانية لدى كل فرد، ولاقوتها. ومثل هذه الجهود لاتسعى إلى أن تفعل أكثر من تشجيع الميول الإيجابية، الرحيمة، لدى كل إنسان، إذ ترفض أو تزيل ميوله العدوانية؛ إنها جهود محكوم عليها إذن بالإخفاق منذ البدء. ولكن للتحليل النفسي مهمة من هذا النوع، ووسائل أخرى تحت تصرّفه. صحيح أنه ليس بوسعه أن يزيل الدوافع العدوانية بوصفها كذلك إزالة تامة. ولكنه يمكنه، إذ يقلّص الحصر الذي يعزّز هذه الدوافع، أن يحطّم حركة الدعم المتناوبة التي يسهم الحقد والخوف بها إسهامًا مستمرًا. وعندما نرى، في عملنا التحليلي؛ أن إلغاء الحصر لدى الطفل الصغير لا يقلّص ويعدّل بالتأكيد ميوله العدوانية فحسب، ولكنه يتيح أيضًا إشباعها وأفضل استخدام لها من وجهة النظر الاجتماعية؛ وأن الطفل يُظهر رغبة متجذّره بعمق ومتنامية باستمرار في أن يكون محبوبًا وأن يحب ويكون في سلام مع العالم الذي يحيط به؛ وأن إنجاز هذه الرغبة يؤمّن اللذة والمنفعة تأمينًا واسعًا، ويتيح أن يقلّص الحصر تقليصًا كبيرًا، وعندما نرى كل ذلك، نكون مستعدّين

للاعتقاد أن مايبدو الآن ضربًا من الطوباوية يمكنه تمامًا أن يتحقّق في هذه الأيام البعيدة حيث التحليل الذي يُمارس خلالها سيكون، وأنا آمل ذلك، جزءًا من التربية له القدر من الأهمية الذي للتعليم المدرسي في الوقت الراهن. وهذا الاتجاه العدائي، المنتقل من الخوف إلى الحذر، اتجاه يحتجب احتجابًا قويًّا قليلاً أو كثيرًا في أعماق كل موجود إنساني ويضاعف مئة مرة كل ميوله المدمّرة، ربما يتخلّى عندئذ عن مكانه لعواطف أرحم وأكثر ثقة إزاء الناس الآخرين، وربما يمكن للناس أن يسكنوا العالم معًا، في سلام أعظم وإرادة أفضل مما يوجد في الوقت الراهن.

ميلاني كلاين

الفصل الثالث

كيف تُبنى الأنا العليا حجراً بعد حجر

مقدّمة

رونه أ. سبيتْز، من أصل هنغاري، يمارس التحليل النفسي في الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يُنهي أيامه في سويسرا. وطريقته في العمل، كما سنرى هنا، مبنيّة، على نحو رئيس، على الملاحظة المباشرة للأطفال. ويدرس هنا «نشوء مكوّنات الأنا العليا» في نصّ مكتوب عام ١٩٥٨، ويميّز عدة **أنسجة جنينية** أو أحجار بناء الأنا العليا: التوحّد بالمعتدي، الـ «لا» اللفظية أو الإشارة للأم، إلخ. وانطلاقًا من التبادلات الجسمية واللفظية بين الأم وطفلها إنما تُبنى، حجراً بعد حجر، تلك الأنا العليا.

النص

رسم فرويد المفهوم البنيوي للتنظيم النفسي، بشكله النهائي، في محاولته **الأنا والهو** (١٩٢٣). وكان إرصان هذا المفهوم يتلاحق منذ عام ١٩١٤، تأريخ أدخل خلاله للمرة الأولى مفهوم مثال الأنا، ووصف وظيفته ذات الملاحظة الذاتية في مقاله **النرجسية: مدخل**. واستمرّ في أن يدرس جزءاً نقديًّا ذاتيًّا للأنا، المشطورة، في المقالة المعنون «الحداد والسوداوية» (١٩١٧). وفي محاولته «سيكولوجيا الجماعات وتحليل الهو» (١٩٢١)، كان فرويد قد حدّد الأنا العليا

للمرة الأولى بوصفها «درجة من نموّ الأنا». فصياغة المفاهيم مستمدّة في أعماله، على وجه العموم، من الملاحظة العيادية لظاهرات مرضية، وليست ناجمة عن دراسة تكوينية. ويُستثنى من ذلك تلك الصياغة الأخيرة التي نجدها في **الأنا والهو** (١٩٢٣)، صياغة تستعيد القضايا البدئية المنصبّة على أصل مثال الأنا، كما هي ماثلة في مقاله عن النرجسية.

فالعلاقة الوثيقة بين ظهور هذه الدرجة من الأنا، وبين مصير العلاقات بالموضوع، هي التي وجّهت انتباهنا إلى المراحل البدئية لتنظيم الشخصية. وتكوّن هذه المراحل مايمكننا أن نسمّيه **الأنسجة الجنينية**[1] التي ستتشكّل الأنا العليا انطلاقًا منها في نهاية المطاف.

وأقترح، فيما يلي، أن نفحص انبعاث بعضٍ من ظاهرات السلوك خلال السنتين الأولى والثانية من الحياة. وظهورها يبدو أنه يدلّ على تكوّن بنيات نوعية مناسبة. وتظهر هذه البنيات في البداية بوصفها رسومًا أولية جسيمة وسيكولوجية للسلوك. وهي مدعّوه، بعد بضع سنين، لتُسهم في تكوّن الأنا العليا وستصبح أجزاء مكوّنة لهذا التنظيم.

١ ـ «أحجار بناء» الأنا العليا

سنبدأ، بهدف الوضوح، في تحديد المصطلحات التي نستخدمها. ونحن سنميّز، دون أن نتوسّع في أدب التحليل النفسي (فَعَلَ فينيسل ذلك، على طريقته الدقيقة المألوفة، في مقاله «التوحّد»، ١٩٢٦[2])، نمطين من المقاربة إزاء مشكل التكوّن للأنا العليا.

---

(١) الأنسجة الجنينية (Primordiq): هذا المصطلح مشتقّ من علم الأجنّة، أدخله سبيرْمان (**النموّ الجنيني والاستقراء**، نيوهافنْ، ١٩٣٨) للدلالة على النسيج الجنيني الذي يتعذّر فيه تمييز أي تمايز. والتمايز الوحيد موجود في وضع مجوعات الخلايا بالنسبة للمحور القطبي للجنين. وفي هذه الكتلة الخلوية غير المتمايزة، سيكون مصير بعض المجموعات النوعية مع ذلك أن تشكّل أعضاء نوعية بخلاف كل مجموعة أخرى

(٢) نصّ مترجم في كتاب **التوحّد: الآخر إنما هو أنا**، في المجموعة نفسها.

وتفترض المقاربة الأولى حضور الأنا العليا على شكل عتيق وأولّي منذ البداية. ويظهر عملها الوظائفي الآن بوضوح في الأشهر الأولى أو في السنة الأولى من الحياة. والمؤلفون يقيّمون الدور والأهمية اللذين يولونهما هذه الأنا العليا العتيقة تقييماً على نحو مختلف جدّاً. وليسوا متفقين كذلك على مظاهر الطفولة الأولى، التي يرونها مؤشر العمل الوظائفي للأنا العليا العتيقة، ولا على العمر الذي يكتسبها الطفل خلاله.

والنمط الثاني من المقاربة كان غلوفَرْ قد صاغه صياغة واضحة جداً وأوجزه في مقاله **مفهوم التفكّك** (١٩٤٣). ونقول قولاً موجزاً إنه يرى أن بنية الأنا البدئية بنية متعدّدة النُوى وأن تكوّن الأنا سيكون ناجماً عن توحيد هذه النوى. وهذه السيرورة تولّدها وظيفة تأليف الحياة النفسية، وظيفة تعمل دائماً بقوة متنامية دائماً. وفي رأيه أن الانقسام الأولّي يحدث بالتدريج في النوى الفردية للأنا، نوى لن تنصهر إلا عندما سيكون تأليف الأنا نفسها نافذاً. إنه يميز تمييزاً بارزاً بين التكوّنات الأولية في الحياة النفسية وبين المرجع النفسي المنظّم بصورة عالية، أي الأنا العليا. وهذه الأنا العليا لايمكنها أن تظهر بوصفها تمايزاً في الأنا الكلية إلا عندما تبلغ غريزة الطفولة نموّها النهائي. أضف أن غلوفر يعزو استقلالاً ذاتياً جزئياً إلى هذه النُوى، نوى الأنا، وكما أفترض، إلى الانقسام الأولّي الذي يجري في كَنَف هذه النوى.

وتوصلتُ، أنا نفسي، إلى نتائج مماثلة جدّاً في مقاربتي المبنيّة على الملاحظة المباشرة للطفل الصغير. وفحصت، في دراسات شتّى، تكوّن هذه النوى المخصّصة لأن تصبح الأجزاء المكوّنة للأنا، بفعل استخدام وظيفة التأليف. وفي هذا المقال نفسه، سنصبّ انتباهنا على ضروب النموّ والتمايزات التي مصيرها أن تصبح الأجزاء المكوّنة للأنا العليا. وسنسمّيها **أنسجة جنينية** أو أحجار بناء الأنا العليا. وهذه الأنا العليا ستكون قد تكوّنت تكوّناً كاملاً حينما تحتلّ عقدة أوديب مكانها.

٢ ـ التوحّد البدئي واكتساب اللغة

فحصت خلال مطبوعة (١٩٥٧) من مطبوعاتي سيرورات التوحّد البدئية التي تقود إلى اكتساب اللغة، أعني التواصل الدلالي. ودرست السيرورات الدينامية والاقتصادية على وجه الخصوص، التي تدعم أصل هذه الحركات الدلالية ـ بشائر كلمات حقيقية. فاللغة ناجمة عن كلمات تعبّر عن الحاجات. وسمّيت هذه الكلمات تسميات مختلفة: الكلمة الإجمالية، الكلمة الجملة أو الكلمة الحاجة. فكلمة الطفل الأولى، مثل «ماما» تعبّر، وفق الوضع، عن «أشعر بألم» أو، في ظروف أخرى عن «تسرّني رؤيتك» أو «إنني شبعان» أو «جائع»، أو «أشعر أنني متضايق»، إلخ.

وتظهر هذه الكلمات الحاجات بين الشهرين الثامن والثاني عشر. وتتكاثر هذه الكلمات الحاجات ببطء حتى الشهر الثامن عشر من الحياة. وقد تحدث مدّة زمنية يكون لدى الطفل خلالها خمس عشرة كلمة إلى عشرين تحت تصرفه بل يبدأ في جمعها اثنتين اثنتين. ويحدث نحو الشهر الثامن عشر تغير ذو أهمية. فتحلّ الرموز اللفظية محل الكلمات الحاجات. إنها كلمات فردية، نوعية، هي التي تُستخدم لموضوعات نوعية، فردية.

وخلال الستة إلى العشرة أشهر التي تمضي بين ازدهار الكلمات الحاجات وبداية الرموز اللفظية، أي نحو الشهر الخامس عشر من الحياة تقريبًا، يمكننا أن نلاحظ حركة تُستخدم، في حضارتنا الغربية، لغايات دلالية وتعبّر عن رسالة دلالية نوعية. وهذه الحركة هي علامة الرأس «لا»، حركة النفي. وستكون بعد بضعة أشهر مقترنة بالكلمة «لا».

وعرضتُ في الدراسة الأحادية المذكورة فيما سبق جوانب من دلالة هذه الحركة وبوسعي إذن أن أمتنع عن تكرار هذه الأدلة هنا. وحسبي أن أذكر أن النفي بالنسبة لفرويد (١٩٢٥)، وفق مقالة عن سيرورة «النفي»، حكم وأنه يتكلّم منذ

البداية على «درجة نموّ الأنا» بوصفها البنية التي يقع على عاتقها النقد الذاتي. وينجم عن ذلك أن وظيفة النقد الذاتي تستخدم وظيفة الحكم حتى تبلغ أهدافها؛ وهذا يمكنه أن يعبّر عن نفسه بالنفي، الذي يكون تعبيره الدلالي هو علامة الرفض أو الكلمة «لا» أو الاثنتين معاً.

وليس من الضروري أن نطيل الكلام بالتفصيل على تاريخ مفهوم الأنا العليا في فكر فرويد، ولا على القضايا الخاصة بتكوّنها. وحسبنا أن نقول إن الأنا العليا تتكوّن بمساعدة التوحّدات بالموضوعات الأبوية. وعلى الطريق الذي يقود إلى هذه التوحّدات، يدمج الطفل في أناه مايُباح، «افعل هذا»، وما لايُباح، «لاتفعل ذاك»، الصادرين عن الأبوين. ويمكن أن يكون على الأب، خلال هذه السيرورات، لاسيّما خلال المرحلة المسماة مرحلة «العناد»، أن يواجه مواقف ذات اتجاهات سلبية مصمّمة لدى الطفل. فثمة صراع بين المباح «افعل هذا» وغير المباح «لاتفعل ذاك»، الصادرين عن الأبوين، وبين رغبات الطفل. فهناك معركة، في اللغة اليومية، بين التحريمات والأوامر الأبوية وبين مقاومة الطفل.

٣ ـ التحريمات والأوامر: عون الفعل المنعكس الشرطي

بداية مرحلة العناد يعلنها واقع مفاده أن الطفل يفهم للمرة الأولى دلالة الممنوعات والأوامر. ويبدأ هذا الفهم بين الشهرين التاسع والثاني عشر من الحياة. فإذا عارضنا في هذه المرحلة فاعلية طفل قائلين له « لا، لا» وهززنا الرأس في الوقت نفسه بحركة من الإنكار، فإن الطفل يتوقّف على وجه العموم عن فعل مايفعل. ومن الواضح أن هذه الملاحظة لاتنطبق إلا على ثقافتنا الغربية. وذلك يمكنه أن يتّخذ أشكالاً مختلفة في الثقافات الأخرى، ولكن الجوهري يظلّ واحداً.

وينبغي أن نميّز تمييزاً صريحًا بين فهم الأوامر والممنوعات (وطاعتها) وبين الامتثال لوصايا الأنا العليا. فطاعة الأوامر والممنوعات إنما هي الخضوع لفرد جرّاء إدراك شيء خارجيّ بالنسبة للذات. والامتثال إلى أوامر الأنا العليا أمر مختلف

جدّاً. فهذه الإيعازات نفسها صادرة عن الداخل لاعن الخارج. ولايمتثل الفرد إليها استجابة لإدراك بدئي مادي خارجي بل استجابة لإدراك بدئي داخلي من النسق الوجداني: إثمية، حصر، إلخ.

وربما يكون فهم التحريمات والأوامر مكتسبًا في المستوى الأول بعون الفعل المنعكس الشرطي وإسهامه. وأعمال الطفل الصغير غير المرغوبة تُردع بوسائل مادية. وهذا التدخّل ترافقه الكلمات المناسبة من الأم بلهجة مناسبة، مع التعبير الوجهي والحركات التي تناسب الموقف. وأية ظاهرة من الظاهرات الملحقة المرافقة للمنع، أو مجموعها، تنتهي بالتالي إلى أن تمثّل التدخّل نفسه والا رتكاس سيكون مماثلاً. وستكون إذن مفهومة بوصفها ممنوعات وسيطيعها الطفل. ولاجدوى من التذكير أن هذا النموّ موازٍ لتفتّح العلاقات بالموضوعات، أعني أنه موازٍ لسيرورات داخل نفسية يرتبط بها ارتباطًا لاينفصم.

وتلقّي الطفل تواصلاً في سيرورة هذا التبادل؛ إن إشارة كان من يمنع قد أعطاها وفَهِم الطفل هذه الإشارة. وليس الطفل قادراً مع ذلك على أن ينقل رفضه إلى الراشد بأسلوب واحد؛ ولايمكنه أن يعبّر عن رفضه في هذا العمر ـ بين الشهرين التاسع والثاني عشر ـ بهزّ الرأس ولابقوله على وجه الخصوص «لا، لا». ويلزمه أيضًا ستة أشهر حتى يكتسب هذه الحركة، وهذه الكلمة، ويمنحهما دلالة. فالمحاكاة والتوحّد سيؤدّيان دوراً سائداً في هذه السيرورة.

٤ ـ من المحاكاة إلى المبادرة

يكوّن التوحّد والمحاكاة واحداً من إسهامات الطفل الرئيسة في تكوين العلاقات بالموضوعات. والواقع أن اختيار الموضوع يتحقّق، وفق فرض فرويد، بعون التوحّد والتوحد هو الآلية الأولى من آليات الحياة النفسية. وتتيح لنا الملاحظة المباشرة أن نؤكد أن المحاكاة تظهر في الشهر الرابع من الحياة. ويُظهر جزء من رضّع لوحظوا، نقدّره بنحوٍ من عشرة بالمئة منهم، ميلاً إلى محاكاة الحركات الوجهية الأكثر بروزاً. وكما يمكننا أن نتوقّع، تكون المحاكاة حتى في هذه الحالات من نسق

تشكّلٍ إجمالي للكلية، كما يحدث الإدراك بلغة الكلية. وتظهر المحاكاة الحقيقية لحركات الأم نحو نهاية النصف الثاني من السنة الأولى. وإعادة إنتاجها شبيهة بصدى حركة الراشد. إنها تحدث خلال تفتّح العلاقات بالموضوعات وتتّخذ على وجه الخصوص شكل ألعاب بين الراشد والطفل الصغير. إنها ارتكاسات مباشرة وتعكس حركة نفّذها الراشد.

ويبادر الطفل بعد عدة أشهر، في بداية السنة الثانية من حياته. إنه يستخدم في ألعابه السلوك الملاحَظ لدى الموضوع الليبيدي. فأعماله التلقائية مليئة بالحركات التي يقتبسها من الراشد وبوسعنا أن نراه يجرّب تجريبياً واسعًا هذه الرسوم الأولية من السلوك.

ومن الواضح أن التوحّد بالمعنى الحقيقي للكلمة عاملٌ في هذا التصرّف. إن الطفل دمج الإدراك البدئي للأعمال الملاحظة لدى الموضوع الليبيدي إذ أودع الآثار التذكّرية لملاحظاته في «منظومات الذكرى» لأناه. وينجم عن ذلك تعديل في بنية الأنا.

وكون الطفل يعكس حركة الراشد أمر هو ضرب من التوحّد البدئي بالحركة التي تنمو في المرحلة التي يكون خلالها فهم الممنوعات والأوامر مكتسبًا، بين الشهرين التاسع والثاني عشر من الحياة.

ومن طبيعة الأشياء أن التحريمات في هذا العمر تكون أكثر عدداً بكثير من الأوامر. فالراشدون يعبّرون عن هذه التحريمات لفظيًّا ويؤكّدونها بحركات مناسبة، إذ يهزّون الرأس أو إصبع الإشارة علامة إنكار.

وفي العمر نفسه، يُكتسب الانتقال على أربعة قوائم أولاً ثم الانتقال منتصبًا. ويتنامى بالتالي استقلال الطفل تناميًا سريعًا. وتصبح معًا تحريمات الراشد على شكل «لا، لا» أكثر تواتراً فأكثر في أوضاع يمضي تواترها وتنوّعها على نحو متزايد.

ولا يفهم الطفل أول الأمر هذه الممنوعات إلا بصورة غامضة بوصفها عوائق تعوق إنجاز رغباته. وتتكرّر هذه الممنوعات باستمرار، وتُعاش مجدّداً في التبادلات بين الطفل الذي يكبر وموضوع الحب الراشد. وتتحوّل هذه الممنوعات، بوصفها عوائق محض مادية، إلى جزء متمّم من العلاقات بالموضوعات خلال التبادلات. وتتراكم آثارها التذكّرية بعدد متنام دائماً طوال الأشهر التي تلي.

وكل ممنوع من الممنوعات التي يعبّر عنها الراشد يتألف من جزأين: ١ ـ عمل الطفل، أي العمل الممنوع؛ ٢ ـ السلوك اللفظي وغير اللفظي للراشد الذي يصدر عنه المنع.

١ ـ عمل الطفل متغيّر إلى أقصى درجة؛ والظروف المادية التي يحدث العمل فيها، ونوايا الطفل إزاء مكوّنات الوضع البسيطة تتغيّر من مرة إلى أخرى.

٢ ـ المنع الصادر عن الراشد ينطوي على صفة ثابتة، مهما كانت المناسبات غير متشابهة. إن صفة الإحباط، العائق، هي التي تظلّ ثابتة. وهذا الثبات يتجلّى في الكلمة، في الحركة التي ينجزها الراشد، اللتين تنقلان كلاهما قصده.

٥ ـ تعلّم الـ «لا»

ثبات الحركة «لا»، الكلمة «لا»، للقصد في كنف تجربة متعددة الأشكال، يبدو كافياً ليؤمّن أثراً تذكرياً دائماً بفعل التراكم الناجم عن مفعول التكرار.

وكما لفتُ النظر إلى ذلك في مكان آخر (١٩٥٧)، ستجد هذه المقاربة نفسها وقد اغتنت غنى كبيراً إذا طبّقناها على كشوف السيكولوجيا التجريبية وملاحظات التحليل النفسي.

برهن عام ١٩٢٧ زيغارنيك، عالم نفس من مدرسة **الغشْطالْت**، برهاناً تجريبيًّا أن الأعمال غير التامة يتذكّرها فاعلها أفضل مما يتذكر الأعمال التامة. ويصبح واضحاً، إذا طبّقنا هذا الاكتشاف على الذكرى التي يحتفظ بها الطفل من المنع الصادر عن الراشد، أن كل منع، سواء كان لفظيًّا، أو بالحركة، أو باقتران

الحركة والكلام، يكفّ عملاً قام بها الطفل. ويترك بالتالي كل تحريم في ثلمه «عملاً» غير مكتمل. والعنصر المشترك، ثابت هذه الأعمال غير المكتملة، هو الـ «لا»، أعني الحركة أو الكلمة اللتين تحرّمان. وتضيف هذه الملاحظة التي أبدتها سيكولوجيا **الغشطالت** إلى التراكم الميكانيكي للعنصر الثابت ضرباً من شرح الدافعية، دافعية العمل غير المكتمل.

ونحن ميّالون، من ناحية التحليل النفسي، إلى أن نرى ذلك قاعدة ضيّقة جداً لشرح الإقدام المدهش الذي ينجزه الطفل حينما يأخذ حركة «لا» من الراشد ويرتدّ بها ضدّ نفسه. ومن الواضح أن السيرورات السيكولوجية العاملة في هذا الارتداد الكامل للوضع ينبغي أن تكون أكثر تعقيداً. وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو، فإننا سنجد على سبيل المثال حيوانات تستخدم حركات من هذا النوع علامة على رفض رغبات أسيادها، ومع ذلك لم تصدر قط عن أي حيوان حركات من هذا النوع فيما نعلم.

وينطوي كل تحريم، من وجهة نظر التحليل النفسي، على إحباط دوافع الهو لدى الطفل. فأن نجعل متعذراً عليه أن ينال مايرغب فيه أو أن نكون غير موافقين على الشكل الخاص الذي يمنحه علاقاته بالموضوع، فنحن نفرض عليه إحباطًا دافعيًّا في الحالين. وستكون الآثار التذكّرية المرتبطة بهذه الممنوعات، والحركات والكلمات التي تعبّر عنها، مشحونة إذن بالتوظيف الوجداني النوعي للإحباط. وستكون هذه الشحنة الوجدانية أول ضمان لدوام الآثار التذكرية لهذه الـ«لا» التي تمنع.

إنه شرح. لايتجاوز كثيراً ذلك المثل الذي قدّمته سيكولوجيا **الغشطالت** على العمل غير المكتمل، على الرغم من أن ذلك يُدخل العنصر الكيفي للحالة الوجدانية والعنصر الكمي لشحنته مع ذلك.

أضف أن هذه المرحلة تكمل، من وجهة نظر النموّ، مرحلة الانتقال من السلبية الطفالية إلى الفاعلية المتفتّحة للطفل الذي يبدأ المشي ويكون مفتوناً بإمكانات مكتسبة حديثًا. فهذه الممنوعات توقف هذه الفاعلية وتدعو إلى العودة

إلى سلبية المرحلة السابقة. إنها تعزّز أيضًا نكوصًا في درب التنظيم السلبي، أو في درب السلبية النرجسية للأنا، في حين أن الطفل في هذه المرحلة يستمدّ لذة من علاقاته بالموضوعات، علاقات موجّهة وفق إرادته وهو الذي يؤسّسها. ولن يتسامح على نحو سهل بالعوائق الموضوعة في طريقه، التي ترغمه على العودة إلى السلبية في العمل والعلاقة بالموضوع معًا؛ وسيحاول أن يتجاوز العوائق في تقدّمه. إنه، بالمناسبة، قانون عام في السلوك الحيواني، قانون صاغه إيبثل - إيبْسفيلْد (١٩٥٧).

ويوجّه الطفل توظيفًا عدوانيًّا ضد «تقديم» العائق في طريقه. وستعزّز الشحنة الوجدانية، المرتبطة بالاقتران بالتجربة الإحباطية، هذا التوظيف للعدوانية. وهذه الشحنة توظّف الآثار التذكرية للتحريم، وبالتالي تصبح «الحركة لا» قادرة على أن ترتدّ ضد الراشد الذي يمنع.

٦ - التوحّد بالمعتدى ضرب من حجر بناء الأنا

في هذه المرحلة، يكون الطفل مشغولاً في نزاع بين الارتكاس المعادي، العدواني، على التحريم من جهة، وبين تعلّقه الليبيدي بموضوع الحب من جهة أخرى. وعلى الأنا أن تواجه نزاعًا بين الدافعين. وثمة آلية دفاع توضع في العمل، هي، على وجه التعيين، تلك الآلية التي وصفتها أنّا فرويد عام ١٩٣٦ أنها «التوحّد بالمعتدي». والنزاع الظاهر العامل يقوم على نحو أساسي بين الموضوع الخارجي والأنا. ولكن التوحد بالمعتدي يقود إلى استدخال النزاع.

والأمثلة التي ضربتها أنّا فرويد تقع في مستوى من العمر يمكننا الظن أن الأنا العليا أو بشائرها المباشرة بدأت عملها خلاله. وليست هي الحالة لدى الطفل في شهره الخامس عشر، الذي يكتسب «الحركة - لا» الصادرة عن الراشد. ولديه أيضًا نزاع بين الأنا والموضوع الخارجي، ولكن الأنا العليا ليست حاضرة في هذه المرحلة ولا بشائرها. والموضوع الخارجي هو السلطة التي تمنع في الوقت نفسه. وليس إلا بعد بضع سنين إنما سيكون مصير الصورة الذهنية المثالية المجتافة للموضوع الليبيدي

أن تتحـوّل إلى أنا عليـا ، ولاتشغلنا حـاليًا سيرورة تنطوي على الأنا العليـا ـ نحن سنعالج سيرورة دينامية من التوحّدات الثانوية المبكّرة .

وأدليتُ بفكرة مفادها أن القوة الدينامية الفاعلة في هذه السيرورة تعمل كما يلي : «لا» الموضـوع الليـبـيـدي تفـرض إحبـاطًا على الطفل وتسـبّب له اللالذة (الانزعاج) . وتُودع الـ «لا» ، خلال زمنها ، في «منظومات الذكرى» لدى الأنا على صورة أثر تذكّري . وتثير الشحنة الوجدانية من اللالذة ، المفصولة عن هذا التقديم ، توظيفًا عدوانيًا في الهو ، وهو مايرتبط اقترانًا بالأثر التذكري في الأنا .

إن فرويد قال إن الطفل «يمضي من سلبية التجربة إلى فاعلة اللعب[٣] عندما يتوحّد بالموضوع الليبيدي» . وذلك ماتصوغه أنّا فرويد قائلة : «إن هجومًا فاعلاً موجّهًا ضد العالم الخارجي هو الذي يلي التوحّد بالمعتدي[٤]» .

ورابط التوحد بالموضوع الليبيدي هو الـ «لا» بالحركة واللفظ معًا . والتوظيف العدواني الذي تكفّلت به هذه الـ «لا» خلال تجارب عديدة من اللالذة ، ذات العلاقة بآثارها التذكرية ، جعل من هذه الـ «لا» ناقلاً خاصًا بالتعبير عن العدوان . وعلى هذا النحو إنما أصبحت الـ «لا» وسيلة ذات أهمية على نحو خاص في التعبير عن العدوان في آلية الدفاع للتوحّد بالمعتدي . والمعتدي هو ، في حالة طفل ذي خمسة عشر شهراً من العمر ، موضوع الحب الذي يحبطه وترتدّ ضدّه الـ «لا» الخاصة به .

٧ ـ عندما يتوحّد الطفل بأمه

بيّنت أنّا فرويد ، عندما درست التوحد بالمعتدي ، أن المقصود طور أولّي في نموّ الأنا العليا . ويصبح ذلك واضحًا جداً خلال السنة الثانية من حياة الطفل الذي اكتسب الـ «لا» الدلالية ، ذلك أن الطفل يردّ ذلك أيضًا ، في هذه المرحلة ، ضد نفسه في الألعاب حيث يمنح الطفل نفسه دوراً .

---

(٣) جملة فرويد كما كتبها بالألمانية .

(٤) جملة أنّا فرويد كما كتبتها بالألمانية .

ويعرف كل الملاحظين جيداً هذه الألعاب لدى الطفل الذي يبدأ في المشي. ويعزو الطفل إلى نفسه مبكرًا في السنة الثانية دور الراشد في ألعابه. مثال ذلك أن الطفل سيلعب بآلة هاتف صغير وسيتولّى محادثة متخيّلة. وسيحاكي المرضعة ويهيِّئ الأسرّة، ويقدّم الطعام إلى دميته، إلخ. وكل ملاحظ يعرف أن الخيال يؤدّي الدور الرئيس في هذه الألعاب. إن عصا ستكون الدمية، ودبًّا من النسيج الموبّر سيصبح الأم أو الطفل بالتناوب، وعلبة تقوم مقام هاتف.

ولكننا بوسعنا الآن خلال النصف الأول من السنة الثانية أن نلاحظ الطفل الذي يقول «لا، لا» لنفسه في الألعاب حيث يمنح نفسه دوراً، أو الذي يهزّ رأسه علامة إنكار لدوره بالنسبة لبعض فاعلياته الخاصة. ومن الواضح أنه يتّخذ دور الأم. إنه مثل على ماوصفته أنّا فرويد (١٩٥٢)، في سياق آخر، كما يلي: «**يتبنّى الطفل دور أمه ويلعب بالتالي لعبة الأم والطفل على جسمه الخاص**».

وأحسب أن هذا الشكل من التوحّد بالمعتدى، حيث يؤدّي الطفل دور الأم ويطبّق على نفسه المنع، أحد **الأنسجة الجنينية** التي ستدخل في تكوين الأنا العليا اللاحق.

٩ ـ أصول التوحد

حين يفهم الطفل فهمًا أفضل فأفضل معنى المنع إنما يصنع لنفسه آلية دفاع للتوحّد بالمعتدي. وبوسعنا أن نتساءل لماذا سيتوحّد بالراشد في أعقاب تجارب غير سارّة. إن فرويد (١٩٢٠) درس هذه المسألة دراسة مطوّلة. ويضرب مثال الطفل الذي فحص الطبيب بلعومه أو أخضعه لعملية جراحية صغيرة؛ وسيجعل الطفل فيما بعد من هذه التجربة المرعبة موضوع ألعابه. ويشرح فرويد أن التوحّد بالطبيب يقدّم مكسباً من اللذة. وبما أن الطفل يمضي من سلبية التجربة إلى فاعلية اللعب، فإنه يفرض على رفيقه في اللعب ذلك الانزعاج الذي استشعره، ويأخذ ثاره من شخص هذا الذي ينوب عنه. ويؤكد فرويد أن كل ألعاب الطفل متأثّرة بالرغبة في أن يكون راشداً، وأن يكون قادراً على أن يفعل مايفعله الراشدون. وسنضيف إلى

ذلك أن هذه الألعاب محاولات للسيادة على التجربة الصدمية. فالطفل يضطلع بدور المعتدى عليه ويفرض على الآخرين مافعله بعضهم به.

ويمكننا بحق أن نتساءل ماإذا كان الصبي الذي يرتدي قبعة بابا، والبنت التي تكشّر أمام المرآة، والطفل الذي يلعب لعبة المربّية، إذ يحضّر الأسرّة ـ ما إذا كان هؤلاء الأطفال جميعهم لايفعلون الشيء نفسه. ومن الطبيعي أنهم اختاروا فاعليات تبدو غريبة عن التجربة الصدمية، فالفاعليات التي اختاروها ليست عدوانية أو ليست عدائية على الأقلّ، ولكنها تتميّز بأمر مفاده أنها مقتبسة من مسبب الإحباط ـ المعتدي. وبوسعنا القول، ربما، إن هذه الضروب من محاكاة التوحّد صفة مشتركة هي السيادة.

وإرجاع هذه الفاعليات إلى قاسم مشترك هو «السيادة» يوضّح أصلها قليلاً. فمصدرها يكمن في تمرّد الطفل على عجزه الطفالي. وتمثّل محاولات لتجاوز سلبية المرحلة النرجسية، هدفها التكفّل بوظائف الأنا الخارجية، الأم.

وسنصف حالتين يوجد ذلك فيهما جيّد الوضوح، اقتبسناهما من وثائقنا المصوّرة فيلميًّا.

الحالة الأولى ـ تعطي الأم طفلها الجالس على ركبتيها رضّاعة وتدخل مصّاصتها في فمه. ويقبلها الطفل، ويمصّ، ويضع في الوقت نفسه إصبعه في فم أمه. وتتيح له الأم الفهيمة أن يلعب هذا الدور المتبادل وتسهّله له.

ونحن نلاحظ، في هذا المستوى من العمر، شيئًا نمطيًّا من هذه التوحّدات المبكّرة. فالطفل لايتوحّد بالهدف الأساسي لعمل الأم، أي التغذية، إنه يتوحّد بعنصر من هذه السيرورة، أعني بـ «الإدخال في الفم». وذلك لن يدهش المحلّل النفسي أن هذا التوحد يحدث فقط في قطاع الفاعلية الفموية.

الحالة الثانية ـ هذا الطفل أعمر من الطفل السابق بستة أشهر، وهو أكثر تقدّمًا من كل وجهات النظر، وفيما يخص أيضًا مايتوحّد به. والطفل جالس على طاولة

صغيرة بجانب أمه . ويعاني هذا الطفل صعوبة صغيرة في التغذية . إنه يضع الوضع الغذائي في خدمة علاقاته بالموضوع ، لاسيّما إذا قُدّم إليه طعام جامد . وليس ثمة مشكلات عندما يشرب الحليب في فنجان ، ولكن عندما تُقترح عليه الحلوى ، المعكرونة العريضة ، إلخ ، يفضّل أن يقدّمها إلى أمه بدلاً من أن يأكلها . ونراه أول الأمر يضع قطعة من الحلوى في فم أمه ، ثم معكرونة عريضة . وتبدو أم الطفل فهيمة أيضاً وتلوك هدايا الطفل .

ونلاحظ أن هذا الطفل أكبر عمراً وقادر الآن على أن يهمل الجزء من فاعليته الذي لايكون أساسيًّا . ولا يحاول أن يستخدم الملعقة ، ولاأن يضع أي شيء في فم الأم ، سواء كان إصبعًا أو لعبة . ولايتظاهر . إنه يختار من الغذاء ماهو الأساسي في الفاعلية : إنه أدرك معنى التغذية . وكون أمه تلوك الطعام ، الذي قدّمه ابنها لها ، بمظهر من الرضى ، ذلك أمر يضاعف بوضوح رغبته في الأكل ، وتلك ملاحظة مألوفة لدى كل أم .

١٠ ـ تبادلات التأثير الجسمي بين الأم والطفل

نسيج جنيني لمثال الأنا

أرى في تبادلات التأثيرات الجسمية المستخدمة قصداً والمشحونة بكل وضوح بالوجدانية ، تلك **الانسجة الجنينية** التي سيتكوّن منها مثال الأنا . وسيكوّن مثال الأنا بدوره ، في نهاية المطاف ، جزءاً من الأنا العليا وسيمثّل تطلّعات الفرد .

ويختلف مفهوم نونْبرْغ (١٩٥٥) الخاص بدور مثال الأنا في تكوين الأنا العليا عن مفهومي اختلافًا بسيطًا . إنه يرى مثلي أن أصل مثال الأنا أمومي وقبل تناسلي ، بصورة رئيسة . ويمكننا أن نرى ، وفق ما لفتُ النظر إليه فيما سبق ، أنني حدّدت موقع الأصول الأولى لمثال الأنا في النصف الأولى من السنة الأولى على الوجه الأخصّ . وذلك لايعني أن الجزء الأعظم من مثال الأنا لن يكون مكتسبًا فيما بعد ، ولكن ثمة مجالاً للافتراض أن السيرورة التي تحكم الأنماط الأكثر بكوراً من الخضوع لرغبات الأبوين تبين خلال اكتساب التتمّات الأكثر تأخراً ، من الناحية الزمنية ، لمثال الأنا .

والسيرورة التي أتكلم عليها سيرورة جسمية. والمقصود عمل الأم عندما تيسّر حركات الطفل أو تعوقها. ويمكننا أن نتساءل أليس ذلك أحد مصادر محاكاة الإيماءة. إنه فقط **أحد** المصادر - ونحن لانعتقد أنه الأصل الأساسي؛ ذلك أن المحاكاة تبدو راسخة رسوخاً على نحو كبير وأكثر قدماً بكثير في تطور النوع.

وينجم عمّا سبق أننا لانتبع بالضرورة نونبرغ عندما يدلي بفرض مفاده أن مثال الأنا يتكوّن فقط عندما يتخلّى الفرد عن النعم الغريزية خوفاً من فقدان الموضوع. فذلك يبدو لنا إضافة أكثر تأخراً في الزمن إلى السيرورة العتيقة الأصيلة.

ولسنا كذلك من رأي نونبرغ عندما يرى أن الأنا العليا ذات الغلبة الأبوية يمكن أن تُلاحظ أو ل الأمر في المرحلة التناسلية. فأنا أرى، كما سأبيّن فيما بعد، أن رأي أنّا فرويد، الذي مؤدّاه أن التوحّد بالمعتدي طور تمهيدي من أطوار الأنا العليا، رأي ذو أهمية كبيرة. ويمكننا أن نبرهن على أن هذه الآلية من آليات الدفاع أحد **الأنسجة الجنينية** للأنا العليا في بداية السنة الثانية من الحياة. فأن تكون آلية الدفاع هذه، في هذه المرحلة نفسها، من أصل أبوي، أمر ضعيف الاحتمال جداً. ويمكننا أن نفترض، هنا أيضاً، أن إضافات ستقدم فيما بعد على توسيع هذا **النسيج الجنيني** وستجعله يؤدّي دوراً ذا أهمية في الوضع الأوديبي.

١١ - الأنسجة الجنينية الثلاثة الأولى للأنا العليا

الأنسجة الجنينية الثلاثة التي تكلمت عليها تبدو من نسق مختلف جداً. ففرْض عمل جسمي على الطفل، سواء كان لإعاقة مبادرته أو تيسير جهده، بعيد جداً عن السيكولوجي. ولكن ذلك ينبغي أن يكون له مقابل في منظومة الطفل النفسية، كما توجد في هذه المرحلة. وذلك يثير حتماً إحباطاً أو منحة وسيفضي فيما بعد إلى نموّ المتلازمات السيكولوجية للطاعة من جانب الطفل أو للمقاومة المادية. وسنرى محاولات السيادة لدى الطفل، في مرحلة أبعد، بواسطة التوحّد بالأعمال الأبوية - ويتردّد المرء أن يسمّيها توحداً بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ وتكلمت

بْرتا بورنْشتاين على توحّد بالإيماءات، وهو توحّد يتصف بأنه دون شك مرحلة على درب التوحد الحقيقي. و**النسيج الجنيني** الثالث هو الآن آلية دفاع حقيقية، أي التوحّد بالمعتدي. وتبدو كل الأنسجة الجنينية الثلاثة، على الرغم من فروقها الأساسية، مراحل تقود، بفعل درب المحاكاة، إلى الخضوع لرغبات الأبوين حتى الرغبة في التوحّد بموضوع الحب.

إننا فحصنا للتو ّإذن ثلاثة **أنسجة جنينية** للأنا العليا. فالأبكر من الناحية الزمنية، والأقدم من الكل، إنما هو التدخّل الجسمي للأم، عندما توقف جسميًا فاعلية الطفل وعندما تفرض عليه عملاً جسميًّا في آن واحد. والثاني تمثّله أعمال الأبوين المشحونة بالدلالة الإيجابية بالنسبة للطفل، وبها يتوحّد في محاولات السيادة لديه، وهي تكوّن **الأنسجة الجنينية** لمثال الأنا. والثالث، الأكثر تطوّرًا، يستخدم التوحّد بالمعتدي، وذلك أمر يفضي، إلى انجاز التواصل. وهذه الأنسجة الجنينية الثلاثة كلها تشترك في الرغبة في التوحّد بأي ثمن بالموضوع الليبيدي.

١٢ ـ اصطفاء في الأنماط التي تقدّمها البيئة

يبدو مستحبًّا مع ذلك أن نرى على النحو الأخص ّمايجعله الطفل ملكًا له عندما يتوحّد بالمعتدي. إنه يحاول أن يمتلك كل شيء من الموضوع الليبيدي بواسطة توحّدات أخرى لاتُحصى لايكون فيها الموضوع الليبيدي عدوانيًا. ويجري كل طفل مع ذلك، بكل وضوح، اصطفاءً خاصًا به بين عدد كبير من الأشياء التي يمكنه أن يختارها. ولم تكن الشروط التي تحكم هذا الاصطفاء موضع دراسة أبدًا حسبما أعلم. وينجم بوضوح أحد المبادئ الموجّهة لهذا الاصطفاء عن التاريخ الوجداني الشخصي لكل طفل.

ولكنني أعتقد أيضًا أن ثمة مبادئ عامة أخرى تحكم هذه السيرورة وأن بعضًا منها يبدو لدى أطفال الشهر الخامس عشر في المثل النوعي للتوحّد بعلامة الرأس السلبية الصادرة عن المعتدي. وأحد هذه المبادئ العامةذات علاقة بالسؤال التالي: ما الذي يكون طفل الشهر الخامس عشر قادرًا على أن يأخذه من موضوع الحب

بمقتضى تحديدات تنظيمه النفسي الخاص؟ فهذه التحديدات ستعيّن الأسلوب الذي يمكنه به أن يسلك إزاء مايقدّمه له موضوع الحب.

وينبغي للعناصر، التي يمكن أن يتمثّلها طفل الشهر الخامس عشر بالتوحّد، أن تكون مناسبة لعمره. فالقدرة الذهنية لدى الطفل في عمر معيّن هي التي تُستخدم دريئة في اصطفاء ما به يتوحّد.

ويؤدي مبدأ الاصطفاء دوراً مهمًا جداً في اختيار عناصر الوسط أو بالحريّ عناصر الموضوع الأبوي التي يمكنها في أية لحظة أن تنفذ إلى تجربة الطفل المعيشة. ذلك أن هذه العناصر ستكوّن الرحم الذي ستكون الأنا العليا مقولبة فيه خلال مرحلة لاحقة. إننا رأينا، في المرحلة التي نتكلّم عليها الآن، أن إحدى المكوّنات الأولى للأنا العليا اللاحقة ربما تصوغها آلية التوحّد بمسبّب الإحباط. وسنفحص الآن للتوّمابوسع الطفل أن يحوزه بواسطة هذا التوحّد.

ويمكننا أن نميّز، بين المكوّنات السيكولوجية والنفسية المختلفة التي تؤلّف العمل المحبِط للموضوع الليبيدي، ثلاث مكوّنات ثابتة. إنها: ١ ـ سلوك الموضوع؛ ٢ ـ سيرورات الموضوع الذهنية (ذلك يشمل فحواها الذي يكون السلوك هو التعبير عنه)؛ ٣ ـ الحالات الوجدانية التي تدعم هذا السلوك وترافقه. ويعالج الطفل كلاً من هذه المكوّنات الثلاث على نحو مختلف.

١ ـ عدّة طفل الشهر الخامس عشر النفسية تتيح له بسهولة أن يدرك ويميّز على نحو دقيق ذلك السلوك المادي لموضوع الحب، العلامة السلبية للرأس. وسيحتاز بالتالي، في توحّده، هذه المكوّنة احتيازاً صحيحًا إلى حدّ كاف. وسيصبح، بعد الاحتياز والتوصّل إلى أن يتوحّد بالمعتدي، قادراً على أن يمنحها معنى دلاليًا وأن يردّها **ضدّ** شخص الأم، وضدّ نفسه أيضًا.

٢ ـ سيرورات الراشد الذهنية والبواعث المعقولة الممكنة للـ «لا» التي تصدر عنه هما، من جهة أخرى، تتجاوزان كليًا قدرة الفهم لدى طفل الشهر الخامس عشر. فهو عاجز عن أن يفهم ماإذا كان الراشد يمنع شيئًا لأنه يعرّض إلى الخطر أمن

الطفل أو لأن الطفل يفعل شيئًا تمنعه الأم. وفي هذا العمر، لايزال الطفل لايفكّر وفق الفئات العقلانية ويجهل قوانين العلة والمعلول. ولهذا السبب، ولأن الطفل أيضًا لايفهم السيرورات التي تجري في نفسه أو لدى الآخرين، إنما لايكون قادراً على التقمّص الوجداني بالمعنى الشائع للمصطلح.

١٣ ـ «من أجلي» و«ضدّي»

٣ ـ الوضع الخاص بالمكوّنة الثالثة، أعني الحالات الوجدانية التي تدعم السلوك الذي يسبّب الإحباط، الصادر عن الراشد، مختلف أيضًا. وينجم عن ملاحظاتي الطفل، في السنة الثانية من عمره، أنه مايزال ليس لديه سوى إدراك إجمالي للحالات الوجدانية لدى شريكه. وهذا المستوى من إدراك الحالات الوجدانية شبيه بالإدراك **الحسّي** الإجمالي لدى الرضيع في الشهر الثالث. فكما أن هذا الرضيع لايفلح في تمييز دقيق لتفصيل الإدراكات البدئية الحسية إلا فيما بعد خلال السنة الأولى، كذلك الطفل الأعمر يفلح على نحو بطيء جداً وخلال سنين عديدة في تمييزٍ بين الحالات الوجدانية المتنوّعة لدى الغير وبين بواعثها.

وأميل إلى الاعتقاد، فيما يخصّ السنة الثانية من الحياة، أن الطفل لايميّز لدى الشريك الراشد سوى حالتين وجدانيتين. وأسميّهما الحالة الوجدانية «من أجلي» والحالة الوجدانية «ضدّي». وأقول بعبارات شائعة تفصّل الأمر قليلاً، إن الطفل يشعر إما أن الموضوع الليبيدي يحبه وإما أن الموضوع الليبيدي يكرهه.

ويُرى بوضوح في الأفلام هذا النقص في التمييز، (أفلام صوّرها كاتب النص). وتبيّن الحالة بيانًا مقنعًا كيف أن الطفل يفهم فهمًا ضعيفًا تلك الدافعية التي تدعم أعمال الراشد.

والملاحظ، في الحالة المذكورة، يلعب مع الطفل ويقدّم له لعبة. وبعد أن احتاز الطفل تلك اللعبة ولعب بها، يستعيدها الملاحظ ويضعها في جيبه بحيث يظلّ الجزء الأكبر من اللعبة مرئيًا. وعندما يسعى الطفل إلى أن يأخذ اللعبة، يرسم الملاحظ بإصبعه علامة الرفض، ويهزّ رأسه ويقول «لا، لا». وعلى الرغم من

التعبير الباسم العطوف الصادر عن الملاحظ، يسحب الطفل يده بسرعة وتظلّ عيناه منخفضتين، مع تعبير يدلّ على الارتباك والخجل كما لو أنه كان قد فعل شيئًا فظيعًا.

وهذا الطفل ذو الأحد عشر شهراً وعشرين يوماً من العمر يفهم المنع فهماً واضحاً. ويفسّر في الوقت نفسه تفسيراً سيئًا وعلى نحو إجمالي تلك الحالة الوجدانية للراشد الذي يمنع: إنك لست إلى **جانبي**؛ إذن أنت **ضدي**. وبوسعنا أن نتوقع، بعد ثلاثة أشهر أو أربعة، أن نراه قادراً على أن يقتبس حركات المنع عن الراشد.

وثمة، من وجهة نظر السيرورات الفكرية أيضًا، نموّذو أهمية بدأ عندما يُظهر الطفل قراراً بصورة رفض بواسطة علامة الرأس. واستخدام هذه الحركة دليل واضح على حكم يتوصّل إليه الطفل. وعندما يعبّر الطفل عن هذا الحكم الخاص، يبيّن أيضًا أنه اكتسب القدرة على أن ينجز عملية النفي الذهنية. وتقود هذه المرحلة بدورها حتمًا، إلى تكوّن المفهوم المجرد الذي يدعم النفي، وهو المفهوم المجرد الأول الذي يظهر في حركة الفكر.

٤ ١ ـ من العجز الأوّلي إلى استقلال ذاتي متنام

ولكننا نوجّه اهتمامنا حاليًّا إلى التعديلات البنيوية التي حدثت. فعندما يردّ الطفل حركة الـ «لا» إلى أمه، يمضي من السلبية، إذ يطيع المنع، إلى الإيجابية حين يفرض ضرباً من السيرورة التي تنفي رغبته. وينفتح على هذا النحو درب جديد لتفريغ الشحنة العدوانية الصادرة عن الهو. وكانت إمكانات تفريغ العدوان محدودة حتى هنا بالصراع ـ أو بالقمع على أفضل وجه. فالمناقشة تدخل المسرح انطلاقًا من الآن. وفتح التواصل باب تفريغ الشحنة العدوانية، باباً هو من الجدّة بحيث يمثّل منعطفاً رئيساً في تطوّر النوع: تلك هي أنسنة الإنسان.

فالتغيّرات عديدة وواضحة من وجهة نظر الأنا. وكانت القوى الديناميه الملازمة لسيرورة التوحّد قد تحرّكت بضغط إحباط متكرّر وبفعل الجهود التي بذلها

الطفل للتغلّب على هذه القوى. وبفضل التعديلات في التوظيف التي ذكرتها سابقًا، اكتسبت الأنا الآن طريقة لعلاقاتها مع الوسَط، مع الدوافع ومع الذات، طريقة لم تكن موجودة حتى هنا. وتأسّست، في كَنَف منظومة الأنا، وظيفتان تأسيسًا على نحو مرئي. إحدى هاتين الوظيفتين هي وظيفة التجريد، بكل نتائجها اللاحقة على سيرورة حركة الفكر وعلى إنجاز التواصل اللفظي. والوظيفة الأخرى آلية دفاع جديدة، آلية التوحّد بالمعتدي التي ستكون، في مرحلة تلي فيما بعد بزمن طويل، مستخدمة في تكوّن الأنا العليا.

إنها أيضًا مرحلة ذات أهمية رئيسة في تقدّم الطفل، الذي ينتقل من العجز الأوّلي والتبعية إلى الاستقلال الذاتي المتنامي دائمًا. ويقود استخدام قدرة الحكم لدى الطفل في علاقاته بمحيطه من جهة، وبنفسه من جهة أخرى، إلى ضرب من إضفاء الموضوعية التدريجي على السيرورات الذهنية. أضف أن شعاع العلاقات بالموضوع كان قد امتدّ. فالمقاومة الجسمية كانت تُستخدم من قبل في أوضاع اللالذة. أما الآن فإن الرفض يمكن أن يعبّر عنه الطفل دون أن ينطوي على عمل. وعندئذ إنما يمكن أن تبدأ، كما قلت آنفًا، مرحلة المناقشة ومرحلة العناد أيضًا.

وأخيرًا، تأتي مرحلة الأنا العليا: من غير المجدي أن نقول إننا لانكتشف في كل ذلك أي أثر للأنا العليا أو أي شيء يكون مشابهًا لها. وأعتقد مع ذلك أن شرطًا مسبقًا لما سمّاه فرويد «درجة نموّ الأنا» يكون قد تحقّق عندما تندمج آلية التوحّد بالمعتدي في الأنا. وأعتقد أن بوسعنا أن نفترض ونحن على صواب أن تأسيس آلية التوحّد الدفاعية بالمعتدي، التي يدلّ عليها الاستخدام الدلالي لعلامة الرأس «لا»، شرط مسبق ضروري لتكوّن الأنا العليا اللاحق، ولكنه شرط غير كاف.

١٥ ـ الأنسجة الجنينية الثلاثة، أحجار بناء الأنا العليا

فحصنا ثلاثة من هذه الأنسجة الجنينية فحصًا بالترتيب الذي توالت فيه زمنيًا. أول هذه **الأنسجة الجنينية** هو التجربة العتيقة جدًا للعمل الجسمي المكفوف أو الميسّر. ويلي ذلك مانسمّيه، لعدم وجود مصطلح أفضل، التوحّد بالموضوع

الليبيدي. والواقع أن للمحاكاة الجسمية نصيبًا في تكوّن هذه الأنماط من السلوك بمقدار نصيب التوحّد. فكلاهما يكونان في خدمة السيادة ويُسهمان في تكوّن مثال الأنا. وسيظهر فيما بعد بقليل ثالث **الأنسجة الجنينية**: التوحّد بالمعتدي المذكور فيما تقدّم.

وليس دور **النسيج الجنيني** العتيق، الأبكر في تكوّن الأنا العليا، مفهومًا على نحو كاف حتى الآن. وأوضح منه دور التوحّدات التي تدخل في تكوين مثال الأنا. والنموذجان الأصليان اللذان يُشتقّ منهما مثال الأنا، الأبوان، موجودان دائمًا ماديًّا في حياة الطفل الراهنة. وسيدخل مثال الأنا، في نهاية المطاف، في نزاع مع زوال الوهم في المرحلة الأوديبية وسيكون موضع التقييم مجدّدًا بقسوة في هذه المرحلة. ويبدأ ضرب من بخس قيمة النموذجين الأصليين الراهنين خلال هذا التقييم الجديد. ولكن المثال الناجم عن ذلك سيُجتاف، إذ يكوّن جزءًا من الأنا العليا الذي يحدّد للفرد أهدافًا بعيدة المنال. وسيُستخدم بوصفه محرّضًا ولومًا. وسيُواجهه الطفل بمعطيات الواقع التي ستكون بالضرورة دائمًا دون متطلّبات هذا المثال. ذلك أن هذا المثال إجمالي، منفصل عن ضروب القصور المادية والمعنوية لدى الوالد الذي بُخست قيمته، ويظلّ معزولاً عن الواقع.

وآخر **الأنسجة الجنينية الثلاثة** في الترتيب الزمني - آلية التوحّد بالمعتدي - سيقدّم مكوّنة من مكوّنات الأنا العليا، ذات أهمية على وجه الخصوص. وليس بوسع هذه المكوّنة أن ترتدّ ضدّ الموضوع الليبيدي وتستخدمه لتفريغ شحنة العدوان فحسب، ولكن بوسعها أيضًا أن ترتدّ ضدّ الذات، ضدّ الهو والأنا. وذلك يجعل آخر الأنسجة الجنينة الثلاثة جديراً بتكوين هذه الدرجة من نموّ الأنا، الشرط الضروري للأنا العليا، إذ يقدّم خط الفصل بين الأنا العليا والأنا. وإذ تقترن هذه المكوّنة بمثال الأنا، فإنها تفرض على الأنا، على صورة أحكام وعلى صورة ممنوعات وأوامر، تطلّعات مثال الأنا وما يتجنبه معًا.

وفي بحوثي في أصل التواصل، درستُ أيضًا أصل الإيجاب، العلامة الدلالية لـ «نعم». إنه اكتساب يأتي بعد زمن طويل من اكتساب الـ «لا» وإنني على يقين أنه يؤدّي دوراً ذا أهمية في تكوين مثال الأنا وتنظيمه وفي تكوين الأنا العليا بالتالي. وتنطوي دراسة هذا الدور على بعض الصعوبات. ونحن لانصبح، كما لاحظت آنّا فرويد، شاعرين بحدود الأنا العليا إلا عندما تكون متعارضة مع الأنا. فالإيجاب لا يوفّر سبيلاً يسيرة لدراسة الأنا العليا بقدر مايوفرها السلب. وينبغي إذن لدراسته أن تُترك إلى مابعد.

رونه سبيتز

الفصل الرابع

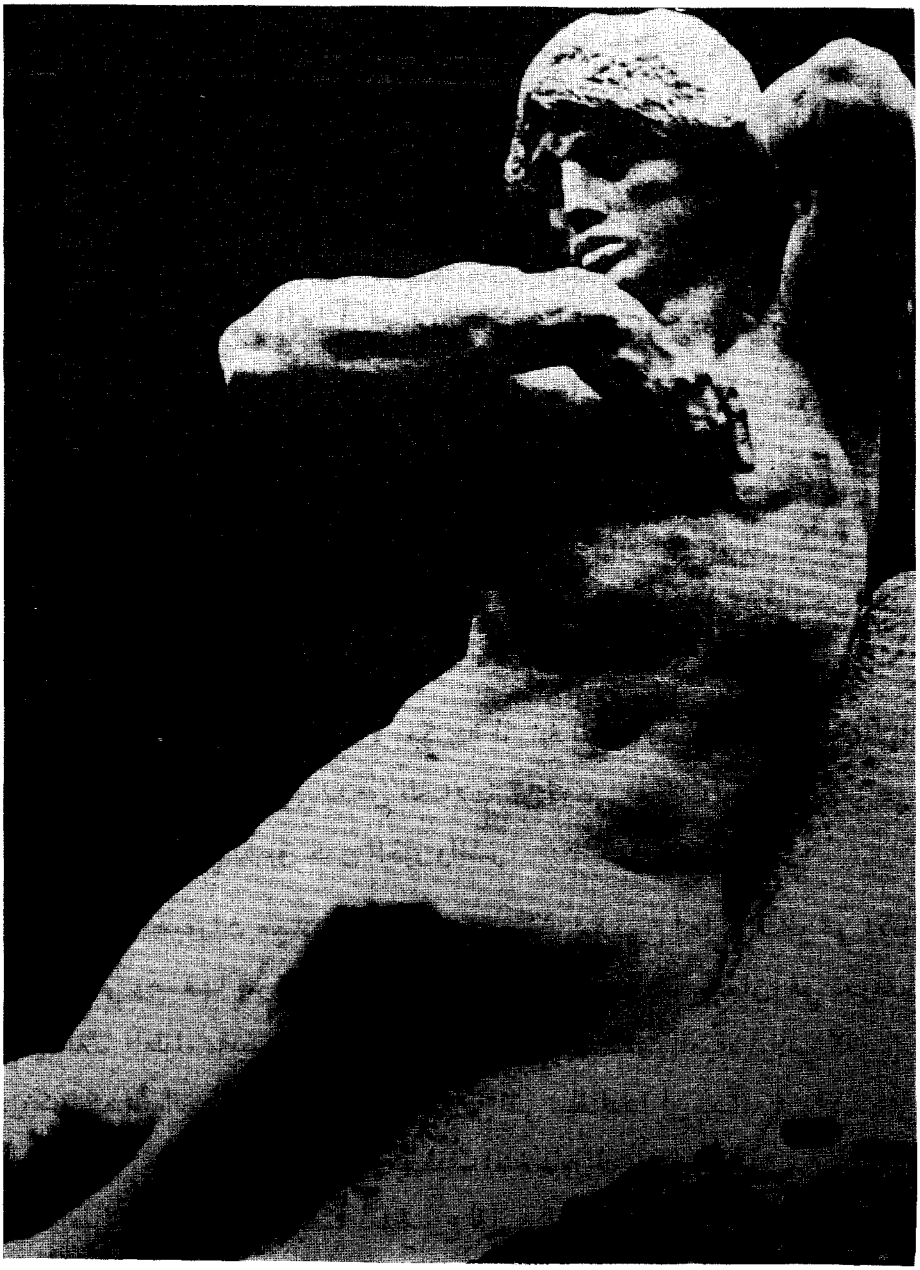
الأنا العليا، صديق الإنسان وعدوه

مقدّمة

الإنغليزي إرنسْت جونْز – أحد رفاق فرويد الأوائل – بحث أثر بشائر الأنا العليا، شأنه شأن ميلاني كلاين. إنه حرّر أيضًا عام ١٩٤٧ هذا النصّ الذي يستعيد فيه ويعدّل الفروض التي أدلى بها في الموضوع نفسه عام ١٩٢٦.

وفي رأيه أن الأنا العليا لا يمكنها أن تختلط بالأخلاق: إن بوسع الأنا العليا على هذا النحو، في بعض الحالات، أن توحي بقتل. وآمرها المطلق هو «وجوب الفعل» الذي يسبق حسَّ الخير والشر.

فإلى تصورات ميلاني كلاين إنما يستند ليقترح إعادة النظر في الأنا العليا التي وصفها فرويد. إنه يطلب أن يكون مأخوذًا بالحسبان، في تعريف جديد للأنا العليا، مقتضيات «متخيّلة» («الإسقاطات الاستيهامية» لميلاني كلاين). ويؤكد كذلك الضرورة بالنسبة للطفل، التي مفادها أن يبالغ في الأخطار الخارجية – قسوة الأبوين – بغية تخفيف الأخطار الداخلية، ذلك أن من الأسهل دائمًا على المرء أن يقيس نفسه بموضوع خارجي يمكنه أن يهرب منه، على سبيل المثال. وثمة، بالمقابل، موضوعات وأخطار داخلية حاضرة على الدوام.



يعتقد جونز أن «لفاعلية الأنا العليا» إنما ندين بالبنية المهيبة للأخلاق، والضمير، والفن، والدين («يقظة الإنسانية»، لوحة غ. بارّو).

النص

عندما يعيش الطفل الموضوع الخارجي بوصفه مهدّداً إلى الحد الأقصى، يجتافه مع ذلك حتى يراقبه على نحو أفضل. والخطر الداخلي سيدفع الطفل، بدوره، إلى أن يسقطه مجدّداً مع الموضوع المقترن به، إذ يبذل جهداً يائساً في سبيل تهدئة حصره.

وليس تهديد الأنا العليا الأولّي للأنا «عليكِ ألا تفعلي ذلك، لأنني سأعاقبك»، بل «ينبغي لك ألا تفعليه، إنه محفوف بالخطر». فمن الأنا العليا الأكثر قدماً، الأنا العليا في المرحلة قبل الأخلاقية، حيث لا تكون إلا مجرد حاجز ضد دوافع الهو، إلى الأنا العليا المتطوّرة في المرحلة بعد الأوديبية، إنما نحن نسلك على هذا النحو هنا تلك السبيل كلها التي سلكها المرجع.

وكنت، في مقال منشور منذ أكثر من عشرين عاماً[1]، قد شدّدت على طبيعة الإسهام الذي كنت قد حملته عندئذ إلى مفهوم جديد كل الجدة. وكان المقصود بصورة أساسية ضرباً من المحاولة. فكنت سعيداً إذن بسبب المناسبة التي أُتيحت لي أن أُعيد النظر، بفضل التجربة المكتسبة منذئذ، في بعضٍ من محاولاتي في الشرح أو أن أتوسّع فيها على ضوء المعارف الجديدة. فالجزء الأكبر ممّا كنت قد كتبته فيما يخصّ وظائف الأنا العليا وبنيتها ما يزال ذا أساس متين، على الرغم من أن بوسعي أن أضيف إليه الآن كثيراً. ولهذا السبب إنما أنوي أن أقتصر هنا على المشكل الأكثر غموضاً، مشكل أصول الأنا العليا.

وليس ثمة، في علم النفس أو الأنتروبولوجيا، مشكل أكثر إثارة للاهتمام من مشكل أصول الأنا العليا. والواقع أن لدينا أسباباً مناسبة لأن نفترض أن لفاعلية الأنا العليا إنما ندين على وجه الخصوص بالبنية الجليلة للأخلاق، والوجدان،

(١) - أصل الأنا العليا وبنيتها، **الصحيفة العالمية للتحليل النفسي**، ١٩٢٦.

والفن ، والدين - ونقول باختصار ، بكل هذا التطلّع الروحي لدى الإنسان ، تطلع يفصل بينه وبين البهيمة على النحو الأكثر إثارة للدهشة . فالاعتقاد الكلي على وجه التقريب بأن الإنسان يختلف نوعيًا عن الحيوانات الأخرى ، بفعل حيازته روحًا إلهية خالدة ، يصدر عن هذا المصدر . وكل ما يمكنه إذن أن ينير الجانب البارز من الإنسانية ، الوحيد في الواقع ، ينبغي أن يبين أنه ذو أهمية كبرى لمن يدرس الإنسان ومؤسساته .

أضف أن الأنا العليا تستوجب اهتمامنا لسبب آخر ذي أهمية أيضًا . إن لها قفا مظلمًا وهي عدوّ الإنسان بقدر ما هي صديقه . وليست ذات علاقة فقط بارتقاء الهناء الروحي للإنسان ، إنها السبب أيضًا لجزء كبير من بؤسه الروحي ، وحتى سبب هذه الفاعليات الجهنمية التي تفسد طبيعة الإنسان وتسبّب هذا البؤس . وتؤدي الأنا العليا ، في أعماق اللاشعور المظلمة ، دورًا حيويًا فيما يخصّ النزاعات والاضطرابات ، الخاصة بهذه المنطقة . ولا نبالغ حين نقول إن حياة الإنسان النفسية مصنوعة أساسًا من جهود عنيفة ، إما للإفلات من سلطان الأنا العليا ، وإما لتحمّلها . ويبدو للوهلة الأولى أن اهتمام حياتنا ذو علاقة ، في جزء صغير منه ، بتأملات نظرية وخواطر مجرّدة قليلاً أو كثيرًا ، وذو علاقة ، في جزء أكثر أهمية بكثير ، بمنافع وفاعليات مادية أكثر مباشرة . ولا يصعب كثيرًا ، في هذا الجزء الأول ، إدراك العنصر الذاتي ، مع أنه يكون موضع النفي على الغالب . ولا يفهم المرء إلا نادرًا مع ذلك أن عناصر ذاتية ، حتى في الجزء الآخر ، غير عقلانية على الأغلب ، تؤدي دورًا كبيرًا أيضًا . ولو لم يكن عقلنا معاقًا ، لما كان على وجه الاحتمال صعبًا جدًا أن نتصرّف بحيث تؤمّن لنا حياتنا ومؤسساتناسعادة ونجاحًا وأمنًا أكبر بكثير مما هي عليه الآن . ولكن مقتضيات الأنا العليا التي لا ترحم ، المقتضيات اللاعقلانية كما هي في العادة ، أكثر إلحاحًا من اهتماماتنا الواقعية الخاضعة لها عادة . وعلى هذا النحو إنما ينبغي لنا أن نكابد الألم .

١ ـ «ينبغي لك أن تفعل»، أول أوامر الأنا العليا

من الضروري، قبل أن نقارب مشكلنا، أن نوضّح مسألة أو اثنتين. فللأنا العليا عدة تفرّعات شعورية، الضمير ومثال الأنا، على سبيل المثال، إلخ، ينبغي أن نُعنى بتمييزها. وتشكّل الأنا العليا، في ماهيتها، جزءاً من اللاشعور بحيث أن توعية مريض بفاعليتها مهمة صعبة إلى الحدّ الأقصى.

ولهذا السبب إنما ينبغي أن ننتبه على وجه الخصوص عندما نستخدم كلمة «أخلاق»، ذلك أن الأصل الأول لهذا المفهوم هو الذي يعنينا على وجه الدقّة. فالضمير هو، على نحو واضح، حارس الأخلاق بالمعنى الأكمل للمصطلح: ما هو خير، من وجهة نظر المجتمع (أي العدد الأكبر)، ما هو جدير بالثناء من وجهة نظر المذاهب الأخلاقية. وبهذا المعنى، ليست الأنا العليا بالتأكيد أخلاقية (في حالات قصوى، على سبيل المثال، يمكنها أن توحي بقتل، إذ يُرى أنه مرغوب ومستحب)، وهي تحوز مع ذلك صفة ذات أهمية تجعلها ذات علاقة وثيقة بالأخلاق. وهذه العاطفة الملحّة، عاطفة «واجب الفعل» هي التي تكوّن آمراً مطلقًا. والواقع أن هذا «الواجب الفعل» للأنا العليا، على الأقل الأقوى والأكثر إرغامًا من أي أمر من أوامر الوجدان، يمكن أن يقترن باتجاهات تكون، وفق عقلنا ووجداننا، أخلاقية أحيانًا وغير أخلاقية أحيانًا أخرى. ولهذا السبب فإن المقصود، إذا وصفناها أنها أخلاقية، لا يمكنه أن يكون سوى معنى مشتق للكلمة، لاعقلاني. أضف أنني استطعت أن اكتشف أثر هذه العاطفة المزعومة أنها أخلاقية لهذا «الواجب فعله» في مرحلة بدائية من النمو يسبق حسّ الخير والشر، مرحلة سميّتها مرحلة «الكفّ قبل القاسي». ويبدو أن في هذه المنطقة المظلمة إنما ينبغي لنا أن نبحث عن أصول ما يصبح فيما بعد اتجاهًا أخلاقيًا.

والمفارقة التي نتعثّر بها تكمن في أننا لا يمكننا أن نصف الأنا العليا إلا إذا استخدمنا مصطلحين لا يبدوان متوافقين، أحدهما سكوني والآخر دينامي. وثمة تماثل شبيه موجود في مأزق الفيزياء الحديثة، التي ينبغي لها أن تصف كشوفها

الأخيرة أنها جزئيات وموجات معًا، إذ لا يمكن للأولى وللأخيرة، أن تعبّر عن كل المعطيات. وربما كان ذلك، في علم النفس كما في الفيزياء، دليلاً على قصور معارفنا. ويبدو، من جهة، ضرورياً أن نصف الأنا العليا أنها موضوع، موضوع مجتاف، كيان ربما يُعرض على الهو حتى يكون محبوباً، مكروهاً أو مرهوباً بدلاً من موضوع أبدي، واحد من الأبوين في الأصل. ونحن نعلم، من جهة أخرى، أن هذا الموضوع المستدخل ليس له وجود جسدي، ولكنه يصدر عن سيرورة من الاستيهامات، هي نفسها التعبير عن ميل غريزي: ولهذا السبب لا يمكننا أن نصف الأنا العلياهنا إلا بعبارات دينامية لسيرورة، لميل ذي أهداف جنسية، عدوانية و«أخلاقية». فإذا كانت شيئًا، فهي شيء حيّ جداً، مليء بالفاعلية، شيء يراقب، يقي، يحرس، يهدّد، يعاقب، يدافع، يأمر، يشجّع، إلخ...

٢ ـ تنقيب عن الأنا العليا أكثر كمالاً

الاهتمام الذي أولاه بعض المحلّلين النفسيين اللندنيين خلال السنين العشرين الأخيرة، وبخاصة ميلاني كلاين، آلتي الاجتياف والإسقاط في الطفولة، قاد إلى معرفة أكثر عمقًا بأصول الأنا العليا. فآراء فرويد في هذا الموضوع، في ضوء هذه التجربة، تبدو لنا الآن واجبة التعديل على نحو كبير في مسألة وواجبة الإكمال في مسألتين أخريين.

والمسألة الأولى ذات علاقة بالوصف الذي وصف فرويد به الأنا العليا، مآل عقدة أوديب. ويتوصّل الطفل، أمام أمنياته الأوديبية دون أمل لأن إنجازها متعذر ولأنه يخاف العقاب، إلى أن يتخلّى عنها شريطة أن يدمج في ذاته دمجًا دائمًا جزءاً من الأبوين. وهذه الصورة من الحب والخشية، المشتقّة من الأبوين، بل من الوالد من الجنس نفسه على وجه الخصوص، تكوّن إذن الأنا العليا التي تستمرّ في ممارسة وظائفها، وظائف المراقبة والتهديد، وعقاب الأنا يحدث عند الضرورة إذا كانت هذه الأنا تتوصّل إلى أن تصغي إلى أمنيات الهو الأوديبية، الممنوعة الآن والمكبوتة. ولهذا السبب سمّى فرويد الأنا العليا وريثة عقدة أوديب، وبديلها. وإذا كان هذا

التعريف ذا علاقة بالنتيجة الكاملة والنهائية، أي بالأنا العليا كما ستظلّ على وجه التقريب طوال الحياة، وإذا احتفظنا بهذا المصطلح، مصطلح الأنا العليا، للنتيجة حصراً، فإن تعريف فرويد يكون عندئذ ما يزال صحيحاً. وإذا كان يعني، على العكس، أننا لا نستطيع أن تميّز شيئاً من الأنا العليا إلى أن يكون الطفل قد تخلّى عن الأمنيات الأوديبية (نحو السنة الرابعة أو الخامسة من العمر، في رأي فرويد)، فينبغي أن نعترف أن النتائج المبنيّة على التجارب اللاحقة تبتعد كثيراً عن تعريف فرويد. والمقصود جزئياً مسألة مصطلحات - ولكن جزئياً فقط. وكان فرويد قد قصر مصطلح الأنا العليا على ما أسميّه النتيجة النهائية وأولى أهمية كبرى أصلها في النزاعات الأوديبية بين عمر الثالثة والخامسة. وكان مع ذلك موافقاً أيضاً على أن ثمة ضرباً من قبل تاريخ، في وقت واحد لعقدة أوديب نفسها (صعوبات قبل تناسلية، إلخ) وربما حتى لضروب الحصر وخشية العقاب اللتين تسبقان الوضع الأوديبي الكلاسيكي وتحضّران المجال للإثمية التي ترتبط بالأنا العليا.

وقبل أن أدرس التعديل الحديث الذي يجد المرء نفسه مرغماً على أن يدخله على هذا التعريف لفرويد، سأذكر المسألتين الأخريين اللتين أوردتهما فيما سبق ذكراً باختصار. فالمسألة الأولى ذات علاقة بتعيين تأريخ هذا الموضوع. ولدينا الآن أسباب عديدة للاعتقاد أن عقدة أوديب نفسها، بكل خصائصها (الرغبة الجسدية في الأم، الغيرة من الأب وكرهه، والخوف من الخصاء، إلخ)، وكذلك الأنا العليا على صورة متطوّرة إلى حدّ يكفي ليكون تعرّفها ممكناً، تسبق كثيراً تلك المرحلة التي كان فرويد قد حدّدها فيها وترجع بالتأكيد إلى السنة الثانية من الحياة بل ربما ترجع إلى السنة الأولى. ثم إن الخشية من العقاب ومصادر الحصر الأخرى التي تؤدي دوراً هاماً جداً في أصول الأنا العليا لا تصدر كلها من الوضع الأوديبي نفسه، إن لها مصادر أعمق كثيراً. ونقول بعبارة أخرى إن للصبي بواعث حصر أخرى، إلى جانب الخشية من العقاب التي تصدر عن خصمه الأبوي، تصدر بصورة أكثر مباشرة عن علاقته وحدها بالأم.

٣ ـ محاولة يائسة لإيجاد تحويل للحصر

تصدر، كما قلت فيما سبق، بواعث هذا التوسع وهذه التعديلات لتعريف فرويد، عن دراسة أكثر تعمّقًا لآليتي الاجتياف والإسقاط. إننا أفلحنا، بفضل أعمال ميلاني كلاين على وجه الخصوص، في ألا نعرف العمر المبكّر الذي تعملان خلاله فحسب، ولكننا عرفنا أيضًا ذلك التفاعل الغريب والمستمّر كليًّا لهاتين الآليتين كلما اجتاز الرضيع تجربة. فالاجتيافات هي ما يكوّن الأنا العليا، ولكنها ـ وهذا أمر أساسي ـ ليست على الإطلاق مجرد اندماجات للواقع الخارجي إنها أيضًا اندماجات الإسقاطات لدى الرضيع إلى حدّ واسع. وعندما تكون هذه النقطة واضحة، نفهم أن إسهام الطفل في أناه العليا المستقبلية يكون أكثر أهمية من الإسهامات التي يقدّمها العالم الخارجي (الأبوان بصورة أساسية)، وتلك نتيجة ربما تردّد فرويد أمامها.

وبوسعنا الآن أن نعود إلى تصور فرويد الخاص بالعلاقات بين عقدة أوديب والأنا العليا. وكان فرويد بالتأكيد موافقًا على هذا الأمر الذي مفاده أن الصورة التي يصنعها الطفل للوالد الذي يدافع عنه ويهدّده صورةٌ مغالية أو مشوّهة. ومع أن الآباء يمكنهم أن يقتلوا أو يخصوا أطفالهم من جنس الذكور، فإنهم يفعلون ذلك على نحو نادر جدًّا؛ ويعاني كل صبيّ صغير تلك العاطفة التي مؤدّاها أن هذه الأشياء ممكنة ويرتعب منها. ولهذا السبب، بوسعنا أيضًا أن نضيف إلى ما يقوله فرويد عن أن الأنا العليا تستمدّ قدرتها على التأثير في الأنا من أنها تمثّل مقتضيات الواقع[٢]: «كما أنهاتستمدّ هذه القدرة أيضًا من أنها تمثّل المقتضيات المتخيّلة» أو، على نحو أدق، مقتضيات الواقع النفسي ومقتضيات الواقع الجسمي على حدّ سواء. وفي رأيي أن هذه العلاقات التي يصنعها خيال الطفل على صورة الأب أهمية أكبر كثيرًا ولها تاريخ أطول وأعقد مما كان يعتقد فرويد أنه ممكن. وتمارس الاستيهامات والنزاعات الأقدم، كما كنت أقول منذ زمن طويل، أهمية حاسمة في الشكل الذي تتخذه عقدة أوديب، وفي مجراها ونتيجتها.

(٢) - فرويد، أوراق مجموعة، المجلد الثاني ص، ٢٥١، ٢٥٣.

ونحن الآن كلنا على وفاق أن هذه العناصر الجديدة موجودة مع أن مشكل الأصل يظهر مباشرة. ونقول بداية، وذلك مدهش إلى حدّ كاف، نحن نتبيّن أن لدى الطفل باعثًا يدفعه إلى أن يغالي في الأخطار الخارجية، أعني أن يتخيّل الأب أو الأم أكثر تشدّدًا أو أكثر خطراً مما هما في الواقع. فالسلوى التي تسهم بها معرفته أن الموضوع الخارجي (الوالد) يعبّر له بالإجمال عن الحب، وأن لغضبه حدوداً، تجلب له السكينة على هذا النحو فيما يخصّ مخاوفه، الأصعب تحملاً، والأقل سهولة أن تهدأ، ذات العلاقة بالأخطار الداخلية. ومن الطبيعي أن الطفل يتوصّل إلى ذلك بآلية الإسقاط المعروفة جيداً. وليست الأمور مع ذلك بسيطة بقدر ما تظهر، ذلك أن تقديراً للأخطار الداخلية والأخطار الخارجية يصحّ على وجه الخصوص عندما تشمل هذه الأخطار الأخيرة تلك الأخطار المسقَطة. فالفزّاعة الخارجية يمكنها أن تصبح مرعبة إلى درجة كبيرة بحيث يجتافها الطفل (في الأنا العليا) بهدف واضح مفاده أن يراقبها. وتصبح مجدّداً مع ذلك، عندما يجتافها، محفوفة بالخطر إلى حدّ لا يُحتمل ويكون الطفل مرغمًا على أن يبحث عن موضوع في العالم الخارجي يمكنه أن يسقطها عليه مرة أخرى. وهذه الآلية المزدوجة تتكرّر باستمرار، ربما دون هدف، في محاولةٍ مفادها أن يجد تسكينًا لحصره. وتبين هذه الحيل البائسة أن لدى الطفل في نفسه مصادر حصر مرهوبة إلى الحدّ الأقصى وأن تكوين الأنا العليا يشكّل بهذا الصدد محاولة إنقاذ. وهذه الوظيفة الدفاعية للأنا العليا هي الموضوع الرئيس لهذا المقال.

٤ ـ مصدر الأخلاق البعيد: الخوف أمام خطر مادي

ما مصدر هذه الفزّاعات المرعبة، وكذلك الحاجة التي ترافقها إلى الدفاعات اليائسة بهذا القدر؟ مصدرها، بين المصادر الأخرى، الأنا العليا التي هي بالتأكيد عامل شرس من عوامل الاضطهاد بحيث أن لدى الأنا أسبابًا مناسبة للخوف منه. فالدفاعات والإدانات الخارجية، المفروضة على الطفل الذي يترعرع، لا تكوّن من هذه الأنا العليا إلا جزءاً صغيراً، والطفل هو الذي يبتدعها في الجزء الأعظم منها.

لماذا كان يُساق إلى أن يبتدع مؤسسة بهذا القدر من الإزعاج؟ ينبغي، حتى يُدفع إلى التصرف على نحو بهذا القدر من الغرابة، أن يكون لديه سبب مناسب. وأقول، حتى أكون أكثر موضوعية، إن الأنا العليا ينبغي أن تؤدي وظيفة ذات أهمية كبرى تعوّض ما يلحق به من ضروب الغبن الواضحة.

وليس ثمة ريب في أن هذه العاطفة، عاطفة «الواجب فعله»، التي تميّز الأنا العليا وهي مصدر ما سيصبح فيما بعد اتجاهًا أخلاقيًّا، ناجمة عن عاطفة كون الطفل «مرغمًا على أن يفعل ما يجب فعله»، عاطفة تظهر مبكّرًا. ونقول بعبارة أخرى إن تهديد الأنا العليا للأنا «ينبغي ألا تفعلي ذلك؛ ستعاقبين إن فعلته» يحلّ محلّ تهديد سابق: «ينبغي ألا تفعلي ذلك لأنه محفوف بالخطر». فكيف يتحوّل هذا الخوف من الخطر ليكوّن أولى العناصر الأولى من الأخلاق، وما هي طبيعة هذا الخوف؟ أولى مخاوف الطفل الأولى مادية أكثر مما هي روحية. إنها مخاوف من ضرر يقع على ما يعنيه (خوف من الحرمان، من انتزاع ما يملكه، من ألم جسمي، إلخ). ولكن الحب والحاجة إلى أن يكون محبوبًا، في السنة الأولى من الحياة، يبدآن في أن يؤدّيا دوراً تتنامى أهميته، وذلك أمر يجلب إمكانًا جديداً هو الخوف من فقدان الحب إذا أساء إلى الموضوع المحبوب والمحب أو أضرّ به، وهو الأم أول الأمر. إنه انتقال هذه الحاجات من المستوى الجسمي إلى المستوى الروحي هو الذي يُجري هذا التحوّل من كونه «مرغمًا على الفعل» إلى «وجوب الفعل». فالتعرّض إلى خطر الخصاء لا يزال وضعًا خارج الأخلاق، ولكن التعرّض إلى خطر الإساءة إلى الأم وفقدان حبها يصبح شيئًا «يجب الامتناع عن فعله». وإذ تصبح العلاقة فيما بعد بالوالدين أكثر تعقيداً، يصبح الامتناع عن فعل بعض الأشياء هامًا بقدر ما يكون هامًا تجنّب فعل أشياء محفوفة بالأخطار. وربما تكون المدّة الزمنية الأهم التي يحدث خلالها ذلك هي مدّة رقابة الصارّات، التعلم «الأخلاقي» الأول للرضيع، الذي يستقرّ قبل أن تنمو عقد أوديب بزمن طويل، في رأى فرويد، أو عندما تكون فقط في بداياتها. وتكلّم فورنزي على «أخلاق الصارّات» كلامًا يدلّ على حدس عبقري، إذ ظنّ أنه في ذلك بداية الاتجاهات الأخلاقية، ولكنه لم يكن يعرف الدلالات

العديدة التي ينسبها الرضيع إلى فاعليات إخراج الفضلات لديه. إنها ليست فقط حاجات جسمية (مع أن طبيعتها القسرية يمكنها أن تنجم عن هذا الأمر في الجزء الأكبر منها)، ولا عناصر بسيطة من الغريزة الجنسية (غلمة إحليلية وشرجية). إنها أيضًا ناقلات دوافعنا العدوانية والمدمرّة. أضف أن لهذه الفاعليّات علاقات بالاندمجات الافتراسية للأبوين التي تسبق هذه الفاعليات أو ترافقها. وعندما يعني تبليل الطفل فراشه توسيخ الأم، تسميمها أو تدميرها، ويكشف في الوقت نفسه عن أنه أكل الأب وقتله، عندئذ نبدأ نفهم بأي العبارات المثقلة بالمعنى يمكن أن يُفهم التعلّم «الأخلاقي» الذي تحققه المربية.

٥ ـ نقطة انطلاق الحصر الرئيسة: الخشية من أن ينفد الليبيدو

بوسعنا على نحو مشروع أن نعدّ الأنا العليا معًا حاجزًا ضد هذه الدوافع الممنوعة والخطرة ووسيلة غير مباشرة للإفلات منها. ويمكننا أن نكتشف في فاعلياتها، ولو أن الصفة الجنسية منزوعة منها (على نحو غير تام)، آثار كل العناصر الجنسية. فالميل إلى التلصّص يبين لدى الأنا العليا في موقف المراقبة اليقظ، ويظهر العنصر الغلمي الشرجي، بفعل الارتكاس، في الحاجة إلى النظام وفي، وذلك ما هو ذو أهمية كبيرة، معنى الواجب، في حين أن العنصر السادي يظهر على نحو عظيم الوضوح في ضروب العذاب العنيفة التي يمكن للأنا العليا أن تفرضها على الأنا. ويبدو الارتكاس فيما بعد على الدافع التناسلي النامي جداً في الإدانة الأخلاقية لغشيان المحارم، ولكن يوجد، إلى جانب ذلك، الحب الأكثر إيجابية للبديل الأبوي (مثال الأنا)، إلخ.

إننا اكتشفنا الآن آثار الأنا العليا حتى مرحلة قبل أخلاقية، مرحلة سمّيتها آنفًا مرحلة الكفّ قبل العنيف، حيث تبدو وظيفتها وظيفة مجرّد حاجز ضدّ دوافع الهو أو، بالحري، ضد الحصر الذي تولّده هذه الدوافع في الأنا. وتصبح الأنا العليا، في هذه النقطة، دفاعًا فقط بين دفاعات أخرى، دفاعًا له مع ذلك تاريخ منفصل. وخصائصها الخاصة بها ناجمة عن تكوّنها بواسطة اجتياف الموضوعات الأبوية.

وبوسعنا أيضًا أن نتساءل ما هي طبيعة هذا الحصر وطبيعة الخطر الناتج عن دوافع الهو. إنني درست هذين المشكلين في مكان آخر، وسأوجز النتائج الرئيسة التي توصّلت إليها فيما يخصّهما.

فأن يكون ثمة غريزة عدوان منفصلة لدى الإنسان أو أن لا يكون لها وجود، من المؤكد أن الغريزة الجنسية، في مرحلتها البدئية على وجه الخصوص، عدوانية على نحو أساسي في طبيعتها، أكثر مما كان المحلّلون النفسيون يعتقدون في الأصل. وفي رأيي أن ليس ثمة أدلّة مرْضية على وجود عدوانية تظهر خارج الدافع الليبيدي، دافع يبدو دائمًا أنه نقطة الانطلاق. وهناك أسباب مناسبة للافتراض أن هذه العناصر العدوانية يستشعرها الرضيع مباشرة في ذاتها أنها خطرة، بمعزل عن نتائجها عليه أو على الموجود المحبوب. والاستجابة لذلك هي الحصر وهو ما يمكننا أول الأمر أن نسمّيه الحصر قبل تكوين الأفكار وتسلسلها، أي كما تكون مفهومة طبيعة الحصر. فنحن الذين ينبغي لنا، انطلاقًا من موثرات مختلفة، أن نكتشف هذا الخطر. ونحن نعلم، من وجهة نظر الفيزيولوجيا وعلم النفس، أن توترًا ناجمًا عن غياب السكينة أو نقص الإشباع له نتيجة هي الإنهاك، فثمة آباء يفيدون من ذلك ليتركوا الرضيع في حال من الغضب «يصرخ وحيدًا إلى أن يهدأ من تلقاء ذاته» وذلك في رأيي أسلوب خطر جدًا في هذا العمر. وهذه الخشية من الإنهاك الكلي لليبيدو، سمّيتها الخوف من **الخفاء**. وفي رأيي أن في ذلك إنما توجد نقطة انطلاق الحصر الرئيسة التي تتكون الأنا العليا ضدّها كما تتكوّن دفاعات أخرى في الوقت نفسه.

إرنسْت جونز

الفصل الخامس
ملخّصٌ للمسألة

مقدّمة

ينتمي المحلّل النفسي البريطاني جوزيف ساندلر إلى جماعة أنّا فرويد. إنه يُعنى، في هذا النصّ، بالانحلال الظاهر لمفهوم الأنا العليا. ويبدو في الواقع أن هذه الأنا العليا فقدت بعد فرويد جزءاً من تماسكها واستقلالها الذاتي بوصفها مرجعًا من مراجع النفس.

وبقدر ما كان الاهتمام بها يتنامى، كما تبيّن فصول شتّى من هذا المؤلّف الحالي، تعقّدت وهي تتفتّت في الوقت نفسه. ولهذا السبب يبيّن المؤلف أن التحليل النفسي ينتهي، بقدر ما نقترب على نحو دقيق إلى الحدّ الأقصى من مصادرها في الهو والأنا والعالم الخارجي، إلى أن يسهو عن أن الأنا العليا تكوّنت على نحو الدقة، انطلاقًا من هذه المصادر، في كيان له وظائفه الخاصة. والحال أن كل شيء يحدث كما لو أنها كانت قد ذابت فيها مجدّداً... فدراسة العيادة التحليلية، ومفعولات التحويل والنكوص، أدّت إلى هذه النتيجة.

ويعرض جوزيف ساندلر هنا تصوّراته الخاصة وهو يرسم رسمًا مجدّدًا بالتفصيل تطوّر الأنا العليا لدى فرويد وخلفائه، ويوضّح على وجه الخصوص ذلك التموين النرجسي الذي يؤمّنه للفرد كونه على وفاق مع أناه العليا.

إننا رأينا، في استعراضنا المشكلات المرتبطة بالأنا العليا، أنها يمكنها في رأي فرويد أن تكون غير ذات قوام لدى عدد معيّن من الموجودات الإنسانية. وما يوجد فقط بالنسبة لهم إنما هو الحاجة إلى استحسان السلطة الخارجية والخوف من العقاب.

وفي رأي جونز ، ونحن نعلم ذلك حاليّا ، أن الأنا العليا ، الموجودة لدى الطفل الصغير جداً قبل معنى الخير والشر، يمكنها أن تقود إلى الجريمة، وذلك أمر يثير بالنسبة لنا مسألة ذات علاقة مباشرة بالأحداث الراهنة، أي عقوبة الموت.

وكون المرء يصرّح أنه يناصر عقوبة الموت، هل يعني أنه يريد تطبيق العقوبة القصوى دفاعًا عن الأخلاق - أي العمل باسم الأنا العليا؟ أو هل يعني شقّ معبر، تحت قناع الأنا العليا، لعدوانية عنيفة - ناشئة من الهو؟ وسيكون حسم المناظرة عسيراً، وذلك أن علينا دون ريب أن نأخذ بالحسبان نزاعات خاصة بكل منا.

إن أنا عليا قاسية على نفسها يمكنها أن تمارس عملها بالقوة تارة، وعلى نحو متسامح مع الغير تارة أخرى. وتستعير الغرائز الأكثر وحشية، في بعض الأحيان، وجه الأنا العليا لتعبّر عن نفسها: عقاب المجرم يعادل عندئذ رغبة في الموت «باسم الخير». والتسامح مع القاتل (المعبَّر عنه أيضًا باسم الخير: «لن تقتل أبدًا») يستر تواطؤًا لا شعوريًا مع من يفوّضه الفرد أن يحمل تمنيّاته الخاصة بالقتل وأن ينجزه بدلاً منه إذا صحّ القول.

فالاتجاهات المعلنة لا يمكنها إذن أن تُفصل عن حوافزها العميقة (اللاشعورية)، والرأي الماثل يمكن أن يكون له، كما نرى، جذور متعارضة في الأساس.

النّص

على الرغم من أن من الممكن أن نكتشف - إذ نتّجه إلى الماضي - بذور مفهوم الأنا العليا في «المخطّط الإجمالي[1]» (انظر فرويد، ١٨٨٧) وفي **تفسير الأحلام** (١٩٠٠)، يعرض فرويد مفهوم مثالٍ للأنا، عرضًا للمرة الأولى، في مقال عنوانه «المدخل إلى النرجسية» (١٩١٤). ويعرض فرويد فكرة مرجع للنفس يحاكم الأنا ويقيسها بمعيار مثالي - معيار مشتقّ من معايير السلوك التي يفرضها الأبوان.

ويقترح فرويد عندئذ، منطلقًا من الملاحظة التي مفادها أن الدوافع الليبيدية تُكبت حين ندخل في نزاع مع قناعات الفرد الأخلاقية، أن تكوين هذا المثال - الذي يقارن به الفرد نفسه - يؤلّف شرطًا مسبقًا لمثل هذا الكبت. ويتكلم، في هذا السياق، على حب الذات لدى الأنا. ويتجسّد في الصورة المثالية كل الكمالات التي شعر الطفل أنه امتلكها هو نفسه في طفولته الأولى. وفي حدود ما يفلح في الامتثال إلى هذا المثال، يكتشف هذه الحالة من الكمال النرجسي المبكّر.

ويتكوّن الضمير بوصفه مرجعًا في كَنَف النفس، إذ يفعل بحيث تستمد الأنا منحة نرجسية من مثال الأنا، الذي يحاكم الأنا الواقعية ويقارنها مقارنة مستمرة بمعيار مثالي.

١ - «قائد» الجماعة، إضفاء المثالية على كل الصفات الفردية

كان فرويد يعتقد أن انتقادات الأبوين تؤلف العنصر المحرّك لتكوين المثال، انتقادات عزّزتها لاحقًا إرشادات التربية. ويذكر أن ما كان يسمّى أول الأمر باسم رقابة الأحلام يؤلف في الواقع مثال الأنا. ومن المناسب أن نشير إلى أن فرويد يستعين بالمصطلح نفسه ليدل على الصورة المثالية والجزء المنظّم من الأنا الذي يراقب الأنا مراقبة مستمرة ويقيسها بالمعيار المثالي.

(١) - «مخطط إجمالي لضرب من السيكولوجيا العلمية» في ولادة **التحليل النفسي** (١٨٩٥).

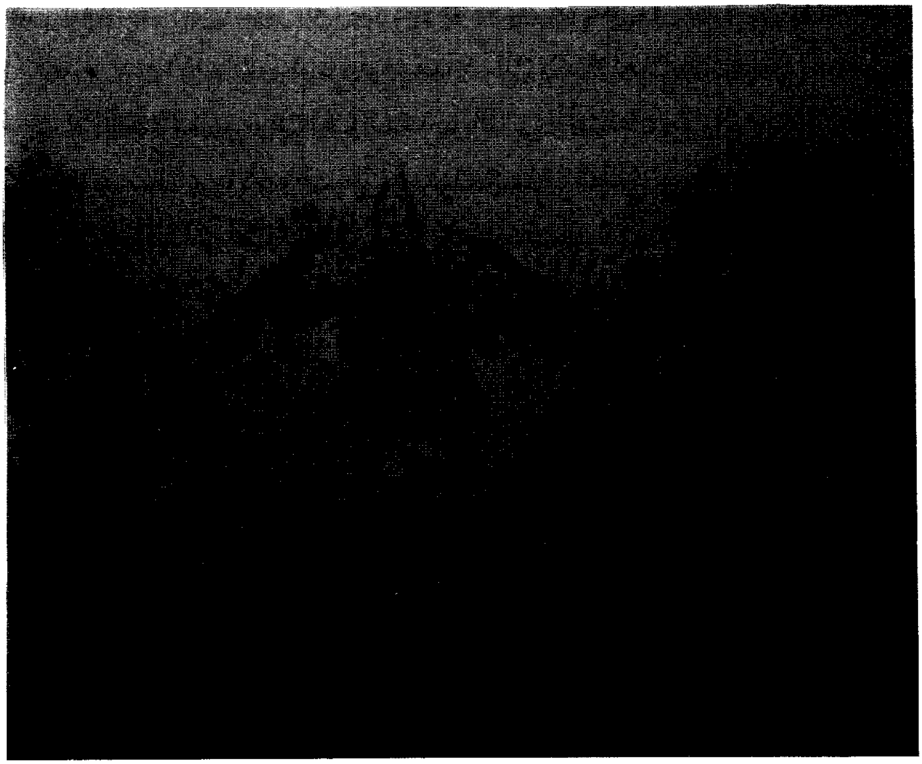
وفي هذا المقال، يعالج فرويد دور اتجاه الملاحظة الذاتية وتقلّبات الليبيدو في تطوّر مثال الأنا. ويعتبر تطور الأنا ضرباً من النمو انطلاقاً من النرجسية الأوّلية ويعتقد أن هذا التطور يتيح المجال لمحاولة شديدة بغية اكتشاف هذه الحالة من النرجسية. ويضيف أن هذا النموّ ينجزه ضرب من انزياح الليبيدو صوب مثال للأنا مفروض من الخارج، وأن إشباعاً يناله الفرد جرّاء تحقيق هذا المثال.

ويتوسّع فرويد في هذا المفهوم بعض التوسّع في **علم النفس الجماعي وتحليل الأنا**. ويراه أنه يشمل مجموع كل التحديدات التي ترى الأنا نفسها مرغمة على قبولها، ويلاحظ أن كلية التفاعل بين الموضوع الخارجي والأنا في مجموعها ربما يمكنه أن يحدث مرة ثانية على هذا المسرح الجديد من العمليات في كنف الأنا. ويلحّ إلحاحًا جديداً على الجانب الإيجابي المجزي من العلاقة التي تقوم بين الأنا ومثالها. وعندما تتوافق أفكار الأنا أو فاعلياتها مع معايير المثال، ينجم عن ذلك شعور بالنصر والسكينة - عودة إلى حالة الاتحاد النرجسي الأولي بالأبوين.

والفرد يمكنه، عندما ينضمّ إلى جماعة، أن يتخلّى عن مثال الأنا ويستبدل به مثال الجماعة كما يجسّده قائدها. ويجد القائد نفسه متقلّداً كل الصفات الفردية التي أُضفيت عليها الصفة المثالية، ولكون أعضاء الجماعة الآخرين يتصرفون على نحو واحد مفعول مفاده أنه يكثّف السيرورة، إذ يتوحّد أعضاء الجماعة بعضهم ببعض. والأنا يستشعرها الفرد بدورها بوصفها موضوع مثال الأنا.

ونحن نكتشف في الهوس، الذي يبلغ الحدّ الأقصى المرضيّ، عاطفة الاتحاد النرجسي بالأبوين، عاطفة لا تولّف الأنا ومثالها، وفقها، إلا واحداً، إذ يمكن عندئذ أن لا يبالي الفرد، مبتهجاً، بعواطف المسؤولية الاجتماعية. وتكون عواطف الإثمية والدونية والعكس بالعكس، هي التعبير عن توتّر بين الأنا والمثال وتبلغ الذروة في بؤس السوداوية الذي يثير الشفقة.

ويميّز فرويد بوضوح بين توحّد الأنا بموضوع (إذ يتيح هذا التوحد مجالاً، على سبيل المثال، للذة الانتماء إلى جماعة، إلى تنظيمات كالجيش) وبين تجسيد مثال الأنا في شخص خارجي أو سلطة خارجية (كما في الكنيسة).



«الفرد يمكنه أن يتخلّى، إذ انضمّ إلى جماعة، عن مثال الأنا لديه ويُحلّ محله مثال الأنا لدى الجماعة، كما يجسّده قائدها». (عيد نازي في بوكيبرغ عام ١٩٣٤).

٢ - الأنا العليا انعكاس ما يوجد من «الأفضل» لدى الإنسان

بعد سنتين، يعرض فرويد وجهة النظر البنيوية في **الأنا والهو (١٩٢٣)**. ويحلّ مصطلح الأنا العليا محلّ مصطلح مثال الأنا، ولكن فرويد لا يلمّح، بهذا التغيّر للمصطلح، إلى أنه يتعامل مع تنظيمين مستقلّ أحدهما عن الآخر. ويرى الأنا العليا - كما كان يرى مثال الأنا سابقًا - ضربًا من تعديل الأنا. والأنا العليا - راسب بنيوي في كَنَف الأنا - تظهر عند انحسار العقدة الأوديبية وتصبح، إذ

تتكوّن، هي المرجع الرئيس المكلّف بحلّ النزاعات الأوديبية، الحادّة جداً خلال الطور القضيبي من النموّ الغريزي. وهو يعتبرها ناقل الأخلاقية، إذ تعكس «الأفضل» لدى الإنسان وتكوّن، بوصفها كذلك، ممثلاً لعلاقات الطفل بأبويه في المجتمع. إنها تمارس وظائف التقدير الذاتي وتحتفظ، طوال حياة الفرد، بملكية الانفصال عن الأنا والسيطرة عليها، كما أن الطفل لم يكن بوسعه إلا أن يطيع أبويه، كذلك الأنا تخضع فيما بعد للمقتضيات الآمرة للأنا العليا التي تمارس رقابة أخلاقية، ويظهر التوتر بين الأنا العليا والأنا على صورة عاطفة من الإثمية وعدم الأهلية.

والأنا العليا لاشعورية في الجزء الأكبر منها. فوظائفها النقدية يمكنها، في إطار التحليل، أن تولّد بعض أشكال المقاومة. ويمكنها أن تبدو أخلاقية على نحو مرعب وحتى مستبدّة بالأنا. ولكنها يمكنها أن تتعدّل بحيث تكون قادرة على أن تتشرّب المعايير والإيعازات الأخلاقية الصادرة عن سلطات خارجية كالمعلمين.

ويرى فرويد أن الأنا العليا تتكوّن على قاعدة التوحّدات بالأبوين، وحلول توحّدات تمثّل جانبًا هامًا من نموّ الشخصية محل توظيفات الموضوعات – مع أن توحّدات الأنا العليا يمكنها أن تتميّز من التوحدات التي تغني الأنا. فالتوحّدات الحاسمة للأنا العليا تلي الحاجة إلى مواجهة الجانبين الإيجابي والسلبي معًا من عقدة أوديب. والأبوان يُجتافان في الأنا العليا، على النحو الذي وصفه فرويد في «الحداد والسوداوية» (١٩١٧) ويعارض الطفل مظاهر الغريزة بالحاجز في الأنا العليا، الذي كان موجوداً في الخارج على صورة الأبوين. وتمثّل الأنا العليا مع ذلك بنية محدّدة جيداً داخل الأنا، وهذا شيء مختلف عن مجرد مجموعٍ من التوحّدات الأبوية ـ فالمقصود تنظيم متماسك، مستقلّ عن المكوّنات الأخرى للأنا. وكلما كانت عقدة أوديب قوية – وكلما كانت مكبوتة تحت تأثير إجراءات خارجية ـ ستكون الأنا العليا قاسية.

٣ - الأنا تخضع للهو بفعل الأنا العليا

ألحّ فرويد غالبًا على واقع مفاده أن الأنا العلْيا ليست فقط نتاج التوحّدات الأبوية، ولكنها تعمل أيضًا بوصفها نمط تعبير عن دوافع الهو الأكثر قوة. فالأنا تخضع للهو حين تؤسّس الأنا العليا. ومن المؤكد أن فرويد يصرّح أن الأنا تكوّن أناها العليا انطلاقًا من الهو، وأن غياب العوائق للتواصل بين الهو والأنا العليا يشرح أن هذه الأنا العليا لاشعورية في الجزء الأكبر منها. وهكذا فكلما ساد طفل من الأطفال دوافعه العدوانية تجاه طفل آخر، ستكون الأنا العليا لاحقًا مستبدّة. وتبقى الخشية من الأنا العليا حيّة بعد الخشية المبكّرة من الخصاء، خشية تجد نفسها تتفاقم، كما نعلم، بفعل دوافع الطفل العدوانية الخاصة.

ويشقّ الهو على هذا النحو دربًا نحو الأنا بطريقتين: مباشرة، من حيث أن دوافعه متناسبة مع الأنا، وبصورة غير مباشرة، بواسطة الأنا العليا.

فكل توحّد، كما أشار فرويد، يرافقه معًا ضرب من نزع الصفة الجنسية وضرب من فكّ الانصهار الغريزي الوثيق. ولم يعد التوظيف الليبيدي يربط الميول المدمّرة التي تعبّر عنها الآن قسوة الأنا العليا وقابليتها لفرض العقوبات. وهذا الفك، فك التركيب الغريزي الوثيق، واضح في السوداوية على وجه الخصوص.

وتضمّ الأنا العليا أيضًا عناصر تمثّل **ردود فعل** ضدّ الهو. وهي على هذا النحو تتضمّن، فضلاً عن الأمر «كن كأبيك» بعض الممنوعات - بالنظر إلى أن بعض الامتيازات وقف على الأب.

٤ - بعض التوضيحات التي قدّمها فرويد للأنا العليا

ينشر فرويد عام ١٩٢٦ كتابه **الكفّ، العرض والحصر**، حيث يعرض نظريته الجديدة في الحصر ويشجّع الضروب العديدة من التقدّم التي ستظهر لاحقًا في مجال سيكولوجيا الأنا. ولن يعدّل بعد هذا التأريخ مفهوم الأنا العليا، معترفًا في الوقت نفسه أن المفهوم المومأ إليه ليس على الإطلاق واضحًا وبسيطًا بقدر ما يمكننا

أن نتمنّى. ولن يستشعر الحاجة أيضًا إلى إعادة النظر في نظرية النرجسية التي أدّت دورًا ذا أهمية كبيرة في المخطّطات الأولى لمثال الأنا.

وكان على فرويد مع ذلك أن يدلي فيما بعد بعدد معيّن من التصريحات المفيدة لفهمنا الأنا العليا. ويومئ في كتابه نفسه **الكفّ، العرض والحصر**، إلى الحالات العديدة التي تكون فيها الأنا والأنا العليا متشابكتين ويكون من المتعذّر أن نميّز بينهما. ويومئ إلى الطاعة التي تُظهرها الأنا للأنا العليا (مع أنه يتكلم في **المحاضرات الجديدة في التحليل النفسي**) (١٩٣٢) على كبت بوصفه عمل الأنا العليا، الذي تقوده مباشرة هذه الأنا العليا إلى النجاح أو تقوده الأنا، وفق أوامرها، إلى النجاح). ويرى فرويد تهديد الأنا العليا استطالة للتهديد بالخصاء الذي يكوّن بدوره ضربًا من النموّ (بفعل الخطر من فقدان الموضوع) للخطر الأبكر والأكثر أوليّة، خطر أن تغمره الإثارة دون ملاذ. ويكتسي عضو ذكر الصبي الصغير توظيفًا نرجسيًّا واسعًا، وما يهدد عضوه الذكري يهدّد أيضًا نرجسيته.

ويتكلّم فرويد في **المحاضرات الجديدة في التحليل النفسي** ـ كما كان قد فعل سابقًا ـ على الأنا العليا بوصفها وظيفة داخل الأنا، ويضيف مع ذلك أن الأنا العليا مستقلّة، في نطاق معيّن، إذ تعمل على غاياتها الخاصة. ويلحّ فرويد على دور الأنا العليا بوصفها تحلّ محل السلطة الأبوية، وبوصفها عاملاً داخليًّا يسود الأنا، إذ تمنح أدلة على المحبة وتترك التهديدات بالعقوبة تخيّم، تهديدات تمثّل بدورها ضربًا من فقدان الحب. ويقابل بين قسوة الأنا العليا لدى عدد كبير من الأفراد وبين طيبة الأبوين الواقعيين ولطفهما ويعزو هذا التباين إلى «تحوّل الغرائز» الذي يحدث عند انحسار العقدة الأوديبية.

٥ ـ الأنا العليا، من الأسرة إلى الجماعة

يسترعي فرويد الانتباه في **مستقبل وهم** (١٩٢٧) إلى دور الأنا العليا في تأييد الثقافة، ويساعدنا جزء كبير من ما عليه أن يقول، بصدد نقل هذه الثقافة (لا سيّما بصدد الدين بوصفه وهمًا ثقافيًّا)، في أن نفهم الأنا العليا فهمًا أفضل،

بوصفها، بعد كل شيء، عامل النقل الثقافي الأنجع. وفي رأي فرويد أن كل فرد عدو للثقافة في الواقع، وينبغي لهذه الثقافة أن تحمي الإنسان من دوافعه العدائية الخاصة. ويضيف أن الإشباع الذي يؤمّنه إنجاز مثال ثقافي هو من نسق نرجسي بصورة أساسية.

ويوسّع فرويد، في **عسر في الحضارة** (١٩٣٠)، ارتباط الأنا العليا وغريزة العدوان. فخشية الطفل من أبويه، بعد أن ظهرت على صورة حصر اجتماعي - كما كان فرويد قد كتب يقول، يستشعرها ضرباً من عاطفة الإثمية منذ أن يحلّ الوجدان الأخلاقي محل الأبوين. ولكن هذه العدوانية التي تتصف بها الأنا العليا تتعزّز، بالإضافة إلى ذلك، كلما تخلّى الطفل عن رغباته الخاصة في العدوان جرّاء مقتضيات المجتمع. والواقع أن الإحباط يفاقم العدوانية الملازمة لثنائية المشاعر لدى الطفل، وهذه العدوانية تتحوّل نحو الأنا العليا التي ترى قوتها عندئذ مقياس عداوة الطفل نفسه للأب الذي يفرض تحديدات وممنوعات. ويمكننا عندئذ أن نرى السلوك المازوخي تابعاً لتعلّق الأنا الغلمي بالأنا العليا السادية.

وكان فرويد قد أكد، وهو يعرض للمرة الأولى مفهوم مثال الأنا (١٩١٤)، أهمية الجوانب الليبيدية والغلمية للرابطة التي توحّد الطفل بأبويه ـ لا سيّما بأمه ـ فيما يخصّ تكوين مثال الأنا. ويؤكد فيما بعد تأكيداً واضحاً إلى الحد الأقصى، في **عسر في الحضارة**، ذلك الجانب العدواني والسادي. ولا يفوته مع ذلك أن يشير إلى أن مؤسسة المثل والمعايير السامية وظيفة من وظائف الأنا، كذلك العقوبة التي يفرضها الوجدان الأخلاقي على الأنا عندما لا تتحقّق هذه المثل.

ويلحّ فرويد، في تأريخ متأخر بقدر ما هو عام ١٩٣٨، وفي كتابه **مختصر التحليل النفسي**، على تصوّره الأنا العليا بوصفها مرجعاً خاصاً حيث التأثير الأبوي يجد استطالة. ويضيف أن تفضيلات العلاقة بين الأنا والأنا العليا تصبح مفهومة كل الفهم إذا أرجعناها إلى موقف الطفل من أبويه، وأن تأثير الأبوين ينصبّ أيضاً على موروثي الجماعة الموسّعة والأسرة.

٦ ـ علامة التوحّدات والأوديب

ربط فرويد ربطًا نوعيًا نموّ الأنا العليا بحلّ النزاع الأوديبي ورأى هذا النمو محصّلة عاملين: المرحلة الطويلة لعجز الإنسان الصغير وظهور عقدة أوديب.

فعلاقة الطفل المبكّرة بأمه علاقة اعتمادية ـ أي مبنيّة على القدرة الفعلية لدى الأم على إشباع حاجات الطفل الصغير الغريزية. أما الأب، فإن فرويد يحسبه وكأنه يكوّن موضوع ضرب من التوحّد - لا من نوع التوحّد الذي يقود إلى تكوين الأنا العليا، بل بالحري توحد مباشر وفوري يحدث قبل كل توظيف للموضوعات.

ويدوم هذا الوضع المبكّر حتى المدّة الزمنية التي تولد خلالها رغبات قضيبية في الأم. فالأب يُدرك عندئذ (نحن نتكلم على الصبي الصغير) بوصفه مانعًا لهذه الرغبات الجنسية ولعواطف الطفل إزاءه الموسومة بثنائية المشاعر.

فينبغي إذن لتوظيف الأم بوصفها موضوعًا جنسيًّا أن يُهمل أو أن يحلّ محلّه إما توحّد بالأم، وإما تعزيز التوحد بالأب، وذلك أمر يدعّم ويرسّخ ذكورة الصبي الصغير ويتيح له أن يقيم علاقة محبة بأمه. وغلبة هذين التوحدين النسبية تتأثر أيضًا بعقدة أوديب السلبية وبجنسية الطفل الثنائية الجبلّية.

وتتزامن هذه التوحّدات مع عقدة أوديب وتكوّن عناصر أساسية منها. فالتوحّد بالأب يصون العلاقة بالموضوع الأم ويحلّ محل العلاقة الجنسية بالأب التي كانت تنتمي إلى عقدة أوديب السلبية. كذلك يصون التوحّد بالأم تلك الرابطة بالموضوع الأب ويحلّ محل العلاقة الجنسية القضيبية السوية بالأم. ويعارض الطفل في الأنا العليا ظهور الغريزة بالمانع نفسه الذي كان يوجد في الخارج على صورة الأبوين. إنه يقتبس لهذا الغرض، كما يقول فرويد، من أبيه القوة الضرورية، بواسطة توحد به سابق.

٧ ـ ضروب النموّ اللاحقة: سيكولوجيا الأنا وتحليل الطفل

مع أن فرويد أشار إلى تعقّد مفهوم الأنا العليا في عدة مناسبات، ليس ثمة شك في أن الصعوبات التي كان يلمحها كانت تقع في معظمها، على محيط المفهوم بالحري لا في وسطه. وإذا بحثنا عن الإلماعات التي أبداها فرويد إلى مثال الأنا والأنا العليا - لا سيّما خلال السنين الخمس عشرة التي تلت ظهور محاولته المعنونة «الأنا والهو» - فليس بوسعنا أن تفوتنا الدهشة من تماسك صيغه الداخلي.

ونحن نعلم أن التحليل النفسي لم يتطوّر في كل الاتجاهات بالسرعة نفسها وأنه أحرز تقدّمًا على وجه الخصوص، على أثر ظهور «الأنا والهو»، في بعض المجالات ذات العلاقة بهذه المحاولة: أودّ أن أتكلّم بوجه خاص على سيكولوجيا الأنا وتحليل الأطفال.

فإعادة النظر في نظرية الحصر، عام ١٩٢٦ (في **الكفّ، العَرض والحَصَر**)، إذ ألحّ على الأنا بوصفها مركزاً وحيداً للحصر أتاحت المجال ـ كما بيّن هارتمان وكريس (١٩٤٥) ـ لضروب نظرية من النمو ذات أهمية كبيرة في مجال سيكولوجيا الأنا. ويقولان: «إذا نظرنا إلى الأنا جهازاً نفسيًّا يسود الإدراك، ويتوصّل إلى حلول ويوجّه العمل، فينبغي لنا أن نلحّ على تمييزات لم تكن تبدو ملائمة في الزمن الذي صاغ خلاله للمرة الأولى قضاياه في مجال علم الوراثة. وعمّق كتاب آنّا فرويد، **الأنا وآليات الدفاع**، معرفتنا وأضفى المنظومية عليها، معرفتنا بدفاعات الأنا ووسّع مفهوم الدفاع إلى حدّ ضمّنه فكرة دفاع ضدّ «الألم» الصادر عن العالم الخارجي. وأدخل كتاب هارْتمان، **سيكولوجيا الأنا ومشكل التكيّف** (١٩٣٩)، مفهومي الطور غير المتمايز ونموّ الأنا الخالية من النزاعات، وكذلك مفهومي الاستقلال الأولي والثانوني.

وثمة وظائف للأنا، كاختبار الواقع، والإدراك، والذاكرة، والسيادة على قدرة التحرّك، ووظيفة التأليف، تشكّل موضوع انتباه متنام، وأُدخل مفهوم الطاقة المحيّدة (هارتمان، كريس ولوونشتاين، ١٩٤٩)، وينكبّ المحلّلون النفسيون على

نموّ أجهزة الأنا، لاسيّما على تلك التي ذات علاقة بالفكر والوظيفة المعرفية (انظر رابابور، ١٩٥٧)، وتبدو نظرية التحليل النفسي أنها تنطلق انطلاقة سريعة إلى حدّ تصبح علم نفس عام. ويبرز معًا ميل يتشرّب وفقه التحليل النفسي كشوف المخبر التي ينجزها علم النفس الأكاديمي.

٨ ـ الإضاءة التي تقدّمها سيكولوجيا الأنا

أضاء تقدّم سيكولوجيا الأنا بعض المناطق الهامّة على نحو خاص لمفهومنا، مفهوم الأنا العليا. وبعض وظائف الأنا العليا تجد نفسها بالتدريج وقد امتصّها مثال الأنا لدينا. إنها استطالة ميل واضح لدى فرويد نفسه في كتاباته، ذلك أنه كان، عام ١٩١٤ (وعام ١٩٢١ مجددًا)، يعزو وظيفة اختبار الواقع إلى مثال الأنا، ثم إلى الأنا على نحو واضح تمامًا عام ١٩٢٣. ولم تكن وظيفة الملاحظة الذاتية للأنا العليا قد تُركت عن طيب خاطر إلى الأنا (انظر ننْبرغ، ١٩٣٢) وكان التقابل بنية / وظيفة قد دُرس دراسة مرْضية (ألمع فرويد، أكثر من مرة، إلى الأنا العليا بوصفها «وظيفة» الأنا).

واكتشفت ضروب النموّ لدى سيكولوجيا الأنا أيضًا منطقة نظرية واسعة، أساسية إذا أخذنا نشوء الأنا العليا بالحسبان، الذي ما يزال قليل الوضوح. ومع أن مفاهيم التوحّد والاجتياف والاستدخال تكون ذات قيمة عليا عيادية، فإن وضعها الميتاسيكولوجي في الزمن الراهن معقّد وغامض على الغالب، مع أن محاولات عديدة كانت قد جرت لتمييز بعضها من بعض (انظر فونيشل، ١٩٢٦، ١٩٤٥، فولْكز، ١٩٣٧، نايْت، ١٩٤٠، غلوفر، ١٩٤٩، هاندريك، ١٩٥١، جاكوبْسون، ١٩٥٣، وغرينسون، ١٩٥٤). ويستخدم فرويد مصطلح «توحّد» في عدد كبير من المعاني، بغية تضمين التوحّدات المنفّذة في كنَف الأنا والأنا العليا، ويتكلم على توحّد (بالأب) يسبق العلاقات بالموضوع. أضف أننا ينبغي لنا أن نأخذ بالحسبان ما مفاده أن بعض التوحّدات تبين غير متناسبة مع الأنا (غرينون، ١٩٥٤). والتوحّد، بوصفه دفاعًا، غير متمايز غالبًا، فضلاً عن ذلك، من

الاستخدام الدفاعي للاجتياف. وقد يحدث على الغالب أن يكون مصطلح الاجتياف مستخدماً أيضاً بالمعنى نفسه للدمج عندما يكون المقصود سيرورات إغناء داخلي؛ وينبغي مع ذلك لمصطلح الدمج أن يكون، بالمعنى الدقيق للكلمة، وقفاً على الدلالة على الفاعلية الغريزية الفموية للامتصاص المادي ومصطلح «الاجتياف» للدلالة على المقابل النفسي لهذه الفاعلية (غلوفر، ١٩٤٩، غرينسون، ١٩٥٤). ويمكننا أيضاً أن نتساءل ما إذا كان الاجتياف يكوّن فاعلية غريزية بالكامل وفي أي نطاق يمثّل وظيفة مستقلّة للأنا، مرتبطة على سبيل المثال بالتنظيم الإدراكي. ومصطلح الاستدخال - الذي يستخدمه هارتمان (١٩٣٩) لتحديد مجموعة السيرورات التي ينوب الضبط الداخلي بواسطتها مناب فاعلية التلمّس الخارجي - مستعمل مع ذلك أيضاً بوصفه مرادف الدمج، والاجتياف، والتوحّد.

٩ ـ أداة جديدة للتنقيب عن الأنا والأنا العليا: الذات

ينبغي لنا أن نضيف إلى هذه المشكلات مشكلاً آخر ناجماً عن نمو سيكولوجيا الأنا. ويبدو أن تمييز جزء من شخصية الأنا، بالمعنى الحقيقي للمصطلح، أصبح ضرورياً، جزء يرتبط بها مع ذلك ارتباطاً صحيحاً، أي **الذات**. فابتدعت إديث جاكوبسون (١٩٥٣، ١٩٥٤)، على أثر اقتراح من هارتمان (١٩٥٠)، مفهوم امتثال الذات الذي له، في كنف الأنا، الوضع نفسه الذي يكون لامتثالات الموضوعات. إن الذات، «امتثال داخل نفسي لذاتنا الجسمية والنفسية في منظومة الأنا، (هارتمان)، هي التي تتلقّى عندئذ التوظيف المسحوب من الموضوعات الخارجية والمتّجه نحو الأنا. وسيكون لهذا المفهوم - الذي يبين ذا قيمة نظرية وعيادية معاً ـ عدد كبير من الانعكاسات على نظرية النرجسية والمازوخية وكذلك على فهمنا سيرورات الاجتياف، والإسقاط، والتوحّد (التي ينبغي أن ننظر إليها بوصفها انصهار امتثالات الموضوع والذات). ويفعل هذا المفهوم فعله في أفكارنا عن تطور الأنا العليا التي تنظّم، في رأي جاكوبسون، نتيجة التكوينات الارتكاسية الممتدّة على الرغبات الأوديبية والنرجسية لدى الطفل، وعلى رغباته الجنسية ودوافعه العدوانية على حدّ سواء.

وبعض المؤلفين أبرزوا التمايز المفاهيمي بين الجوانب الليبيدية (مثال الأنا) والعدوانية (الأنا العليا بالمعنى الحقيقي للمصطلح) للأنا العليا إلى حدّ سلّموا - ضمنًا أو صراحة - بوجود بنيتين متمايزتين. وبرز هذا الميل في أعمال عدة مؤلفين. ويعزو بيرزْ وسنْجر الإثمية، في دراسة أحادية عنوانها «**الخجل والإثمية**» (١٩٥٣)، إلى توتّر بين الأنا والأنا العليا، والخجل إلى توتر بين الأنا العليا ومثال الأنا. ويتكلّم ننْبرغ (١٩٣٢) على مفهومين، ولكنه يقول فيما بعد إن من الصعب عمليًّا أن نفصل بدقّة أحدهما عن الآخر.

١٠ - إسهام كبير صادر عن المحلّلين النفسيين للأطفال

ربما يكون المنبّه الأقوى في سبيل فهم أفضل للأنا العليا ناجمًا عن التجربة ونفاذ البصيرة لدى أولئك الذين يمارسون تحليل الأطفال. وهذا الأمر صحيح على وجه الخصوص فيما يتعلّق ببشائر الأنا العليا ومجموع مشكل التطوّر الفردي للأنا العليا البالغة. والحقيقة أن المنظور التكويني - كما يقترحه هارتمان وكريس (١٩٤٥) - يمكنه تمامًا أن يبين أنه الأكثر إضاءة والأكثر فائدة للنظر في مفهوم الأنا العليا الصعب من جانبيه الوظيفي والبنيوي.

وتدلي آنّا فرويد منذ عام ١٩٢٦، في مجموعة من المحاضرات ألقتها في معهد التحليل النفسي بفيينا (منشورة لاحقًا في **التحليل النفسي للأطفال**)، بعدد معيّن من الملاحظات الخاصة بالأنا العليا تمثّل إفاضة في الوصف الذي قدّمه فرويد في «الأنا والهو». وتسترعي انتباهنا إلى الأهمية النسبية لتأثير العالم الخارجي - الأبوين على وجه الخصوص - في حياة الطفل الصغير النفسية. ففي حين أن الانفصال، في الأنا العليا البالغة، عن الأبوين وتوحّد الأنا العليا بهذين الأبوين يتيحان المجال لدرجة من الاستقلال الكبير، فإن الانفصال عن الأبوين لدى الطفل لا يكون كاملاً على الإطلاق. ومع أن أنا عليا موجودة حقًا عقب الطور الأوديبي، فإن أهميتها، بالنسبة للطفل، ما تزال تابعة لعلاقاته الواقعية بالأبوين الواقعيين. والرقابة التي يمارسها الطفل على فاعلياته في إخراج الفضلات على سبيل المثال،

تابعة، مع أنها تعكس ميلاً داخليًا إلى النظافة، تبعية واسعة في السنين الأولى لحالة علاقاته بهذين الموضوعين الواقعيين. ويكفي أن تكون العلاقة بالموضوع الأم مضطربة حتى يمكن أن يحدث بسهوله نكوص إلى عدم إمساك الفضلات. وثمة، حتى خلال طور الكمون، تغيّرات في العلاقة بالموضوعين الواقعيين يمكنها أن تؤثّر في الأنا العليا، القائمة ولكنها غير البالغة، لدى الطفل. ويبين هذا الرابط بالأبوين نفسه في نمط مزدوج من الأخلاق: أحدهما مخصّص للعلاقات بالراشدين والآخر للطفل نفسه وللأطفال الآخرين؛ وتنتهي فيما بعد أنا فرويد إلى أن تقترح أن المحلّل ينبغي له أن يضطلع بدور مثال الأنا لدى الطفل خلال التحليل. فالتعديل في الأنا يُعدّ على هذا النحو، بسبب تبعية الطفل لموضوعيه الواقعيين، أسهل لديه مما هو لدى المريض الراشد[٣].

١١ - رأي ميلاني كلاين: أنا عليا كاملة مبكّرة جدًّا

تهاجم ميلاني كلاين هجومًا عنيفًا عام ١٩٢٧، خلال ندوة من ندوات التحليل النفسي للأطفال انعقدت في لندن، تلك الأفكار النظرية والتقنية التي عبّرت عنها أنّا فرويد، وأرغب في أن أعرض أفكارها من حيث أنها تحيل إلى تكوين الأنا العليا. فميلاني كلاين ترى أن الأنا العليا، حتى لدى الطفل الصغير جدًّا ـ تشبه كثيراً الأنا العليا لدى الراشد ولا تطرأ عليها تعديلات كبيرة خلال النموّ اللاحق. ويمكن أن تكون الأنا العليا لدى الطفل قاسية إلى الحدّ الأقصى وهي من هذا الجانب مختلفة كليًّا عن الأبوين الواقعيين؛ والواقع أن الموضوعات المجتافة لا يمكنها، على أي حال، أن تكون مماثلة للأبوين الواقعيين.

وفي رأي ميلاني كلاين أن عقدة أوديب تطرأ في نهاية السنة الأولى من الحياة، في أعقاب الفطام، وظهورها مقترن بداية تكوّن الأنا العليا؛ وتلك سيرورة تبلغ نهايتها مع بداية مرحلة الكمون. والأنا العليا الناجمة عنها ليست في الأساس

(٣) لفتت أنّا فرويد النظر فيما بعد إلى أن ثمة، ربما، مجالاً للتخلّي عن وظيفتي المرشد والمربّي إلى معلمين وأعضاء من محيط الطفل، إذ نترك للتحليل على هذا النحو إمكان أن يتمركز على المشروع التحليلي بالمعنى الحقيقي للمصطلح.

قابلة للفساد وتميّز ميلاني كلاين أنا عليا داخلية حقيقية (مختلفة عن ضروب الأنا العليا الأخرى التي يؤسّسها الطفل) مغايرة للأنا العليا التي تصفها أنّا فرويد بوصفها ما تزال تعمل في شخص الأبوين الواقعيين.

وتكرّر ميلاني كلاين بعدبضع سنين، في مقال عنوانه «النموّ المبكّر للوجدان»، أن ثمة لدى الطفل، قبل انحسار العقدة الأوديبية، أنا عليا كاملة عنيفة وقاسية إلى الحدّ الأقصى. فالمخاوف التي يعرضها الطفل الصغير من العالم الخارجي ناجمة عن واقع مفاده أن لديه عنه رؤية استيهامية، بتأثير الأنا العليا. فالصور الذهنية المثالية الأولى لدى الطفل تتّسم بسادية مخيفة مصدرها غريزة الموت، والمخاوف من هذه الصور الذهنية المثالية تكون مسقَطة. وتكمن الوظيفة المبكّرة للأنا العليا في إيقاظ الحصر، في حين أن قسوتها تجد نفسها وقد تقلّصت خلال الطور القضيبي بفعل التعلّق الإيجابي للطفل بأمه، ويتحوّل الحصر إلى إثمية. وتنشأ عاطفة الإثمية عن أن لدى الطفل انطباعًا مفاده أنه يهاجم، حين يهاجم جسم أمه ساديًّا، أباه وأخوته وأخواته، الذين يحتويهم جسم الأم. وتولد العواطف الاجتماعية انطلاقًا من الحاجة الملحّة إلى أن يعيد بناء جسم الأم المضرورة ويرممّه. ومن المثير لبعضٍ من الاهتمام مع ذلك أن ميلاني كلاين تميّز الوجدان الأخلاقي من الأنا العليا، إذ أنه لا يتأسّس إلا بعد انحسار عقدة أوديب القضيبية.

١٢ ـ بدايات الأنا العليا: الربع الثاني من السنة الأولى

تحدّد ميلاني كلاين، في مقال عنوانه «في نمو العمل الوظائفي النفسي» (١٩٥٨)، بداية الأنا في الربع الثاني من السنة الأولى من الحياة وتصف تكوّنها كما يلي: دوافع التدمير الذاتي (غريزة الموت) لدى الطفل الصغير ينبغي إسقاطها إلى الخارج، ذلك أنها ترهقه إذا لم يُسقطها. فالاجتياف يُستعمل، بوصفه يخدم غرائز الحياة إلى حد واسع، ليُوثق غريزة الموت، وهاتان المجموعتان من القوى ترتبطان بثدي الأم، الذي يستشعره الطفل، تارة طيّبًا وطوراً سيئًا. ولدينا، انطلاقًا من هنا، الموضوع الأولي «الطيّب» والموضوع الأولي «السيّئ»، منشطر أحدهما عن الآخر

بسبب الحاجة إلى السيادة على حصر الاضطهاد. فميلاني كلاين تربط الانقسام مجدّداً بين الأنا والأنا العليا بقطبية مجموعتين من الغرائز (غريزة الحياة وغريزة الموت). والموضوع الطيب يدعم الأنا التي يعزّزها توحّد بالموضوع المومأ إليه، وجزء منشطر من غريزة الموت، مرتبط بجزء معيّن من غرائز الحياة، يؤلف عندئذ قاعدة الأنا العليا، وتكتسب الأنا العليا، بسبب انصهارها بغرائز الحياة، خصائص الحماية على السواء. وتؤكد ميلاني كلاين مع ذلك أن كل الموضوعات المستدخلة ليست مندمجة في الأنا العليا ولكنها يمكنها أن تنشطر خارج هذه الأنا العليا وتندفن في اللاشعور العميق. وهذه الموضوعات، التي لا تشكّل جزءاً من الأنا العليا، تتميّز بفكّ الانصهار الغريزي، في حين أن سيطرة الانصهار الغريزي في الأنا العليا هي التي تتيح للأنا أن تقبلها، لأن هذين المرجعين يتقاسمان الآن جوانب من الموضوع نفسه. وعند اقتراب مرحلة الكمون، ينعزل الجزء المنظّم من الأنا العليا انعزالاً أكبر عن الجزء اللاشعوري وغير المنظّم.

١٣ ـ أضواء جديدة على بشائر الأنا العليا

هذه الأفكار التي عرضتها ميلاني كلاين، على الرغم من الفارق الذي يمكننا أن نعزوه إلى اختلافات دلالية (رابابور [١٩٥٩] يسمّيه باسم «ميثولوجيا الهو») بعيدة جداً عمّا نفهمه من سيكولوجيا الأنا. فتأكيدها وجود منظومة نفسية معقّدة، معدّة بعد الولادة على الفور، قادرة على أن تقوم بفاعليات استيهامية معقدة جداً، والمعادلة التي تضعها بين الصور التذكّرية، والاستيهامات اللاشعورية، والاجتيافات و «الموضوعات الداخلية، ونقص التمييز بين الحالات الوجدانية وتكوين الأفكار، إلخ - كل ذلك يختلف عن نمط التفكير الميتاسيكولوجي. وليس ثمة شك مع ذلك في أن الاقتراحات القابلة للمناقشة، التي عرضتها ميلاني كلاين فيما يخص نموّ الأنا والأنا العليا، كان لها مفعول محرّض، بمعنى أن انتباهاً كبيراً كان قد انصبّ على بشائر الأنا العليا في الأطوار قبل الأوديبية. وأكبّ عدة مؤلفين، خلال السنين الأخيرة، على بشائر الأنا العليا، بالإضافة إلى الأعمال

الأقدم التي تناولت هذه البشائر، كأعمال إيشورن (١٩٢٥) ـ التي انصبّ اهتمامها بصورة خاصة على الأنا العليا لدى الجانحين ـ وأعمال فورنزي (١٩٢٦) التي وصفت كيفية خضوع الطفل للمقتضيات الأبوية خلال الطور الشرجي بفعل نموّ «أخلاق الصارّات». وتبين على هذا النحو أنّي رايخ وجود التوحّدات المبكرة «في خط الأنا العليا» إذ تمثّل هذه التوحّدات عناصر عتيقة في كنَف الأنا العليا؛ ويستعرض دافيد بيريس، استعراضًا أكثر حداثة، مجموع المشكل في مقال ذي إضاءة على نحو خاص (١٩٥٨). وأعمال سبيتز هامة على نحو فريد (١٩٤٥، ١٩٤٦، ١٩٥٠، ١٩٥٧)، ويعالج في دراسة حررّها عام ١٩٥٨، نموّ **الأنسجة الجنينية** للأنا العليا في أولى السنين الأولى من حياة الطفل.

إن أعمال أولئك الذين نذروا أنفسهم لملاحظة الأطفال المباشرة ـ الأسوياء والمضطربين ـ هي التي، على وجه الخصوص، ألقت الضوء على المراحل المبكّرة من تكوين الأنا العليا، بالنظر إلى أن نموّ الحسّ الاجتماعي لدى الطفل وظهور ضرب من الأخلاق يمكننا النظر إليهما كما لو أن لهما ارتباطًا وثيقًا بحالة علاقته بالموضوعات في سنواته الأولى؛ وأمكن أن يكتشف بعض المحلّلين النفسيين أن اضطراب هذه العلاقات يمارس تأثيراً كبير في العلاقات بالموضوع اللاحق، كما في تطوّر الأنا والأنا العليا.

١٤ ـ نتائج ضروب التقدم في معرفة الأنا العليا

رأينا أن عملاً كبيراً كان قد أُنجز فيما يخصّ مختلف جوانب مفهوم الأنا العليا، منذ أن رسم فرويد مخطّط الأطروحات الأولى لهذا المفهوم. ومن المدهش مع ذلك أن هذا العمل كان تحليليًّا إلى حدّ واسع جداً ـ تحليليًّا بمعنى أن عناصر الأنا العليا كانت قد وُضعت تحت المجهر إذ صح القول وجُزّئت إلى مكوّناتها البنيوية، الدينامية، الاقتصادية والوراثي؛ والتحليلي يعني عكس التركيبي.

وكان قسم كبير مما يمكن أن نسمّيه مجال الأنا العليا معزواً إلى الأنا خلال هذه السيرورة. وأتاحت دراسات أكثر تفصيلاً أن تكتشف أصول مناطق أخرى في الهو وكثير من القطاعات الأخرى كانت أيضًا قد ربُطت بتجارب الطفل الواقعية في بداية

حياته. وحدثت هذه السيرورة دون أن تكون هذه الأجزاء المختلفة قد تكاملت في إطار متماسك، مع أن جزءاً من سلطة الأنا العليا، من حيث هي بناء نظري موحّد، كان قد ضاع. وواقع فحص الأنا العليا بالتفصيل، بغية توضيحها، جعلها أكثر ضبابية في الواقع. فيما يخصّ الوضوح والبساطة النظريين على الأقل. وبالنظر إلى أن بوسعنا أن نرى الأنا العليا نتاج التفاعل بن الهو والأنا والعالم الواقعي، فإن تشريحها النظري ـ فيما يتعلق بأصولها على وجه الخصوص ـ قاد في حدّ واسع، إلى تبعثرها المفاهيمي بين الأنا والهو والعالم الواقعي. فالأنا العليا فقدت على هذا النحو، بمعنى، جزءاً من وحدتها النظرية بوصفها تنظيماً متماسكاً لا ينقسم، وبوصفها شيئاً في ذاتها ومرجعاً في إنتاج النزاع النفسي. وأتاح تطور سيكولوجيا الأنا، بضرب من التضادّ المدهش، أن يغني معرفتنا بالأنا، ذلك أن فحص وظائفها لم يقدنا خارج الأنا (إلا إلى، ربما، فكرة حالة لامتمايزة). وكما أن الاهتمام النظري المتنامي بالأنا العليا يميل إلى تعقيد مفهوم بسيط نسبيًّا في الأصل، كذلك برزت سيرورة موازية خاصة بالعمل العيادي التحليلي النفسي ونبحث عن أن نعمل في التحليل، جزئيًّا على الأقلّ، على نتائج العقدة الأوديبية، ولكن حلّ العقدة الأوديبية نفسه هو الذي يكمن في أصل الأنا العليا. وإذا حلّلنا نزاع الأنا العليا، فإننا نلاحظ حدوث ما يمكننا أن نسمّيه انحلالاً ظاهراً مفاهيميًّا، خلال التحليل. فالعلاقات بالموضوع والنزاعات، التي أسهمت في تكوين الأنا العليا، احتجبت إذ توظّفت في شخص المحلّل. وكان أصل دوافع الهو المتحولّة ـ التي تؤلّف جزءاً كبيراً جداً من الأنا العليا – قد اكتُشفت في الرغبات والاستيهامات الغريزية المباشرة؛ والسيرورات التوحّدية والاجتيافية التي أسهمت كثيراً في نشوء الأنا العليا كانت قد عُدّت آليات دفاع للأنا أو آليات تكيّف هذه الأنا، الآليات المستخدمة خلال الأطوار الحرجة من النمو الأوديبي وقبل الأوديبي. وهذه السيرورة يمكنها أن تجعلنا نغفل واقعاً مفاده أن الأنا العليا تنظيم له خصائصه الخاصّة.

١٥ ـ ضرب من تصوّر الأنا العليا

تمثّل الصياغة المعروضة هنا، المؤقتة وغير الكاملة، محاولة في تحديد إطار نظري أكثر من تقديم اقتراح إجمالي.

ومحاولات الطفل المختلفة، الهادفة إلى أن يرمّم نرجسيته الأصلية، تمنح نموّ الأنا نعمة هائلة. ويكتب فرويد، عام ١٩١٤، أن نموّ الأنا يكمن في ضرب من فراق النرجسية الأولية ويتيح المجال إلى محاولة قوية تهدف إلى استعادة هذه الحالة.

ويحوز الطفل تقنيات عديدة ليعيد هذه الحالة من الهناء الأصلي وأرغب في أن لا آخذ بالحسبان منها سوى تقنيتين هامتين لحديثنا:

١ ـ **الطاعة** والخضوع إلى مقتضيات الأبوين.

٢ ـ **التوحّد** بالأبوين ومحاكاتهما.

ومصطلح «توحّد» - الذي يمثّل السيرورة ونتاجها ـ كان المحللون النفسيون قد استخدموه على أنحاء مختلفة والمحاولات الهادفة إلى تمييز توحّدات الأنا من توحدات الأنا العليا أتاحت المجال إلى التباس كبير. ونحن لا نستخدم في النصّ الحالي هذا المصطلح إلا للدلالة على التوحّدات التي تعدّل الأنا، ونحن نرى أن ما نسميه «توحدات الأنا العليا» ضرب من التركيب الذي يستعين، من جهة، بالاجتياف، ومن جهة ثانية بتوحّد الأنا المقابل.

١٦ ـ التوحّد: سيرورة رئيسة لبلوغ الهناء الداخلي

تعلّمنا ملاحظة الأطفال الصغار جداً أن التوحدات بالأبوين وبالآخرين تؤلف جانبًا من النموّ السوي، وأن التوحد لا يمكنه أن يُعدّ في الحالات جميعها علاقة بالموضوع، وأنه أيضًا غير مستخدم دائمًا على نحو دفاعي. فالتوحدات العابرة يمكنها أن تصبح فيما بعد سمة دائمة من سمات شخصية الطفل، ولكن ملكة الشروع في توحّدات مؤقتة تبقى بعد الطفولة وتؤلف خاصة من خصائص المراهقة. وبوسعنا أن نقول عن التوحّد إنه يمثّل سيرورة لتعديل مخطط الذات، المبنيّ على

إدراك، حالي أو ماض، لموضوع، وإن مثل هذا التعديل يمكنه أن يكون مؤقتًا أو دائمًا، جزئيًّا أو كليًّا، يُغني الأنا أو يفقرها، وفق ما يتوحّد به الفرد، ووفق مدة الحاجة إلى مثل هذا التوحّد.

وفي حين أن الطفل، في التوحّد الأولي، يدمج- أو يخلط - المخطّطات الأولية للذات مع مخططات شخص آخر، بحيث يلغي التمييز بين الذات واللاذات، يتعدّل مخطط الذات، في التوحّد الثانوي، حتى يصبح **مثل** مخطط الموضوع، وجزءٌ من التوظيف الليبيدي للموضوع ينزاح نحو الذات. وينمو التوحّد الثانوي الأكثر بدئية، الاكتساب الأكثر تأخراً من الناحية الزمنية بالنسبة للطفل، أقول ينمو انطلاقًا من آلية أكثر بدئية، دائمة، تحت الرقابة، في كَنَف الأنا بوصفه مكوّنة من مكوّنات القدرة على المشاركة الوجدانية. أما التوحّد الأوّلي، فإنه يظهر أيضًا ظهوراً جديداً بوصفه سمة من سمات العمل الوظائفي للأنا لدى الفصاميين الذين تُلغى القدرة لديهم على تمييز الذات من اللاذات. وبوسعنا أن نقول إن التوحّد الثانوي يمثّل محاولة تهدف إلى خلق وهم التوحّد الأوّلي. ويختلف التوحّد الثانوني قليلاً عن المحاكاة لدى الطفل الصغير، علمًا بأن القصد الشعوري أكثر بروزاً في المحاكاة. وليس ثمة ضرورة، في نهايات هذا العمل الحالي، أن نقيم تمييزاً أساسيًا بين هاتين السيرورتين.

والتوحّد يمنح الانطباع بأن يكون الفرد كالموضوع المنظور إليه بإعجاب والمضفى عليه الصفة المثالية، ولا يكوّن إلا واحداً معه؛ إنه، كما يؤكد فرويد، يمكنه أن يوجد بالتوازي مع العلاقات بالموضوع. وإذا تذكّرنا سرور الطفل الصغير جداً حين يقلّد ـ شعوريًّا أو لاشعوريًّا ـ أبًا أو محبوبًا، فإننا يمكننا أن نؤكد أن التوحّد يمثّل تقنية ذات أهمية، تتيح للطفل أن يشعر أنه محبوب وأن يبلغ حالة من الهناء الداخلي. وبوسعنا أن نقول إن الاعتبار الممنوح للموضوع ذي القوة الكلية وموضع الإعجاب يتضاعف عشر مرات في الذات ويتيح المجال لعاطفة حب الذات. ولدى الطفل انطباع أنه لا يكوّن إلا واحداً مع الموضوع وأنه قريب جداً منه؛ ولهذا السبب يجد الشعور بالسعادة مؤقتًا من جديد، تلك السعادة التي أحسّ بها خلال أولى الأيام الأولى من حياته. والتصرف التوحّدي يقوّيه الحب أيضًا والإشباع والمديح،

الصادر عن الموضوع الواقعي؛ ومن المدهش تماماً أن يلاحظ المرء إلى أي حدّ تتقدّم تربية الطفل بفضل المكافأة التي لا تصدر فحسب عن الشعور بأنه ذو قوة كلية كالوالد الذي يضفي عليه الصفة المثالية، بل التي تصدر عن علامات إيجابية جداً، علامات الحب والرضى، التي يغدقها على الطفل أبواه ومربّوه. ومنابع «الشعور بأنه محبوب» وحب الذات هي الوجوه الواقعية لمحيط الطفل؛ وتصرفه التوحّدي، في السنين الأولى من حياته، مخصّص لزيادة شعوره بالهناء الداخلي بواسطة هذه الوجوه الواقعية.

١٧ ـ كسب مزدوج تحققه الطاعة والتوحد

التوحّدات يمكنها أن تُستخدم وسيلة دفاع، لا سيّما عندما يتعثّر الطفل بمشكل يقوده إلى حلّ نزاع بين الحاجة إلى أن يحبّه الموضوع وعداوته لهذا الموضوع.

ففي الحالة المعروفة جيداً، حالة «التوحّد بالمعتدي»، يساق الطفل إلى أن يصارع الخوف الذي يوحي به له شخص مرعب إذ يقلّده صفات القوة الكلية والقدرة المرعبة. ويمكن أن يُستخدم هذا التوحّد أيضاً ليحاول الطفل أن يحلّ مشكلاً يرتبط بخسارة موضوع حب أو تراجعه. ويترافق على وجه العموم، في هذه الحالة الأخيرة، بضرب من اجتياف الموضوع، وتلك سيرورة سأعالجها فيما بعد، ولكن التوحّد غير شبيه بالاجتياف كما سنعرّفه هنا، والتمييز بين الاثنين أساسي، كما سنلاحظ للتوّ، إذا أردنا أن نفهم تكوّن الأنا العليا.

فتقنيتا إعادة شعور الطفل بأنه محبوب (وزيادة مستوى التوظيف الليبيدي للذات) هما التوحّد والطاعة. ولكن آليتي التوحّد والطاعة لا تعملان بصورة منعزلة إحداهما عن الأخرى. وينال الطفل، في فاعليات عديدة، ربحاً مزدوجاً إذ يتصرّف على نحو يتوحّد بالأبوين وهو يطيعهما في الوقت نفسه. وهكذا يربح الطفل الصغير، وهو يغسل يديه بعناية كبيرة بعد أن وسّخهما وهو يلعب، في المشهدين، «إذ يفعل ماتريده ماما» و «إذ يكون مثل ماما».

١٨ ـ مخطّط (٤) للأنا العليا قبل التمتّع بالاستقلال الذاتي

ينمو في أنا الطفل، خلال السنوات قبل الأوديبية، تنظيم يعكس من جهة صفات الأبوين، التي أُضفيت عليها الصفة المثالية وهي مرغوبة، ويدفع الطفل إلى أن يتبنّى سلوكًا معيّنًا في علاقاته بالموضوع من جهة ثانية (إنه سلوك يتيح للطفل أن يكتسب الشعور بأنه محبوب)، وذلك أمر يتضمّن الاستحسان والإجازة كما يتضمّن المنع والتضيق أيضًا. وليس المقصود بعدُ بنية بالمعنى الذي يطلقه فرويد على هذا المصطلح في «الأنا والهو»، وذلك أن اجتياف السلطة الأبوية الذي يعزو إليها وضع الأنا العليا المستقلة لم يحصل بعد. إنه مخطط أنا عليا قبل التمتع بالاستقلال الذاتي. إنه ضرب من الأنا العليا التحتية التي لا تعمل إلا تحت رقابة الأبوين وتؤلف جزءاً متمايزاً من «الواقع» الخاص بالطفل، الذي تؤثر فيه الدوافع الغريزية والاستيهامات ـ شأنه شأن كلية عالمه الداخلي. وما يزال الطفل لم يكتسب القدرة على العمل مستقلاً، إذا صحّ القول، ولن يفعل ذلك قبل تدخل الاجتيافات الحاسمة التي ترافق حلّ النزاع الأوديبي. وما يمكنه أن يبدو أنه يؤلف نزاعًا بين الأنا والأنا العليا في المراحل قبل الأوديبية مبنيّ على تقديرات الطفل ـ الخاطئة على الغالب - لارتكاسات الأبوين.

١٩ ـ هل الأنا العليا متكوّنة بوصفها «راسبًا في كَنَف الأنا»؟

نحن نعلم أن الرؤية التي توجد لدى الطفل لأبويه ليست موضوعية إلا في حدود ضعيفة. وستكون مخططاته الأبوية متأثرة بخيالات مخيّلته الخاصة ـ ولا سيّما بإسقاط عيوبه الخاصة على الأبوين. فالطفل يمكنه أن يكون عاجزاً عن أن يتحمّل الجوانب العدوانية والسادية للذات، ذاته الخاصة، وأن يحوّل هذه السمات لجزء من عالمه الداخلي إلى جزء آخر منه ـ من نمطه لذاته الخاصة إلى نمطه لأبويه. وبهذا المعنى يكون الإسقاط عكس التوحّد.

(٤) - استخدام مصطلح «مخطط» أو «نمط» في هذا السياق لايحيل إلى تصوّر سكوني. «فالأنماط هي، بمعنى من المعاني، أنماط عمل وتتضمّن كل تعاقبات سلوك الموضوع التي يتوقّعها الطفل على قاعدة تجاربه الماضية.

وإشارة الاستغاثة من قصاص وشيك الوقوع أو من فقدان الحب، الصادرة عن مخطط الأنا العليا قبل التمتع بالاستقلال الذاتي، ما تزال لا تستحق اسم الإثمية، مع أن الحالة الوجدانية التي تولّدها في الأنا يمكنها أن تكون مماثلة للحالة الوجدانية التي نسميّها باسم الإثمية في مرحلة لاحقة من نموّ الطفل.

ونحن نربط مجدّداً نموّ الأنا العليا ـ بالمعنى الحقيقي للمصطلح ـ بانحسار العقدة الأوديبية. وكان فرويد يرى أن هذا النموّ غير ناتج عن النزاع الأوديبي فحسب، ولكنه الوسيلة نفسها أيضًا، التي تتيح للطفل حلّ هذا النزاع. وتتكوّن الأنا العليا ـ في رأي فرويد ـ بوصفها راسبًا في كَنَف الأنا وتكوينها مرتبط بتقليص جزئي ونسبي للاهتمام والتبعية اللذين يُظهرهما للأبوين الواقعيين. ولم يعد المصدر الرئيس لحب الذات يكمن في الأبوين الواقعيين بل في الأنا العليا. و **الاجتياف** للأبوين قد حدث وكانت بنية غير موجودة من قبل على هذه الصورة قد تكوّنت.

ويصبح من الضروري، في هذه المرحلة، أن نذكر المعنى الذي أُطلق على مصطلح «اجتياف» في هذا السياق، ذلك أن الوظائف التي نسمّيها أنا عليا ألم تكن، بعد كل شيء، موجودة آنفا في ذهن الطفل على صورة مخطّطات أبوية؟ فما يميّز المجتاف من المخطط الداخلي إنما هو، على وجه الدقة، قدرته على أن ينوب مناب مجموع الموضوع الواقعي أو جزء منه، بوصفه مصدر إشباع نرجسي. وذلك أمر يستلزم أن المجتاف ينبغي له، على نحو من الأنحاء، أن ينمو خارج المخطط، ويتبلور ويتبنين داخل الأنا، بغية إشباعه، وأن تستشعره الأنا بديلاً للموضوع كافيًا. فبناء مجتاف هو على هذا النحو عاقبة ضرب من الانحلال، الكامل أو الجزئي، للعلاقة بالموضوع الواقعي.

٢٠ ـ امتثال مشوّه وشرس للأبوين الواقعيين

مخطط الأنا العليا التي تبلغ الاستقلال الذاتي ـ وتتبنين بالمعنى الذي وصفه فرويد في «الأنا والهو» ـ وذلك ما كان محسوسًا من قبلُ أنه خشية من استهجان الأبوين، يصبح إثمية، على الرغم من أن التجربة الوجدانية تكون على وجه

الاحتمال هي نفسها في الحالين؛ ويؤلف انخفاض حب الذات مكوّنة أساسية من مكوّنات هذه الحالة الوجدانية. إن هذا ما يميّز الإثمية من الحصر ويربطها مجدّداً بعاطفة من الدونية والقصور، وبالحالات الوجدانية المحسوسة في الحالات المرضية الاكتئابية أيضاً.

وتستشعر الأنا أيضاً حالة وجدانية **عكسية** ذات أهمية مكافئة عندما تعمل الأنا والأنا العليا عملهما الوظائفي معاً على نحو متناغم: أي عندما يكون شعور الطفل أنه غير محبوب قد رمّمه استحسان الأنا العليا. وقد يكون أكثر صحة أن نتكلّم على حالة من الرفاه الذهني والهناء. والمقصود هو العوض عن حالة وجدانية يستشعرها الطفل عندما يُظهر أبواه رضاهما واستحسانهما أمام إنجازاته، وعندما تُستعاد الحالة المبكّرة التي يكون فيها الطفل لا يشكّل سوى واحد مع أمه، استعادة مؤقتة. فثمة روابط بين هذه الحالة والخلفية الوجدانية من الثقة بالذات والضمان، كذلك مع الحالة المرضية من أزمة الهوس.

وبيّن فرويد كيف أن تكوّن الأنا العليا والتوحّد مقترنان كلاهما بنزع الصفة الجنسية عن الأهداف الليبيدية للطفل وبفكّ الاشتباك الغريزي. وهذا الفك للاشتباك يتيح للطفل أن يصون عواطف الحنان لديه نحو أبويه وأن يقنّي حاجاته المدمّرة في مخطط ـ متبَنّين الآن ـ من صفات الأبوين وسلوكهما ـ أي في أناه العليا. إنه الإجراء الذي لا يمكن أن تعبّر فيه غرائزه العدوانية عن نفسها في الأنا، التي تحدّد درجة قسوة أناها العليا ـ وحتى شراستها. وذلك يمكنه أن يصل إلى نقطة حيث الأنا العليا تؤلف امتثالاً للأبوين الواقعيين في الطفولة مشوّهاً إلى حدّ كبير. وهكذا إنما تكون الأنا العليا أيضاً، كما أكد فرويد بصورة متواترة، ممثّلاً للهو، وذات اتصال وثيق ودائم معه.

٢١ ـ عندما ترفض الأنا اقتراحات الأنا العليا

ثمة ميل بارز، في الكتابات التحليلية النفسية، إلى تجنّب الجانب الإيجابي جداً من علاقات الطفل بأناه العليا، علاقة مبنيّة على واقع مفاده أن الأنا العليا يمكنها أن تؤلّف أيضاً مصدراً رائعاً للحب والهناء، إنها تعمل عملها الوظائفي

لتستحسن وتدين على السواء؛ وإهمال المحلّلين النفسين النسبي جانب الأنا العليا الذي يستحسن ربما يكون ناجمًا عن أنهم كلهم معنيّون أول الأمر ـ بوصفهم معالجين نفسيين أكثر مما هم مربّون ـ بالنزاعات وضروب عدم الانسجام الداخلية.

والتوحّد تقنية تتيح تعديل الذات بغية أن تتوافق قليلاً أو كثيراً مع الموضوع كما تدركه الأنا. والنموذج، بالنسبة للأنا، يمكنه أن يكون شخصًا واقعيًا أو شيئًا مجتافًا. ويمكن أن تستخدم الأنا، في هذه الحالة من الأمور، قدرتها على التوحّد حتى تحصل على كسب ليبيدي، إذ لا تشكل سوى واحد مع شخص آخر تضفي عليه الصفة المثالية أو تخشاه (أو الحالتين معًا)، أو أنها تشعر أنه مختلط بالموضوع المجتاف الذي يضمّ امتثالاً للتصرف، والمظهر والاتجاهات الأبوية. وبوسعنا على هذا النحو أن نستبدل، في الأنا العليا، بمفهوم **التوحّد بالموضوع المجتاف**، مفهوم التوحّد. وذلك أمر يعدّل **محتوى** الذات دون أن يفضي لهذا السبب إلى تكوين بنية نفسية. وعندما تعمل الأنا والأنا العليا معًا بصورة منسجمة، فإن هذا الانسجام ربما يبلغه مثل هذا التوحّد من جانب الأنا، وربما تبلغه الطاعة المباشرة أو الخضوع إلى أوامر الأنا العليا ومقتضياتها.

وكون التبعية للأنا العليا تدوم طويلاً جدًّا وتكون سبب تغيّرات، دائمة قليلاً أو كثيراً، في هذه الأنا العليا، يبيّن إلى أي حدّ تكون تبعية الطفل لأبويه الواقعيين مصدر أرباح نرجسية في أولى السنين الأولى من حياته. ولكن الأنا لا تقدّم دعمها للأنا العليا إلا بمقدار ما تظلّ هذه الأنا العليا تعمل عملها الوظائفي، بدورها، بوصفه يدعم الأنا؛ وثمة أوضاع يمكن أن ترفض فيها الأنا ـ وهي ستفعل ذلك ـ نماذج الأنا العليا وأوامرها عندما يمكنها أن تنال في مكان آخر دعمًا نرجسيًا كافيًا. ونحن نشهد هذه الظاهرة المؤثرة خلال التغيّرات، التي تثير الاهتمام، في المثال، والطبع، والأخلاق، تغيّرات يمكنها أن تنجم عن ارتداء البزّة النظامية وعن الشعور بالتماثل مع جماعة. وإذا كان الحصول على دعم نرجسي كاف، بواسطة توحّد بمثل جماعة أو زعيم، ممكنًا، فإن الأنا العليا يمكن أن تجد نفسها عندئذ محتقرة كليًّا، وتستعيد مثل الجماعة، وتعاليمها، وسلوكها، وظائفها. وإذا أتاحت مثل

الجماعة مجالاً لإشباع الرغبات الغريزية المباشر، فإن تحوّلاً كليًا في الطبع يمكنه أن يتدخّل؛ ومقياس هذا التخلّي عن الأنا العليا توضّحه بالمثال تلك الفظاعات المروّعة التي ارتكبها النازيون قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها. ونشهد أيضًا تغيّرات أخلاقية عندما يكون شخص محبوبًا جدًا من آخر؛ وتصبح الأنا العليا عندئذ أقلّ اتسامًا بأنها ضرورية، بوصفها مصدر حب وهناء.

٢٢ ـ حلول تتيح الإفلات من الأنا العليا... أو التفاهم معها

تقدّم الحياة العادية أمثلة عديدة للنحو الذي يمكن عليه أن تحلّ الأخلاقية ومثل الجماعة محل أخلاق شخصية، بما في ذلك الهداية الدينية، وتكوين العصابات، وعبادة الأبطال في المراهقة. ودور دعم المحلّل ـ الذي يمكنه أن يُقلِّد السلطة الأبوية ـ يمكنه، في العلاج النفسي والتحليل، أن يتيح تقليصًا في تبعية الأنا للأنا العليا، كافيًا حتى ينفذ الوعي إلى تلك المادة الممنوحة والمكبوتة وحتى يكون امتصاص النزاع الداخلي أمرًا ممكنًا.

وتطرأ ظاهرات مشابهة عندما يمكن أن نحصل على الشعور بالهناء في الذات بواسطة المخدّر؛ والإدمان على الكحول يمكنه عندئذ أن يحلّ محل ما يمكننا تسميته باسم «هوس الأنا العليا العادي». والواقع أن مزّاحًا استطاع أن يعرّف الأنا العليا بوصفها هذا الجزء من الجهاز النفسي الذي ينحلّ في الكحول.

وأكّدت آنّا فرويد أن تأسيس الأنا العليا لا يُقصي إقصاءً تامًا تبعية الطفل لأبويه الواقعيين والوجوه الأبوية بوصفهم مصدر الحب، وعندما نتكلم على استقلال الطفل خلال مرحلة الكمون، يكون المقصود استقلالاً نسبيًّا تمامًا. وهذه التبعية للآخرين، بوصفهم مصدر حب الذات، تدوم، إلى حدّ من الحدود، طوال الحياة ونحن نعلم جميعنا كيف أن دعم صديق ومواساته يمكنها تلطيف شعور بعسر داخلي.

والأنا يمكنها أيضًا أن تُشرك الآخرين في علاقاتها مع أناها العليا، ومثال ذلك إذا كانت بحاجة إلى أن ترغمهم على دعم أناها العليا وهي تحثّ على

الاستحسان والعفو أو القصاص. ونحن نشهد، فيما نسمّيه إسقاط الأنا العليا (أو إضفاء الصفة الخارجية عليها)، ضرباً من محاولة تقوم بها الأنا، تهدف إلى أن تعيد موضوعات الأنا العليا إلى العالم الخارجي. والمقصود، بمعنى من المعاني، محاولة نكوص بالنظر إلى أن هذه الآلية يشجعها الوضع التحليلي حيث تبدو على صورة تحويل للأنا العليا. ويظهر أيضاً إدخال الآخرين في نزاع الأنا العليا، في المازوخية المعنوية (كون الأنا تتبنّى اتجاهاً مازوخياً إزاء الأنا العليا يحيل إلى رباط بالأبوين سابق).

٢٣ ـ من السعادة المفقودة إلى الفردوس المكتشف

مصدر الأفكار القاعدية التي عبّرنا عنها هنا مقال فرويد المعنون «إدخال النرجسية». ودور النرجسية في النموّ وفي وظيفة الأنا العليا هو الذي يقتضي، على وجه الدقة، أن نسترعي الانتباه إليه. فتوظيف الذات النرجسي مهدّد منذ الولادة، جرّاء تشابك الحياة الغريزية لدى الطفل ـ بجوانبها الليبيدية والعدوانية ـ وجرّاء مقتضيات العالم الواقعي وإحباطاته. وتعمل منذ البداية تلك العوامل التي ستكون، في نهاية المطاف، محدّدة بالنسبة للأنا العليا؛ وما نسمّيه بشائر الأنا ستكون، مع ذلك، جزءاً مكمّلاً من نموّ الأنا نفسها؛ ولا تولد الأنا العليا، بوصفها بنية، إلا حينما تنحلّ العقدة الأوديبية. ويبدو وجودها، على الرغم من أنها تكون على الغالب عامل ألم وتدمير، أنه مرتبط بمحاولات الطفل الهادفة إلى جعل الفردوس المفقود فردوساً مكتشفاً.

جوزيف ساندلر

ترجمة المقال عن الإنغليزية

جانين شاسّغة سميرجل

وس. م. أبليرا

BIBLIOGRAPHIE

ABRAHAM K., « Examen de l'étape prégénitale la plus précoce du développement de la libido », *in Développement de la libido*. Œuvres complètes, t. 2, Payot, Paris, 1966.

BARRY M. J. Jr., « The Incest Barrier » *in* The Psychoanalytic Quarterly, vol. 27, 1958. Extraits *in* evue française de Psychanalyse, vol. 23, 1959.

BENASSY M., « Théorie de l'instinct », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 17, n° 1-2, 1953 ; « Fantasme et réalité dans le transfert », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 23, n° 5, p. 1-78, 1959 ; « Les théories du Moi en psychanalyse », *in* Bulletin de Psychologie (Paris), vol. 16, 1963.

ARLOW J. et BRENNER C., *Psychoanalytic Concepts and the Structural Theory*. International University Press, New York, 1964.

ARLOW J., « Conflit, régression et formation des symptômes », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 27, n° 1, 1963.

BERES D., « Viscissitudes of Superego Functions and Superego Precursors in Childhood », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 13, 1958 ; « Current Status of the Theory of the Superego ». J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 13, n° 1, 1965.

BERGLER Ed., « Das Rätsel der Bewusstheit des "Œdipus-Komplexes" » (Congrès international de psychanalyse, Marienbad, *Almanach*, 1936). *La névrose de base*, Payot, Paris, 1963. *The Superego : Unconscious Conscience*. Grune and Stratton, New York, 1952.

BOFILL P. et FOLCH-MATEU P., « Problèmes cliniques et techniques du contre-transfert », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 27, numéro spécial, 1963.

BOUVET M., « Le Moi dans la névrose obsessionnelle », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 17, n° 1-2, 1953.

CAIN A., « The presuperego "turning-inward" of agression », The Psychoanalytic Quarterly, vol. 30, 1961.

CHASSEGUET-SMIRGEL J., *La culpabilité féminine. Recherches psychanalytiques nouvelles sur la sexualité féminine*. Payot, Paris, 1964. *L'Idéal du Moi. Essai psychanalytique sur la « maladie d'idéalité »*. Tchou, Paris, 1975. Colloque de la Société Psychanalytique de Paris (Artigny, 7-8 mars 1964), « le Narcissisme », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 29, n° 5-6, 1965.

BERGE A., « Le Surmoi, son origine, sa nature et sa relation avec la conscience morale », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 31, 1967.

DESSOIR Max, *Das Ich, der Traum, der Tod*. Stuttgart, Enhe, 1947.

DIATKINE R., « Agressivité et fantasme d'agression » (25ᵉ Congrès des Psychanalystes de langues romanes, Milan, 1964), *in* Revue française de Psychanalyse, t. 30, 1966.

DRACOULIDÈS Nicholas N. « Schéma psychanalytique de l'appareil psychique et de ses processus », *in* Évolution psychiatrique, vol. 1, 1951. « La fixation surmoïque et le Moi névrotique », *in* Acta Psychotherapeutica, Psychosomatica et Orthopaedagogica, vol. 1, 1953-54. « La préoccupation psychanalytique pour l'adaptation du Moi à la réalité extérieure », *in* Journal du Congrès mondial de Psychiatrie, sept. 1950, n° 7.

DUGAUTIEZ M., « De la fonction du Surmoi », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 12, n° 4, 1948.

EICKE Dieter, « Das Gewissen und das Uber-Ich », *in* Wege zum Menschen, vol. 16, 1964.

EISSLER Kurt Robert, « On the metapsychology of the preconscious : a tentative contribution to psychoanalytic morphology. » « The psychoanalytic study of the Child ». Int. Univ. Press, vol. 17, New York, 1962. « The effect of the structure of the Ego on psychoanalytic technique ». J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 1, 1953.

FEDERN P., « Narzissismus im Ichgefüge », *in* Int. Z. für Psychoanalyse, vol. 13, 1927. « Zur Unterscheidung des Gesunden und Krankhaften Narzissismus », *in* Imago, vol. 22, 1936. « Das Erwachendes Ich im Traume ». Int. Z. für Psychoanalyse, vol. 20, 1934.

FENICHEL Otto, « The Ego and the Affects ». The Psychoanalytical Review, vol. 28, 1941. « Spezialformen des Œdipuskomplexes », Int. Z. für Psychoanalyse, vol. 18, 1931. « The Means of Education », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 1, 1945. *Théorie psychanalytique des névroses* (trad. M. SCHLUMBERGER, C. PIDOUX, M. CAHEN et M. FAIN), Presses Universitaires de France, Paris, 1953.

FERENCZI S., *Further Contributions to the Theory and Technique of Psychoanalysis,* Hogarth Press, Londres, 1926.

FISHER Charles, « Dream, images and perception. A study of inconscious-preconscious relationships », *in* J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 2, 1954.

FORNARI Franco, « Sentiments de culpabilité et structuration du Surmoi », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 31, 1967. *Psychanalyse de la guerre,* 25ᵉ Congrès des Psychanalystes de langues romanes, Milan, 1964. Presses Universitaires de France, Paris, 1964. « Surmoi comme élaboration normale du deuil ». *Psicanalisi della guerra,* Milan, 1966.

FREUD Anna, *Le Moi et les mécanismes de défense* (trad. BERMAN). Presses Universitaires de France, Paris, 1949. « Psychaoanalysis and Education », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 9, 1954.

FREUD Sigmund, *Totem et tabou* (trad. JANKÉLÉVITCH), Payot, Paris, 1924. *On Narcissism : an Introduction.* Standard Édition, Hogarth Press, Londres, vol. 14, 1961. *Métapsychologie* (trad. BONAPARTE et BERMANN), Gallimard, N.R.F., Paris, 8ᵉ éd., 1940. « Psychologie collective et analyse du moi », *in Essais de psychanalyse* (trad. JANKÉLÉVITCH). Payot, Paris, 1951. *The Ego and the Id,* Standard Édition, Hogarth Press, Londres, 1961. « Le Moi et le Ça », *in Essais de psychanalyse* (trad. JANKÉLÉVITCH). Payot, Paris, 1951. *Inhibition, symptômes et angoisse* (trad. JURY et FRAENKEL). Presses Universitaires de France, Paris, 1951. *Humour.* Standard Édition, Hogarth Press, vol. 21, Londres, 1961. « Malaise dans la civilisation » (trad. ODIER), *in* Revue française de Psychanalyse, t. 7, n° 4, 1934. *Nouvelles Conférences sur la psychanalyse* (trad. BERMAN), Gallimard, N.R.F., Paris, 10ᵉ éd., 1936. *Abrégé de psychanalyse.* Presses Universitaires de France, Paris, 1951. « Analyse terminée et analyse interminable » (trad. BERMAN), *in* Revue française de Psychanalyse, t. 11, n° 1, 1939. *Moïse et le monothéisme* (trad. BERMANN). Gallimard, N.R.F., Paris, 1955.

FURER M., « Current status of the theory of the Superego », *in* J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 13, n° 1, 1965.

GLOVER Edward, « The concept of dissociation », *in* Int. J. Psychoanalysis, vol. 24, 1943. *Technics or psychoanalysis (1938-1940) (Technique de la psychanalyse).* Presses Universitaires de France, Paris, 1958. « Basic mental concepts, their clinical and theorical value », *in* The Psychoanalytic Quarterly, vol. 16, 1947. « Examination of the Klein System of child psychology », *in* psychoanalytic Study of the Child, vol. 1, 1945. *Functional aspects of the mental apparatus. On the early development of mind.* Int. Univ. Press, New York, 1956.

GLOVER James, « Der begriff des Ichs », *in* Int. Z. für ärztliche Psychoanalyse ; Int. Z. für Psychoanalyse, vol. 12, 1962.

GOODMAN S., « Current status of the theory of the Superego », J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 13, 1965.

GRESSOT Michel, « L'interdit de l'inceste précurseur et noyau du Surmoi œdipien organise la différenciation individuo-sociale en garantissant la dualité des sexes », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 31, 1967.

GRODDECK Georg W., « Wege zum Es », *in* Psychoanalytische Bewegung, vol. 4, 1932. « Die Psychoanalyse und das Es ». Int. Z. für ärtzliche Psychoanalyse, Int. Z. für Psychoanalyse, vol. 11, 1925. *Le livre du Ça*, Gallimard, Paris, 1973. *Ça et Moi*, Gallimard, Paris, 1978.

GRUNBERGER B., « Étude sur la relation objectale anale », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 24, n° 2, 1960. « L'antisémite devant l'Œdipe », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 26, n° 6, 1962. « Considérations sur le clivage entre le narcissisme et la maturation pulsionnelle », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 26, n° 2, 1962. « De l'image phallique », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 28, n° 2, 1964. « Étude sur la dépression », Revue française de Psychanalyse, t. 29, n° 2-3, 1965.

GUEX G., « Les conditions intellectuelles et affectives de l'Œdipe », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 13, n° 2, 1949.

HARTMANN Heinz, « Commentaires sur la théorie psychanalytique du Moi », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 31, 1967. *La psychologie du Moi et le problème de l'adaptation*. P.U.F, Paris ; 1968. *Essays on Ego Psychology and Selected Problems in Psychoanalytic Theory*. Int. Univ. Press, New York, 1964. « Notes sur le principe de réalité », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 31, 1967. « Les influences réciproques du Moi et du Ça dans le développement », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 31, 1967. « Notes on the theory of sublimation », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 10, 1955. « Current status of the theory of the Superego », *in* J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 13, n° 1, 1965.

HARTMANN H. et KRIS E., « The genetic approach in Psychoanalysis », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 1, 1945.

HARTMANN H., KRIS E. et LOEWENSTEIN R., « Comments on the formation of psychic structure », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 2, 1946. « Notes on the theory of aggression », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 3-4, 1949. « Notes sur le Surmoi » (trad. MASSOUBRE), *in* Revue française de Psychanalyse, t. 28, n° 5-6, 1964.

HERMANN Imré, « Zur Triebbesetzung von Ich und Uber-Ich. » Int. Z. für ärztliche Psychoanalyse, Int. Z. für Psychoanalyse, vol. 25, 1940.

HESNARD Angelo Louis Marie, « Évolution de la notion de Surmoi dans la théorie de la psychanalyse », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 15, 1951. « Moi et l'Autre », *in* Psyché ; vol. 9, Paris, 1954. « Critique des notions de SurÇa et de pseudo-morale », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 1, pp. 73-75, 1927 (voir Première conférence des Psychanalystes de langue française).

JACOBSON E., « Depression. The Œdipus conflict in the development of depressive mechanism », *in* Psychoanalytic Quarterly, vol. 12, 1943. « Development of the wish for a child in boys », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 5, 1950. « The self and the object world », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 9, 1954. « Problems of identifications », *in* J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 1, 1953. « On normal and pathological moods », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 12, 1957.

JONES E., « La conception du Surmoi », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 1, n° 2, 1927. « Phallische Phase », *in* Int. Z. für Psychoanalyse, vol. 13, 1932.
JUNG Carl Gustav, *Dialectique du Moi et de l'inconscient,* Gallimard, Paris, 1964.
KAUFMAN I., « Relationship between therapy of children and Superego development », *in* J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 8, 1960.
KESTEMBERG E. et KESTEMBERG J., *Contribution à la psychanalyse génétique.* Presses Universitaires de France, Paris, 1965.
KLEIN Mélanie, « Les premiers stades du conflit œdipien et la formation du Surmoi », *in Psychanalyse des enfants* (trad. J.-P. BOULANGER). Presses Universitaires de France, Paris, 1959. « The Œdipus Complex in the light of Early Anxieties », *in* Int. J. Psychoanalysis, vol. 26, 1945. « Les premiers stades du conflit œdipien et la formation du Surmoi. » « Le rôle des premières situations anxiogènes dans la formation du Moi. » « Le retentissement des premières situations anxiogènes sur le développement sexuel de la fille. » « Le retentissement des premières situations anxiogènes sur le développement sexuel du garçon. » *in La psychanalyse des enfants.* P.U.F., Paris, 1975.
LACAN Jacques, « Some reflection on the Ego ». Conférence à la British Psychoanalytic Society, 2 mai 1951. The Psychoanalytic Quarterly, vol. 23, 1954. 2Le séminaire, livre I « Écrits techniques de Freud », Seuil, Paris, 1975. *Le séminaire, livre II* « Le Moi dans la théorie de Freud et dans la technique de la psychanalyse », Seuil, Paris, 1978.
LAFORGUE R., « A propos du Surmoi », *in* Revue française de psychanalyse, t. 1, 1927.
LAGACHE D., « Le problème du transfert », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 16, n° 1-2, pp. 5-74, 1952. « Fascination de la conscience pour le moi », *in* Psychanalyse, vol. 3, 1957. « La psychanalyse et la structure de la personnalité », *in* Psychanalyse (P.U.F.), vol. 6, 1961.
LAMPL DE GROOT J., « Idéal du Moi et Surmoi », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 27, 1963.
LAUFER M., « Ego Ideal and pseudo Ego Ideal in adolescence », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 19, 1964.
LAUGHLIN Henry P., *The Ego defences,* Appleton Century, New York, 1969.
LEBOVICI S., « La relation objectale chez l'enfant » *in* Psychiatrie de l'enfant. Presses Universitaires de France, vol. 3, n° 1, 1960. « A propos de la lecture de textes freudiens sur le narcissisme », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 29, 1965.
LECHAT F., « Angoisse et résistances : contribution à l'étude phénoménologique du Moi », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 12, 1948. « Importance de l'Idéal du Moi », *in* Bul. Association des Psychanalystes belges, vol. 4, 1949. « Du Surmoi », *Ibidem,* vol. 12. « Autour du principe de plaisir », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 21, 1957.
LICHTENSTEIN H., « Current status of the theory of the Superego », *in* J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 13, n° 1, pp. 172-180, 1965.
LOEWALD H.W., « Internalization, separation, mourning and the Superego », *in* Psychoanalytic Quarterly, vol. 31, 1962. « The Superego and the Ego Ideal, Superego and Time », *in* Int. J. of Psychoanalysis, vol. 43, n° 4-5, 1962. « Le Surmoi et le temps ». Revue française de Psychanalyse, vol. 27, 1963. « Ego and Reality », *in* Int. J. of Psychoanalysis, vol. 32, 1951.
LOEWENSTEIN R., « L'origine du masochisme et la théorie des pulsions », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 13, 1949. « Conflict and autonomous ego development during phallic phase », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 5, 1950.

« Current status of the theory of the Superego », J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 13, n° 1, pp. 172-180, 1965. « On the theory of the Superego : a discussion. *Psychoanalysis. A general psychology. Essays in honor of Heinz Hartmann.* Int. Univ. Press, New York, 1966.

LOWENFELD Henry et Yella, « On permissive society and the Superego. Some current thoughts about Freud's cultural concepts. » *in* Psychoanalytic Quarterly, vol. 39, 1970.

LUQUET P., « Les identifications précoces dans la structuration et la restructuration du Moi », *in* Revue de Psychanalyse, t. 26, 1962. « Introduction à la discussion sur le narcissisme secondaire », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 29, n° 5-6, 1965. « Intervention sur agressivité et fantasmes d'agression » (R. DIATKINE, 1964), *in* Revue française de Psychanalyse, t. 30, numéro spécial, 1966. « Processus analytique et intégration du Moi », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 33, 1969.

LUQUET-PARAT C., *Les deux stades du changement d'objet. Recherches psychanalytiques nouvelles sur la sexualité féminine.* Payot, Paris, 1964.

MENAKER Esther et William, *Ego in evolution,* Grove Press, New York, 1965.

MISES R., « L'intégration du père dans les conflits précoces », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 28, 1964.

MODELL A.H., « On having the right to a life : aspect of the Superego's development », *in* Int. J. of Psychoanalysis, vol. 46, n° 3, 1965.

MOLONEY J.C., « Mother, God and Superego », J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 2, 1954.

NACHT S., *Le masochisme.* 10^e^ Conférence des Psychanalystes de langue française, Paris, 21-22 février 1938, Denoël, Paris, 1938. « Du Moi et de son rôle dans la thérapeutique », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 12, n° 1, 1948. *De la pratique à la théorie Psychanalytique.* Presses Universitaires de France, Paris, 1950. « Les facteurs de guérison dans le traitement psychanalytique ». 23^e^ Congrès Int. Psychanalyse (Edimbourg, 30 juillet-3 août 1961). Revue française de Psychanalyse, t. 27, n^os^ 4-5, 1963. « Du Moi et de son rôle dans la thérapeutique psychanalytique », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 24, 1948. « Les nouvelles théories psychanalytiques sur le Moi et leurs répercussions sur l'orientation méthodologique », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 15, 1951.

NACHT S. et RACAMIER P.C., « Les états dépressifs : étude psychanalytique », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 23, n° 5, 1959.

NASS Martine L., « The Superego and moral development in the theories of Freud and Piaget », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 21, 1966.

NOVEY S., « The role of Superego and Ego ideal in character formation », *in* Int. J. Psychoanalysis, vol. 36, 1955.

ODIER Ch., « Contribution à l'étude du Surmoi et du phénomène moral », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 1, 1927. « Une névrose sans complexe d'Œdipe », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 6, n^os^ 3-4, 1933.

OSTOW Mortimer, « The structural model : Ego, Id and Superego ». *In* Conceptual and Methodological problems in Psychoanalysis, Annuary of New York Academy of Science, vol. 76, 1959.

PACELLA B., « Early Ego development and the "déjà vu"), *in* J. Amer. Psychoanalytic Association, vol. 23, n° 2, 1975.

PASCHE F., « Régression, perversion, névrose », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 26, n^os^ 2-3, 1962. « De la dépression », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 27, n^os^ 2-3, 1963.

PIAGET J., *Le jugement et le raisonnement chez l'enfant.* Librairie Félix Alcan, 1932. *La naissance de l'intelligence chez l'enfant.* Delachaux et Niestlé, Paris, 1936. *La construction du réel chez l'enfant.* Delachaux et Niestlé, 1937. « The Affective unconscious and the cognitive unconscious », *in*

vol. 21, n° 2, 1973.

RACAMIER P.C., « Le Moi, le Soi, la personne et la psychose (Essai sur la personnation) », *in* L'évolution psychiatrique, t. 28, n° 4, Privat-Didier, Paris, 1963.

RADO S., « Das Okonomisches Prinzip in Psychoanalytische Technik », *in* Int. Z. für Psychoanalyse, t. 6, 1925.

RANGELL L., « Nouvel essai pour résoudre le problème de l'angoisse », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 35, 1971. « Choice-conflict and the decision-making function of the Ego, a psychoanalytic contribution to decision theory », *in* Int. J. Psychoanalysis, vol. 50, 1969.

RAPAPORT David, « L'autonomie du Moi », *in* Psyché (Paris), 1954.

REICH Wilhelm, « Der Triebhafte Charachter ; eine psychoanalytische Studie zur Pathologie das Ich », *in* Newe Arbeiten zur ärztlichen Psychoanalyse, 4, Leipzig Internationale Psychoanalytische Verlag, 1925.

RITVO S. et SOLNIT A.J., « Rapport entre le début des identifications du Moi et la formation du Surmoi », *in* Revue française de Psychanalyse, t. 25, 1961.

ROSENFELD Herbert A., « Le Surmoi et l'Idéal du Moi », *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 27, 1963.

SANDLER J., HOLDER A. et MEERS D., « The Ego ideal and the ideal self », *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 18, 1963.

SANDS William L., « Discussion of M. Ostow : "The structural model : Ego, Id and Superego" *in* Annuary of New York Acad. Science, vol. 76, 1959.

SCHAFER R., « The loving and beloved Superego in Freud's structural theory ». *in* Psychoanalytic Study of the Child, vol. 15, 1960.

SCHLESSINGER N. et ROBBINS F.P., « The psychoanalytic process : recurrent patterns of conflict and changes in Ego function », *in* Journal, vol. 23, n° 4, 1975.

SCHUR Max, *The Id and the Regulatory Principles of Mental Functioning.* New York, International University Press, 1966. London, Hogarth Press, 1967. « The Ego and the Id in anxiety », *in* Psychoanalytic Study of the Child, Int. Univ. Press, New York, vol. 13, 1958.

SPIEGEL Leo Angelo, « Superego and the function of anticipation in comments on anticipatory anxiety », *in* Loewenstein R.M. et coll., *Psychoanalysis — A general Psychology. Essays in Honor of Heinz Hartmann, Int. Univ. Press, New York, 1966.*

SPITZ R.A., *Le non et le oui. La genèse de la communication humaine.* Presses Universitaires de France, Paris, 1962.

STEKEL Wilhelm, « Das liebe Ich, Grundriss einer neuen Diätetik der Seele », *in* Salle, Berlin, 1913-1927-1930.

WEIGERT Edith Vournckel, « Idéal du Moi et Surmoi » *in* Revue française de Psychanalyse, vol. 27, 1963.

WHITE Robert W., *Ego and reality in psychoanalytic theory. A proposal regarding independant Ego energies,* Int. Univ. Press, New York, 1963.

الفهرس

الجزء الرابع: الأنا العليا: هل هي وريثة عقدة أوديب؟

الطبعة الأولى / ٢٠٠٢
عدد الطبع ٢٥٠٠ نسخة

مطابع وزارة الثقافة

سعر النسخة داخل القطر ١٦٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ٣٢٠ ل.س